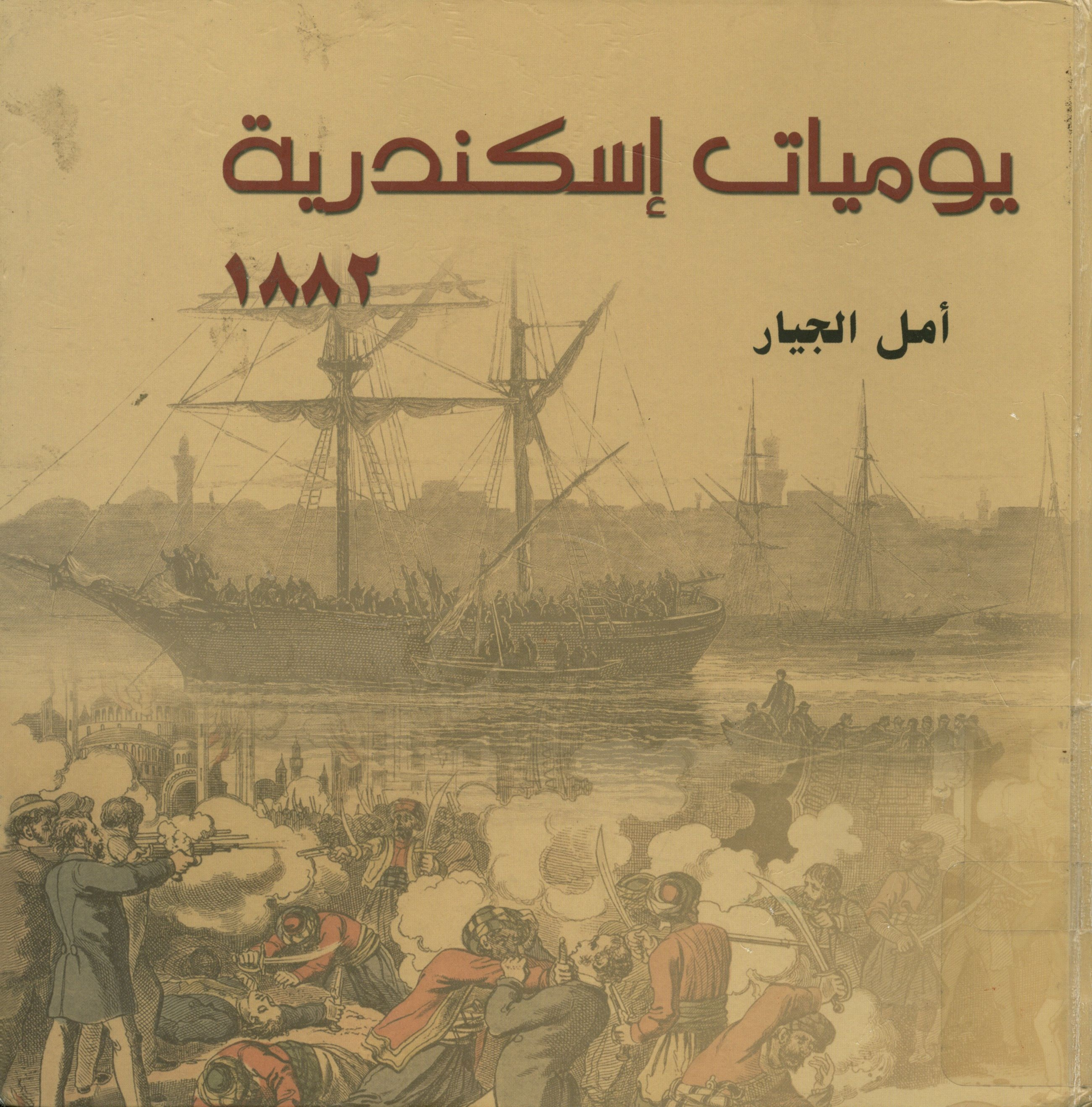
يوميات إسكندرية

١٨٨٢

أمل الجيار



يوميات إسكندرية ١٨٨٢

٢٠١٠

مكتبة الإسكندرية
إدارة المشروعات الخاصة

SPecial Projects
إدارة المشروعات الخاصة

سلسلة ذاكرة مصر المعاصرة (9)

الإشراف العام
إسماعيل سراج الدين
مدير مكتبة الإسكندرية

المشرف التنفيذي
خالد عزب

سكرتارية تحرير السلسلة
سوزان عابد
رشا عباسي

المراجعة اللغوية
عمر حاذق

التصميم والإخراج الفني
چيهان أبوالنجا

يوميات إسكندرية ١٨٨٢

أمل الجيار

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

الجيار، أمل.
يوميات إسكندرية، 1882 / أمل الجيار. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، ح2010.
ص. سم.
تدمك 3-184-452-977-978

1. مذبحة الإسكندرية، 1882. 2. الإسكندرية (مصر) -- تاريخ -- الحصار البحري 1882 م.
3. مصر -- تاريخ -- العصر الحديث -- الاحتلال البريطاني (1882-1956 م.) أ. العنوان.

ديوي-962.104 2010434152

ISBN 978-977-452-184-3
رقم الإيداع 2010/7666

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

مراجعة لغوية: عمر حاذق

التصميم والإخراج الفني: جيهان أبوالنجا


الفهرس

لنقرأ التاريخ

يبدو أن هذا الكتاب سيكون مثار جدل حول منهجيته في تناول الأحداث التاريخية، لكني آليت أن يُطبع ضمن سلسلة إصدارات ذاكرة مصر المعاصرة، ليطرح طريقة جديدة في معالجة القضايا التاريخية الجدلية، وقد حاولت الكاتبة جاهدة العثور على مصادر جديدة، لكي يعايش القراء من خلالها الحدث التاريخي معايشة يومية، في محاولة لكسر جمود الكتابات التاريخية التقليدية بين الأدب والتاريخ؛ وهكذا يصبح كتاب "يوميات إسكندرية 1882" مغامرة قادت مؤلفة الكتاب للسفر للندن والغوص في وثائق هذه الحقبة بكل تفاصيلها.

لن أطيل عليك عزيزي القارئ، ولكني أدعوك للولوج إلى داخل هذا الكتاب، حيث إني ضيف عليه، ولك أن تقيّم هذا العمل، وأنتظر رد فعلك، لعل هذا يكون بداية لمنهج جديد لتقديم التاريخ.

الدكتور خالد عزب

المشرف على ذاكرة مصر المعاصرة

مقدمة لابد منها

استغرق العمل في إعداد هذا الكتاب عدة أشهر من العمل الجاد والمتواصل والبحث والغوص في ملفات ووثائق وأوراق قديمة ترجع لأكثر من 100 عام؛ وبالتحديد إلى عام 1882 وهو العام الذي وقعت فيه غالبية الأحداث التي يتمحور حولها هذا الكتاب بداية من مذبحة الإسكندرية في 11 يونية 1882 وهي التي دارت رحاها بين السكندريين والأجانب، ثم حصار المدينة وضربها بواسطة الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال سيمور وتدمير الطوابي ودفاعات واستحكامات المدينة بعد إخلاء الأجانب منها، وما تلا ذلك من حرق ونهب الدكاكين وتدمير البيوت وحركة التخريب والترويع التي انتشرت بوسط المدينة وخاصة ميدان القناصل (المنشية) وشوارع وسط المدينة مثل شارع شريف وغيره.

والحقيقة أن البحث عن هذه الأوراق القديمة كان بمثابة البحث عن إبرة وسط كوم من القش، فوسط مئات الأوراق الحديثة يمكنك أن تعثر بالصدفة -إذا كنت حسن الحظ- أو بالبحث الدءوب المثابر على ورقة واحدة قد تكون نافعة ومفيدة أو قصاصة من جريدة قديمة اصفرت أوراقها أو جزء من مرسوم أو ورقة من ملف قضية أو ما شابه.

وقد تعددت مصادر هذه الأوراق بداية من باعة الروبابيكيا والأشياء القديمة بكل أنواعها والذين يمكن أن تقع بين أيديهم بالصدفة بعض الأوراق لكنهم لا يعرفون قيمتها ومن ثم يبيعونها على أنها روبابيكيا يجب التخلص منها وفي هذه الحالة يمكنك أن تحصل على صيد ثمين ببضعة جنيهات، وهذه حالة نادرة ولكنها تحدث بين الحين والآخر، ومن حسن الحظ أنه أثناء إعدادي لهذا الكتاب عثر أحد هؤلاء الباعة على كمية كبيرة من المستندات والأوراق القديمة، وبفحصها تبين أنها جزء كبير جدًا من التحقيقات التي أُجريت بعد ضرب الإسكندرية وهجرة المواطنين منها وحدوث عمليات السلب والنهب بها وعددها 7 مجلدات قامت مكتبة الإسكندرية بشرائها؛ مما أتاح لي فرصة الاطلاع عليها والاستفادة بالمعلومات الواردة بها وهو حدث لا يتكرر كثيرًا.

أما المصادر الأخرى فهناك المتخصصون من باعة الوثائق والأوراق القديمة وهؤلاء يعرفون قيمة هذه الأوراق ويصنفونها ويرتبونها ويضعون على كل ورقة تسعيرة تتناسب مع قيمتها، وهؤلاء غالبًا ما يتواجدون في القاهرة بالقرب من منبع هذه الأوراق المتمثل في دار الوثائق أو دار المحفوظات أو أرشيفات ومكتبات الأسر الكبيرة والعريقة وهذه الأوراق يحصلون عليها إما بالطرق الرسمية أي بالبيع والشراء؛ وخاصة أن هذه الأماكن كانت تقوم حتى وقت قريب بإعدام الأوراق القديمة بعد مرور عدد معين من السنوات تحت مسمى انتهاء الصلاحية وكأن التاريخ له صلاحية، فكان باعة الأوراق القديمة يتفقون مع بعض موظفي هذه الأماكن على شراء هذه الأوراق بالجملة بدلاً من حرقها أو إعدامها عملاً بمبدأ النفع المتبادل وهو ما انتبهت إليه هذه الأماكن المنوط إليها حفظ تاريخ مصر مؤخرًا وأوقفت عملية إعدام وبيع هذه الأوراق بل وعملت على تسجيلها وإتاحتها للباحثين والمؤرخين، ورغم كل هذه المحاولات لحفظ هذه الأوراق القديمة إلا أنه تبقى أيضًا الطرق غير المشروعة مثل سرقة وتسريب هذه الوثائق بالتعاون مع بعض الفاسدين الذين يعملون في هذه المصالح الحكومية.

وبعد البحث والتحري أمكن العثور على مصدر آخر لهذه الوثائق وهو مصدر خصب وسخي وجديد من نوعه ألا وهو باعة الأوراق والوثائق خارج مصر وهم ينتشرون في العالم كله، بعضهم هواة والبعض الآخر محترفون، ومن هنا تعلمت أن أول شيء أفعله عندما أسافر إلى أي بلد هو أن أبحث عن تجار الأوراق القديمة والوثائق والكتب؛ وهو ما فعلته خلال الأشهر الأخيرة الماضية حتى أمكنني العثور على الكثير منهم وبالتحديد في فرنسا وإنجلترا وهما البلدان اللذان يتقاطع تاريخهما مع مصر في كثير من النقاط أو السنوات.

ففي باريس أمكنني العثور على الكثير من باعة الجرائد والرسوم القديمة الـ "Gravure" -أي الرسم بالفحم.. وهي الطريقة القديمة لنقل المشاهد قبل اختراع التصوير- في قلب باريس القديمة، وبالتحديد على ضفاف نهر السين حيث يوجد الكثير من هؤلاء الباعة الذين يشبهون الباعة المنتشرين على سور الأزبكية بأكشاكهم الخشبية.. مع الفارق طبعًا.

ولن يصدق أحد أنني عثُرت على الكثير من الرسوم القديمة عن مصر وبالتحديد التي تخص الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت عام 1798 وهي رسوم نادرة عن فترة هامة عاشتها مصر امتدت لأكثر من ثلاث سنوات، وهي تضم مشاهد لإنزال الحملة في مدينة الإسكندرية والمعارك التي دارت بين الأهالي والفرنسيين. وفي خلال البحث عثرت على نسخ من جريدة فرنسية بعنوان "Le petit journal" أو -الجرنال الصغير- صادرة بتاريخ 23 يناير 1892 وعلى غلافها صورة ملونة للخديو توفيق بمناسبة وفاته وأخرى عليها صورة للخديو عباس حلمي الثاني أثناء تسلُمه الوسام الأكبر لجوقة الشرف الفرنسي في 27 فبراير 1892 وثالثة على غلافها صورة لأحد شوارع القاهرة بمناسبة اشتراك مصر في المعرض الدولي المقام بباريس عام 1889 وغيره الكثير والكثير.

وبالإضافة لهذه الأكشاك يوجد العديد من المتاجر المتخصصة في بيع الأوراق والوثائق القديمة في منطقتي "أوديون والأوبرا"، ويكفي أن تدخل إلى أحد هذه المتاجر وتنطق باسم بلدك وعندها سوف يحضر لك البائع رزمة ضخمة من الأوراق يضعها لك على حامل مخصص لهذا الغرض ويتركك لتبحث وبالتأكيد سوف تجد شيئًا نافعًا.

أما في إنجلترا فقد عثرت على كنز حقيقي يتمثل في ملف يضم العشرات من الصور والجرائد القديمة الأصلية التي ترجع إلى عام 1882 وتؤرخ لهذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر والإسكندرية بالتحديد وهي رسوم وكتابات عن ضرب الإسكندرية وتهجير الأجانب والمصريين واستعدادات عرابي وجيشه لمواجهة الإنجليز وذلك من خلال وجهة نظر إنجليزية صرفة، فبينما كانت الأحداث تشتعل في المدينة كان هناك الكثير من صحفيي ورسامي الجرائد الإنجليزية الذين يتابعون الأحداث يومًا بيوم، ويرصدون كل التحركات في الشوارع والطوابي والميادين وبالتحديد جريدتان كانتا تصدران في هذا الوقت هما "THE ILLUSTRATED LONDON NEWS" التي كانت تصدر في إنجلترا بشكل أسبوعي منذ أعوام وتقوم بتأريخ ووصف أهم الأحداث العالمية من خلال مراسليها ورساميها، أما الجريدة الثانية فهي "THE GRAPHIC" وهي أيضًا جريدة أسبوعية مصورة اهتمت كثيرًا بهذه



الخديوي توفيق.

الفترة من عمر الإسكندرية حتى أنها أفردت لها الكثير من الصفحات والملاحق، وكثيرًا ما أرسلت الرسامين المتخصصين لتوصيف الموقف في المدينة المحتقنة ولم تقدم فقط صور الحرب والدمار ولكنها عرضت أيضًا لواقع الحياة اليومية في مصر كلها وما تبع هذه الأحداث من القبض على الجناة والمتسببين في أعمال السلب والنهب، ومن أهم ما نشرته هذه الجريدة على غلافها بتاريخ السبت 30 يونية 1883 صورة حقيقية مرسومة باليد لعملية إعدام سليمان بك داوود في الميدان الكبير بالإسكندرية (ميدان المنشية حاليًّا) بتهمة حرق المدينة.

أما أبرز ما تبارت الجريدتان في تقديمه لقرائهما فهو أخبار وصور القبض على عرابي باشا زعيم الثورة العرابية وإيداعه السجن ومراحل محاكمته انتهاءً بنفيه إلى جزيرة سيلان. أما الكنز الأخطر والمنجم الأخصب فكان الأرشيف الوطني الإنجليزي"National archive" في ضواحي لندن عاصمة الضباب والذي يضم الملايين من الوثائق التي تؤرخ للدور الذي لعبته إنجلترا في العالم كله منذ مئات السنين، ومن بين هذه الوثائق "الملفات المصرية" والتي تضم الكثير والكثير عن مصر وأهمها في اعتقادي ما كنت أبحث عنه وهو ملفات الثورة العرابية وما حدث على أرض الواقع في الإسكندرية من واقع المراسلات والمخاطبات الإنجليزية من- و- إلى القنصلية والتي تحكى قصصًا واقعية وحقيقية وإنسانية مليئة برائحة أحزان البشر الذين عاشوا وماتوا على أرض الإسكندرية منذ أكثر من 127 عامًا.

وقد وقعت في حيرة كبيرة أثناء الإعداد لهذا الكتاب وهذه الحيرة كان السبب فيها هو الصديق الدكتور خالد عزب المستشار الإعلامي لمكتبة الإسكندرية الذي عرض عليّ أن يكون كتابي هذا ضمن سلسلة الكتب التي تصدرها المكتبة من خلال ذاكرة مصر المعاصرة، وهو المشروع الضخم الذي أطلقته المكتبة لجمع وتوثيق تاريخ مصر الحديث بدءًا من محمد علي باشا عام 1805 حتى مقتل الرئيس السادات عام 1981.

وما إن وضعت مقدمتي بين يديه حتى قرأ منها بضعة أسطر ثم نحاها جانبًا وطلب مني أن أتخلى عن الأسلوب الأدبي في الكتابة وأتبع الأسلوب العلمي والأكاديمي، ثم أعطاني محاضرة لطيفة عن

الفارق بين الأسلوبين وأضاف أن الأسلوب الأكاديمي هو الأنسب والأكثر واقعية وملاءمة لهذا النوع من الكتب وهو الأسلوب الذي يتفق مع المكتبة وسلسلة كتبها.

وهنا وقعت في مأزق حقيقي.. فقد كنت قد بدأت الكتابة بالفعل وقطعت شوطًا لا بأس به وقمت بتضفير الحدث وغزله بواسطة الأسلوب الأدبي الذي يُعد كالبصمة لكل كاتب تميزه عن غيره من الكتاب ورواة التاريخ.

وفي النهاية قررت أن أستكمل كتابي وكلي قناعة أنه سوف ينال الإعجاب.. فالتاريخ في رأيي ما هو إلا مجموعة من الحقائق المغزولة والمطعمة بالحكايات والروايات بعضها حقيقي والبعض الآخر حقيقي أيضًا ولكنه يخضع للتحليل والتأويل والتفسير؛ وهذا ما لمسته بنفسي أثناء الإعداد لهذا الكتاب فالحادثة الواحدة لها عدة تفسيرات وتأويلات، وبطل الحادثة قد يكون خائنًا في رواية ووطنيًا صميمًا في نفس الحادثة ولكن برواية أخرى..فعلى سبيل المثال أطلقت جريدة الأهرام لصاحبيها سليم وبشارة تقلا على عرابي وأصحابه لفظ "العصاة" بينما أصرت صحيفة الطائف لصاحبها عبد الله النديم أن عرابي وأصحابه من الجهادية هم وطنيون حتى النخاع ورفعت شعار "الله ينصرك يا عرابي".

وكذا الحال في حادثة أو "مقتلة 11 يونية 1882" كما أُطلق عليها في السجلات الرسمية للحكومة المصرية، فبينما يجزم العرابيون وأتباعهم أن هذه الحادثة كانت من تدبير الإنجليز وأعوانهم أمثال الخديو توفيق ورجاله ومن أهمهم عمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية، يؤكد الجانب الآخر أن هذه الحادثة كانت من تدبير عرابي ورجاله بدليل عدم تحرك السيد بك قنديل مأمور الضبطية وهو صديق عرابي وأحد أهم أتباعه في المدينة لإطفاء الفتنة في بدايتها؛ وهكذا تتوالى الحكايات والتأويلات.

وفي النهاية لا يمكن إلا أن نقول "إن التاريخ له عدة وجوه".

الإسكندرية في 2009

أمل الجيار

حكاية مدينة

الإسكندرية الجميلة.. المدينة المحفورة في قلب مصر.. تحمل في شوارعها وحواريها وأزقتها وحتى على جدران مبانيها ووجوه أهليها.. الكثير من الحكايات والذكريات.. كثير منها حزين.. فَليل منها مُفرح وأغلبها سادة... حكايات بطعم فنجان القهوة أو حتى بطعم شاي العصاري على شاطئ البحر، ويمكنك وأنت تستمتع بفنجان القهوة أو كوب الشاي المضبوط أن تستمع للكثير من الحواديت والحكايات؛ فكل حبة رمل على بحر الإسكندرية يُمكن أن تحكي حكاية عن المدينة الخالدة منذ تخطيطها على يد الإسكندر المقدوني وهو في طريقه إلى سيوة عام 332 ق.م وبعدها بشهور قليلة يُتَوفى المقدوني الشاب في ظروف غريبة.. لتشهد الإسكندرية بعد الانتهاء من تشييدها في خلال عامين أضخم جنازة عرفها العالم القديم لنقل رفات الإسكندر لدفنها في مدينته التي عشقها حتى قبل أن يراها..

وتم تقسيم التركة فكانت مصر من نصيب أمهر قواد الإسكندر "بطلميوس"، والتي أصبحت في عهده عاصمة ثقافية وفكرية للعالم أجمع من 323 ق.م إلى 304 ق.م، وبعد ذلك بسنوات ظهرت على الساحة السكندرية حفيدته الجميلة كليوباترا السابعة ابنة بطلميوس الثاني عشر بحكاياتها وقصص عشاقها.

وجاءت بعد ذلك دولة الرومان الذين حولوا مصر من دولة مستقلة إلى مجرد ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية وقد امتلأ عهدهم بالصراعات والأحداث.. وقد قام الإمبراطور الروماني أغسطس ببناء مدينة جديدة شرق الإسكندرية عُرفت فيما بعد بـ"نيكوبوليس"وهي المعروفة الآن بمنطقة "الرمل"!.

ومع ميلاد الديانة المسيحية الجديدة بدأ عصر جديد من الاضطهاد وتمثل ذلك في قتل القديس مرقص في الإسكندرية عام 62م -وهو الذي أدخل الديانة الجديدة إلى مصر- ومن الصعب التحديد على وجه الدقة أعداد الذين استُشهدوا في سبيل دينهم، وإن كان بعض المؤرخين يؤكدون أن عدد الشهداء وصل إلى 144000 شهيد خلال تسعة أعوام.

وفي عام 21 هـ استولى عمرو بن العاص على الإسكندرية وعقد مع الرومان معاهدة انسحبوا على أثرها من البلاد لينتهي الحكم الروماني لمصر ويبدأ الحكم الإسلامي بعصر الولاة.

وبينما المدينة وأهلها يعيشون في سلام تعرضت الإسكندرية لعدد من الهجمات الصليبية وكان آخر هذه الحملات الغادرة في أكتوبر 1365 م تعرضت المدينة خلالها للكثير من أعمال القتل دون تمييز بين مسلم ومسيحي ونهب وضرب وتخريب للمساجد والمنازل والحمامات وكل منشآت المدينة الوادعة.. إلا أنها (أي الإسكندرية) لم تستسلم للحزن والتخريب فسرعان ما نفضت عن نفسها الأحزان والغبار وعادت الحياة فيها إلى طبيعتها من جديد..

وفي عام 1480 قام السلطان المملوكي قايتباي ببناء حصن للمدينة لحمايتها في نفس موقع فنار الإسكندرية القديم عُرف بـ"قلعة قايتباي" وقد حظيت الإسكندرية في عصر هذا السلطان بعناية كبيرة، فقد هيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في ميناء الإسكندرية فبُنيت الفنادق ووُضعت تحت تصرف التجار، وكانت هذه الفنادق عبارة عن مبان كبيرة مكونة من عدة طوابق وبها فناء داخلي يجري به عمليات فك البضائع وربطها؛ وهكذا تحولت الإسكندرية إلى مدينة مفتوحة ومُلتقى للمسافرين والتجار من كل أنحاء العالم.

حتى دق ناقوس الخطر من جديد واستيقظ أهل المدينة صباح أول يوليو 1798م على وصول الأسطول الفرنسي إلى شواطئ الإسكندرية (العجمي)، ولم يكن عدد سكان المدينة يومها يزيد على ثمانية آلاف نسمة..

ولم يكن بها من الجنود ما يكفي لصد الجيش الفرنسي الكبير المزود بالمعدات الحديثة.. وقام السيد محمد كريم حاكم المدينة بالدفاع عنها بكل ما لديه من ذخيرة وعتاد، وقاد المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين حتى بعد أن اقتحموا أسوار المدينة..

وفي النهاية اعتصم بقلعة قايتباي ومعه فريق من الجنود حتى فرغت ذخيرته فكف عن القتال وتم أسره هو ومن معه، ودخل نابليون المدينة وأعلن بها الأمان، وأعجب نابليون بشجاعة محمد كريم فأطلق

سراحه من الأسر، وتظاهر بإكرامه، وأبقاه حاكمًا للمدينة.. ولما تم لنابليون الاستيلاء على الإسكندرية غادرها إلى القاهرة وعين كليبر حاكمًا عسكريًّا عليها.

وأخذت دعوة محمد كريم إلى المقاومة الشعبية تلقى صداها بين المواطنين فعمت الثورة أرجاء المدينة، فأمر كليبر بالقبض على السيد محمد كريم يوم 20 يوليو 1798م ووجهت إليه تُهم التحريض على المقاومة وخيانة الجمهورية الفرنسية، واستمرت المحاكمة حتى أرسل نابليون رسالة إلى المحقق يأمره فيها أن يعرض على محمد كريم أن يدفع فدية قدرها ثلاثون ألف ريال إلى خزينة الجيش الفرنسي ليفتدي نفسه..

ورفض محمد كريم أن يدفع الفدية، ولما ألح عليه البعض في أن يفدي نفسه بهذه الغرامة رفض وقال: "إذا كان مقدوراً عليّ أن أموت فلن يعصمني من الموت أن أدفع الفدية، وإذا كان مقدوراً عليّ أن أعيش فعلام أدفعها؟".

استيلاء الحملة الفرنسية على الإسكندرية في 2 يوليو 1798.



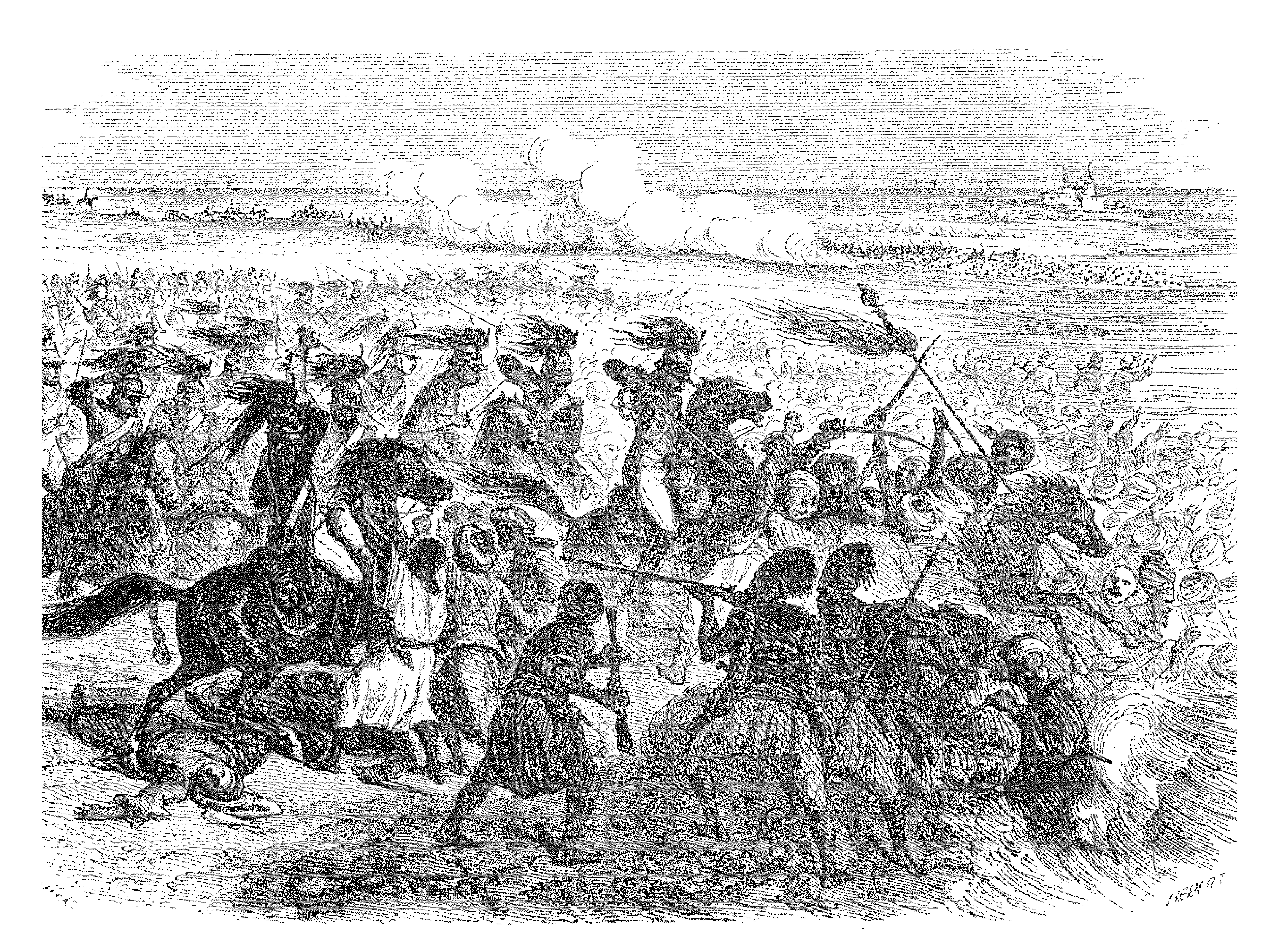
وفي يوم 6 سبتمبر 1798م أصدر نابليون بونابرت أمرًا بإعدام محمد كريم ظهرًا في ميدان القلعة رميًا بالرصاص، وبالفعل تم تنفيذ الحكم في ميدان الرميلة بالقلعة. ويقال إنه عند وصوله إلى القاهرة أركبه الفرنسيون حمارًا يحيط به موكب من العسكر على دقات الطبول ومشوا به حتى ميدان الرميلة حيث أُعدم رميًا بالرصاص ثم قاموا بالتمثيل به عن طريق قطع رأسه وتعليقها على نبوت (عصا غليظة) ونادى مناد قائلاً: "هذا جزاء كل من يخالف الفرنسيين". لتطوى بموت السيد محمد كريم صفحة من صفحات الجهاد الوطني في الإسكندرية.

ولكن قبل أن نقلب هذه الصفحة لابد أن نقول إن الحملة الفرنسية انتهت نهاية غير سعيدة، خاصة في ظل هزيمتهم في معركة أبي قير البحرية أو "معركة النيل" بين الأسطولين الفرنسي والإنجليزي الذي كان تحت قيادة نيلسون، وقد قُدرت الخسائر الفرنسية بـ 1700 قتيل و3000 أسير بينما كانت الخسائر البريطانية 218 قتيلاً فقط.

وبعد رحيل الحملة الفرنسية عن مصر بعدة سنوات أرسلت إنجلترا حملة بحرية بقيادة "فريزر"، استولت على الإسكندرية دون قتال بسبب خيانة حاكمها التركي "أمين أغا" الذي سلم المدينة للإنجليز في 28 مارس 1807.

وفي 19 سبتمبر 1807 تصدى أهالي رشيد بقيادة محافظها علي بك السلانكي للحملة الإنجليزية التي كان قوامها ألف جندي مسلحين بأحدث الأسلحة بينما عدد قوات إقليم رشيد لم يتجاوز الـ 700 جندي بقيادة علي بك السلانكي الذي عزم على مقاومة عساكر الإنجليز رغم ضعف أسلحته واستطاع بالحيلة والدهاء ومعاونة الأهالي أن يهزم هذه الحملة الغادرة.

ورحلت الحملة وبقيت الإسكندرية الجميلة صامدة في وجه الأحداث حتى كان عام 1882 الذي لا يمكن محوه من تاريخ المدينة ومصر كلها.



معركة أبو قير.

قراءة في أحوال المدينة

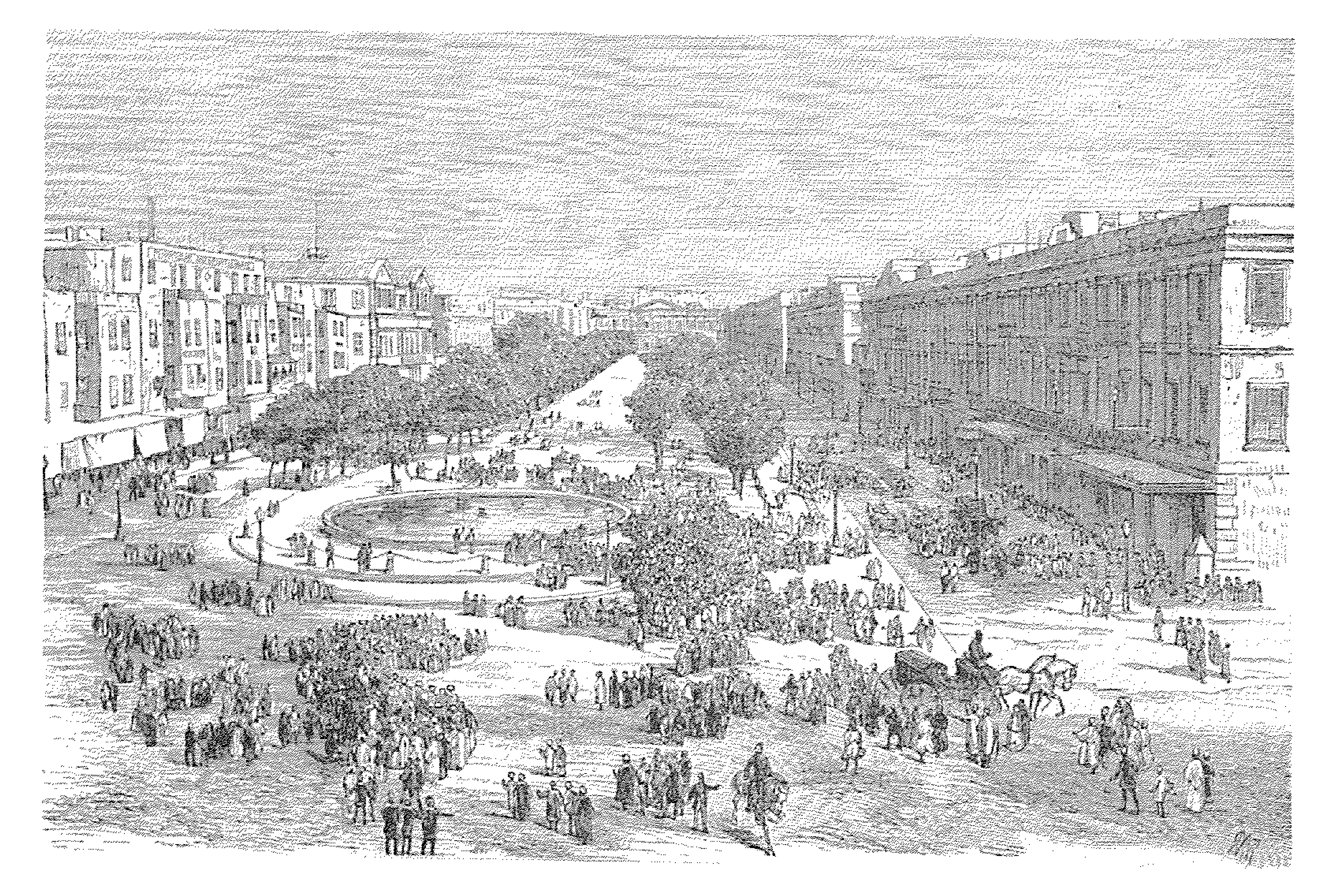
وقبل أن نغوص في بحر المدينة وتلتهمنا أمواجها وأحداثها الخطيرة لابد أن نتوقف لنحكي قليلاً عن أحوال الإسكندرية في ذلك الوقت وبالتحديد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كانت الإسكندرية خلال القرن التاسع عشر مركز التجمع الرئيسي للأوروبيين في مصر الذين زاد عددهم زيادة ملحوظة في البلاد خلال عصر الخديو السابق إسماعيل، ويشير الإحصاء الدقيق الذي نشرته جريدة الوقائع المصرية عام 1873 أن عدد الأوروبيين في القطر المصري كله بلغ أكثر من 79 ألف أجنبي يعيش أكثر من نصفهم أو بالتحديد 60% منهم في الإسكندرية وعددهم أكثر من 47 ألف أجنبي وهو رقم كبير بالنسبة لهذا الزمان، حتى قيل إن كل أمة تحت الشمس قد أرسلت من يمثلها إلى الإسكندرية للدلالة على التنوع الغريب والخليط العجيب من الجنسيات والألسن والاختلاط المثير بين العادات والتقاليد الشرقية والغربية، وبهذا يمكن القول إن الإسكندرية كانت المدينة الأكثر فرنجة بين المدن المصرية. وكان يوجد بالمدينة حي خاص للأوروبيين أشهر ما فيه ميدان القناصل الذي كان يُعد مركز التجمع الرئيسي لهم، حيث أقاموا حول هذا الميدان فنادقهم ومن أمثلتها فندق "آبات" الذي كان مُلتقى الصفوة في المدينة وفندق "أوروبا" بحمامه الشهير الذي كان يجذب الأجانب للتمتع بمياهه الساخنة النظيفة والتدليك الذي كان يقوم به الصبية المتخصصون وكانت الأجرة فيه 2 فرنك، أما مقاهيهم فكانت كثيرة وكانت تتكون من مكانين أحدهما للجلوس واحتساء المشروبات والآخر للعب البلياردو، وكانت هذه المقاهي تحرص على توفير الجرائد الأجنبية لروادها ومن أهم هذه المقاهي "القهوة الفرنساوية" بميدان محمد علي كما ضم الميدان أيضًا مطاعمهم وباراتهم بالإضافة لبعض القنصليات الأوروبية مثل الإنجليزية والفرنسية.

وقد قال الرحالة الفرنسي "دي فوجاني" عن هذا الميدان إنه أصبح مركز التجارة الأوروبية بالمدينة وإنه يوجد به تمثال بديع من البرونز لمحمد علي باشا عام 1873 صنعه المثال الفرنسي "جكمون" حيث

نُصب على قاعدة من الرخام الإيطالي في قلب الميدان النابض بالحياة، وصار الميدان محاطًا بالنصُب التذكارية الجميلة والفنادق الفخمة والمتاجر الغنية التي ارتفع مستوى عرضها الفني بالإضافة إلى النافورات وغير ذلك من الوسائل الترفيهية التي جلبها الأجانب معهم".

وقد اهتمت الحكومة بتطوير الحي الأوروبي فشوارعه عريضة مستقيمة والمنازل على جانبيه مبنية على الطريقة الحديثة، ولا تزيد عن ثلاثة طوابق وبالمنطقة بعض المدارس والمنشآت الأوروبية مثل مدرسة سان فنسان والفرير حتى أن أحد الفرنسيين قال عند مشاهدته لهذا الحي "أشعر وكأنني في فرنسا". أما عن الحياة في المدينة بالنسبة للأوروبيين فقد كانت سهلة وجميلة حتى أن النساء الأوروبيات شعرن بالحرية والسعادة للإقامة فيها خاصة وأن معظم مباني الحي الأوروبي قد أقيمت على الطراز الفرنسي.



صورة لميدان القناصل (المنشية) قبل مذبحة 11 يونية 1882 كما نشرتها جريدة The Graphic في عددها الصادر بتاريخ 24 يونية 1882. وتبين حال المدينة العامرة بسكانها من الأوروبيين والمصريين وتنسيق الميدان على الطراز الأوروبي بشوارعه ونافوراته كما توضح العدد الضخم من الحوانيت والدكاكين التي تعرض أفخر المنتجات وتقع على جانبي الميدان.

وقد تحولت المدينة في خلال سنوات منذ تولي محمد علي باشا حكم مصر في عام 1805 وحتى عام 1882 وهو موضوع كتابنا إلى مدينة أوروبية بمعنى الكلمة لوجود ميناء الإسكندرية بها والذي تقول الإحصاءات أن عدد السفن التي دخلته عام 1876 بلغت 7505 سفن مما يدل على مدى اتساع حركة النقل البحري بين هذا الميناء وسائر الموانى العالمية، بالإضافة إلى ما قام به الخديو المستنير إسماعيل (1863-1879) من بناء قصور مثل (سراي الرمل) وتجديد (سراي رأس التين) التي أنشأها محمد علي وإنشاء حدائق ومتنزهات مثل النزهة وإنشاء سراي الحقانية وشق الشوارع وتخطيط الميادين وغير ذلك من الأعمال العمرانية المتطورة.

وقد كان لوجود الأجانب في الإسكندرية أكبر الأثر في ازدياد الامتداد العمراني للمدينة، ويقال إنه في عام 1855 كان بالإسكندرية 13 قنصلية وعدد كبير من المطاعم والفنادق والمقاهي والكنائس



إعلان محل جواهرجي لصاحبه "إتش. فريمان" لبيع المجوهرات والساعات والنظارات الحديثة.. ومقره: 9 ميدان محمد علي بالإسكندرية.

الإفرنجية والمستشفيات الأجنبية، وكل هذا تركز في قلب المدينة التجاري حيث أقام الأجانب الذين قدموا إلى الإسكندرية منذ عهد محمد علي حول ميدان القناصل (المنشية)، وقد سمح لهم محمد علي باشا والي مصر بتملك الأراضي والمنازل والقيام بكل الأنشطة التجارية فانطلقوا في المدينة وساهموا في تطويرها وأقاموا العشرات من المشروعات الحديثة بها حتى بلغ عدد الشركات الأجنبية بها عام 1837 أكثر من 70 شركة من مختلف الجنسيات (يونانية وفرنسية وإنجليزية ونمساوية وإيطالية) وكان اليونانيون من أكبر الجاليات في المدينة يليهم الإيطاليون ثم الفرنسيون والإنجليز.

وقد أكد معظم الرحالة على أن المدينة لم تكن مصرية أو حتى تركية بل مدينة أوروبية.. أو بالتحديد كرنفال يتكلم فيه الناس مختلف اللغات ويرتدون ملابس متنوعة، ولكن يبدو أنه كان للمدينة وجهان، الأول هو الذي يضم الحي الأوروبي حيث النظافة والأناقة والجمال والثاني هو الذي يسكنه الأهالي حيث يخيم الفقر والبؤس على المكان.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت شوارع المدينة مزدحمة بالمارة وتبدو في غاية الغرابة بالنسبة للسائح القادم من وراء البحار، فهي خليط من مصريين وأوروبيين وبدو وزنوج يعيشون في تناغم بديع وكأنهم أبطال إحدى حكايات ألف ليلة وليلة.

وقد كان قصر محمد علي أو سراي رأس التين أكثر ما جذب انتباه الرحالة فأسهبوا في وصفه الخارجي خاصة وأن الباشا قد أحاطه بسور ضخم ولم يسمح بدخوله إلا بإذن خاص مما أثار فضول الأجانب، وخاصة الرحالة والمغامرين منهم ولكن محمد علي كان أذكى مما تصور البعض فقد خصص ديوانًا في القصر لاستقبال الأوروبيين الذين كانوا يكثرون من زيارته والتودد إليه في حمى قناصلهم، فقد كان أول شيء يفعله أي أوروبي يطأ أرض الإسكندرية هو أن يبحث عن قنصل أي دولة ليمنحه الحماية والرعاية ويعطيه بعض القوة والمساندة إذا لزم الأمر، وقد سمح لهم ذلك بلقاء الباشا وولاة الأمور بالإضافة لدخول القصور والسرايات.. وقد أرضى هذا بعض فضولهم ولكنهم مُنعوا تمامًا من دخول جناح حريم الباشا..



صورة قصر رأس التين أو قصر الخديو كما كان يطلق عليه.

أما عن منازل المدينة فقد روعي في بنائها الحفاظ على الشكل الجمالي وخاصة منازل الأثرياء وكبار القوم والأتراك، وقد كانت تبنى من الطوب الأحمر مع تزيين الواجهات بالمشربيات الخشبية بديعة الصنع ذات الطابع الإسلامي.

وقد شهدت المدينة طفرة عمرانية كبيرة تمثلت في تحويل عدة قرى مثل (الحضرة والرمل والسيوف والمندرة) إلى مناطق عمرانية والسماح للسكان بالانتقال إليها بعد أن كانت مناطق عسكرية محظوراً التواجد فيها إلا للجند والجهادية، وفي الوقت نفسه تم شق مجموعة من الطرق التي ربطت أطراف المدينة مثل شارع إبراهيم الممتد من مدرسة السبع بنات إلى ترعة المحمودية، وشارع الجمرك وشارع المحمودية وقد رُصفت هذه الشوارع ببلاط مخصوص تم استيراده من تريستا، كما تمت توسعتها بما يكفي لمرور العربات بسهولة وغُرست الأشجار على جانبيها.



صورة قصر الباشا بالإسكندرية كما رسمه الرحالة.

كما عرفت المدينة الإنارة والمياه النقية فقد تم في أغسطس 1863 التعاقد مع "لوبون" لإنشاء شركة لإنارة المدينة بغاز الاستصباح، كما مُنح مستر "كوردييه" عام 1865 امتيازاً لمد المياه النقية وإنشاء الشركة الأهلية لمياه الإسكندرية.

وكانت المدينة تضم بين جنباتها كذلك مستشفى جميلاً مجهزًا بالوسائل الطبية الحديثة بالإضافة إلى إقامة حجر صحي بالميناء لمنع تسرب الأوبئة مما كفى البلاد شر الكثير من الأمراض.

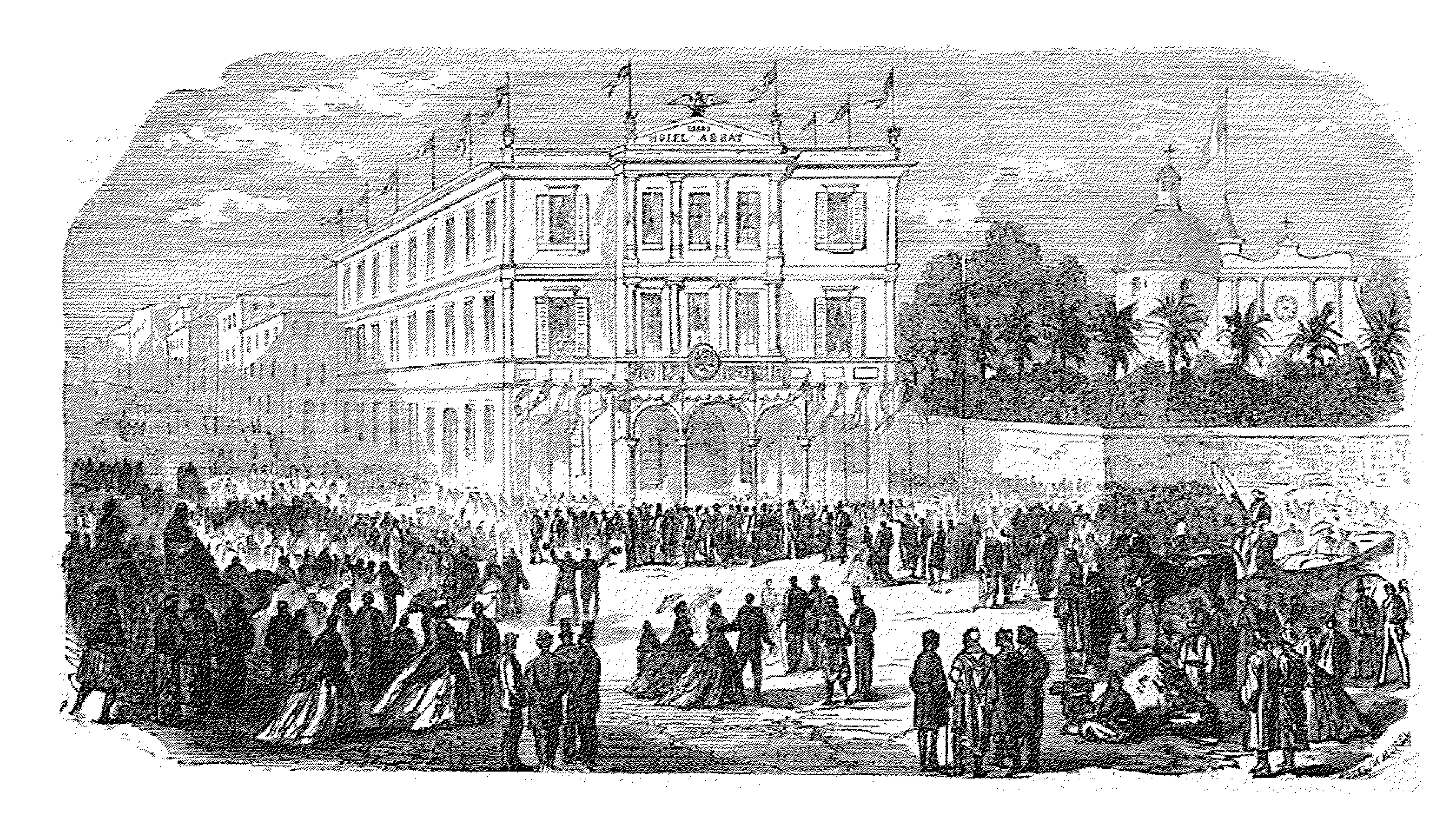
على أن أهم المشروعات التي ساعدت على إضفاء الطابع الحضري على المدينة كان إنشاء الخط الحديدي الذي ربط المدينة بمنطقة الرمل وبالتحديد في أغسطس 1860 حينما منحت الحكومة المصرية التاجر الإنجليزي "المستر فيرمان" امتيازاً لبناء الخط الذي تحول إلى شركة سكة حديد الإسكندرية والرمل، وقد تم افتتاح الخط الذي كان يبدأ من الإسكندرية وحتى محطة "بولكلي" بقطار واحد



صورة لبدايات الترام الذي تجره الخيول ولكن في مدينة بورسعيد.

مكون من عربة واحدة درجة أولى وعربتين درجة ثانية وعربة درجة ثالثة يجرها أربعة خيول في بداية 1863 وبعدها بعدة أشهر تم استبدال الخيول بقطار بخاري كان يقطع المسافة في عشرين دقيقة. وغيره الكثير والكثير من المشروعات والتطورات التي حولت المدينة الوادعة الجميلة إلى مدينة ذات طابع أوروبي وعالمي راق...

ومن المهم في هذا السياق أن نذكر أنه على الرغم من كثرة عدد الأجانب في المدينة واحتكارهم لأغلب ثرواتها إلا أنهم رفضوا في عهد الخديو إسماعيل المساهمة في الضرائب التي فرضتها البلدية التي كانت تقوم بشق الشوارع ورصفها وتنظيفها وإنشاء مصابيح الغاز؛ بالإضافة إلى إقامة الأسواق ورفضوا الاقتراح الذي تقدم به نوبار باشا رئيس النظار بضرورة المساواة في الضرائب حتى يسود العدل بين جميع سكان المدينة، خاصة أن الأهالي كانوا يتحملون من الأعباء فوق طاقتهم بينما كان الأجانب هم المستفيدون.



صورة لفندق أبات الذي كان يُعد مُلتقى الصفوة من الأجانب وكان يقع بالقرب من الكنيسة اليونانية في قلب الحي الإفرنجي بالإسكندرية. والصورة توضح العدد الكبير من الأجانب الذين كانوا يتواجدون في المدينة وينعمون بالراحة والأمان في شوارعها ومبانيها وهي الحالة التي انتهت بحلول شهر يونية 1882.

فما كان من الأجانب إلا أن لجأوا لقناصلهم وكان أكثرهم من الإيطاليين لذا تدخل ملك إيطاليا وعارض فرض الضرائب فتبعته بقية الدول التي لها رعايا بالإسكندرية؛ وبالتالي لم ينفذ هذا الاقتراح..

وحتى عام 1873 لم يكن الأوروبي يدفع رسمًا عن منزله ولكن الحكومة غيرت هذا النظام ولم يستطع أي قنصل الاعتراض بسبب حزم الحكومة بهذا الخصوص، كما تمكن نوبار باشا في نفس العام من إجبارهم على دفع رسوم ذبح على كل رأس من الماشية، وهو ما لاقى مقاومة شديدة ولكنهم استسلموا في النهاية.[1]

ومن الحوادث التي يشار إليها أيضًا في إطار استغلال الأجانب للامتيازات الممنوحة لهم من جانب ولاة مصر أنه قد حدث في 30 يناير 1863 أن كان أحد الفرنسيين يمتطي جواده ويسير به على رصيف الميناء عندما ضرب أحد الجنود الحصان فقلب الفرنسي على الأرض، مما جعله ينقض على الجندي

1- دكتور صالح رمضان -الحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل- ص 298.

ويضربه بالسوط عدة مرات، فتجمع جنود البوليس وهاجموا الفرنسي وربطوا حبلاً حول رقبته وأخذوا يكيلون له اللكمات وسط ضجيج وذهول الناس حتى وصلوا إلى قسم البوليس.

وصحب الفرنسي القنصل وبعض الشهود وذهبوا إلى مسئول الخارجية المصرية الذي وعد بعمل اللازم ولكن القنصل الفرنسي طالب بعزل الجندي المعتدي، ونفيه وهدد أنه إذا لم يتم ذلك في خلال 24 ساعة فسيضطر إلى إنزال الجنود الفرنسيين من على ظهر إحدى السفن الفرنسية الراسية في الميناء لكي يقوموا بحفظ النظام في المدينة.[2]

ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التي أساء فيها الأجانب استغلال الامتيازات فقد حدث أن أحد الرعايا الفرنسيين الذي كان يمتلك جريدة قد أثار غضب الحكومة والخديو بتوجيه النقد اللاذع لأعمالهم، وعلى ذلك أصدر الخديو أوامره للبوليس بمصادرة أعداد الجريدة وتم ذلك بالفعل، ولكن شوهد المحرر بعد ذلك في ميدان عام بالمدينة وفي يده أحد أعداد الجريدة فالتف حوله جنود البوليس وأرادوا أن يأخذوها منه بالقوة، فأخذ في مقاومتهم وأخذ يعدو حتى وصل إلى القنصلية الفرنسية حيث احتمى بحراسها الذين طردوا رجال البوليس بالقوة وأغلقوا أبوابها دونهم.

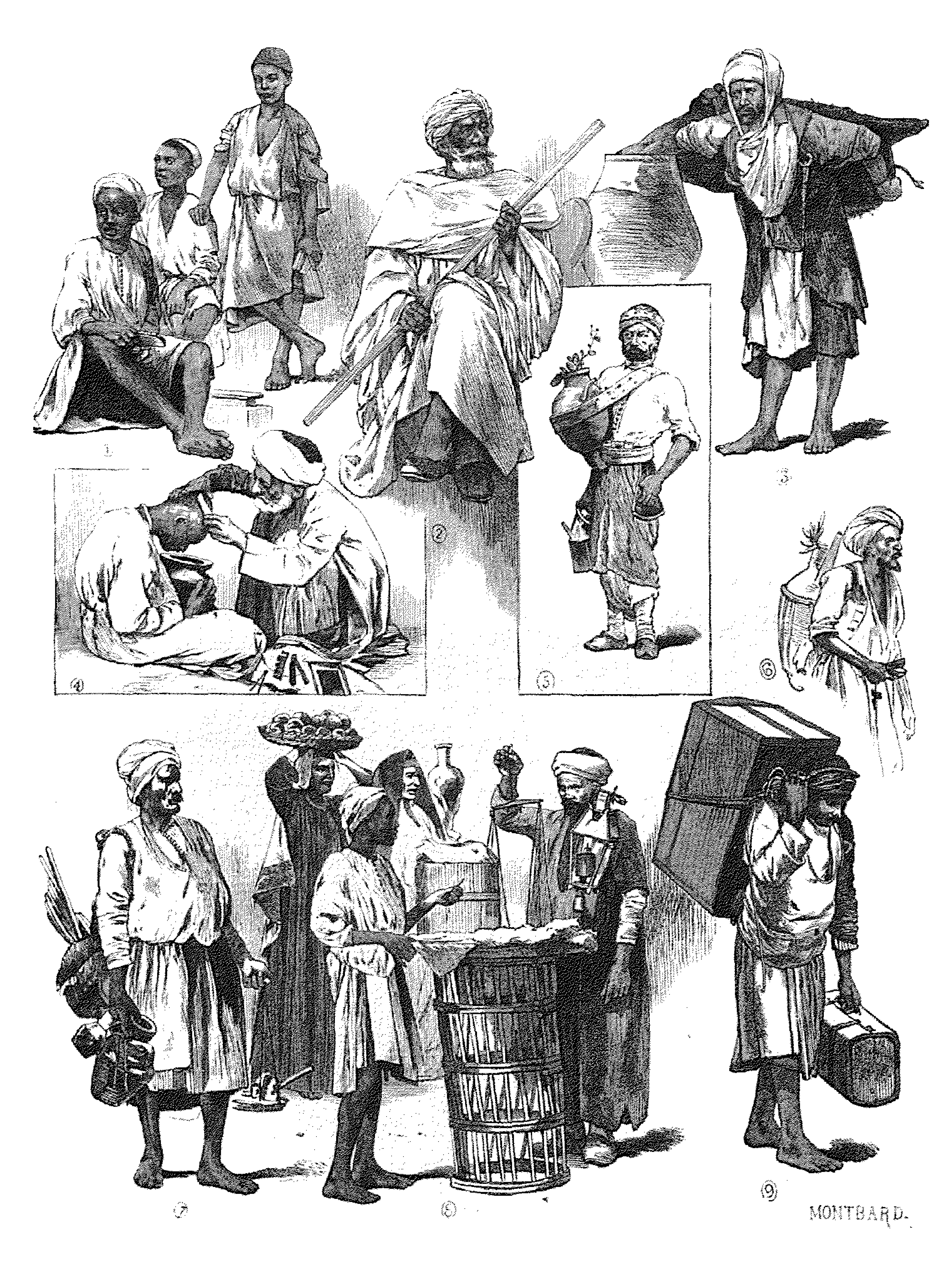
عندئذ طلب القنصل الفرنسي فصل رجال البوليس الذين اعتدوا على المحرر وتقديم اعتذار رسمي ولكن الحكومة المصرية رفضت ذلك الطلب فما كان من القنصل الفرنسي إلا أن أصدر إعلاناً إلى رعاياه يدعوهم فيه إلى مواجهة القوة بالقوة.. كما هدد بقطع العلاقات مع الحكومة المصرية إذا لم تُجب مطالبه.[3]

وقد تكررت هذه الحادثة فيما بعد مع أحد الصحفيين الإيطاليين مما يدل على سوء فهم الأجانب للامتيازات الممنوحة لهم، مما جعلها أداة لتعطيل مصالح الدولة والاعتداء على سياستها مما ألحق بها أضرارًا كبيرة أخذت تزداد يومًا بعد يوم. حتى كان عام 1882.

2- دكتور صالح رمضان -الحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل- ص 302.

3- دكتور صالح رمضان -الحياة الاجتماعية في مصر في عصر إسماعيل- ص 302.

بينما كان الأجانب في الإسكندرية يعيشون في ترف ورفاهية كان المواطنون يعيشون حياة عادية ليس فيها من الفخامة شيء ويمارسون المهن التي كانت منتشرة في ذاك الوقت مثل السقا وبائع العرقسوس والحلاق والحمّال.. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 24 يونية 1882.



مذبحة الإسكندرية وبداية النهاية

يوم 11 يونية 1882 هو يوم مذبحة الإسكندرية.. هو يوم عصيب في تاريخ المدينة الجميلة.. يوم من الصعب نسيانه أو محوه من تاريخها فهو اليوم الذي اندلعت فيه شرارة العداء بين المصريين والأجانب المقيمين في مصر، وكان هذا اليوم هو بداية النهاية للمسرحية التي أعدت فصولها ببراعة إنجلترا لاحتلال مصر.

فالمدينة الساحلية الجميلة التي تحولت في لحظات إلى مسرح لمجزرة كبيرة وخراب لا يتصوره عقل قد عاشت معاناة كبيرة لفترة امتدت لأكثر من 35 يومًا بداية من 11 يونية 1882 وهو اليوم الذي شهد المذبحة الشهيرة التي دارت رحاها بين المصريين أو -أولاد العرب- كما كان يُطلق عليهم في ذلك الوقت من ناحية والأوروبيين الذين يسكنون المدينة من ناحية أخرى مرورًا بيوم 11 يوليو، وهو تاريخ ضرب المدينة بالمدافع بواسطة الأسطول الإنجليزي الذي كان قابعًا أمام سواحل الإسكندرية منتهزًا أول فرصة للضرب وما تلا ذلك من أيام بما فيها من أحداث تهجير المواطنين وحرق المدينة ثم احتلالها بواسطة القوات الإنجليزية.

والحادثة ملخصها أن مشاجرة نشبت بين مالطي ومصري على أجرة ركوب حمار فما كان من المالطي الذي كان من رعايا الحكومة الإنجليزية إلا أن طعن المصري وفر هاربًا داخل أحد البيوت التي يسكنها المالطيون واليونانيون، وبدأ بعدها الضرب وتبادل النيران حتى سقط في هذه الحادثة عشرات الضحايا من الجانبين.

والواقع والتاريخ يحكيان أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن وليدة اللحظة التي حدثت فيها بل كانت نتيجة لحالة من الغليان عاشتها المدينة الناعمة باعتبارها جزءًا من مصر.. فمصر المحروسة كانت تشهد في ذلك الوقت حالة من السخط العام تحولت بمرور الوقت إلى ثورة كامنة داخل قلوب وعقول الكثيرين من رجال الجيش الذين عُرفوا فيما بعد برجال عرابي أو رؤساء الثورة العرابية، بالإضافة إلى



صورة حمّار من الإسكندرية.

نواب الأمة الذين سخطوا على أحوال البلاد في ظل حكم الخديو توفيق والمراقبة الثنائية الإنجليزية والفرنسية على مالية البلاد -وهو الإجراء الذي فرضته الدول الأوروبية على مصر لضمان سداد الديون وحماية الدائنين ومن ثمّ اتخذوها ذريعة للتدخل في أحوال البلاد والرعية- مما أثار سخط العلماء والأعيان ورجال الجيش بالإضافة إلى وجود خطباء وزعماء روحيين أمثال الشيخ محمد عبده وعبد الله النديم الذين ملأوا فضاء البلاد بالخطب الرنانة عن تردي أحوال البلاد والعباد ووجوب القيام من العثرة مما زاد الطين بلة، وهذه التعبئة المسبقة لكل من المصريين والأجانب هي تعبئة استمرت لفترة طويلة وبدأت بوقوع مصر تحت طائلة الديون التي تراكمت إبان عهد الخديو إسماعيل والتي قاربت الـ 100 مليون جنيه والتي بسببها خلعت السلطنة العثمانية الخديو إسماعيل عن عرش مصر بإيعاز من الحكومتين الإنجليزية والفرنسية وولت ابنه الخديو توفيق، لتتمكنا من التدخل في شئون مصر المالية بواسطة المراقبين الثنائيين الإنجليزي والفرنسي بحجة رد الأموال للدائنين والبنوك الأجنبية وهو ما تم لهما بالفعل..

وبدأ التدخل بشكل بسيط حتى تحول إلى تسلط كامل على شخصية الخديو توفيق الذي كان يبلغ من العمر 26 سنة عند جلوسه على الأريكة الخديوية، وكان يقال عنه إنه كان ضعيف الشخصية منقاداً للأقوى وهم في هذه الحالة المراقبون والقناصل الأجانب وخاصة الإنجليز.

بالإضافة إلى تعطيل الحياة النيابية الممثلة في مجلس النواب والذي أنشأه الخديو إسماعيل عام 1872 ليكون صوت الأمة وما ترتب عليه من ظهور الصوت الوطني المُمثل في نواب الأمة الذين بدأوا يطالبون بالدستور وتفعيل دورهم النيابي.

وكان العامل الثالث في زيادة الضغط داخل الأمة المصرية هو ظهور أحمد عرابي باشا وبدء الحركة العرابية التي ظهرت بداخل الجيش نتيجة لسوء معاملة الضباط المصريين ومحاباة الضباط الأتراك والجراكسة دون وجه حق، باعتبار أن أغلب المناصب العليا في الجيش والبحرية كانت حكراً لهم دون المصريين؛ مما أدى إلى تولد المؤامرات بين الطرفين لعدة أشهر والتفاف المصريين حول أحمد عرابي

الذي تحول إلى أشهر ضابط في الجهادية المصرية في ذلك الوقت للحصول على حقوقهم، وقد حدث الكثير والكثير من الأحداث منذ بداية عام 1881 وحتى مذبحة الإسكندرية ملخصها كالآتي:

كان أول ظهور لبوادر الثورة في أول فبراير 1881 وهي التي عُرفت فيما بعد بمظاهرة قصر النيل، فقد بدأ الغضب يتصاعد في الجيش المصري وبين الضباط المصريين منذ بداية عام 1881 حينما استصدر عثمان رفقي باشا الشركسي ناظر (وزير) الحربية في نظارة رياض باشا مرسومًا يقضي بتسريح جنود الجيش المصري بعد 4 سنوات من الخدمة؛ مما يعني بقاءهم عساكر وعدم ترقيتهم كضباط مما يعني أن الضباط سيكونون من الأتراك والجراكسة.. ويبقى الأنفار والعساكر من المصريين وهو ما لم يقبله الضباط المصريون.

ثم كان القرار الثاني بتشتيت عدد من الضباط المصريين وذلك بفصلهم من الخدمة أو نقلهم إلى مناصب إدارية أو أماكن بعيدة عن العاصمة، ومنهم الأميرآلاي (العميد) عبد العال بك حلمي قائد آلاي طرة الذي أصبح فيما بعد أحد أعمدة الثورة العرابية وفصل القائمقام (العقيد) أحمد بك عبد الغفار قائد آلاي الفرسان من الخدمة العسكرية وتعيين ضباط جراكسة في أماكنهم، فتذمر الضباط من هذه القرارات التعسفية وتجمع عدد منهم في بيت عرابي وهم في حالة ثورة شديدة وأقسموا على السيف والمصحف أن يموتوا دفاعًا عن الوطن ونصبوا عرابي رئيسًا لهم ومتحدثًا باسمهم وكتبوا عريضة أهم ما تضمنتها عزل عثمان باشا رفقي الجركسي وتعيين ناظر مصري للجهادية بدلاً منه..

أما باقي الطلبات فيدور حولها جدل كثير... فبينما يؤكد عرابي أنه طلب أيضًا تشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش إلى 18 ألف حسب آخر فرمان عثماني وتعديل قوانين الخدمة العسكرية بما يكفل المساواة بين المصريين وغير المصريين، ينفي هذه المطالب ولفريد بلنت ويؤكد فقط على عزل وزير الحربية الجركسي وهو ما أكده اللورد كرومر أيضًا.. وعلى كل الأحوال ورغم اختلاف الروايات فقد تقدم الضباط بمطالبهم إلى النظارة التي طلبت عدة أيام للنظر في هذه المطالب..

وبعدها بأيام تم تدبير خطة لاستدراج عرابي وزميليه عبد العال حلمي وعلي فهمي الديب إلى ثكنات قصر النيل بحجة إعداد التدابير اللازمة لزفاف الأميرة "جميلة هانم" أخت الخديو توفيق، ورغم تشكك الضباط في هذا الاستدعاء لغرابته وخروجه عن المألوف إلا أنهم ذهبوا في 1 فبراير 1881 حسب الموعد فتم القبض عليهم وحبسهم تمهيدًا لتقديمهم لمحاكمة عسكرية. فعرف الضباط الثائرون بما حدث لزعمائهم فهب البكباشي محمد أفندي عبيد وجمع الجنود من ثكنات عابدين وخرج بهم لنجدة الضباط، فحاول رئيسهم الجركسي الجديد "خورشيد بك بسي" الذي حل محل علي بك فهمي أن يوقفهم تحت سمع وبصر الخديو توفيق الذي أطل من شرفة قصر عابدين ولكنه فشل.[4]

أما الآلاي الثاني الذي تحرك فكان آلاي عبد العال بك حلمي في طرة.. فما إن عرف بما حدث لعرابي وزميليه حتى استعد للخروج ومؤازرة الآلاي الذي سبقه إلى ثكنات قصر النيل ولكن الآلاي الذي كان يقوده البكباشي محمد عبيد كان قد وصل إلى الثكنات وحاصرها واقتحمها بالقوة وأطلق سراح الزعماء الثلاثة وسط تهليل وفرحة الجنود المصريين والأهالي المحتشدين في الطرقات والشرفات والذين لم يشهدوا هذا المنظر من قبل، وعلى الجانب الآخر كانت هناك حالة من الرعب والفزع قد انتابت الضباط الجراكسة الذين أصيب بعضهم أما البعض الآخر فقد آثر السلامة وهرب، فقد كانت هذه واقعة غير مسبوقة للضباط الجراكسة والمصريين في نفس الوقت.

ولكن الغريب في الأمر هو حالة الجبن غير المبررة التي أصابت الآلاي الرابع الذي كان يرأسه أحمد عرابي نفسه، فحين وصله قومندانه الجديد الأميرآلاي محمود بك طاهر بدلاً عن عرابي خضعوا له ولم يشاركوا في مسيرة الضباط إلى قصر النيل، ولكن في المساء وصلت الأخبار الطيبة بفك أسر عرابي وزميليه وعزل رفقي باشا وتعيين محمود سامي البارودي مما يعني أن شوكة عرابي قد قويت.. فخاف الآلاي وضباطه وقرروا السير ليلاً للانضمام لزملائهم الثوار لإنقاذ ماء وجوههم ولتأكيد مؤازرتهم للثوار.

4- د. لويس عوض -تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل حتى ثورة 1919- الجزء الثاني ص 167.


الصورة الرسمية التي كان يتم توزيعها لزعماء الثورة العرابية أحمد عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي بملابسهم العسكرية وسيوفهم.. وهي الصورة التي ساهمت في ازدياد النعرة الوطنية حتى أصبح الشعب يعلقها في كل مكان.. داخل البيوت وفي المقاهي وعلى جدران الدكاكين.

ثم لم تلبث أن حدثت انقسامات داخل صفوف الجيش فبعد أيام من حادثة قصر النيل كتب 9 ضباط من آلاي طرة اعتذارًا إلى الخديو وتبرأوا مما حدث وطلبوا عزل قائدهم عبد العال بك حلمي وتبين فيما بعد أن المحرض الرئيسي لهذه العريضة كان باشجاويش جركسي.. كما قام ضابط سوداني مُحال إلى الاستيداع اسمه فرج الزيني بتأليب ضباط آلاي طرة على قائدهم.

ثم كان الحادث الأكثر غرابة يوم 25 يوليو 1881 أي قبل ضرب الإسكندرية بعام فقد صدم سائق أوروبي كان يقود سيارة أحد التجار من ولاد البلد –كما كان يُطلق عليهم– أحد الجنود في الشارع المؤدي إلى سراي رأس التين في الإسكندرية فقتله، وبدلاً من أن ينقله زملاؤه إلى المستشفى أو -الإسبتالية- أشار أحدهم بحمله إلى سراي رأس التين حيث كان الخديو توفيق يقضي فترة الصيف وأخذوا يصيحون ويهللون مطالبين الخديو بالقصاص، وهو تصرف لم يقبله الخديو وأمر بمحاكمتهم عسكريًا وحصلوا على أحكام غاية في القسوة أثارت استياء ضباط الجيش.

ثم كانت الضربة الكبرى عصر يوم الجمعة 9 سبتمبر 1881 وهو اليوم الذي قام فيه عرابي ورجاله بتنظيم مظاهرة عسكرية لفرق الجيش كله أمام قصر عابدين لمواجهة الخديو بمطالب الجيش والأمة والتي كانت تنحصر في عزل نظارة رياض باشا وتأليف المجلس النيابي وزيادة عدد الجيش إلى 18 ألف رجل. ولهذه المظاهرة حكاية طريفة يرويها كل المؤرخين والكتاب عن كيفية مجيء فرق الجيش الطوبجية والفرسان والمشاة والمدفعية، ومعهم المدافع بذخيرتها وآلاي العباسية والآلاي السوداني والذين بلغ عددهم أربعة آلاف جندي بعدتهم وعتادهم وأسلحتهم ومحاولة الخديو إجهاض هذه التظاهرة من بدايتها بالذهاب إلى بعض الآلايات في ثكناتهم ومحاولة استمالتهم ثم محاولة تفريق المتظاهرين وصرف الجنود، والتي باءت بالفشل أيضًا ثم الحوار الذي دار بين الخديو وعرابي والذي قال فيه عرابي قولته الشهيرة التي رفعته إلى مصاف الزعماء الشعبيين وهي "نحن لسنا عبيدًا ولا نورث بعد اليوم" وذلك ردًا على كلام الخديو الذي عقّب على طلبات الجيش قائلاً: "كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا خديو البلد أعمل زي ما أنا عاوز".

هذه هي خاتمة الحوار كما ذكرها عبد الرحمن الرافعي،[5] وبعدها رجع الخديو إلى قصره يتدبر ويفكر مع أعوانه ونُظاره، ومعهم مستر تشارلز كوكسن قنصل إنجلترا في الإسكندرية والسير أوكلندكولفن المراقب المالي الإنجليزي فيما يمكن اتخاذه من تدابير لإنقاذ هذا الموقف.

الجدير بالذكر أن الكثير من الروايات أضافت العديد من الجمل إلى الحوار مثل قول الخديو: "ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا" ورد عرابي عليه: "لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا.. ولسنا متاعًا أو عقارًا.. ووالله لن نورث بعد اليوم..."، وهناك روايات أخرى ذكرت هذا الحوار ولكن ليس في هذا الموقف بل في مواقف أخرى ولكن في النهاية هذه القصة هي ما سردها عرابي بنفسه في مذكراته.

وبالفعل تم للعرابيين ما أرادوا، فتم إسقاط نظارة رياض باشا وتشكيل نظارة جديدة برئاسة شريف باشا أبو الدستور الذي طلب تعهدًا من عرابي بعدم تدخل الجيش في الحياة السياسية، وقام بالعديد من الإصلاحات التي أثلجت صدر العسكريين ومنها إصدار القوانين العسكرية التي عملت على إصلاح أحوال الجند والضباط.

والحق يقال أن هذه الوزارة على قصر مُدتها قامت بالكثير من الإصلاحات منها إنشاء المحاكم الأهلية ووضع نظامها المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية، بالإضافة إلى القيام بالعديد من الخطوات الجادة من أجل إعادة إنشاء مجلس النواب، وبالفعل صدر الأمر العالي بإجراء الانتخابات العامة وتحدد يوم 26 ديسمبر لافتتاح مجلس النواب، ثم قامت نظارة شريف بوضع اللائحة الأساسية للمجلس أو الدستور وكاد الأمر يستتب بصدور الدستور، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فسرعان ما تدخلت إنجلترا وفرنسا اللتان رأتا أن صدور مثل هذا الدستور خطر على وجودهما في مصر، فقدمتا مذكرة بتاريخ 7 يناير 1882 تطلبان فيها ألا يكون لمجلس النواب حق تقرير الميزانية مما يعد تدخلاً سافرًا في شئون البلاد أثار السخط العام في البلاد ووضع العرابيين على حافة البركان. وكان من رأي

5- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 126.

شريف باشا رئيس الوزراء التريث وإرجاء مسألة الميزانية إلى وقت لاحق، ولكن عرابي والضباط ومعهم بعض النواب رفضوا وتشبثوا بضرورة إقرار هذا الحق على الفور؛ مما دفع شريف باشا إلى الاستقالة وبالتالي تشكلت نظارة محمود سامي البارودي في 4 فبراير 1882 وأصبح أحمد عرابي وزيراً للحربية فيها بعد أن قويت شوكته، وفي هذا الإطار قام الخديو توفيق بترقية عدد كبير من الضباط المصريين وأنعم على الأميرآلاي عرابي برتبة اللواء ومعها رتبة الباشوية، وكذلك قام بترقية عبد العال حلمي وعلي فهمي ومنحهم الباشوية في محاولة واضحة لاسترضأ الجيش، وفي نفس الوقت أحال إلى المعاش نحو 300 ضابط أكثرهم من الأتراك والشراكسة لبلوغهم السن القانونية؛ مما أعده العرابيون خطوة جادة وكبيرة نحو تطوير وتمصير الجيش المصري..

ولم يعرف أحد السبب في كل هذه المكافآت التي قدمها الخديو توفيق للضباط المصريين وهل كانت فقط مجرد استرضاء أم لأنه أحس بخطرهم يتفاقم وسمع بمحاولتهم عزله وتولية حليم باشا الأريكة الخديوية فأراد أن يستميلهم إلى صفه أم أن هذا تم بضغط من البارودي وعرابي وزيره؟ لا أحد يجزم...!

وفي ظل هذا المناخ تكاثرت المؤامرات بين أفراد الجيش وساد جو من عدم الطمأنينة ففي الفترة التي امتدت من 12 إلى 22 إبريل تم القبض على 48 شخصاً من أفراد الجيش أغلبهم من الجراكسة والأتراك من بينهم عثمان رفقي باشا ناظر الجهادية الأسبق بتهمة محاولة اغتيال عرابي باشا، وحوكموا أمام محكمة عسكرية وصدر الحكم بنفيهم إلى السودان مدى الحياة ولكن الباب العالي تدخل بضغط من حكومتي فرنسا وإنجلترا، فأصدر الخديو توفيق مرسوماً في 9 مايو 1882 بتخفيف الحكم إلى النفي ولكن إلى أي مكان يختارونه..

وبالفعل سافر المتآمرون إلى إستانبول مما حول العقاب إلى نزهة جماعية أو مكافأة للمتآمرين في نظر العرابيين، وهنا بدأت فكرة عزل الخديو الضعيف المنقاد للدول الأوروبية تلوح من جديد في الأفق وظهر اسمان هما إما محمود سامي البارودي أو الأمير حليم عم الخديو إسماعيل.

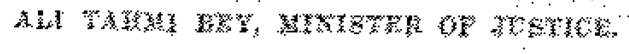
THE ILLUSTRATED LONDON NEWS

REGISTERED AT THE GENERAL POST-OFFICE FOR TRANSMISSION ABROAD.

No. 2234.—VOL. LXXX. SATURDAY, FEBRUARY 25, 1882. WITH TWO SUPPLEMENTS SIXPENCE. By Post, 6½d.







ALI FAHMI BEY, MINISTER OF JUSTICE. — AHMED ARABI BEY, MINISTER OF WAR. — ABDULLAH HALIM BEY, MINISTER OF PUBLIC INSTRUCTION.

THE NEW EGYPTIAN GOVERNMENT.—See Page 182.

الزعماء المصريون الثلاثة (عبد العال حلمي بك وأحمد عرابي بك وعلي فهمي بك) على صدر الصفحة الأولى لجريدة The Illustrated London News يوم السبت 25 فبراير 1882 تحت عنوان "الحكومة المصرية الجديدة" فهل كان هذا على سبيل السخرية باعتبار أن زميلي عرابي لم يكونا أبدًا ضمن الحكومة أم أنه تقرير واقع بأن العرابيين أصبحوا هم المتحكمين في الأمور وشكلوا حكومة جانبية تعمل ضد حكومة الخديو توفيق.

ثم كان الحادث الأخطر الذي أشعل النار في قلوب المصريين وعجل بتطور الأحداث ألا وهو وصول الأسطولين الفرنسي والإنجليزي قبالة السواحل المصرية، وبالتحديد في 19 مايو 1882 وصلت أول مدرعة إنجليزية إلى شواطئ الإسكندرية، وفي اليوم التالي وصلت سفينتان إنجليزيتان و3 سفن فرنسية بحجة أن هذه الأساطيل والبوارج تقوم بزيارة ودية للمدينة.

وبالطبع كانت هذه الحجة الواهية غير مُقنعة لسكان المدينة الذين استشعروا خطرًا قريبًا فتعالى الشعور بالعداء تجاه الأجانب أو (الأوروباويين كما كان يطلق عليهم)، بينما أحس الأجانب بالقوة والحماية في ظل وجود أساطيلهم بالقرب منهم، ثم كان إنذار 25 مايو 1882 الذي قدمه قنصلا فرنسا

وإنجلترا مما زاد الطين بلة، فهذا الإنذار الذي قُدم في صيغة مذكرة مشتركة يُعد تدخلاً سافرًا في شئون البلاد وكأن البلدين خافتا على مصالحهما من وجود روح قومية عالية في البلاد ممثلة في عرابي والجيش الملتف حوله، فطالبت برحيل عرابي باشا إلى خارج البلاد مع احتفاظه برتبته وألقابه وممتلكاته وإبعاد زميليه علي باشا فهمي وعبد العال باشا حلمي إلى داخل البلاد مع احتفاظهما بالرتب والألقاب والممتلكات بالإضافة إلى استقالة نظارة البارودي.

وهنا لاحت نذر الحرب.. وصار الصدام وشيكًا... فأعلن عرابي التعبئة العامة في الجيش وقدم البارودي استقالته وأرسل مذكرة احتجاج إلى الخديو يُحمله مسئولية موافقته على تدخل الدولتين.

و بعدها تصاعدت الأحداث بسرعة رهيبة.. فقد رفض العرابيون الذين زاد عددهم كثيرًا المذكرة المشتركة وكل بنودها وأوفدوا طلبة باشا عصمت أحد العرابيين البارزين للخديو لإبلاغه رفضهم لهذه المذكرة الغريبة ورغبتهم في انتظار رد الباب العالي عليها، وفي نفس الوقت أبرق ضباط الجيش والبوليس إلى الخديو بأنهم لا يقبلون استقالة عرابي وأنهم يمهلونه 12 ساعة لإعادة الأمور إلى نصابها وبعدها لا يتحملون مسئولية الأمن العام، وأبلغ سلطان باشا رئيس مجلس النواب الخديو أنه إذا لم يوافق على عودة عرابي إلى منصبه كناظر للجهادية فسوف يحدث ما لا تحمد عقباه، بل قد يصل الأمر إلى حد تهديد حياة الخديو نفسه في رأي سلطان باشا الذي شهد مدى غضب وهياج الجيش لهذا الأمر.

صورة الأميرال فردريك بوشامب سيمور قائد الأسطول الإنجليزي الذي وصل قبالة الشواطئ المصرية في 19 مايو كما نشرتها الجريدة الإنجليزية The Graphic في عددها الصادر بتاريخ 22 يوليو 1882.

وفعلاً عاد عرابي إلى منصبه ولكنه كان قد عزم على إعداد العدة لمواجهة أي تدخل عسكري من فرنسا أو إنجلترا فاستدعى احتياطي الجيش وأخذ يُجري الاستعدادات والترميمات في حصون الإسكندرية لمواجهة الأساطيل الأجنبية إذا لزم الأمر.. بل إنه تمادى في تقدير قوته فأصدر منشورًا إلى وزارة الداخلية يتكفل فيه بالمحافظة على الأمن العام.

وفي 29 مايو 1882 أبرق الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطاني إلى حكومته يخبرها بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه إحدى بوارج الأسطول ويطلب إرسال المدد من سفن وبوارج وبالفعل تم له ما أراد، وفي 30 مايو 1882 دعا رئيس وزراء فرنسا الدول الأوروبية الكبرى لعقد مؤتمر للنظر في المسألة المصرية حتى لا تتفاقم المشكلة وتصبح مصر فريسة سهلة لإنجلترا.

وفي 2 يونية 1882 قرر السلطان العثماني إرسال مصطفى درويش باشا مندوباً عثمانياً سامياً على رأس وفد مكون من 58 شخصًا لمعالجة الأزمة التي استفحلت في مصر بين الخديو توفيق وعرابي باشا والأسطول البريطاني الذي كان يقف قبالة الشواطئ المصرية مُهددًا بضرب المدينة إذا استمرت تحصينات القلاع والحصون والطوابي، وكان درويش باشا الذي اختاره السلطان معروفًا بالشدة والحسم وصلابة الرأي وقوة الشخصية غير أنه دائمًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن...

فبينما كان الوفد السلطاني في طريقه إلى مصر كان الأميرال سيمور يرسل بتهديداته إلى كل مكان في مصر والآستانة مما دعا السلطان العثماني إلى إرسال أوامره إلى مصر بالكف عن هذه الأعمال...

وفي 5 يونية 1882 أرسل عرابي ردًا بهذا الخصوص إلى الخديو قال فيه " أن ما يحدث في حصون الإسكندرية هو مجرد ترميمات اعتيادية لا يمكن الاستغناء عنها في أي وقت من الأوقات وأنها ليست بأي قصد سيئ بل هي ضرورية لبقاء الاستحكامات وحفظها بدوام الترميم والتصليح، وأضاف أن استمرار تلك الترميمات هو السبب الوحيد لتسكين روع الأمة المصرية وإزالة القلق والاضطراب المستولي على القلوب من وجود الأسطول الإنجليزي في المياه المصرية وما يفعله من مناورات وحركات حربية داخل الميناء وخارجه وأخذ قياسات أعماق المياه مع الاقتراب الشديد من الشواطئ وأن هذه الإجراءات هي التي تُعتبر تهديدات حقيقية وهي التي هيجت أفكار الأمة المصرية وأحدثت الاضطراب ".[6] ومع ذلك فقد أمر عرابي بوقف أعمال الترميمات أو هكذا أعلن.. إلا أن هذا لم يضع حدًا للتمثيلية الإنجليزية التي استمرت حتى النهاية.. فظل الأسطول في مكانه.. وبقي الوضع على ما هو عليه..

6- عبد الرحمن الرافعي –الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص263.

في 7 يونية 1882 وصل الغازي درويش باشا المندوب العثماني إلى الإسكندرية على ظهر اليخت السلطاني عز الدين ليجد المدافع الإنجليزية مسلطة على المدينة والوضع في أخطر حالاته، وما هي إلا أربعة أيام على وصوله حتى حدثت مذبحة الإسكندرية.

هذا على الصعيد السياسي، أما عن الأحوال الداخلية فقد تصاعدت حالة الهياج والغضب بين أفراد الشعب من ناحية والأجانب المقيمين من ناحية أخرى والذين حذرهم قناصلهم من الخطر القادم من ناحية أولاد العرب؛ وبالتالي بدأ الأجانب أوالخواجات في التسلح وشراء الأسلحة والبنادق تحسُّبًا لما يمكن أن يحدث في الأيام القادمة وخاصة رعايا الدولة الإنجليزية ومنهم عدد كبير من المالطيين، وقيل إن الأمر تعدى ذلك إلى قيام القنصلية الإنجليزية بتوزيع الأسلحة على رعاياها وذكرت بعض الروايات أن الكثير من شهود العيان قد لاحظوا وصول العديد من المراكب والسفن المحملة بالأسلحة لصالح الإنجليز.

وقام الأوروبيون ونتيجة إحساسهم بالخطر بالهرب والهجرة من كل أنحاء مصر المحروسة والتجمع في الإسكندرية بالقرب من سفنهم التي تقف مهددة الشواطئ المصرية بحجة الدفاع عن الخديو توفيق أو تثبيت دعائم حكمه وعرشه أو حتى في زيارة ودية إلى آخر هذه المبررات غير المنطقية اللهم إلا رغبة إنجلترا في احتلال البلاد بأي شكل.

أما المصريون فلم يكن مسموحًا لهم بحمل الأسلحة في بلادهم إلا فئة العربان - وهو منطق غير مفهوم - فبينما تسلح الأوروبيون بالأسلحة الحديثة لم يجد المصريون إلا العصي والهراوات والنبابيت وأرجل الكراسي ليدافعوا بها عن أنفسهم أمام هذه الأسلحة الحديثة مثل (الريفولفار أو المسدس).

وكنتيجة طبيعية لهذه الأحداث تجمعت كل فئة واستعدت بوسائلها الخاصة بل إن بعض الرعايا البريطانيين في الإسكندرية طالبوا حكومتهم بأن تدبر الوسائل لحماية أرواحهم، كما عقد الأجانب اجتماعات سرية تحت إشراف تشارلز كوكسون القنصل الإنجليزي بالإسكندرية لتشكيل قوة دفاع أوروبية مسلحة، ووافقهم على ذلك الأميرال سيمور قائد الأسطول البريطاني الذي كان من مصلحته

تصعيد الحالة داخل المجتمع المصري، غير أن قناصل الدول الأوروبية الأخرى في القاهرة رفضوا هذا المشروع وحذروا رعاياهم من الاشتراك فيه.[7]

ومع ذلك فهذا لم يمنع معظم الأجانب في الإسكندرية من أن يتسلموا الأسلحة على مسئوليتهم الخاصة، فوردت على دار القنصلية الإنجليزية كمية وافرة من الأسلحة والذخائر وعلم الضباط بذلك -العرابيون أو أتباع عرابي باشا- فهاجت الخواطر وتوجس الناس شرًا، ويقول ألبرت فارمان قنصل أمريكا في مصر من 1876 وحتى 1881 عن هذه الفترة التي عاشها وعايشها وكتب عنها حيث كان قاضيًا في المحاكم المختلطة بمصر:[8]

"وقد بعثت إنجلترا وفرنسا بأساطيلها إلى الإسكندرية وألقت بمرساها في الميناء، كما حذت حذوها دول أخرى، بغرض مراقبة تحركات هذه الأساطيل".

وكان من بين هذه السفن الحربية عدة قطع من الأسطول اليوناني، وكان هناك قليل من الود بين الطبقات الدنيا من اليونانيين في الإسكندرية وبين العرب، ولكن وجود البواخر اليونانية جرح كبرياء المصريين وأثار حفيظتهم، فزاد التوتر العام، وأصبحت جميع الطبقات في حالة من الاضطراب لم تكن لتوجد لولا وجود السفن الحربية العديدة في الميناء، ولكان الهدوء التام قد ساد.

ورغم الهدوء الظاهري إلا أن الغليان كان يشتد ويتصاعد بين الجانبين المصري والأوروبي، وكان بركان الغضب يشق طريقه إلى السطح حتى كانت المذبحة الكبرى أو التاريخ الذي لا ينساه أي مواطن سكندري يوم 11 يونية 1882.. اليوم الذي سقط فيه عشرات القتلى من الجانبين المصري والأوروبي...

وللقصة عدة وجوه... وقد سُجلت وشوهدت بعدة عيون...

7- د. لويس عوض -تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة 1919- الجزء الثاني ص 225.

8- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص 328.



صورة لمذبحة الإسكندرية كما صورتها جريدة فرنسية في ذلك الوقت.

الطريف أن الرسم صور أولاد العرب وهم يضربون الأجانب بالسيوف وهو ما لم يحدث أبدًا بل استخدموا العصي والنبابيت وأرجل الكراسي فقط.

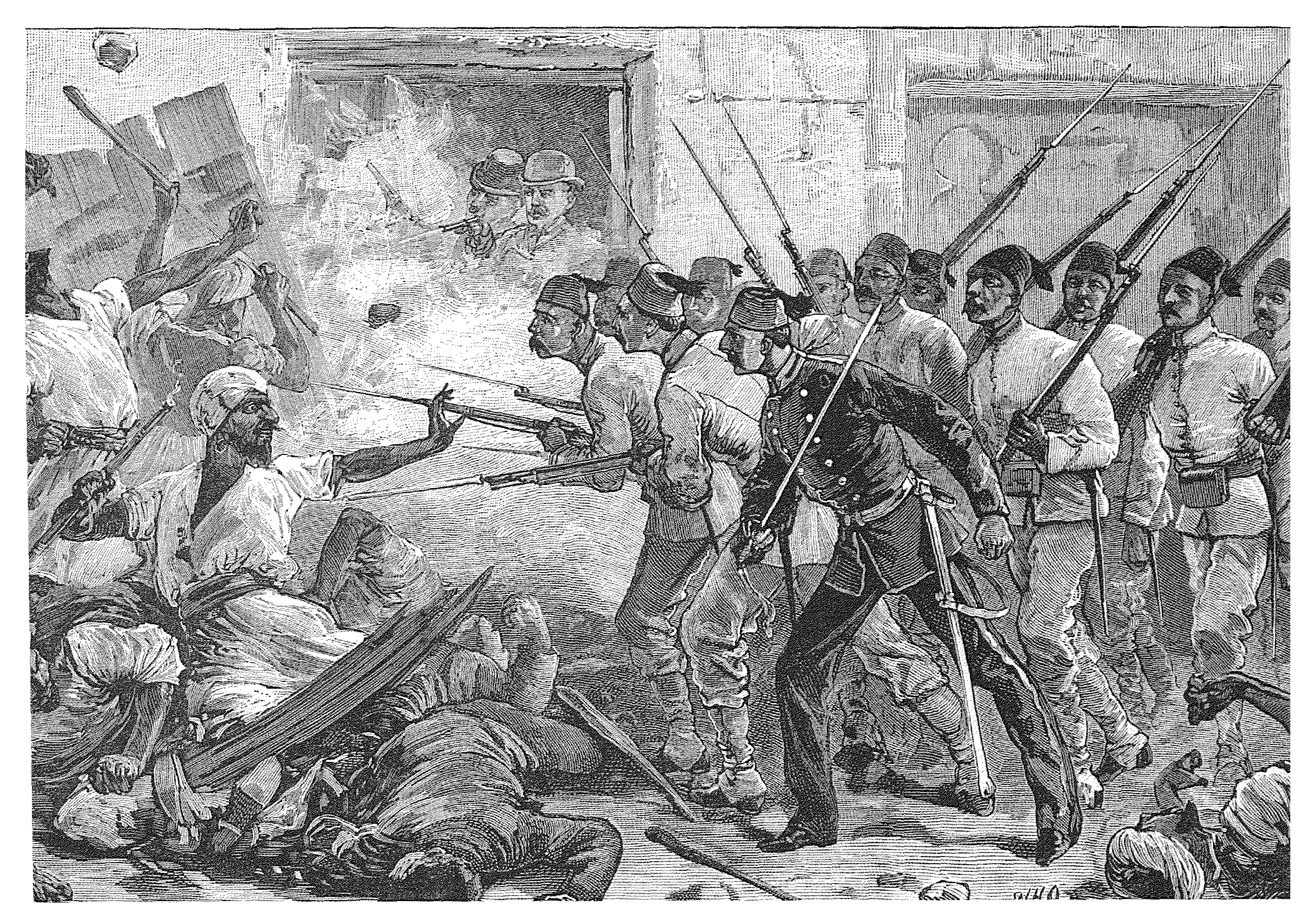
المذبحة بعيون تاريخية

يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعي عن هذه الحادثة:[9] "في هذا الجو من اضطراب الخواطر، وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الإسكندرية، ففي يوم الأحد 11 يونية 1882، في نحو الساعة الثانية بعد الظهر، وقع شجار بين أحد المالطيين من رعايا الإنجليز وأحد الأهليين يدعى "السيد العجان" كان المالطي هو البادئ فيه بالعدوان، فقد كان الوطني صاحب حمار ركبه المالطي وأخذ يطوف به من صبيحة النهار متنقلاً من قهوة إلى أخرى، وانتهى طوافه إلى خمارة قريبة من "قهوة القزاز" بالقرب من "قرة قول اللبان" بآخر شارع السبع بنات فطالبه الوطني بأجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد، فجادله في قلة الأجر، فما كان من المالطي إلا أن شهر سكينًا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على أثرها".

وقع هذا الحادث في الزقاق الكائن خلف "قهوة القزاز" فهرع رفاق القتيل إلى ذلك المكان، يريدون أن يمسكوا بالقاتل الذي فر إلى أحد المنازل المجاورة، وأخذ المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهليين من الأبواب والنوافذ، فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح، فثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم وتحركت طبقة من الجمهور للاعتداء على الأوروبيين عامة، فأخذوا يهجمون على كل من يلقونه منهم في الطرقات أو الدكاكين ويوسعونهم ضربًا، وكان سلاحهم في هذه المعركة العصي والهراوات ليس غير.

وانبث الدهماء في المدينة يستنفرون الناس للقتال، ويقتلون من يلقونه من الإفرنج ضربًا بالعصي والهراوات، ونهبوا دكاكين شارع السبع بنات، وامتد الهياج من هذا الشارع إلى الشارع الإبراهيمي وإلى شارع الهماميل وشارع المحمودية وجهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية –رأس التين– وغيرها من الشوارع التي كان يقطنها الأوروبيون أو يمرون منها، وقد قُتل كثير منهم أمام الضبطية إذ كانوا قادمين من الترسانة، عائدين من زيارتهم للبوارج الإنجليزية والفرنسية!.

9- عبد الرحمن الرافعي –الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 268.



صورة من مذبحة الإسكندرية كما نقلها رسام جريدة The Illustrated London news ونشرتها الجريدة بتاريخ 1 يوليو 1882 تحت عنوان "الأزمة في مصر" وهي توضح محاولة رجال البوليس لفض الاشتباك بين المواطنين الثائرين الذين هبوا لنجدة أهليهم فانطلقوا يقتلون من يلقونه من الأوروبيين وعدد من الأوروبيين الذين يحملون المسدسات ويطلقون النار على المصريين الذين يحملون العصي والنبابيت.

وكان الأوروبيون من ناحيتهم يطلقون الرصاص من النوافذ على الأهليين، فقُتل من الجانبين خلق كثير، وإذ كان البادئ بالعدوان أحد الرعايا المالطيين وقد شاهده بعض الحاضرين يلوذ بالفرار إلى منزل يسكنه بعض مواطنيه، فقد أرسل قسم اللبان إلى المستر "كوكسن" قنصل إنجلترا في الثغر لإيفاد أحد موظفي القنصلية لكي يُخرج المعتدي من هذا المنزل، فحضر المستر "كوكسن" بنفسه أثناء اشتداد الهياج.. فأصيب بضربة حجر وعصا جُرح بسببها جرحًا بليغًا، وجُرح أيضًا في ذلك اليوم قنصل اليونان وقنصل إيطاليا، فكانت إصابة القناصل من مظاهر خطورة الحالة.

وكان "عُمر باشا لطفي" محافظ المدينة حين بدأت الحادثة يتولى رياسة قومسيون تحقيق الجمرك بدار المحافظة، فأبلغه أحد موظفي الضبطية بنبأ الشجار الذي وقع بين الوطني والمالطي، وكان ذلك في نحو الثالثة بعد الظهر، فأوفد حسين بك فهمي وكيل المحافظة إلى مكان الواقعة لفض الخلاف، ثم جاء بعد ربع ساعة نبأ استفحال الفتنة وتجسمها وإن السيد بك قنديل مأمور الضبطية مريض في منزله، فذهب المحافظ بنفسه إلى جهة الواقعة بشارع السبع بنات.

وهناك أدرك خطورة الفتنة، ورأى ازدحام الشارع بالمتجمهرين، فطلب من إسماعيل باشا كامل قومندان الجنود بالإسكندرية إرسال المدد من الجند لوقف الهياج، فتباطأ الأميرآلاي مصطفى عبد الرحيم قائد الآلاي الخامس الذي كان مرابطًا برأس التين والقائمقام عقيد سليمان سامي داوود قائد الآلاي السادس الذي كان بباب شرقي في إرسال الجند، ولم يحضروا إلا في الساعة الخامسة مساءً قبل المغرب بساعة.

وحينما حضر الجند فرقوا المتجمهرين بغير صعوبة، وانتهت الفتنة في مغرب الشمس وساد المدينة سكون غريب، إذ لزم الناس بيوتهم، وخلت الطرقات من المارة وانقضى الليل والناس في وجل وفزع كما يقول عبد الرحمن الرافعي الذي أكد أن عدد القتلى في هذه الحادثة بلغ 49 شخصًا، منهم 38 من الأجانب والباقون من الأهليين.

وقد اهتم الرافعي بموضوع تأخر الجند في فض المذبحة وخاصة العرابيين منهم أمثال الأميرآلاي مصطفى عبد الرحيم قائد الآلاي الخامس الذي كان مرابطًا برأس التين والذي حكم عليه بالنفي لمدة 5 سنوات بعد فشل الثورة العرابية والقبض على زعمائها والقائم مقام سليمان سامي قائد الآلاي السادس الذي هرب ولكن تم القبض عليه وحكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم علنًا في 9 يونية 1883 بميدان القناصل أو المنشية حاليًا.

ويسرد الدكتور لويس عوض قصة هذه الحادثة بنفس الطريقة ولكنه أضاف أن هناك حقيقة هامة ينبغي أن يذكرها الجميع ألا وهي أن المالطي قاتل الحمّار المصري كان شقيق خادم السير تشارلز كوكسون قنصل إنجلترا في الإسكندرية ونائب قنصلها العام في مصر.[10]

كما قام بعقد مقارنة بين عدد الضحايا في عدة روايات فقال:

- أن سليم نقاش مؤلف "مصر للمصريين" قال إن القتلى 300 من الجانبين.
- وفي تقرير لجنة الأطباء التي شكلها قناصل الدول في الإسكندرية بلغ عدد القتلى 49 منهم 38 من الأجانب و11 من المصريين وأن عدد الجرحى 71 منهم 36 من الأجانب و23 من المصريين و2 من الأتراك.
- و في تقدير حسن بك صادق وكيل ضبطية الإسكندرية أن عدد القتلى من الطرفين من 45 إلى 50 قتيلاً.
- وفي كتاب "كرومر" أن مذابح الإسكندرية وقعت في ثلاث جهات مختلفة في وقت واحد وأنه قبل المذبحة بيوم حذر مصري يونانيًا بأن يأخذ حذره لأن العرب سوف يقتلون المسيحيين إما في ذلك اليوم نفسه أو في اليوم التالي.

10- د. لويس عوض -تاريخ الفكر المصري الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة 1919- الجزء الثاني- ص 226.

المذبحة بعيون أمريكية

وهنا يبدأ ألبرت فارمان سرده لقصة المجزرة أو مذبحة الإسكندرية 11 يونية 1882 كما أُطلق عليها:[11] "كان يسكن الجانب الشرقي من الإسكندرية عدد كبير من الأوروبيين والطبقات الراقية من المصريين، أما الجانب الغربي فكان يسكنه عامة الشعب والطبقات الدنيا من الأجانب ومنهم كثير من اليونانيين المعروفين بميلهم إلى الشغب وبسوء خلقهم، وقد حدث شغب كبير في يوم من أيام الآحاد في هذا الجانب؛ وهو أن أحد الرعايا الإنجليز من المالطيين اليونانيين هو الذي أثار النزاع.

وكان عدد كبير من أفراد الطبقة العاملة من الأهالي والأجانب جالسين إما في المقهى أو نائمين وقت القيلولة حيث كانوا في عطلة، وهذا النزاع الذي قام بين العربي واليوناني كان بشأن مبلغ بسيط من النقود، فاستشاط اليوناني الذي يقال إنه كان مخموراً غاضباً فسحب سكيناً وطعن بها العربي في بطنه، وتصاعدت الأحداث بأسرع ما يمكن، فغضب الأهالي وبدأوا يتجمعون في أعداد كبيرة، ويضيف فارمان الذي تشعر من كتاباته أنه أحب مصر والمصريين أن "المصريون بطبعهم هادئون محبون للسلام ولكن حينما انتشر النبأ ازداد تجمع الناس واحتدم غضبهم. ولكن ما إن بدأ اليونانيون والمالطيون في إطلاق النار من نوافذ وأسطح منازلهم على الأهالي العُزل من السلاح وقُتل بعضهم وجُرح البعض الآخر حتى ثارت ثورة الأهالي وشرعوا في ارتكاب أعمال انتقامية..

وكان الأهالي فيما عدا البدو منهم غير مصرح لهم بحمل السلاح الذي كان يُعتبر من وسائل الترفيه، فلم يستطيعوا إلا أن يزودوا أنفسهم بالهراوات (وهي عصي ضخمة كتلك التي يحملها الفلاحون عند سيرهم في الحقول، عبارة عن فروع خشنة مستديرة يبلغ قطرها بوصة ونصف بوصة أو بوصتين وطولها حوالي خمسة أقدام كما أنها ثقيلة)، وكانت هذه الهراوات تُستورد عبر البحر الأبيض وتُباع في الأحياء العربية.

11- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص329.

وكان اليونانيون يحملون أسلحة نارية بإذن من القنصل بحُجة أنها ضرورية لحماية أنفسهم، ونتيجة لإطلاق هؤلاء النار فقد جن جنون المصريين وتدفقوا إلى هذا الجانب من المدينة يقتلون بهراواتهم كل أوروبي يعثرون عليه.

وكنت في ذلك الوقت في فندق أوروبا الذي كنت أتناول فيه وجباتي وهو يقع في الطريق الجنوبي من ميدان محمد علي وعلى مقربة من الحي العربي، وقد غادرته في حوالي الساعة الثانية وبعد ذلك بساعة تقريبًا كان من الضروري وضع حاجز أمام بوابة الفندق لحماية النزلاء من الغوغاء، فقد انتهز اللصوص هذه الفرصة وسلبوا أغلب المحال التجارية في الحي العربي، وقد أفلت بعض ضباط البحرية الأمريكيين الذين كانوا على الشاطئ ويرتدون الملابس المدنية من الموت بأعجوبة، وقد فشل البوليس في قمع هذه المظاهرة العنيفة.

وفي فصل الصيف جرت العادة في مصر على أن يأخذ الإنسان إغفاءة قصيرة بعد الغداء، وتُغلق البنوك والمحال من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان المسئولون يأخذون إغفاءتهم المعتادة وقت أن بدأت الاضطرابات، فبعد مرور ساعة على طعن العربي أوقظ الحاكم من نومه وأُبلغ بخطورة الموقف، ولم يكن هناك في ذلك الوقت ناظر للداخلية فكان الحاكم يتلقى التعليمات من النظارة مباشرة فاستغرق اتصاله بالقاهرة وبالقوات الإنجليزية والفرنسية وقتًا طويلاً وأخيرًا استُدعي الجنود وبمجرد وصولهم استتب الأمر مرة ثانية.

وكانت الساعة ما بين الرابعة والخامسة عندما وصلني النبأ بأن هناك قتالاً دائرًا في شوارع المدينة، وعلى الرغم من أنني أُخطرت بأن من المجازفة الخروج في هذا الوقت إلا أنني اتجهت فورًا نحو ميدان محمد علي، وقد صادفت بعض أشخاص في الشوارع كانوا يفرون هاربين من الأحياء التي يجري فيها الشغب، وقد دخلت الطرف الجنوبي من الحي بينما كان الجنود قد حضروا من القلاع الموجودة بجزيرة فاروس ودخلوا الحي من الطرف الآخر، وحينما وقفت على السلم العالي لقصر العدل شاهدت أشخاصًا قلائل يفرون بأقصى سرعة بمجرد اقتراب الجنود.

ولقد ضاعت حياة 60 من الأوروبيين وهؤلاء كانوا من أفراد الطبقة الدنيا ومعظمهم يسكنون الأحياء العربية، وقد أُشيع في اليومين التاليين —دون أن يثبت العكس— أن أضعاف هذا العدد من العرب قد قتل، وقد افتخر أحد اليونانيين في اليوم التالي أنه قتل 5 أفراد".

هذه هي الرواية الصحيحة، بقدر الإمكان، كما يقول فارمان عما أطلق علية المؤرخون اسم "مذبحة المسلمين للمسيحيين في الإسكندرية" بينما لم تكن سوى هياج مؤسف خطير بدأه أحد الأجانب.

وقد اهتم فارمان بجمع ما كُتب عن المذبحة فيقول:

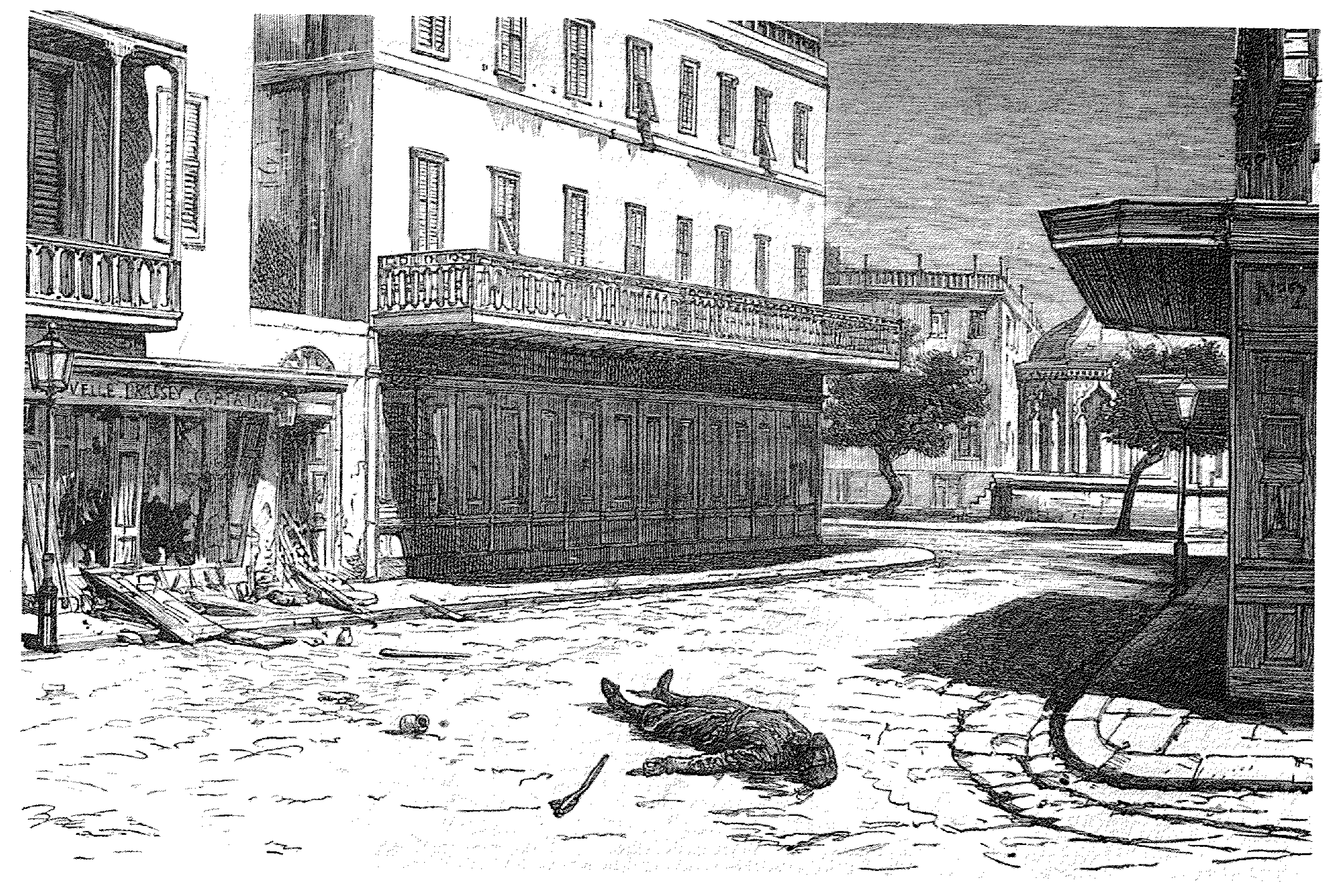
- لقد أطلق القنصل الفرنسي في تقريره الذي رفعه إلى حكومته بتاريخ اليوم التالي أي 12 يونية 1882 على هذا الحادث أنه مجرد شغب فقال: "في حوالي الثالثة بعد الظهر تشاجر مالطي مع أحد الأهالي فطعن الأول الثاني بسكين في بطنه، وعندما أخذ يصرخ تجمع العرب وكان هذا الحي يسكنه بعض المالطين واليونانيين الذين كانوا مسلحين في تبجح، فإذا بالمسدسات تُطلق من النوافذ وإذا بجماعات من العرب يندفعون من جميع الأحياء مسلحين بالهراوات ويضربون الأوروبيين ضربًا أفضى إلى الموت".
- "و كان القومندان باتشلر، أحد ضباط السفينة الحربية "آلان" واقفًا في ذلك الوقت ضمن الضباط الأمريكيين على الشاطئ، وقد كتب في تقريره يقول: لقد كانت مظاهرة خطيرة، قُتل فيها عدد كبير من الأوروبيين والأهالي".
- وقد نُشرت روايات مشابهة في الصحف الإنجليزية في اليوم التالي وظهرت هذه الفقرة في جريدة "الديلي نيوز": "لقد أطلق الأوروبيون النار من النوافذ فقتلوا عددًا كبيرًا من العرب الذين أحدثوا بدورهم أضرارًا جسيمة بين الأوروبيين في الشوارع".

وعندما عاد المراسلون الأوروبيون -الذين كانوا قد وصلوا إلى مصر عند وصول الأساطيل- أطلقوا على هذا الشغب اسم مذبحة وأرجعوا السبب فيها إلى تعصب المسلمين، ولقد اشتطوا في قولهم

إلى حد اتهام عرابي باشا بأنه هو الذي أوعز بهذا الشغب إلى الغوغاء، وقد نقل الموتى والجرحى الأوروبيون إلى المستشفيات الأوروبية، أما الأهالي فقد قاموا بدفن موتاهم ولم يُعرف عدد الضحايا على وجه الدقة أبدًا.

هذه هي رواية ألبرت فارمان القنصل الأمريكي عن حادثة أو مذبحة الإسكندرية أو الشغب السكندري أو غير ذلك من المسميات.. إنها رؤية عن الحادثة ولكن بعيون أمريكية مُعتدلة.

صورة لشارع السبع بنات المهجور بعد مذبحة الإسكندرية 11 يونية 1882 كما نشرتها جريدة "جرافيك" الإنجليزية في عددها الصادر بتاريخ 22 يوليو 1882.



المذبحة بعيون مصرية صحفية

يحكي سليم خليل النقاش صاحب جريدة المحروسة هذه الحادثة ولكن من زاوية أخرى مليئة بالتفاصيل الصغيرة، حتى أنه قدم للقارئ صورة حية للشارع السكندري وقت الحادثة فيقول:

"حتى كان اليوم الحادي عشر من شهر يونية فما شعر من في المدينة إلا وجماهير المسلمين ما بين صعيدي وسوداني وبدوي، ومنهم الحامرة والحمالون وأمثالهم يهجمون فرادى وأزواجًا وجماعات وأفواجًا على من لقوه في طريقهم من الأجانب كبيرًا كان أم صغيرًا..كهلاً أو فتى، وكان ذلك في الساعة الثانية بعد الزوال إثر نزاع وقع بين مالطي وحمّار أفضى بينهما إلى الضرب والشتم فجُرح الحمّار وعلت الضوضاء فتداخل بين المتضاربين أحد جاويشية (مخفرة) قرة قول اللبان منتصرًا للحمّار على المالطي فلما انقلب الأمر إلى المناصرات انتصر للمالطي رجل من أبناء جلدته، فكثُرت على إثر ذلك الضوضاء وهجم رعاع القوم على المارة وأصحاب الدكاكين وأخذوا يسطون على كل أجنبي وجدوه في طريقهم ويوسعونه ضربًا بالعصي والهراوي ثم انتشروا في الشوارع وانبثوا في أحياء الأوروبيين منادين بالجهاد وبقتل الكفار ونهب مخازنهم ومنازلهم، وبهذه الهيئة مروا بشارع السبع بنات وشارع المحمودية وغيرهما من شوارع المدينة، وكان أكثر الأجانب متفرقين في جهات الرملة قصد التنزه وهربًا من حر المدينة وذلك جريًا على عادتهم في أيام الآحاد والأعياد فكانت بيوتهم خاوية ومخازنهم مقفلة ولم يكن في المدينة منهم إلا قوم قليلون لا يقدرون على الدفاع ورد هجمات الثائرين ففتكوا بمن وجدوه منهم فتكًا ذريعًا وانصبوا عليهم من كل جهة وصوب يضربونهم بالعصي والنبابيت حتى قتلوا منهم 300 نفس.

وكان صاحب هذا المؤلف قد لزم البقاء في منزله متحرزًا متحرسًا وكان مقيمًا في وكالة راتب باشا وراء المنشية فأشرف من البلكون على الشارع الكبير فرأى جماعات أهل الفتنة يتقدمون في الطريق ضاربين كل من رأوا قبعة على رأسه ورأى كثيرين من الإفرنج يركضون وأولئك من ورائهم يضربونهم

ضربًا أليمًا حتى يطرحوهم على الأرض مخضبين بدمائهم فينزعون عنهم ثيابهم ويأخذون ما يجدون معهم من حلي ونقود ثم يتركونهم، وإذا مروا بمخزن من مخازن الإفرنج كسروا بابه ونهبوا منه ما تيسر لهم حمله وغادروا ما بقي منثورًا في الأرض عرضة للكسر.[12]

وقد تحرز بعض الأجانب في بيوتهم ودافعوا عن أنفسهم بالسلاح فردوا هجمات المسلمين بالرصاص وقتلوا منهم عددًا يكاد أن يوازي عدد من قتل من النصارى.

وكان قد نزل إلى البحر في ذلك اليوم جماعة من الأوروبيين للتفرج على السفن الحربية الراسية في المينا فلقيهم الوطنيون عند عودتهم من البحر وأوسعوهم ضربًا وساقوهم أمامهم سوق الأنعام، وكان كل من العائدين إلى المدينة يلجأ بعد فراره إلى دار الضبطية الكائنة في الشارع المعروف باسمها توهمًا منه أنه إذا بلغ مركز وقاية الأرواح صار في مأمن من هجمات أولئك الرعاع، ولكن واأسفاه فإن ذلك المقام أصبح في تلك الساعة مقرًا للأهوال والفظائع فإن نفرًا من عساكر المستحفظين كانوا قد انبثوا في ساحتها وانتشروا على جانبيها للوقوع بالمارة فكانوا يقبضون على كل أجنبي لجأ للضبطية ويقتلونه ثم يتركونه للرعاع فيسلبون ما عليه من ثياب أو حلي ثم يشوهون وجهه تشويهًا ويرمون به إلى البحر.

ومن حوادث ذلك اليوم الغريبة أن أمراء الأساطيل الأجنبية الراسية في المرفأ لم يحركوا ساكنًا ولم يبد منهم مساعدة للأوروبيين ردعًا للوطنيين وكبحًا لجماح فظائعهم.

ومن أغرب تلك الحوادث تمارض السيد قنديل مأمور ضبطية إسكندرية ورئيس المستحفظين إذ ذاك وعدم خروجه كأن شيئًا لم يكن في المدينة.

ومن أشد حوادث ذلك اليوم غرابة أن قناصل الدول دُعوا إلى عقد جمعية في دار المحافظة للتداول في الأحوال الحاضرة وذلك قبل حدوث المذبحة بنحو ساعة فتوجه أكثرهم إليها ولكنهم علموا هناك أن المحافظة لم تدعهم قط إلى مثل هذا الاجتماع، فحاروا في الأمر ثم خرجوا متفرقين وسار كلّ منهم

12- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين الجزء الخامس- ص 5.

في طريق وبينما كانوا عائدين إلى منازلهم إذا بالرعاع من الوطنيين هجموا عليهم بالعصي والنبابيت وأخذوا يوقعون بهم الضرب الذريع فجُرح أكثرهم، فمنهم المسيو "رانغابي" قنصل اليونان الجنرال والمستر "كوكسون" قنصل إنجلترا بالإسكندرية وقد أصيب ثاني هذين القنصلين بجراح بالغة وكُسرت عربته ووقع على الأرض مغشيًّا عليه فحُمل إلى مخفرة اللبان وهو غائب عن الرشد وضُرب أيضًا المسيو "ماكيافيللي" قنصل إيطاليا وجُرح المسيو "روزادوسكي" فيس -نائب- قنصل إيطاليا جرحًا بالغًا وضُرب أيضًا كل من المسيو "زيفيلاريش" قنصل الروسية والمسيو "سكوتيديس" فيس قنصل اليونان وكذلك المسيو "كيلوا" الترجمان الأول للقنصلية الفرنساوية فأنه ضُرب ضربًا مبرحًا حتى اضطر أن يلجأ إلى مخفرة اللبان.[13]

ومن الغرائب أيضًا أن محافظ المدينة "عمر باشا لطفي" دعا الجنود إلى إخماد الفتنة ورد الثائرين فأجابه الأميرَالاي "سليمان داوود" أنه لا يسمح للجنود بذلك إلا إذا وصله كتاب من عرابي بهذا المضمون، ولذلك لم يتيسر إخراج العساكر إلى ساحات المدينة إلا بعد الساعة الخامسة مساءً، فسار المحافظ أمامهم ساعيًا على قدميه ومعهم بعض قطع من الموسيقى تعزف بألحان الأمان إخمادًا لنار الهياج وتسكينًا للخواطر، فطاف أنحاء المدينة مجتهدًا بإعادة الراحة حتى أطفئ لهيب الفتنة وعاد الأمن ورُد الثائرون سكارى بدماء الأبرياء شهداء البغي والغدر... فخلت الشوارع إلا من جثث القتلى والجرحى ومن فضلات ما تساقط من أموال المخازن المنهوبة ومن أصناف مختلفة تكسرت فرمى بها الناهبون إلى الأرض تدوسها الأقدام منتشرة في الطرقات.

وعند غروب الشمس هدأت الفتنة وسكن الاضطراب ودخل كل منزله وتحرز فيه وانقضى الليل ولم يحدث شيء يُذكر غير أن الخوف تمكن من القلوب حتى أنه لم يستطع أحد من سكان الإسكندرية إغماض جفنيه في ذلك الليل، واتجهت الرسائل البرقية شرقًا وغربًا منبئة بما حصل، وخلت الشوارع من المارة إلا من بالكونات المنازل ونوافذ البيوت لم تخل دقيقة من مشرف مستكشف يحدق بصره

13- سليم خليل النقاش - مصر للمصريين الجزء الخامس- ص 6.

في الطريق كأنه يترقب حدوث أمر مفاجئ. وكان كل امرئ مهتمًا بشأنه فهذا يندب فقيده وذاك ينتظر غائبًا لم يستطع الرجوع إلى منزله وبعض يجتهدون باتخاذ أسباب الوقاية والاحتياط وقوم يعدون ما يحتاجون إليه للمهاجرة والجلاء في صباح اليوم المقبل".

وهنا أجد من الضروري التعليق على ما جاء في رواية سليم النقاش الذي كان يقف هو وجريدته "المحروسة" إلى جانب الخديوي حتى أنه اتُهم بتسخيرها لنصرة السراي:

فهو بداية لم يذكر السبب الحقيقي للمذبحة رغم علمه به ورغم أنه ذكره في مواضع أخرى بل مر على السبب مرور الكرام وركز على الأحداث.

- كما أنه اتهم جماهير المسلمين بالتسبب في بداية المقتلة وتطورها رغم علمه بالقصة الحقيقية.
- أما أغرب ما ذكره فكان سرده لقصة عن دعوة لاجتماع وهمي لقناصل الدول الأجنبية في المحافظة مما أوحى أن الحادث كان مدبرًا ومخططًا له بعناية بسبب هذه الدعوة المزيفة لجمع البيض كله في سلة واحدة (أي تجميع القناصل في مكان واحد) مما يسهل اصطيادهم بالقرب من موقع المذبحة.
- كما أنه ركز على قصة تمارض السيد بك قنديل مأمور الضبطية بشكل يوحي بل يؤكد مشاركة مأمور الضبطية في تفاقم الأزمة بتركها تشتعل.
- وعلى الجانب الآخر دعّم وأكد الدور الذي لعبه عمر باشا لطفي محافظ المدينة -الذي كان يعدُ هو الآخر من رجال الخديو- لإخماد الفتنة وتهدئة الأوضاع وركز على تواجده فور حدوث المذبحة بالقرب من الأحداث وسعيه لتحجيم الموقف حتى أنه أشار إلى أنه ذهب بنفسه أكثر من مرة إلى الموقع وأخذ معه فرقة موسيقية في إشارة واضحة لرفضه -أي سليم النقاش- كل ما قيل عن تقاعس المحافظ عن القيام بدوره في حفظ الأمن في المدينة.



اللصوص والرعاع يهربون بالمنهوبات بمجرد وصول البوليس إلى موقع مذبحة الإسكندرية.. مشاهد من المدينة البائسة.. تخريب.. وتكسير وتدمير للمحال ولصوص يحملون بضائع مسروقة والمعارك ماتزال مشتعلة بين العرب والأجانب، وفي الصورة رجل من العسكرية يحمل تلغرافًا لمحافظ المدينة ويحاول اختراق الجماعات المتقاتلة للوصول إلى هدفه.

مشاهد نقلتها جريدة Illustrated London news في عددها الصادر بتاريخ 1 يوليو 1882.

المذبحة بعيون سويسرية

أما جون نينيه عميد الجالية السويسرية الذي شهد الحادث وكتب كتاباً عن عرابي باشا فقد كانت آراؤه ورؤيته للمذبحة وللأشخاص المتسببين فيها مختلفة عن الآخرين..

وقبل أن أنقل ما سطرهُ السويسري في كتابه الذي صدر في عام 1884 باللغة الفرنسية والذي قال فيه إنه نقل الأحداث كما شاهدها وعايشها.. فقد كان يعود في نهاية اليوم منهكًا ومتعباً من تلاحق الأحداث الساخنة ليجلس إلى مكتبه الخشبي ويُفرغ ما في جعبته من أخبار مستخدماً في بعض الأحيان الكلمات العربية ولكن بحروف إفرنجية حتى وإن كانت سباباً كما ورد في بعض الصفحات ويهمني قبل عرض ما كتبه نينيه عن المذبحة أن أوضح أنه كان صديقًا لعرابي وللضباط الثائرين وكثيراً ما شهد اجتماعاتهم وشارك فيها بل وأدلى برأيه أيضًا فيما يدور من أحداث وبالتالي جاءت رؤيته متفقة مع رواية عرابي ورجاله ومنحازة لهم في بعض الأحيان.. فيقول:

"أن الأفق كان ملبدًا بالغيوم -تشبيهًا للحالة الساخنة للمدينة التي كان يقطنها حوالي 260 ألف مواطن- قبل يوم الأحد 11 يونية الذي كان يُعد يوم راحة إجبارياً للحمالين والوطنيين الذين يعملون في ميناء الإسكندرية وكانت المقاهي التي يمتلكها المالطيون واليونانيون وأنصاف الأوروبيين تكتظ بهم للتسامر وتناول المشروبات.. وفي هذا اليوم وبالتحديد في الساعة الواحدة استأجر أحد المالطيين حماراً وهو بالمناسبة شقيق خادم المستر كوكسون القنصل الإنجليزي وأخذ يتنقل به من شارع إلى شارع ومن حارة إلى أخرى حتى توقف في نهاية المطاف أمام خمارة أو كبارية بالقرب من قهوة القزاز، ونزل ورمى إلى صاحب الحمار قرشًا (25 سنتًا) ودخل البار فتبعه الحمّار محاولاً مناقشته في قلة المبلغ فما كان من المالطي إلا أن استل سكينًا كانت معلقة لتقطيع الجبن وطعنه بها فسقط الرجل غارقًا في دمائه، وسرعان ما حضر حمّار آخر ومعه بعض الوطنيين من أقارب القتيل إلى موقع الجريمة لإيقاف هذه المذبحة، وفي لحظات أيضًا حضر إلى المكان فران يوناني جار صاحب الخمارة ومعه بعض

الأصدقاء يحملون السكاكين والمسدسات التي أخذوا يطلقونها يمينًا ويسارًا حتى سقط العديد من القتلى والجرحى على الأرض.. ومر على الأقل أكثر من نصف ساعة قبل أن يصل أول المستحفظين من قسم اللبان والذي تم قتله قبل أن يصل الباقون وأصبحت الهوجة عامة، وفي ظل هذا الهرج والمرج تمكن القتلة المالطيون واليونانيون من الهرب وتدفق سيل الدماء". 14

ولكن حتى هذه اللحظة كان يمكن إيقاف المذبحة بقليل من الهمة والطاقة وبالتدخل الرسمي والمسلح لمحافظ المدينة حيث كان مأمور القسم طريح الفراش في منزله ومنعه مرضه من النزول، ولكن الموقف تعقد بسبب الصراع الذي دار بين بعض المستحفظين والمواطنين والذي امتد لأكثر من نصف ساعة أخرى تنافسوا فيه بوحشية، ولم يعد الأمر يقتصر على المالطيين واليونانيين المتسببين في المذبحة ولا على الحمّار القتيل بل تعدى الأمر ذلك لتصبح هوجة اشترك فيها المسيحيون والمسلمون على السواء، وقام فيها المالطيون الموجودون داخل البيوت والذين لا يعانون من أي أخطار بإطلاق نيران مسدساتهم من الشرفات على الحشود في الشوارع بدون تمييز وهذا ما رأيته بعيني رأسي؛ وبالطبع كانت هذه هي النتيجة الحتمية المتوقعة لنصائح القنصل الإنجليزي كوكسون لرعايا دولته والتي كان يطلقها قبل هذا اليوم "تسلحوا واحموا أنفسكم بأنفسكم".

ويستكمل نينيه حديثه قائلاً: "وعدت بعد ذلك إلى منزلي لتبديل ملابسي ونزلت مرة ثانية إلى شارع السبع بنات بالقرب من قسم اللبان وكانت الساعة حوالي الثالثة عصرًا فوجدت الجمهور قد تزايد وزاد الصراع وعلا الصخب والصياح وامتلأ الجو بصراخ المسلمين لأول مرة يقولون: "جاي يا مسلمين.. جاي! بيقتلوا إخواننا".

وقد تراجعت مع من تراجعوا أمام الضربات القوية للحمالين والزنوج والفلاحين والصعايدة المسلحين بأرجل الكراسي والترابيزات التي تم الحصول عليها من المقاهي المحطمة والبعض الآخر مسلح بالنبابيت التي تم الحصول عليها أو شراؤها من دكاكين السوق الجديد.

14- John Ninet -Arabi pacha- p.118

وقد رأيت ساعتها القنصل الإنجليزي "كوكسون" برفقة قواته أثناء نزولهم من بعض المنازل التي يسكنها المالطيون وصعدوا إلى سيارة كانت تقف بانتظارهم ولا أدري ما الذي لفت نظر الجمع إليه حيث أنه لا يوجد في شخصه ما يلفت النظر أو الانتباه أو الاحترام فتلقى بعض الضربات الخفيفة أو بالأحرى الودية" –هكذا وصف نينيه الضربات– مما جعلهُ يُسرع بالهرب من هذا التجمهر بأقصى سرعة للحصان الذي قاد عربته منطلقًا في الشوارع الجانبية، ومن الأشياء الغريبة التي أثارت الفضول هو لحاق عمر باشا لطفي –محافظ المدينة– بالقنصل الإنجليزي في منتصف الطريق بدون حراسة وبملابس عادية غير رسمية.. وقد قام القنصل الإنجليزي المكار بالاختفاء من على ساحة المذبحة نهائيًا وفهم تمامًا النصائح التي وُجهت له لإنقاذ شخصه، أما عن جراحه التي قال عنها طبيب القنصلية إنها كانت خطيرة فلم تكن كذلك إلا في خياله هو حتى أن جروحه لم تكن مرئية ولكن كان يمكن استخدام هذه الجراح لقيادة حملة للحصول على تعويضات أو للضغط يمكن أن تصل لأبعد الحدود. و يمضي جون نينيه –الذي يبدو أنه ورغم الخطر المحيط به من كل جانب لكونه أجنبيًا إلا أنه تحداه وأمضى يومه في التنقل بين الشوارع والحارات مسجلاً الأحداث لحظة بلحظة– فيقول:

"وقد رأيت العديد من الأشخاص يقعون بالقرب مني وكانوا مجهولين بالنسبة لي ومنهم عجوز أوروبي تم قتله بينما كان يعبر الطريق وكانت ملابسه وهيئته تدل على جنسيته، وفجأة ظهرت أمامنا عربة مليئة بالجرحى والقتلى من المستحفظين تبحث عن طريق أو ممر تعبر منه بالقرب من كنيسة سانت كاترين وخلفي كانت تتدافع طلقات الرصاص على الحشود وهنا وقعت ما بين نارين فعلى بعد 100 متر من كنيسة "لازاريست" كان الموقف غير محتمل ومن الصعب التعامل معه.

وكنت بالقرب من البيوت التي تقع على الناحية اليمنى فتوجهت بصعوبة شديدة إلى ميدان القناصل وهناك رأيت وعلى مرمى البصر سلسلة من الرجال اليونانيين المسلحين بالمسدسات يطلقون النار في كل اتجاه وامتلأ المكان بالضحايا بطريقة فاقت كل التصورات ولم تظهر أي نجدة في الأفق فلا جنود ولا رجال بوليس ولا حتى المحافظ.

وفي النهاية وصلت سالمًا ولا أعرف كيف أمام تمثال محمد علي وكان المكان خاليًا من أي اضطرابات فاستدرت يسارًا حتى منزل "أنسطاسي" وفي الطريق وجدت نصف دستة من القتلى بينهم أوروبي واحد بالقرب من فندق "أوروبا" وأعتقد أنه إيطالي الجنسية ثم عبرت الميدان وأمام قصر زيزنيا التقيت بعمر باشا لطفي محافظ المدينة أمام الوكالة الجديدة فقلت له:

- كيف يمكن أن تكون هنا بينما المذبحة تدور رحاها على بعد خطوات.. أين رجال الأمن؟

- هذا ليس من شغلي– هكذا كتبها نينيه – وأنا لست رئيسهم!

كانت هذه إجابات المحافظ الذي حاول بكل الطرق أن يتفادى النظر إلى عيني فقلت:

- كان يمكن لسيادتكم الذهاب إلى هناك بالملابس الرسمية على ظهر الحصان بصحبة 50 أو 60 من رجال الأمن مما كان يمكن أن يعيد النظام والأمن..

فأجابني قائلاً:

- هيا اذهب.. هذا ليس من شغلك..هل أنت نبي الإسكندرية؟[15]

وقد تسبب التجمهر أمام القنصلية الفرنسية في تفريقنا بينما كان الواقفون أمام السفارة في حالة رعب ويحاولون دخولها للاحتماء بها عندما مر أفندي من البوليس فسألته: أين الضابط وماذا تفعل؟؟

فأجاب: "مريض وقد أرسل إلى المحافظ مرتين وطلب منه إرسال قوات لتفريق المتجمهرين ولم يستمع له أحد".. وأضاف أن الأميرآلاي "سليمان سامي داوود" قائد الآلاي السادس قال إنه جاهز للتحرك بمجرد تلقي الإشارة بهذا الخصوص من وزير الحربية.

وعندئذ سألته عمن كان يقوم بإرسال التلغرافات إلى الوزارة في مصر فقال:

"كل شيء كان في يد عمر لطفي الذي ما إن بدأت المذبحة حتى أخذ يرسل الإشارات التلغرافية إلى مصر".

15- John Ninet -Arabi pacha- p.123

وفي القنصلية الفرنسية التقيت بالسيد "كلوكوفسكي" المدير الذي كان شاحبًا كالأموات ومحاطًا بعدد ممن شهدوا المذبحة ثم التقيت بعدها بالسيد "دي ليكس" الدبلوماسي الروسي بالقرب من منزله فحكيت له كل ما شاهدته وقلته وسمعته فبدا متماسكًا ولكن مندهشًا في نفس الوقت من كلام المحافظ، وفي النهاية غادر المكان للاطمئنان على أصدقائه ولكني علمت فيما بعد أنه أبلغ الخديو ودرويش باشا وعرابي بكل ما حدث بعد ذلك مباشرة.

وفي الساعة الرابعة والربع مر الماركيز "دي ريجيز" المحامي وكان يهرول في طريقه لمنزله وصرخ قائلاً: "ماذا تفعل هنا بينما يتم ذبحنا هناك على بعد خطوات" ثم اختفى.

وكنا أمام مبنى سان مارك واتجهت إلى شارع شريف للاطمئنان على عائلة إنجليزية– إيطالية مكونة من سيدات أما الأب فكان مريضًا لا يستطيع مغادرة حجرته.. وكان هناك زنجي (نوبي) قوي البنية مسلحًا بنبوت يقف أمام منزل أنطونيادس وعندما شاهدني رفعهُ عليّ من باب التهديد وهو يتبعني فقلت له: "ماذا تريد.. ماذا فعلت لك؟ أنا طبيب أقوم بزيارة المرضى". فقال لي: اذهب فأنا أعرفك".

فصعدت بعدها لأصدقائي وقد كان هذا المشهد يحدث تحت نافذتهم وعندما انتهيت من زيارتهم نزلت وفي الطريق قابلت أحد الضباط الذي كنت أعرفه منذ زمن فقال لي إن عرابي أصدر أوامره للضباط بالتصرف لفض المذبحة وإخماد المعركة، وكانت الساعة قد قاربت الخامسة والشوارع تعج بالنساء المولولات واللصوص الذين يحملون المسروقات من دكاكين شارع السبع بنات ثم وصل أحد الفرسان واتجه إلى الميدان وبعده بدقائق وصلت القوات لتحتل الشوارع حتى ميدان القناصل، وعندها فر المتجمهرون كالخراف في كل الاتجاهات وبعدها بأقل من نصف ساعة كان الأمن قد استتب وإن كان الأمر لم يقتصر على شارع السبع بنات فقد كان الوطنيون الذين كانوا في قمة الغضب قد انتشروا حتى الأحياء العربية من ناحية الجمرك حتى رأس التين وأبو العباس حيث قاموا بضرب كل من يقابلهم من الأوروبيين الذين كانوا في طريق عودتهم من زيارة الأساطيل الأجنبية، وقد قام المسلمون بإنقاذ عدد كبير من النساء الأوروبيات بإدخالهن إلى منازلهم. وقد عرفت من بين القتلى الرجال اثنين

من الإخوة الشباب الإنجليز الذين كانوا يملكون دكانًا في ميدان القناصل وكانوا يحملون مسدسات أشك أنهم كانوا يعرفون كيفية استعمالها، وقد كانا بصحبة بعض العاملين بشركة التلغراف الشرقية وقد عُثر على جثة أحدهما متشبثًا بمسدسه بقوة.. وفي نفس المكان كان هناك العديد من الأشخاص تم قتلهم وهم يحاولون الهرب قبل وصول قوات الأمن".

ويضيف نينيه أن الأميرال سيمور نفسه تعرض لهذا الموقف فقد كان في عربة في طريق عودته من فسحة كان يقوم بها -غريب أمر هذا الإنجليزي ينصب مدافعه في مواجهة مدينة مطمئنة ثم ينزل بقلب ثابت للمرح بين أرجائها.. أي منطق هذا- ويستكمل نينيه حديثه بأن أحدًا لم يتعرف عليه لحسن حظه بالطبع وتمكن من النجاة والعودة إلى الميناء وإلى سفينته من طرق جانبية بعيدة عن الشغب بفضل مساعدة أحد الجواسيس الأوروبيين التابعين لعمر باشا لطفي، ولكن أحد ميكانيكية أو مهندسي الأسطول الإنجليزي كان أقل حظًا من قائده فقد كان يرتدي بعض ملابسه الرسمية عندما كان في طريق عودته من الرمل حوالي الساعة الرابعة حينما تم إيقافه في منتصف المعركة وضربه حتى أصيب بإصابات مميتة.

وبحلول المساء تم نقل الموتى وإحصاؤهم فتبين أنهم 163 قتيلاً من الوطنيين أغلبهم من النساء والأطفال -ويبدو حسب رأي نينيه أن هذا ليس العدد الكامل- لأن الوطنيين كما يقول قاموا بنقل جثث أخرى قبل ذلك لم يتم إحصاؤها مما يجعل عدد الضحايا أكثر من ذلك بكثير.

وفي الصباح وداخل المستشفى المصري بمحطة الرمل تم إحصاء 68 جثة أوروبية.. يوناني وسوري بعضهم مات بواسطة طلقات نارية في منطقة الرأس من أماكن عالية أو من شرفات منازل وفي نفس اليوم تم انتشال 7 جثث لأوروبيين من البحر خلف حمامات الضبطية مما يجعل المجموع 75 جثة من غير المسلمين وتبعًا لهذا الإحصاء يمكن القول إن المجموع الكلي لقتلى هذا اليوم كان 238 قتيلاً.

ويؤكد نينيه أن كل ما حدث في هذا اليوم كان بسبب خطأ محافظ المدينة عمر باشا لطفي الذي أعماه حقده على الوطنيين وفقد الإنسانية والشجاعة ولم يعرف سوى إطاعة الأوامر الصادرة إليه من

القاهرة، مما جعل اسمه يتورط في مذبحة تردد صداها في كل أنحاء العالم.. وقد علمت من مصادر موثوق منها -والكلام ما زال على لسان نينيه- أن عرابي في القاهرة لم يعلم بالحادثة سوى الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة؛ وعندها أبرق إلى الإسكندرية بضرورة تدخل القوات الجهادية بينما لم يقم عمر باشا لطفي بالاتصال بعرابي وزير الحربية لإبلاغه بالمذبحة وعندها طلب الخديو ودرويش باشا من عرابي التدخل لفض المذبحة حينما ثار القناصل واضطرب الوضع القنصلي.

ويضيف نينيه أن العاملين الوطنيين القلائل الذين بقوا في مكتب التلغراف المصري لم يبرقوا أو يرسلوا أي تلغرافات إلى القاهرة إلا الخاصة بالمحافظ أو التي أرسلها هو وقد حاول أحد الكولونيلات إرسال تلغرافين إلى القاهرة في غاية الأهمية ولكن رُفض الإرسال بحجة مشاكل تلغرافية أو صعوبة في الإرسال.[16]

وطبقًا لتحليل نينيه فإنه يتصور أن هناك اتفاقًا مريبًا وترتيبًا مسبقًا لهذه المقتلة قد تم بين الخديو ودرويش باشا وعمر باشا لطفي، ومن الممكن أن يكون المالطي أخو خادم القنصل الإنجليزي هو مجرد أداة لإشعال الأزمة استنادًا إلى برقية أرسلها إدوارد ماليت من مصر إلى وزير خارجيته "أيرل جرانفيل" يوم 7 مايو أي قبل الحادثة بـ 34 يومًا يقول فيها إنه لابد من حدوث تعقيدات قبل الوصول إلى حلول مرضية للمسألة المصرية.

وقد ذكر نينيه أن تقارير خفر السواحل يؤيدها بعض ذوي الضمائر السليمة من الأوروبيين أثبتت أن الأسلحة والذخائر كانت ترد من الأسطول البريطاني وتنزل إلى البر عدة مرات وتُرسل إلى القنصلية الإنجليزية قبل هذه الحادثة، مما يعني أن الأسطول البريطاني كان يسلح الرعايا البريطانيين المقيمين في الإسكندرية، وهم ليسوا بالضرورة كلهم من الإنجليز بل منهم المالطيون وغيرهم من الجنسيات الذين كانوا من رعايا الدولة الإنجليزية وتحت رعايتها، وقد كان للإنجليز نصيب وافر في إطلاق النار على الأهالي من النوافذ.

16- John Ninet -Arabi pacha- p.123

المذبحة من وجهة نظر خديوية

والمقصود بوجهة النظر الخديوية ليس وجهة نظر الخديو توفيق ولكن وجهة نظر أحد حاشية الخديو والذي رأى الحادثة من الزاوية الأخرى أي الزاوية الرسمية أو وجهة النظر التي كانت تدور في المعية السنية ووراء أبواب القصور الخديوية، وهو في هذه الحالة أحمد شفيق باشا الذي كان يشغل إحدى الوظائف في البلاط الخديوي وروى هذه القصة، وقد بدأها بوصف الموقف والحالة في مصر بعنوان انفجار الثورة الفكرية واصفًا امتداد الثورة العرابية وانضمام الكتاب والخطباء إليها والذين كانوا يلقون الخطب الحماسية ويبثون روح الوطنية في الأهالي ويستفزون الناس لمقاومة الأجانب تخلصًا من الديون التي تثقل كاهل البلاد وعلى رأس هؤلاء الخطباء عبد الله النديم، وسرعان ما انقلبت مصر مسرحًا للخطباء في كل مجتمع وناد وحتى في المساجد، ويقول إنه كان يسمع محمد عثمان المغني الشهير إذا سُئل: في أي فرح تغني الليلة؟ يجيب في الفرح الفلاني مع عبد الله النديم. وكان عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي يحضرون هذه الحفلات ويتصدرونها فتُلقى الخطب والقصائد في مدحهم ولا ينصرفون عنها إلا بالتهليل والتكبير وفي هذه الحالة أصبح الناس كلهم "عرابي" فقد كان يُمثل في شكل البطل المنقذ وقد وُزعت صورته في أنحاء البلاد وهو جالس ينظر نظرات بعيدة، وعلى رأسه عبد العال قابضًا على سيفه وإلى جانبه علي فهمي وهو يمسك بيده ورقة مطوية كُتب عليها الدستور.[17]



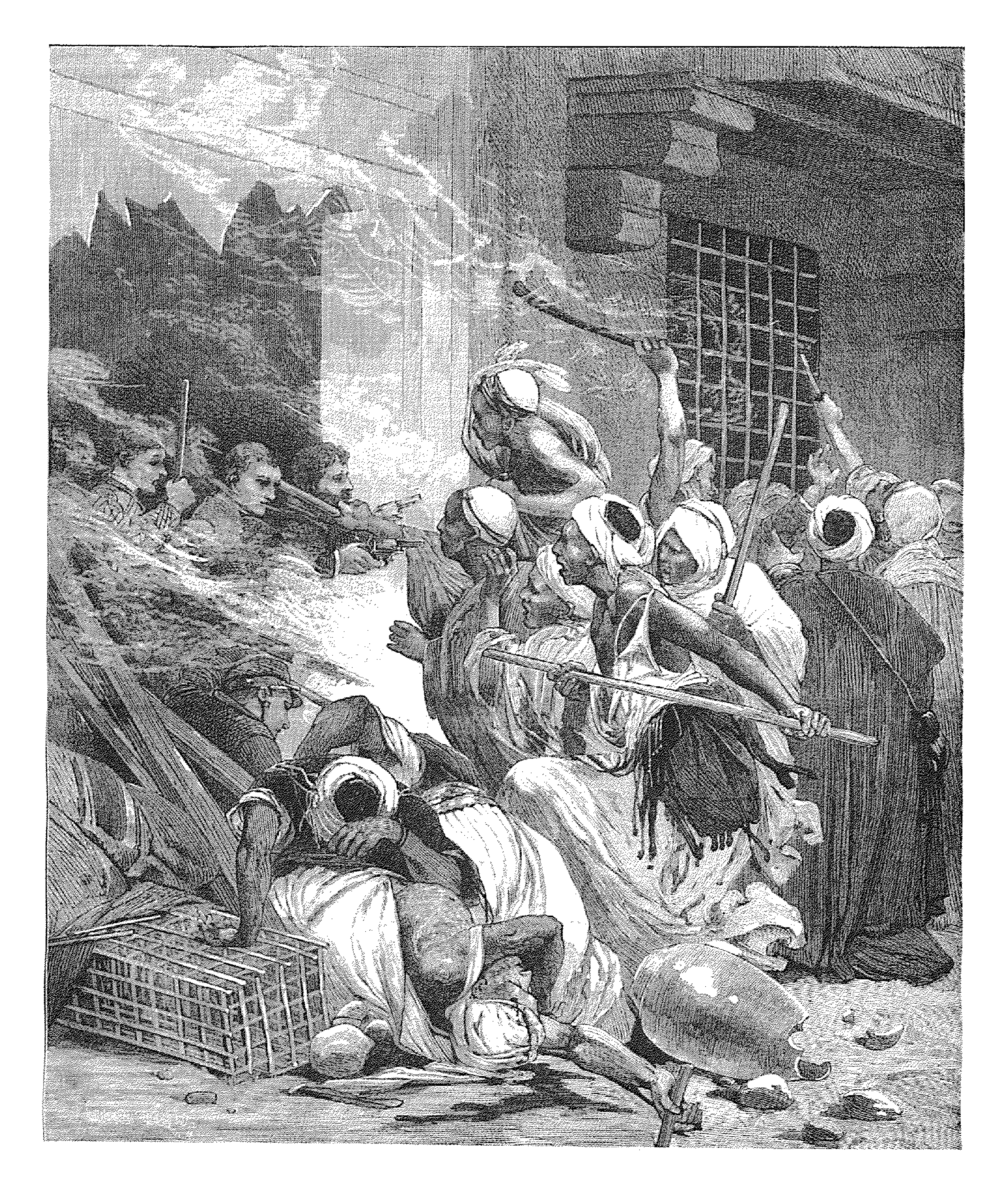
الخديو توفيق الذي حكم مصر في الفترة من 1879 إلى 1892.

وبعد هذه المقدمة عن الحالة في البلاد كتب تحت عنوان "مذبحة الإسكندرية" يقول: "وبينما نحن في السراي نضرب أخماسًا في أسداس لتفاقم الحال إلى هذا الحد جاءت الأنباء من الإسكندرية يوم 11 يونية بوقوع حادث فظيع، وهو مذبحة شنيعة هلك فيها كثير من الأهالي والأجانب، وهذه الحادثة أن تشاجر رجل مالطي مع مكاري مصري في الإسكندرية لامتناع المالطي عن إعطائه الأجر الكافي نظير ركوب حماره، وكان المالطي ثملاً فطعن المكاري بمدية، فانتصر لكل منهما قوم من أبناء

17- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص147.

ملته فتذمر جمهور من الوطنيين وأرادوا أن يثأروا من الأوروبيين. ولاسيما أن الحركة العرابية كانت قد أوغرت صدور بعض الفريقين من بعض، وابتدأ الأوروبيون يطلقون النار من النوافذ على كل مار من الوطنيين. فازداد غضب المتجمهرين، وتضاعف الخطب، ولم يوجد من يزجر الجماهير أو يشرح لهم ضرر فعلتهم، مع تمادي الأوروبيين المتحصنين في بيوتهم في إطلاق النار، حتى عظم القتال بين الفريقين، وانتهز الرعاع هذه الفرصة ونهبوا كثيراً من المحلات التجارية، ثم صدرت الأوامر للجند بتفريق المتجمهرين، فلم يأت الغروب إلا وقد هدأت الأحوال وسكن الاضطراب، وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بهذه الثورة. وجُرح المستر كوكسن في رأسه، كما جُرح قنصل جنرال اليونان، فكان لذلك النبأ شأن عظيم، ولاسيما عند الخديو وجميع رؤساء المعية. وكان أخطر ما نتوقعه بسبب هذه الحادثة هو تدخل الأجانب في شئون البلاد تدخلاً فعليًّا، لاسيما وأنها كان لها دوي عظيم في أوروبا إذ نسبته الجرائد الأجنبية إلى التعصب الديني بالرغم من أن المسيو "دو فريسينية" أعلن في مجلس النواب أن ليس لهذه الحادثة من أهمية سياسية. ثم رأى الخديو بعد حصول مذبحة الإسكندرية أن يسافر إليها تطمينًا لخواطر الأوروبيين بها، فقصدها يوم 13 يونية وصحبة درويش باشا (المندوب العثماني) ورجال المعية، كما سافر إليها أغلب قناصل الدول الجنرالية والمراقبان الماليان. ولما وصلنا أُطلقت المدافع تحية لاستقباله، على غير علم من الأهالي، فكانت مبعث فزع شديد في نفوسهم ظنًّا منهم أنها صادرة من الأساطيل.[18] وعلى إثر وصول سموه زاره قناصل الدول، ولم يتخلف منهم إلا القنصلان الفرنسي والإنجليزي، فأبدى لهم شديد أسفه على ما حدث، ووعدهم ببذل عنايته في تلافي آثار هذه الكارثة، وكذلك طمأنهم درويش باشا مندوب السلطان. ولكن في نفس اليوم الذي وصل فيه الخديو توفيق إلى الإسكندرية سرت إشاعة بأن الأجانب يستعدون للهجوم على الوطنيين، فاجتمع في الإسكندرية بعض رؤساء الجند وبعثوا لقناصل الدول بتصريح يتضمن أنهم لا يتحملون أي مسئولية إذا بدأ الأجانب الاعتداء. فلما تلقى القناصل هذا الإنذار، اجتمعوا وأصدروا إلى رعاياهم منشوراً بالتزام الهدوء والسكينة.

18- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 152.



تحت عنوان "الأزمة في مصر" نشرت جريدة Illustrated London news صورة لبعض الوطنيين يحاولون تحطيم وكسر أحد محال الأجانب في منطقة المنشية أثناء مذبحة الإسكندرية والأجانب يقاومون الهجوم بواسطة المسدسات، صورة نشرت في صدر الصفحة الأولى بتاريخ 1 يوليو 1882.

مفاجآت... مفاجآت

حكايات عن المذبحة بلسان أبطالها

اتفقت كل الكتب والمراجع القديمة والمؤرخين ورواة التاريخ على أن مذبحة أو مقتلة 11 يونية 1882 بدأت بين شخصين أحدهما مصري هو "السيد العجان" وهو حمّار أو مكاري وأن الشخص الآخر مالطي لم يذكروا له اسمًا.. واتفقت كل المراجع كذلك أن المالطي المخمور هو الذي بدأ المعركة بضرب المصري بسكين بسبب الخلاف على الأجرة وأن المصري مات من فوره إثر هذه الضربة وأن المالطي اختفى بعدها مما أشعل قلوب المصريين بالغضب وفجر البركان.. هذا ما يذكره الجميع وما اتفق عليه الكل.

ولكن الجديد في الموضوع هو العديد من المفاجآت الخطيرة التي قد تكشفت أثناء إعداد هذا الكتاب والتي قد تعيد التأريخ لهذه الحادثة بشكل مختلف من واقع المحاضر الرسمية التي أُجريت بمعرفة لجان التحقيقات -قومسيون تحقيق الإسكندرية- التي شكلها الخديو توفيق لبحث مقتلة 11 يونية 1882 برئاسة عبد الرحمن باشا رشدي وعضوية العديد من رجال الدولة وبعض الأجانب من تبعية قناصل الدول الأجنبية والتي نقلها بالحرف الواحد سليم خليل النقاش في سلسلة كتبه "مصر للمصريين" التي طُبعت بمطبعة جريدة المحروسة بالإسكندرية سنة 1884، وهذه المفاجآت عديدة وخطيرة وأهمها هي التي يفجرها أحد أطراف هذه الحادثة وهو المصري "السيد العجان" بنفسه في التحقيقات وهي أنه أي "السيد العجان" لم يمت إثر الضربة بل أصيب فقط وإن كانت إصابة خطيرة نُقل على إثرها للاسبتالية الميرية أو المستشفى الميري ضمن من تم نقلهم من الجرحى وأن المالطي الذي ضرب المصري اسمه "فرانشيسكو زميت" وأن هذا المالطي قد تم احتجازه لفترة في حبس باب محرم بك حسب شهادة "أوجنيو نيكوليج" معاون قرة قول اللبان وأن المذبحة أو المقتلة -كما أُطلق عليها في ذلك الوقت- التي استمرت لمدة تزيد عن ثلاث ساعات وأسفرت عن العشرات من القتلى والجرحى

لم تكن بسبب الخلاف على أجرة ركوب حمار، إنما كانت لسبب آخر مختلف تمامًا لم تذكره الكتب والمراجع القديمة أو أغفلته ربما عن عمد ولكن أغلب الظن عن جهل؛ حيث يتناقل الكتاب الحكايات من بعضهم البعض وبعضهم لا يكلف نفسه الرجوع إلى الأصول أو الأوراق الرسمية ومن هنا تبدأ المشكلة. ولنترك السيد العجان يحكي القصة كلها كما وردت في المحاضر الرسمية...

و قد تم سؤال السيد العجان للمرة الأولى بعد أيام من المذبحة وكان في المستشفى الميري فكانت إجاباته قصيرة ومقتضبة لظروف مرضه:

و هي الإفادة التي أطلق عليها "المستنطقات" أي الأقوال التي أُخذت من المجرمين الذين أصيبوا في واقعة الأحد الموافق 11 يونية 1882 والمذكورين بالإسبيتالية الميرية ومنهم السيد العجان الذي كان يرقد مصابًا جراء الحادث فقال:[19]

"ج: صنعتي عجان وفي يوم الأحد كنت ماشيًا بجهة قهوة القزاز فوجدت رجلاً ابن عرب يشتري سمكًا مقليًّا من خواجة أعرف دكانه، ووجدت النصارى زانقين ابن العرب في وسطهم ولما استفهمت من الحاضرين عن الكيفية ووجدت إن الخناقة هي بخصوص قيمة عشرين بارة ثمن سمك، فقلت للخواجة معلهش إذا كانت سمكة زيادة أو سمكة نقصان، فالخواجة سب ديني وركض خلفي وضربني بسكينة في ليتي الشمال فوقعت بالأرض وشالوني العسكر والناس وأوصلوني إلى القرة قول".

ثم كان **المحضر الثاني** الموسع والذي أُجري مع السيد العجان يوم الاثنين 9 محرم 1300 هـ، 21 نوفمبر 1882 وكان في هذا الوقت مسجونًا على ذمة هذه القضية:[20]

"بناء على ما تقرر تم طلب السيد سلام من سجن ضبطية الإسكندرية فحضر وسُئل فأجاب كما يأتي:

س: ما اسمك؟

19- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الثامن ص 614.

20- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء السابع ص 335.

ج: السيد سلام.

س: ما صنعتك؟

ج: عجان في الإسكندرية.

س: أين كنت يوم مقتلة الإسكندرية التي حصلت في 11 جونيو (يونية) سنة 82؟

ج: كنت في الفرن وخرجت منه لشراء دخان بعد الظهر.

س: أين يوجد الفرن المذكور؟

ج: في شارع المنير بالقرب من جامع الحاج نظير.

س: ماذا جرى بعد خروجك لشراء الدخان؟

ج: صادفت بالقرب من قهوة القزاز صيادين مالطين قابضين على رجل مسلم ولما استفهمت منهما عن سبب ذلك أجاباني أنه أخذ السمك وألقاه على الأرض فقلت لهما ولكن لا يصح ضربه بل خذوا مني غرشًا (قرشًا) أو اثنين واتركوه، فما كان من أحدهما إلا أن دخل إلى دكانه وأحضر سكينًا وطعنني بها في فخذي فسقطت على الأرض، ثم حملني بعض الناس وذهبوا بي إلى القرة قول ثم من القرة قول إلى الإسبتالية الميرية وبعد مكوثي بها نحو ثمانية وعشرين يومًا نُقلت إلى الضبطية وبقيت فيها لغاية ثاني يوم الضرب على طوابي الإسكندرية، فرأيت جميع المسجونين يخرجون من السجن فخرجت منه بالجملة وتوجهت لبلدي في جهات الفلاحين.

س: هل سُجنت في الضبطية قبل حصول الواقعة؟

ج: لم أسجن إلا في هذه الدفعة إنما سُجن أخي لنقود مطلوبة منه.

س: ماذا رأيت بعد خروجك من السجن؟

ج: لم أر شيئًا بل كنت متكئًا على اثنين لما كان بي من الألم من الضرب الذي أصابني من أحمد أفندي سلامة.

س: حيث إنك ضُربت بسكين في يوم الواقعة وصار إرسالك إلى الإسبتالية فلماذا سُجنت بالضبطية بعد شفائك؟

ج: لما خرجت من الإسبتالية أُطلقت بضمانة ولكن لما قدموني لناظر القلم أمر بحبسي قائلاً إني أنا سبب هيجان البلد.

س: هل تعرف المالطي الذي ضربك بالسكين؟

ج: لم أعرفه.

س: هل تعرف الشخص المسلم الذي ضربه المالطيان؟

ج: لم أعرفه.

س: ألم يبلغك سبب حصول هذه الواقعة؟

ج: لم يبلغني.

س: أين يوجد منزلك في الإسكندرية؟

ج: في كوم الشقافة، فوق رأس الحارة التي فيها سراي الشيخ حسن عبد الله.

س: هل تعرف أسماء جيرانك؟

ج: لم أعرف أحد لوجودي أغلب الأوقات في الفرن.

س: منذ كم وجدت في الإسكندرية؟

ج: منذ ثماني عشرة سنة تقريباً.

س: قال دوناتو جوزيى الباشجاويش إنه رآك قاصد الدخول بالقوة الجبرية إلى محل الشخص المالطي الذي حصلت معه المعركة وهرب من محله وأراد منعك فتهورت عليه وشتمته فهل حصل منك ذلك حقيقة؟

ج: إني لم أر الجاويش المذكور.

(أعيد بعد ذلك للسجن).

ثم كانت الإفادة الثالثة أو تقرير السيد سالم العجان وصحة اسمه السيد سلام يوم السبت 6 يناير 1883 أمام سعادة عبد الرحمن باشا رشدي رئيس القومسيون وأغلب الظن أنه كان موجودًا وقتها في بلدته المنوفية فتم استدعاؤه:

ج: اسمي كما ذُكر وإقامتي كانت بسكندرية من مدة 15 سنة وصناعتي عجان وسكني بمنزل عمتي فاطمة بنت أحمد زوجة السيد أحمد منصور الكيال بجهة كوم الشقافة البراني ولا أعرف اسم شيخ الحارة، والكيفية هو أن يوم الأحد 11 يونية 1882 أعني يوم حادثة إسكندرية الأولى كنت شغال بفرن الحاج حسين فرغلي الكائن جهة جامع الحاج نذير وبعد الظهر ببرهة طلعت من الفرن قاصدًا مُشترى نصف أوقية دخان ولما وصلت لحد قهوة القزاز وجدت إتنين مالطية جاريين مبيع سمك لواحد مسلم لا أعرفه ولما لم يعجبه السمك أراد رجوعه لهم فما كان منهم إلا أن (دوروا) فيه الضرب فصعب عليّ الرجل وقلت لواحد منهم (خد القرش من جيبي وسيبه أحسن حرام عليك) فما كان منه إلا أن سب ديني ودخل محله وأحضر سكينة وضربني بها في فخذي الشمال ووقتها ما وعيت لنفسي إلا وأنا في قرة قول اللبان ومنهُ أُرسلت إلى الإسبتالية وبعد أن مكثت بها 28 يومًا أو 30 تقريبًا خرجت منها لحصول شفائي وحضرت بالضبطية وصار سجني لحد ثاني يوم ضرب إسكندرية في وقت الظهر فإنه حصل فتح باب السجن بمعرفة الملازم والعساكر الخفر وأمروا المسجونين بالخروج وأنا خرجت بالمثل وتوجهت إلى بلدي ومن عهدها إلى الآن وأنا موجود بها وبمعرفة المديرية صار استحضاري وأرسلني إلى هنا وهذا تقريري.

س: إلى السيد سلام من تقريرك يُعلم بأنك كنت شغالاً بالفرن وخرجت منه لأجل مُشترى وقية دخان فإذا كان الأمر كما تقول فما الذي حملك على الدخول بين المالطية الذين كانوا يبيعون

السمك لرجل مسلم وما الداعي لتعرضك لهم وحصول الإشكال الذي بُني عليه الهيجان الذي حصل في يوم 11 يونية هل أحد أغراك على ذلك أم كيف؟.. أفد عن الحقيقة.

ج: الذي حصل هو هكذا وكان ذلك خطأ مني وليس من أغراني بشيء.[21]

ومع تواصل التحقيقات.. أرسل عثمان عُرفي مأمور ضبطية إسكندرية خطاباً إلى رئيس قومسيون التحقيق في الحادثة قال فيه:

"سعادتلو أفندم.[22] حيث تحقق أن المُسبب في مقتلة 11 جونيو (يونية) 1882 شخصان من أهالي طنيشا منوفية وهما السيد سلام وأخيه مليجي سلام فقد استُحضروا من ناحية بلدهم وأُخذت أقوالهم وأقوال الداورية التي انوجدت وقتها وحيث من الاقتضاء محاكمة المذكورين نظير ما جنوه فاقتضى تحريره لسعادتكم وأوراق القضية وقدرهم عدد 11 بالحافظة قادمين طية للنظر وإجراء ما يلزم، من جهة كون سجن أحدهما من عدمة قبل حادثة 11 جونيو سنة 82 وأسبابه فهذه أُعطي عنها الإخطار اللازم يوم تاريخه لنظارة الداخلية حسبما اتضح من الاستعلامات التي حصلت من معاوني الضبطية وكاتب السجون في 23 صفر 1299 هجرية.

مأمور ضبطية إسكندرية عثمان عُرفي"

ومن هنا يتبين أن في القصة شخصًا آخر هو "مليجي سلام" أخو "السيد سلام أو السيد العجان كما يُطلق عليه" والذي تم استجوابه بحضور سعادة عبد الرحمن باشا رشدي رئيس القومسيون بتاريخ 6 يناير 1883:

"س: ما اسمك وصنعتك وسنك؟

21- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء التاسع ص 763.

22- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء التاسع ص 755.

ج: اسمي مليجي سلام وصنعتي فران وعمري لا أدري (يظهر أن عمره نحو خمس وعشرين سنة) وبلدي من طنيشا ومقيم بالإسكندرية من 12 سنة.

س: هل سبق سجنك بالضبطية قبل واقعة 11 يونية؟

ج: كنت مسجونًا قبل بأربعة أيام نظير دين مطلوب مني لواحد.

س: في أي تاريخ طلعت من الحبس؟

ج: طلعت قبل الواقعة بأربعة أيام.

س: لأي سبب كان صار سجنك بالضبطية؟

ج: كان مطلوب منى دين لشخص يسمى الحاج سليمان الشمكشي ثمن دقيق واشتكاني للضبطية وصار سجني.

س: ما مقدار الدين؟

ج: ثلاثة جنيهات وأخذ منهم جنيه وقسط الباقي وبالنظر لجسامة التقسيط الذي قدره عليّ قرة قول اللبانة توقفت فصار إرسالي للضبطية وأحضروني أمام مأمور التحصيل.

س: ما اسم مأمور التحصيل؟

ج: لا أعلم اسمه.

س: ما هيئته بدقن أم حليق؟

ج: الذي أتذكره أنه حليق بشنب.

س: ماذا أجرى مأمور التحصيل المحكي عنه.

ج: قال لي اقبل التقسيط الذي قدره ستون غرشًا صاغًا شهريًا فما أمكنني قبول ذلك وبعدها أمر بسجني.

س: بأي صفة طلعت من السجن؟

ج: طلعت لأن والدة زوجتي المسماة صفية حضرت للضبطية وتكلمت مع غالي أفندي الكاتب بقلم تحصيلات وترجته في تخفيف التقسيط عليّ فما أمكن وبعدها تكلمت معي وقالت لي أن أقبل التقسيط، وبعدها أحضرت الضمانة من صهري والد زوجتي المدعو على فايد الجهادي الذي كان مستخدمًا سابقًا في الترسانة وما كان مستخدمًا وقتها والضمانة مصدق عليها شيخ الحارة المدعو متولي شيخ نمرة 5 بجوار جامع الحاج نذير.

س: أعطيت الضمانة لمن؟

ج: لا أعلم أنا سلمتها لمن يلزم بالضبطية فحضر شخص عسكري وبلغ الأمر بالإفراج عني فخرجت.

س: علمنا أنك قبل خروجك من السجن كنت عند المأمور على حسب أمره والذي أخرجك من السجن وطلعك عنده أحد معاونين الضبطية، فلماذا كتمت عن ذلك بقولك إنه شخص عسكري بلغ الأمر بالإفراج عنك وخرجت من غير مقابلة المأمور.

ج: أنا خرجت من السجن كما أخبرت، أعني من غير مقابلة المأمور وكان خروجي في يوم الأربعاء 21 رجب 1299 هـ وبعد خروجي بقيت يوم الخميس من غير شغل وابتديت في الشغل يوم الجمعة بفرن عثمان الكاين بجوار جامع الحاج نذير.

س: أين كنت يوم الأحد 11 يونية 1882؟

ج: كنت بفرن شخص يسمى عثمان بجوار جامع الحاج نذير واشتغلت فيه من الساعة ثمانية ليلاً أعني قبل الفجر وبقيت هناك لحد قبل العصر فحضر بعض أناس لا أعرفهم وأخبروني بأن أخي سلام ضُرب بسكين من واحد نصراني ووقع على الأرض مرميًا فخرجت من الفرن وتوجهت إليه فوجدته بالقرب من قهوة القزاز ملقيًا على الأرض وملوثًا بالدماء فربطت له الجرح بحزامه وفي أثناء

ذلك كانت الأفرنك -الأجانب- ترمينا بالطوب من البيت الذي دخل فيه الضارب، فاجتمعت أناس بكثرة من الأهالي يتفرجون عليه وما كان هناك أحد من رجال الضبطية فأردنا الدخول في بيت النصراني للقبض عليه وأخذه وتوصيله لمحل الحكومة، وبينما كنت أربط رجل أخي صار ضرب عيارات نارية علينا من شبابيك الإفرنج وبعدها حضر جاويش تلياني-إيطالي حيث كانت قوة البوليس تضم أجانب- ونحن قاصدين الدخول إلى بيت النصراني وأوقع فينا الضرب بأيديه وبعد ذلك أولاد العرب أرادوا أن يضربوه فإذ ذاك سحب هو السنجة فأجريت ضبطه والقبض على السنجة حالة كونها في يده حضرنا نحن الاثنين قابضين عليها فحضروا جاويشية من أولاد العرب وأوصلونا إلى القرة قول وهناك أخذوا من أيدينا السنجة وحفظوها وحضر المحافظ وأعطوها إليه وقال إن هذه السنجة هي تعلقهم وأدخلها بالأوضة وذهب وقعدت بالقرة قول لحد الساعة ثلاثة ليلاً محجوز وبعدها أخذوني إلى الباب الحديد وقعدت هناك لحد تاني يوم ضرب المدافع ثم خرج الجميع.

س: معاون القرة قول "نيكوليج" يدعي بأنك ضربته بالبونية على عينه في وقت ما حضر عند الواقعة وقت اجتماعكم حول أخيك المجروح.

ج: ما نظرته.

س: يوسف دوناتو الجاويش التلياني مدعي عليك بأنك ضربته بعصا على رأسه وأخذت منه السيف بعد وقوعه على الأرض من تلك الضربة فما جوابك؟

ج: ما ضربته ولا كان معي عصا...[23]

ثم أعيد استدعاء مليجي سلام لمحضر جديد قال فيه:

اسمي كما ذُكر من أهالي طنيشة منوفية، وإقامتي كانت بسكندرية من مدة 8 سنوات وصناعتي

23- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء التاسع ص761.

فران وسكني بجوار جامع الحاج نذير بمنزل حماتي المدعوة صفية والكيفية هو أنه في يوم الأحد 11 يونية 82 أعني يوم حادثة الإسكندرية الأولى كنت شغالاً بفرن شخص اسمه عثمان لا أعرف لقبه في جهة قرة قول اللبانة إذ حضر لي غلام شخص مزين اسمه محمد كائن محلة بالجهة المذكورة وأخبرني أن رجلاً مالطيًّا ضرب أخي السيد سلام بسكينة فطلعت من الفرن مسرعًا ووجدت أخي مضروبًا ولما سألت عن الضارب فالحاضرون من المسلمين أخبروني أنه طلع بمنزل فدعيتهم للصعود معي لإحضاره وتوصيله للقرة قول وفي الأثناء حضر جاويش إفرنجي فالحاضرون أرادوا ضربه فما كان من المذكور إلا وسحب السنجة وقصد ضرب أخي فحضروا الجاويشية العرب وأخذونا مع الجاويش الإفرنجي للقرة قول ومنه أُرسلت لسجن باب الصوري وبقيت مسجونًا لحد تالت يوم ضرب إسكندرية حضرت العساكر وأخرجت المسجونين وأنا خرجت مثلهم وأقمت بسكندرية وبعد انفضاض الحركة والهدوء توجهت لبلدي بقصد المطلة على أهلي وقد حضر لي طلب مع أخي من المديرية وأرسلتنا إلى هنا.

س: من المعلوم أن أوض السجون بباب الصوري صغيرة ويمكنكم معرفة الذي حضر لفتح الأبواب فأفد.

ج: إن أبواب السجون كانت مغلوقة علينا وبعد حصول ضرب إسكندرية بيومين صار فتحها لأجل خروج المسجونين وقيل إن الذي فتح الأبواب المذكورة هم الجاويشية أولاد العرب، وما نظرتهم وإن حضروا أمامي لا أعرفهم.[24]

ثم كان **المحضر الثالث** يوم الاثنين 9 محرم سنة 1300 هـ وقد أُحضر مليجي من سجن الضبطية لسؤاله، ولا أجد ضرورة لنقلها كاملة ولكن سوف أنقل الجديد فيها:

س: ألم تر حصول القتل في الجهة التي كنت فيها؟

24- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء التاسع ص763.

ج: لما توجهت للقرة قول ما كان حاصلاً شيء إنما بعد نصف ساعة حضر كثيرون من أوروبيين وأهالي مضروبين ومجروحين وانتشرت الحركة في البلد.

س: ألم تعلم أسباب هذه الحركة؟

ج: لم أعلم.

س: شهد أُناس كثيرون أن مأمور الضبطية طلبك أمامه في يوم الجمعة السابق يوم الواقعة وقبل الظهر من اليوم المذكور صار إخلاء سبيلك فلماذا طُلبت؟

ج: لم يطلبني المأمور ولم أرهُ وإن ثبُت عليّ غير ذلك أقبل بإطلاق المدفع عليّ.

س: أين كنت في يوم الضرب على طوابي إسكندرية؟

ج: كنت في السجن في باب الصوري لغاية تالت يوم ففُتحت فيه أبواب السجن، وباستفهامي عن ذلك قيل إن جاويشًا فتح الأبواب وذهب فخرج المسجونون وخرجت أيضًا.

س: ألم يبلغك من حرق الإسكندرية؟

ج: لم يبلغني.

س: هل رأيت عبد الله النديم في أثناء حضوره إلى الإسكندرية في كوم الشقافة وإلقاء الخطب.

ج: لم أعرفه ولم أره.

ثم أُعيد بعد ذلك للسجن". [25]

إلى هنا انتهت التحقيقات التي أُجريت مع الأخوين (سلام) والتي أعتقد أنها تحقيقات اتسمت بالتكرار والحزم مع المعتدى عليه بينما أغفلت المُعتدي.. وهو أمر غريب لم نألفه من قبل...

وقد وجدت من الضروري التعليق على بعض ما جاء في هذه المحاضر:

25- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين – الجزء السابع ص226.

- كانت هناك محاولة لإلصاق تهمة إحداث المجزرة أو المذبحة للأخوين السيد ومليجي سلام وهذا ما يجافي المنطق والعقل فكيف يكون المجني عليه هو نفسه الجاني مع محاولة إظهار وكأن الحادثة كانت مُدبرة أو مُتعمدة من جانب المصريين بدليل ما جاء في التحقيقات من أن مليجي سلام كان محبوسًا على ذمة قضية أخرى وأُفرج عنه قبل الحادثة بأيام بمعرفة السيد بك قنديل مأمور الضبطية -وصديق الضباط العرابيين- الذي قيل في أكثر من محضر إنه اختلى بمليجي سلام أكثر من مرة في غرفته ولم يعرف أحد أبدًا ما دار بينهما من حديث مما يوحي بأنه كان يدبر معه الحادثة وهو ما حاول المحققون إثباته في أكثر من محضر ولكنهم فشلوا.
- محاولة إظهار السيد بك قنديل مأمور الضبطية في موقف المتخاذل عن حفظ الأمن وإعادة الهدوء والسكينة للمدينة وفض المذبحة حيث كان مريضًا في ذلك اليوم ومُلازم الفراش بأمر الأطباء لإصابته بشلل في أحد ذراعيه، ولم ينزل إلى عمله حينما بلغه أمر المذبحة ومحاولة رجال التحقيق الربط بينه وبين أحمد عرابي حتى قيل في بعض المراجع إنه كان وكيله في الإسكندرية وذكر علاقته بالعديد من الضباط ورجال الثورة العرابية الذين جرمتهم لجان التحقيقات فيما بعد.

عدم ورود أي ذكر لاسم الرجل المصري الذي كان يشتري السمك من المالطيين والذي تدخل السيد العجان مدافعًا عنه.

- لم يرد ذكر لاسم المالطي "فرانشيسكو زميت"[26] الجاني الذي ضرب المصري بسكين إلا في تقرير قرة قول اللبان في 25 رجب 1299 الذي ذُكر فيه أنه: "بإرشاد أخو المضروب والعالم الذين كانوا حاضرين الواقعة صار ضبط الضارب الذي عُلم أن اسمه فرانشيسكو زميت". ولم نعرف أبدًا ماذا حدث له؟ وهل حوكم؟ أو حبس؟ وأين محاضر التحقيقات معه؟ فبينما نقل سليم النقاش أكثر من 3 محاضر لكل من الأخوين المصريين لم نجد أي أثر لمحاضر للمالطي سوى أنه نقل ليلاً لحبس باب محرم بك، مما يدعو للدهشة والعجب ويعطي الإيحاء بأن الأمر كان مدبرًا من جانب

26- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء التاسع ص 95.

الإنجليز خاصة بعد علمنا أن المالطي الجاني كان شقيق خادم القنصل الإنجليزي، مما يثير التساؤل هل تمت هذه المذبحة بتدبير من الإنجليز لتقدم المبرر اللازم للأسطول الإنجليزي لضرب المدينة واحتلالها بدعوى حماية الأجانب والأقليات بل والمسيحيين أيضًا من هجوم المسلمين.

- هروب المالطي إلى داخل البيت الذي يسكنه المالطيون واليونانيون تم بشكل درامتيكي أعطى الإحساس بأن كل شيء تم بتدبير مسبق أو على الأقل أوحى بأن الأجانب وخاصة رعايا الدولة الإنجليزية كانوا يستعدون لموقف كهذا بدليل أن الضرب بالمسدسات وإطلاق النيران بدأ على الفور من شبابيك المنزل الذي اختبأ به المالطي وبدا الأمر كأن هناك معركة حربية بين جانب مسلح بأسلحة حديثة (مسدسات) وجانب مسلح بوسائل بدائية (عصي ونبابيت) وكأن كل سكان البيت كانوا مسلحين ويقفون وراء الأبواب وهو أمر غير طبيعي بالمرة في ذلك الزمان بل وفي أي زمان، ولكن هذا الموقف يتفق تمامًا مع السياسة التي اتبعتها القنصلية الإنجليزية في الدعوة لتسليح رعاياها بل وإمدادهم بالأسلحة حسب شهادة بعض الشهود استعدادًا ليوم كهذا.
- طرحت التحقيقات العديد من الأسئلة حول من الذي قام بتوزيع النبابيت والعصي على أولاد العرب في محاولة لتسليحهم في مواجهة الأوروبيين وخاصة أنه قد ورد في التحقيقات أنه كان هناك من يقوم بإلقاء النبابيت من فوق سطح الضبطية ويقال إنها كانت من ضمن أحراز الضبطية أو النبابيت التي سبق ضبطها وتحريزها على ذمة قضايا قديمة وفي بعض التحقيقات ذُكر أن أحد الموالين للعرابيين وهو موسى العقاد هو الذي اشترى كمية ضخمة من النبابيت وكان يقوم بتوزيعها وهو ما لم تستطع التحقيقات إثباته.
- تم العثور على جثث بعض قتلى هذه المذبحة في البحر؟ فمن الذي أمر بإلقائها؟ ومن الذي قام بانتشالها؟ وقد شهد بعض الشهود أنهم قاموا بانتشال بعض الجثث من بحر الإسكندرية وأن بعضها الآخر كان مبللاً بمياه مالحة أو عليها بعض الأعشاب البحرية.

- هل صحيح تباطؤ ضباط وعساكر البوليس في فض هذه المشاجرة التي بدأت بسيطة وسرعان ما تطورت وتحولت إلى حرب صغيرة داخل المدينة؟
- شهدت المدينة الكثير من الأحداث الساخنة في فترة الثلاث ساعات التي استمرت فيها هذه المذبحة فبينما كان اهتمام الجميع منصرفًا إلى فض المذبحة وحماية الأرواح، كان هناك حركة سلب ونهب في الدكاكين والبيوت وخاصة القريبة من المذبحة وما يحيط بها من شوارع فما الذي حدث؟

وقبل أن نقلب صفحة الأخوين السيد ومليجي سلام سوف أنقل لكم نتيجة ما تراءى لقومسيون تحقيق إسكندرية في قضية نمرة 285 المقامة على مليجي سلام وأخيه السيد سلام في تهمة كونهما تسببا في مقتلة يوم 11 يونية سنة 1882...[27]

"إنه بعد الاستماع لشهادة عشرات الشهود الذين أكدوا أن السيد سلام لم يكن البادئ بالعدوان بل هو مجرد مجني عليه وخاصة شهادة "ماريوس ديلاروكا" الجرنالجي الفرنساوي الساكن بجوار قرة قول اللبان وأن مليجي سلام حضر على عجل واشتغل بربط جرح أخيه بينما قام الإفرنج برميهم بالطوب وإطلاق النار عليهم مما دعاه لمحاولة الصعود للبيت للقبض على الجاني.. ومن حيث إنه مثبوت أن سبب المشاجرة هو حصول الضرب بالسكين من واحد مالطي إلى السيد سلام حتى جرحه في فخذه واستدعى العلاج وإن القول أنه هو وأخوه مليجي كانا السبب الأصلي لمعركة 11 يونية هو عبث، بالإضافة إلى تضارب أقوال اثنين من الجاويشية الأجانب الذين ادعوا أن مليجي قام بضربهما.. لذا تقرر عدم وجود وجه لإقامة دعوى على مليجي سلام وأخيه السيد سلام في 11 يناير 1883".

وقد شهد هذا اليوم العديد من القصص الحزينة عن بعض ما تعرض له المواطنون والأجانب من واقع ملفات التحقيقات التي وصلت إلى عدة آلاف من الأوراق ومنها:[28]

27- سليم خليل النقاش –مصر للمصريين- الجزء التاسع ص 767.

28- سليم خليل النقاش –مصر للمصريين- الجزء الثامن ص613.

- أحمد خلف العربجي الذي يسكن في حارة اليهود قال إنه كان متوجهًا لشراء عرضحال من عند جامع الشيخ وعند وصوله بالقرب من شارع الهماميل وجد ازدحامًا ثم ضربه شخص بسكين في ظهره وكان الناس يطلقون الرصاص من الشبابيك.
- خليل إبراهيم القهوجي بالهماميل كان في قهوته حينما طلع عليه خامورجي رومي يعرفه وضربه بطبنجة في رجله.
- داوود محمد البربري الطباخ عند الخواجا درفالو كان في طريقه لزيارة أحد أقاربه وعند وصوله إلى الأجزخانة الكائنة بشارع السبع بنات بالقرب من القرة قول وجد زحمة على حد قوله والرصاص شغال من فوق ومن تحت وعندما حاول الدخول إلى الحارة المجاورة أصابته رصاصة في ذراعه اليمنى ويعتقد أنها من البلكون الواطي فوق الأجزخانة أو فوق دكان الورد المصطنع.
- محمد شبلي العربجي كان يمر بجهة شارع السبع بنات فوجد خواجة صنعته بقال ساكن هناك في ملك منصور باشا ضربه ببندقية من التراسينو فأصابه في رجله.
- السيد مصباح الذي كان يعمل خادمًا عند الخواجة باريا نقولا بجهة الهماميل كان في دكان مخدومه فسمع ضرب رصاص فذهب ليرى ما يحدث فقابل طناس القهوجي الذي كانت قهوته مجاورة للدكان فقال له "ما تمشي يا بصاص" وضربه ببندقية في صدره وأخذ منه كيس الدراهم الذي كان فيه 49 فرنكًا ونصف والختم الذي كان يستخدمه وحجر أنتيكه، ولم يكتف بذلك بل أخذ جلابيته القديمة أيضًا على حد قوله.
- خير الله محمد العربجي على عربية ركوب كان في طريقه لتوصيل العربة إلى الإسطبل كما أمره معلمه وعندما وصل إلى الحمام الكائن بجهة الورشة ضربه شخص نصراني ببندقية في ذراعه وضربه آخر بعيار ناري في وجهه.
- أحمد النمسكي (كاتب بدائرة طوسون باشا) كان في زاوية البزار بشار الإبراهيمي لأداء فريضة الظهر ثم اتجه إلى منزله لتناول الغذاء فتقابل مع ابن أخته محمود على باب دكان المزين (الحلاق)

إبراهيم فطلب منه أن يعود للبيت لأن (الدنيا هايصة) على حد تعبيره، وبالفعل أخذ يجري حتى وصل إلى الحارة فوجد بها اثنين مجروحين أحدهما كان يحمل نبوتًا والثاني سكينًا وحاولا ضربه فقال لهما وهو يصفق على كفوفه أنه لا يحمل عصا أو سكينًا فلماذا يريدان أذيته وأعلمهما أنه يريد العودة إلى منزله فضربه الذي كان يحمل السكين في صدره ولكنه أفلت منهما وأخذ يجري حتى وصل إلى القرة قول ومنه إلى الضبطية وبعدها تم تحويله إلى الإسبتاليه.

- مرجان عبد الرحيم (جلاد) كان في طريقه لدكان شيخ العبيد وعندما وصل إلى جهة الورشة ضربه واحد جريجي (يوناني) بطبنجة رش.
- الشيخ شحاتة نصار (فقي) كان في العطارين في طريقه إلى القباري وقت العصر وعندما وصل إلى الخمارة وجد زحامًا شديدًا وقد أصابه شخص خامورجي برصاصة في فخذه الشمال.
- على محمد جراتلي تورك (بياع سمك) كان في طريقه إلى شارع السبع بنات فشاهد شخصًا يسمى الحاج عمر مصابًا بحجر في رأسه ورصاصًا في ظهره ووقع على الأرض في داخل الزقاق فحاول أن يحمله فضربه رجل نصراني من الشباك ببندقية رش فأصابه في ظهره ويده ووجهه.
- أنجلوكتاكزانوس كان في دكان بقال يملكه أخوه في مينا البصل وحضر واحد من أبناء العرب وطلب منه أن يغلق الدكان لأن الناس دايرين بالعصي يضربون ويخطفون البضائع فأغلق الأبواب والشبابيك ولكنهم خلعوا الباب ودخلوا وكانوا حوالي 70 نفرًا فحاول طردهم وضربهم بكرسي وصار يضربهم ويضربونه وهم يسرقون البضائع حتى حضر شيخ الحارة واستدعى عسكري من القرة قول في مينا البصل وشاهد الحالة وبعدها تم سد الأبواب والشبابيك.
- فليبو خريستو اليوناني (37 سنة) كان موجودًا في دكان معلمه البقال الذي طلب منه غلق الدكان وسد الأبواب بالبراميل ولكنه لم يتمكن، فقد اقتحم المكان العرب والعربان وأخذوا يضربون الموجودين بالمكان.

- ليونى براسانو النمساوي (41 سنة) يعمل فراشًا وقد عاد لمصر قبل هذا الحادث بـ 7 أشهر ويقول إنه في هذا اليوم كان يحمل أجرته التي قبضها وهي 20 فرنكًا وفي شارع السبع بنات تم توقيفه بواسطة 7 عساكر ثم سد عليه الطريق عساكر آخرون يحملون البنادق وضربوه وأخذوا منه الدراهم التي كانت معه وساعة قيمتها 30 فرنكًا وأرادوا أخذ حذائه ولكن شخصًا طليانيًا تمكن من إنقاذه من بين أيديهم.
- بره بيستر من رعايا الدولة الروسية (30 سنة) ويعمل حدادًا - وهذا الرجل قال أطرف ما يمكن أن تضمه ملفات التحقيقات في أي قضية وهي أنه يسكن في أوتيل بالمدينة ولكنه من فرط الهلع مما حدث لم يتذكر اسمه في التحقيقات- وكان موجودًا بالقرب من قنصلية فرنسا فهجم عليه أولاد العرب وأخذوا منه 14 فرنكًا و(غرشين) قرشين ومنديلاً ثم ضربوه حتى تمكن شخص لا يعرفه من تهريبه داخل زقاق قريب.
- زاميت الفريد المالطي (18 سنة) كان في قهوة "البراديزو" عندما بدأت المقتلة فحاول التوجه إلى محل عمه بشارة الجمرك فضربه اثنان من أولاد العرب وبعدهم ضربه خفير حضر إلى المكان فوقع على الأرض وفقد كتينه دهب مالطي وساعة فضة ودبوس دهب بحجر قزاز وريالين وبعدها نقله بعض الأجانب إلى قنصلاتو فرنسا.
- فيليشي أبيبر المالطي (20 سنة) نجار كان يعيش في بنها وقدم إلى الإسكندرية قبل الحادثة بخمسة أيام ويومها كان عائدًا من زيارة الأسطول الإنجليزي مع أربعة أشخاص آخرين وقبل وصولهم إلى جهة الضبطية هجم عليهم مجموعة من الأشخاص بعصي وقطع جريد وعساكر بالسنج وضربوهم ولكنهم تمكنوا من الهرب ووصلوا إلى المنشية واختبأوا بمنزل مدام ماروك.

هذه بعض النماذج لما قاله ضحايا هذا اليوم الرهيب من مصريين وأجانب عما مروا به خلال الساعات التي قلبت تاريخ الإسكندرية ومصر.

ما نشرته جريدة الأهرام

وبعد حوالي 56 يومًا من حدوث المذبحة وبالتحديد يوم 7 أغسطس 1882 نشرت جريدة الأهرام في صدر الصفحة الأولى خبرًا بعنوان "مجزرة الإسكندرية" ويرجع البعض التأخير في ظهور هذا الخبر لانقطاع الجريدة عن الصدور خلال تلك الفترة، ربما بسبب هرب ملاكها الشوام إلى خارج البلاد خوفًا من تعرضهم للقتل أو الإيذاء.

مجزرة الإسكندرية

"هو ذلك اليوم الفظيع الذي جعله عرابي مقدمة حربه البربرية، فإن العاصي وأخاه محمود بارودي بعثا بهذه المأمورية حسن موسى العقاد ونديم ولدينا براهين عديدة تؤيد حجتنا هذه. رأينا عساكر المستحفظين أنفسهم يذبحون ويقتلون والدما سواقي في نفس الضبطية ولدي برهان أعظم ذلك أن مأمور إحدى القراقولات أوعز إلى صديق له مسيحي أن لا يخرج بعد ظهر ذلك اليوم من بيته وأعرف الملازم وصديقه إنما أخاف على الأول الآن لكيلا لا يضربه العصاة. قل لي يا نديم ألا تخجل من نسبة ذلك لغير أوليائك المنافقين الذين عموا في سيرهم وضلوا عن سواء السبيل".

إلى هنا انتهى الخبر الذي يوضح أن الأهرام في هذه الفترة كان يقف في معسكر الخديو ورجاله حيث انقسم أهالي البلد إلى فريقين، الأول في صف الخديو الذي يمثل السلطة الشرعية في البلاد في ذلك الوقت، والفريق الثاني يضم الضباط وعساكر الجهادية الذين انضموا إلى عرابي ورجاله، بالإضافة إلى بعض رجال مجلس النواب وبعض الخطباء والمشايخ والوطنيين الذين رأوا في الالتفاف حول عرابي الحل للتخلص من الرقابة الأجنبية على البلاد وضعف الخديو ولتحسين أحوال البلاد.

وقد اختار الأهرام الانحياز إلى الخديو حتى لقد أطلق على عرابي وصحبه لقب "العصاة" وأخذ ينعتهم بأفظع الألفاظ وهو ما يخالف المواثيق الصحفية الحالية، بل لقد تبنى الأهرام وجهة النظر

مكاتيبات الجريدة

جميع المكاتيبات التي ترسل الينا ينبغي ان تكون خالصة الاجرة باسم عزتلو بشاره بك تقلا مدير الجريدة
ومحل ادارتها على شارع بولوناكي بقرب البحر
اجرة سطر الاعلان في الصحيفة الاولى خمسة فرنكات
وفي الثانية اربعة وفي الثالثة ثلاثة
وفي الرابعة فرنكان

الاهرام

قيمة الاشتراك

عن سنة | عن ستة اشهر
فرنك | فرنك
في القطر المصري وسائر الجهات ٥٥ | ٢٥

قيمة الاشتراك تدفع سلفا . ثمن كل نسخة غرش صاغ

جريدة وطنية يومية سياسية تجارية ادبية

العدد ١٤١٦ — الاثنين في ٧ اغسطس سنة ١٨٨٢ — الموافق ٢٢ رمضان سنة ١٢٩٩ — السنة السابعة

الاسكندرية في ٧ اغسطس (آب) سنة ١٨٨٢

حرب الاسكندرية

اذا نسينا حوادث العاصي وخصوصا من يوم قيد نظارة الجهادية وقفنا وشوح على المصاريف التي خلت في ترميم الاستحكامات واعداد الدفاع وعرفنا افكاره الساقطة بظنه ان عنده قوة يحارب بها اكثر من دولة . وقد رأينا الاستعدادات في مرامي الاسكندرية بعد وصول العمارة الحربية حتى رأى الاميرال الانكليزي سوء مقاصد العاصي الذي رغما عن اوامر سيدنا امير المؤمنين اصر على عمله الى ان طلب الاميرال عامة الانكليزية توقيف العمل وتسليم الحصون وضرب لذلك اجلا ساعات مخصوصة

اما عرابي المشؤوم فامام كل تلك الاجراءات دون اذن من الحضرة الخديوية ورغما عن بلاغ الاميرال النهائي لم يلتفت الى اصر على عناده وهكذا اطلقت المدافع الانكليزية فلم يمض ربع النهار حتى تهدمت جميع الاستحكامات وعطلت غالبا المدافع وامانت من الطوبجية المصرية فوق الالفين

ولا نسال عن اندعار الاهلين الذين ارادوا السفر نهار الاثنين والثلاثاء فمنعهم العساكر بامر زعيم العصاة الذي نسبة ارسل صباح الاربعاء شائعات بادون اهربوا وكل ما ترونه امامكم فهو حلال لكم . اهربوا اهربوا فاني ... بحريق البلدة . لا يمكن القلم ان يعبر عن ذلك اليوم المهول الذي لم يسمع بمثله . يوم يشيب الاطفال ... الصخور . يوم برزت به المخدرات اكيات حافيات ... تبكي ابيها والابن اباه والعاصي حريص اصم اعمى

ترى اجلاف القوم والجهادية يقتلون وينهبون ويحرقون ولم يبقوا على المسلمين بل من سيدة سلبوا ... ملاها وزاد توحشهم فارتكبوا الفظائع وشنعوا الى حد ... يسمع به حتى في الاجيال المتوحشة

قل لي ايها العاصي المتمرد ان تحارب امة واحدة ... رأيك لم تعف عن الامم الباقية لانك تناول شرك اولاد ... دينك . فاية شريعة حللت لك ذلك . او اي قانون جوز لك . فالانسانية تبرأت منك . والعدل ينكر ... وجودك . قل لي ايها المتمرد لم الفساد وانت لم تثبت يوما ... واحدا امام افواه مدافع الانكليز . لم تقهر بسلوك عساكرك الذين ارتكبوا الزنا وافتضوا الابكار وسلبوا ونهبوا ... ام

تعتز بانك لم تصب سفن الانكليز بخدش واحد ولم تقف عند هذا الحد بل ارسلت عساكر الى سراي الرمل حيث كان سموه لضرب السراي وقتل من بها ورجعت الى الوراء حتى كفر الدوار وجلا خائفا مذعورا

اما سموه فاستجلب العساكر اليه واخلصت له الخضوع والطاعة وانت به راس التين حيث اخذ في تسكين روع الاهلين وكتب الى عرابي ان يرجع عن غيه بمنشور اوضح فيه ما اتاه العاصي من الذنوب وكيف انه سلم الثغر ودمره . اما عرابي فاصر على عناده ومكابرته

وقد بعث الاميرال الانكليزي الى الحضرة الخديوية باعلان بين فيه ان اجراءات الدولة الانكليزية ليست بقصد فتح البلاد او التداخل في امر ديانة وحرية المسلمين بل لردع طغمة العصاة الذين نبذوا اوامر سموه ورجوع نظام القطر الى ما كان عليه قبل تمرد الضابطان فعلى العسكريان يتركوا العصاة ويرجعوا الى سيدهم وابيرهم معتبرين عرابي وجماعة عصاة متمردين

تحريرة ١١ يونيو

هو ذلك اليوم الفظيع الذي جعله عرابي مقدمة حرب البربرية فان العاصي واخاه محمود بارودي بعثا بهذه المأمورية حسن موسى العقاد ونديم ولدينا براهين عديدة نؤيد تحيناهذه . رأينا عساكر المستحفظين انفسهم يذبحون ويقتلون والدما سواقي في نفس الضبطية ولدي برهان اعظم . ذلك ان مامور احد القراقولات اوعز الى صديق له مسيحي ان لا يخرج بعد ظهر ذلك اليوم من بيته واعرف الملازم وصديقه انما اخاف على الاول الان ليلا يضربه العصاة

قل لي يا نديم الا تخجل من نسبة ذلك لغير اوليائك المنافقين الذين عموا في سيرهم وضلوا عن سواء السبيل

حوادث محلية

لا تزال العساكر الانكليزية تتوارد يوميا وقد وصل البارح الالاي من الطوبجية ويصل اليوم الالاي من السواري وغدا الالاي من البيادة

اما الالاي الاخير فهو من الرجال الاقويا المشهود لهم في ايام المعامع وبسموية بالالاي الجرودلان رجاله من ذرى الجبال الشاهقة

تستلفت الحكومة الى وجوب قطع السلك البرقي من جهة العريش حتى لا يمكن العاصي من ارسال اخباره الكاذبة الى عواصم اوربا

ان همة سعادة ذكي باشا محافظ الثغر وملاحظته الاعمال وسهره على ما عهد اليه كل دقيقة يؤكد لنا ما عودناه من حضرته في جميع الامور التي تسلم زمامها

قرر مجلس النظار في الجلسة الاخيرة مهمات وذخائر الجيش الانكليزي دون جمرك

وقرر ايضا بناء على طلب الهمام عمر باشا لطفي ناظر الجهادية تعيين ماهية ونصف للضباط والعساكر الذين في ثغر الاسكندرية تحت طاعة سموه وهذا القرار يتناول كل من اراد من العساكر المصرية ان يبعد اوامر العاصي ويرجع الى اميره وسيده

افادت اخبار الاستانة ان وزارة البحرية ارسلت مراكبها الى سلانيك لاتي بالعساكر العثمانية المعدة لمصر وان الحضرة السلطانية قبلت بشروط المؤتمر وربما طلبته انكلترا انما لم نوقع بعد على ذلك

ولكن الحالة تتطلب العمل السريع فانما ... من ان جميع غالبية العساكر يرفضون شناعة عرابي عند قدوم العساكر الشاهانية

الرجال باعمالها . ان شر حادثة الاسكندرية تناول بعض المدن الريفية وخصوصا طنطا لكن همة الوجيه حضرة عزتلو احمد بك منشاوي خلصت نفوسا عديدة فوق الـ ... رعايته بين نصارى ويهود ولم يكتف بذلك بل زودهم دراهم ودفع اجرة قطار خصوصي واوصلهم حتى الاسماعيلية وكلهم يشكرون صنيعه ويمدحون عمله

هذا وانا نستلفت اولي الامر مجازاة مثل هؤلاء الوجها الذين عرضوا النفس والنفيس ولم يخشوا من عرابي ووعيده

وان حضرة احمد بك شكيب من المحلة يستحق الثنا والمجازاة فانه خلص فوق المائة نفس واتى بهم حتى بورسعيد فهكذا الرجال وهكذا الشرف

تعين وكيلا لمحافظة الاسكندرية عزتلو السيد علي بك ثابت وكان وكيل محافظة بورسعيد سابقا

نطلب الى الاحسان غارت وسواها ان لا تهم بكلامها على الوطنيين وان تستعيض بلفظة اجلاف عن اهلين (اندجين) فان النبها والعقلا يمقتون اعمال عرابي وفظائعه وليس من العدل بالحضرة الرصيف ان يكون حظ

ما نُشر في الأهرام يوم 7 أغسطس 1882.

التي كانت تنشر أن الإنجليز ما جاءوا إلى مصر إلا لردع طغمة العصاة ولتثبيت دعائم حكم الخديو والشرعية وليس لأي أغراض استعمارية..

فهل خرجت إنجلترا من مصر بعد فشل الثورة العرابية.. العكس هو الصحيح.. لقد مات العصاة ودُفنوا وبقيت إنجلترا جاثمة على صدر البلاد والعباد لمدة تزيد عن الـ 80 عاماً.

وعلى الرغم مما سبق عرضه والذي يوضح انحياز الأهرام للخديو وكرهها لعرابي وصحبه إلا أنه وبعد أكثر من خمسين عاماً وبالتحديد في الفترة من 1931 إلى 1933 نشرت الجريدة سلسلة من المقالات عددها 50 مقالة كتبها داوود بركات رئيس تحرير الأهرام بمناسبة مرور خمسين عاماً على الثورة العرابية وكانت لهجة هذه المقالات معتدلة وبعيدة عن التجريح والتحيز، بل كانت محاولة لعرض التاريخ بقدر من الحيادية منها مقالة تعرض لقصة مذبحة الإسكندرية وتتطرق لبعض النقاط التي عرضتها في الأسئلة السابقة:[29]



داوود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام.

"كان يوم 11 يونية يوم أحد وبطالة فكانت القهوات غاصة بالناس فوصل مالطي إلى خمارة لأحد مواطنيه بآخر شارع السبع بنات وكان هذا المالطي سكران وهو يركب عربة فطلب منه العربجي الأجرة فرمى له قرشًا ودخل الخمارة فتبعه العربجي ليأخذ أجرته فتشاتما فطعن المالطي الحوذي بسكين كانت مُعلقة لقطع الجبن والبطيخ فسقط يتخبط في دمه، فأراد الوطنيون القبض على القاتل الذي لجأ إلى منزل واحد من مواطنيه والناس يجدون في أثره فقابلهم سكان المنزل بالرصاص ولم يكن إلا القليل حتى عم الاضطراب المدينة كلها، فكان الأجانب في الشوارع والطرقات يتحصنون في منازلهم ويطلقون النار على الأهالي وكان الأهالي يفتكون بمن يجدونه أمامهم من الأجانب، وأسرع المحافظ عمر لطفي إلى قرة قول اللبان ليهدئ الحالة فلم يستمع إليه سوى بعض الموظفين لأنه كان مشهورًا بميله إلى الخديوي بل إن بعض رجال البوليس انضموا إلى الأهالي، فأرسل المحافظ إلى سيد قنديل حكمدار البوليس في منزله فأجابه الضباط الذين كانوا هناك أنه مريض وأن عنده شللاً في ذراعه وأنه لا يستطيع النزول وتعريض نفسه للخطر.

وقد أسرع قناصل الدول إلى شارع السبع بنات فقابلهم الجمهور بالنبابيت والعصي وأُلقي المستر كوكسون من عربته وانهالوا عليه بالضرب فمات على مقرُبة من مخفر البوليس وقُتل أحد تراجمة قنصل فرنسا ونجا سيده وأُصيب قناصل اليونان وإيطاليا ومساعدوهم ببعض الجراح وأُصيب ضباط الأسطول الإنجليزي الذين كانوا يطوفون المدينة بجراح وقُتل ضابط ونوتيان ولجأ الأميرالية إلى الترسانة فنجوا.

ولم يكن سلاح الأهالي سوى النبابيت والأخشاب وكان سلاح الأجانب البنادق والمسدسات وكان بعض الأوروبيين قد أقاموا المتاريس وتحصنوا بها وحصن أحد الضباط الغريبالدين -العرابيين- ميدان رأس التين فصد مع رفاقه المهاجمين بالرصاص وألحقوا بهم أضرارًا جسيمة ولكن هؤلاء انضموا لأنفسهم في ميدان محمد علي، وكانت جماعات كبيرة قد غنمت فرصة عطلة الأحد لزيارة الأسطول فعند نزولهم جُردوا من منازلهم وضُربوا وجُرحوا وقُتل جماعة منهم وأُلقيت جثثهم في البحر والذي

يؤخذ من شهادة موظفي الضابطة (الضبطية) إبراهيم عطية ومصطفى الكردلي وإبراهيم اسمسار والياس ملحمة وأحمد سلامة ومن تقرير وكيل النيابة حسين واصف الخ أن بعض السكان كانوا يلجأون إلى البوليس فيطردهم وأن البعض كان يفتك بهم عساكر المستحفظين وأن بعض الموظفين كانوا يبذلون الجهد لإنقاذهم ولكن بلا نتيجة، وطلب المحافظ من قائد الآلاي الخامس رأس التين سليمان داوود إرسال أورطة من الآلاي لإخماد الفتنة فطلب الأميرآلاي أن يكون الطلب كتابة ففعل ولكن الأورطة لم تنزل إلى المدينة إلا عند الغروب ولم تُرسل الأخبار إلى القاهرة إلا بعد انقضاء الساعة الرابعة.

ولما اطلع عرابي على طلب المحافظ أمر سليمان داوود فأجابه، وقد اختلفوا في عدد القتلى لأن جثثًا كثيرة أُلقي في البحر والنهر.

فلويس الصابونجي -صحفي وسكرتير بلنت في نفس الوقت- الذي أرسله بلنت من لندن ليكون إلى جانب عرابي يقول في إحدى رسائله إن عدد القتلى 1400 أغلبهم من الأجانب ونينيه كاتم سر عرابي يقول إنهم 238 منهم 75 من الأهالي والباقون من الأوروبيين، ومراسل جريدة الطان (Le Temps) يقول إنهم 340 ولم تقم الحكومة بإحصاء رسمي ولكن الثابت أن عدد القتلى من الأهالي كان كبيرًا".

وقبل أن ننتقل إلى نقطة أخرى أود أن أصحح معلومة جاءت في مقالة داوود بركات وهي أنه ذكر أن المستر كوكسون قنصل الإنجليز قد قُتل، ولكن الصحيح أنه ضُرب وجُرح جرحًا بليغًا.

القنصل الإنجليزي يتكلم

وهذه مقتطفات من بعض ما قاله المستر كوكسون قنصل الإنجليز في تقريره إلى لجنة التحقيقات أو القومسيون:[30]

30- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الثامن ص606.

"أنا شارل الفريد كوكسن، عمري 52 سنة، قنصل وقاضي دولة الإنجليز بالإسكندرية.. إنه في يوم الأحد الجاري بعد الظهر ورد لي مندوب من طرف محافظ إسكندرية يكلف كافة القناصل للاجتماع في قرة قول اللبان وعندما حضر ذلك المندوب كنت واقفًا عند باب القونسلاتو وحالاً دخلت في عربية مفتوحة وأخذت معي إبراهيم أغا يسقجي القونسلاتو ومررنا بالمنشية ودخلنا بشارع السبع بنات وبمرورنا لحظت واجهات الدكاكين مرمية إنما جهة ذلك الشارع بقرب المنشية كانت بالنسبة لذلك الشارع رائقة وكان هناك تجمع أناس إنما برواق وحينئذ دخلت في الشارع غير منتظر حدوث أدنى خطر حتى وصلت إلى الجهة التي على جملة مفارق وبأحدهم قهوة القزاز وبحال ما وصلت إلى هذا المحل المتسع سقطت بعض الأحجار على عربتي وضُربت بالعصي وأنا مار بالشارع ولا أقدر أقول أي جنس من العصي وضُربت على رجلي وفخذي إنما الضرب ما كان شديدًا وحينئذ رُميت بحجر كبير ولكن لم يصبني والضاربين صرخوا حينئذ ولكن لا أعلم ماذا كان هذا الصريخ، وحيث لم يكن معي سلاح ولا أي شيء للمحاماة عن نفسي ظننت بأنه إذا أظهرت نفسي عيانًا يحدث من ذلك تأثير حسن ولذلك وقفت بالعربية ونظرت إلى من حولي بكل هدوء وببرهة وجيزة نظروا إلى بتعجب وإنما في حال الوقف عبد طويل أظنه كان لابسًا جلابية بيضاء حضر من خلف العربية وبيده نبوت كبير جامد جدًا ضربني به على رأسي بيديه الاثنتين ورماني بهذه الضربة على الأرض ولا أتذكر شيئًا خلافه مما حدث بوقته حتى رُفعت عن الأرض (وعلى قدر ما أتذكر) رأيت العربية مقلوبة والخيل على جنب ويسقجي القونسلاتو مطروحًا على الأرض والأمر الآخر الذي أتذكره هو أني كنت مطروحًا على الأرض وسمعت أصواتًا تقول هكذا (لا لا هذا هو قنصل) ولا أتذكر الآن بأي لغة تكلموا معي وإنما فهمت بأن الذين كانوا واقفين فوق رأسي كانوا ينشطونني ويحمسونني وهذا كان ضد الضرب الذي كان نازلاً عليّ وأني أتذكر جيدًا لمعة سكين كبيرة أو ساطور ونظرت جيدًا بأن الضربة رُفعت عني وبين الضاربين أولاد لا يتجاوزون الثمانية أو العشرة سنين ومئات كانوا مسلحين بعصي وأظن أن إحدى تلك العصي دخلت في إصبعي، والذين كانوا يحامون عني قالوا لي إنني أتوجه معهم إلى القرة قول

وساعدوني على التوجه وعند تقربنا من القرة قول رأيت المستحفظين واقفين بكل هدوء يتفرجون على ما هو حاصل وعلى شخصي والدم سائل مني ولا أحد منهم تقرب مني ليحامي عني، وبالكاد فتحوا الطريق أمامي كي أدخل إلى القرة قول ... وقد استقبلني سعادة الباشا المحافظ بكل طيبة نفس وقد رأى سعادته عياناً ما كان من حالتي....الخ".



صورة للعربة الآمنة المخصصة لقناصل الدول الأجنبية ورغم ذلك تركها القنصل الإنجليزي وأصر على أن يركب عربة مفتوحة ويتوجه بها إلى الجموع الغاضبة وكانت النتيجة أن تعرض للضرب وانقلبت عربته وكادت الناس أن تفتك به حسبما قال في التحقيقات.

قنصل اليونان يتكلم

وقد قدم تقرير قنصل اليونان الجنرال وصفًا خطيرًا لما حدث يومها فقال: [31]

"أنه في الساعة 4,5 من يوم الأحد 11 يونية كان الأميرال الفرنساوي مع وكيله موجودين في منزلي فسمعت بعض غوغات بالشارع فأرسلت للاستفهام عما هو حاصل وقد علمت بوجود مشاجرة بشارع السبع بنات ما بين بعض أولاد العرب وبعض نصارى، وحيث إني عالم بأهمية الحالة افتكرت بأن هذه المشاجرة يحتمل بأنها تتجسم فاستعديت للتوجه إلى محل الواقعة وفي الوقت ذاته حضر مستخدم بطرفنا المدعو جان فيكيليبس وأخبرني بأن سعادة المحافظ أرسل إلى القونسلاتو لكي أتوجه إلى الشارع المذكور وإن المسألة آخذة في التجسم فأشرت على الأميرال الذي كان قاصدًا التوجه معنا لطرف الخواجا أنطونيادس لنشرب عنده الشاي أن يرجع، أما من جهتي فأخذت معي المستخدم السابق عنه الذكر ومُحضر القونسلاتو المدعو أسبيريدون سورياني وركبنا عربية وتوجهنا إلى شارع السبع بنات ولما وصلنا بالقرب من القرة قول الصغير التزمت أني أقف بما أن السكة كانت مسدودة بالكلية من العالم وفي ذلك الوقت جملة من تبعيتنا تقربوا من العربية وأشاروا عليّ بعدم الرواح زيادة عن ذلك بما أن الوضع خطير جدًا ومن بعد ما قلت لهم عن عدم مداخلتهم في هذه الحالة المحزنة الجارية وأنه يلزمهم أن يتوجهوا إلى بيوتهم ورغبت في كوني أستمر على السير لحين الوصول إلى القرة قول بما أني كنت مفتكرًا أن أجد سعادة المحافظ فما أمكن للعربجي أن يفوت بين الناس وفي أثناء ذلك حضرات قنصل النمسا وكنشلير (قنصل ألمانيا) حضروا فتكلمت معهم عن هذا الأمر واستقر الرأي على أن الأوفق الذي يمكننا إجراؤه هو التوجه إلى المحافظة ونتعشم أن نجد سعادة المحافظ وقناصل خلافنا، وعلى ذلك مررنا بميدان المنشية ودخلنا في شارع حارة الإفرنج وفي مسافة خمسين خطوة من القرب من الضبطية نظرنا اثنين شبان إنجليز لاحقهم جوق أولاد عرب متسلحين بنبابيت وأشياء خلافها من النوع ذاته وأظن أن أحد الاثنين الإنجليز وقع قبل أن يصل لنا، وأما الثاني انحدف على

31- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الثامن ص 605.

باب عربيتنا وهو كله بالدم مفتكرًا بأنه يمكننا أن نُنجيه فأخذناه إلى داخل العربية وأمرت العربجي بأن يدور ويهرب إنما لحقونا بدون تأخير، والخيل من كترة الضرب وقعت مرتين والعربجي تعور تعورًا خطيرًا ووقع من العربية وهجموا علينا فالمسيو جان فيكيليبس بما أن إصابته كانت أشد فكان من عظم الوجع قاعدًا يتألم بداخل العربية وأنا مع سريانو المستخدم الثاني كنا واقفين في قلب العربية وجارين على قدر الإمكان إبعاد الضرب عنا أنا بالعصاية التي كانت بيديه وسريانو بذراعيه إنما ظهر لنا أنه إذا بقينا نُعدم، وأنا من خصوصي فإني أصبت بثلاثة جروحات في رأسي وجملة ضربات في جسمي وسال مني الدم بكثرة ثم التجأنا إلى الطريقة الوحيدة التي هي النزول من العربية والهرب والمسيو فيكيليبس نزل الأول وأنا الثاني وساريانو التالت ووصلنا بالقرب من القرة قول الموجود في ابتداء حارة الإفرنج بمائتي خطوة ونحن على آخر رمق مفتكرين بأننا قد فُقدنا فعرفتنا فاميلية يونانية ساكنة بذلك الشارع فالتجأنا عندها أنا وفيكيليبس وأما ساريانو الذي كان متبعنا عن بعد بمسافة عشرة خطوات فألجأه بواب البيت المجاور وقد حصل لسكان البيت الذي تحاميت فيه تأثير كبير لما رأوني في هذه الحالة وعرضوا عليّ أن ينبهوا على أولاد ملتي أن يحضروا لإسعافي ولعلمي بما حصل من السوء والضرر فمنعتهم بالكلية عن الخروج من البيت ثم صار إحضار الدكتور لوندنسكي لمداواة جروحاتي فحلفته بأن يحفظ السكوت التام على ما حصل لي وسرت مسرورًا لكونه أجرى ذلك حيث لما خرج من البيت بعض أشخاص كانوا منتظرين بالشارع وحاصل لهم بعض ظن عما حصل فهو طمنهم وقال لهم أنه ليس الشخص الذي كنتم ظانين فيه وقد نسيت أن أوضح بأن فيكيليبس في حال نزوله من العربية أصيب بجرح بالغ تحت عينه وأظن أن هذا الجُرح مُسبب من سلاح أبيض، وفي الساعة السادسة مرت الجنود دفعتين من تحت الشبابيك ووضعوا خفراء في أركان الشوارع وعندها ظهر لي بأن الحركة هدأت بالكلية فطلبت عربية وتوجهت بها إلى قنصلاتو فرنسا وكان موجودًا هناك بعض من أبناء جنسيتي مصابين وقد أرسلتهم مع فيكيليبس إلى الإسبتالية وبعدها نبهت على رعايانا الذين كانوا هناك بالهدوء ورجعت."

المذبحة من وجهة النظر العرابية

أما أحمد عرابي فقد كتب عن هذه الحادثة يقول: [32]

"وتفصيل الخبر أن رجلاً مالطياً من تبعة الحكومة الإنجليزية ركب حماراً ونزل بجهة قسم اللبان وترك صاحب الحمار من غير أن يوفيه أجره فتعلق به الحمّار وطلب حقه فطعنه المالطي وألقاه صريعًا يتخبط في دمه ثم دخل إلى منزل هنالك فاجتمع كثير من الحمّارة يريدون ضبط القاتل فأطلق عليهم الرصاص من منافذ البيت الذي لجأ إليه ثم جاء مالطي آخر وأراد تفريق الحاضرين بضربهم بالعصي فضربوه وألقوه على الأرض صريعًا ثم تكاثر رعاع الأوروبيين وضربوا الوطنيين بمسدساتهم ولما كان الوطنيون عزلا من السلاح دافعوا عن أنفسهم بالعصي وكان منهم الحمارة والحمالون واجتمع عليهم العرب والسودانيون والصعايدة فكثرت الغوغاء واشتد اللغط وعلت الضوضاء فسلت الخناجر وأُطلق الرصاص واختلط الوطنيون والأوروبيون ببعضهم بعضًا ولما كثُر القتل في الوطنيين انهالوا على الأوروبيين من كل جهة وصوب يضربونهم بالعصي والنبابيت حتى قتلوا منهم نحو 80 نفس وكذلك قُتل من الوطنيين بالسلاح أكثر من هذا العدد وامتدت الفتنة إلى الشارع المعروف بشارع السبع بنات وشارع المحمودية وغيرها من شوارع المدينة وكان أكثر الأوروبيين متفرقين في جهات الرمل قصد التنزه واستنشاق النسيم اللطيف هربًا من حر المدينة وذلك جريًا على عادتهم أيام الآحاد والأعياد وأوقات الفراغ فكانت بيوتهم ومخابزهم مقفلة ولم يكن في المدينة إلا رعاع القوم من المالطية وغيرهم من المهيئين لإيقاد نار الفتنة بمعرفة السير مالت والمستر كوكسن من جهة والخديو وعمر لطفي باشا محافظ الثغر من جهة أخرى بدليل تلغراف من الجفرة (الشفرة) المتبادلة بين الخديو وعمر لطفي باشا في ذلك اليوم، وبدليل تأخر المحافظ ومأمور الضبطية السيد بك قنديل عن تدارك إطفاء تلك الفتنة حتى تأججت نيرانها تمارض مأمور الضبطية المذكور وادعى أنه حدث له شلل في ذراعه الأيسر



أحمد عرابي.

32- مذكرات الزعيم أحمد عرابي -كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية- ص 505.

ليتخلص من المسئولية وليُرضي عمر باشا لطفي والخديوي بعدم إجراء ما يلزم اتخاذه من التحوطات لمنع حدوث تلك الفتنة قبل انتشارها كما كان يجب عليه ولكن هو الجبن وضعف العزيمة.

وفي الساعة الخامسة من ذلك اليوم بلغ خبر تلك الحادثة إسماعيل باشا قومندان الآيات الإسكندرية فأسرع بإرسال الآلاي الخامس والآلاي السادس إلى ساحة المنشية وهو في مقدمتهم ثم وزع البلوكات في جميع شوارع الثغر وأمرهم بتفريق الجموع، وعند ذلك حضر عمر باشا لطفي ووكيل الضبطية حسن صادق، وساعده قومندان الآلايات في تعيين النقط التي يلزم حفظها بالعسكر.

وعند غروب الشمس من اليوم الحادي عشر المذكور هدأت الفتنة وسكن الاضطراب، وتوجه كل من الثائرين إلى محله، وانقضى الليل ولم يحدث فيه شيء يُذكر غير أن الخوف كان قد ملأ القلوب فلم يستطع أحد من سكان الإسكندرية إغماض جفنيه في تلك الليلة والعساكر متفرقة في أحياء المدينة داخلاً وخارجًا والضباط يمرون عليهم ويحرضونهم على حفظ الأمن والراحة.

وقد اتجهت الرسائل البرقية مشرقًا ومغربًا منبئة بما حصل بعد ظهر ذلك اليوم كل ذلك ولم يخبرني عمر باشا لطفي عن هذه الحادثة بل كانت مخابرته مع الخديو رأسًا بدون واسطة ".

إلى هنا انتهى كلام أحمد عرابي باشا عن هذه الحادثة وقد أشار بأصابع الاتهام الخفية إلى الخديو توفيق ورجاله ومنهم محافظ الإسكندرية الذين تكاسلوا وتباطأوا في رأيه عن تفريق المتقاتلين وحفظ الأمن مما تسبب في زيادة الخسائر ولكن الغريب أنه اتهم السيد بك قنديل مأمور الضبطية نفس الاتهام وحسبه من حزب الخديو بينما الثابت أنه كان معدودًا من رجال عرابي في الإسكندرية وقد وجه له الطرف الآخر نفس الاتهام بأنه تكاسل وتمارض بإيعاز من عرابي لإشعال الفتنة.. فأي الجانبين نصدق؟! لذا كان لزامًا عليّ أن أعرض لما قاله محافظ الثغر والذي يخالف ما ذُكر من قبل بل ويلقي نفس التهمة على العرابيين ومنهم الآلايات الموجودة بالمدينة والذين رفضوا التحرك لإخماد نار الفتنة إلا بعد وقت طويل.

تقرير عمر باشا لطفي.. محافظ المدينة

المتهم.. البريء... المتهم

هل عمر باشا لطفي محافظ المدينة في ذلك الوقت مُتهم أم بريء.. مُدان أم مذنب؟ لا أحد يعرف الحقيقة كاملة فقد قلب التاريخ صفحاته وطوى الماضي، ولكن بقيت بعض العلامات التي قد تضيء الطريق أمام الباحثين عن الحقيقة ومنها ما قاله الرجل الذي اتهمه العرابيون بالتواطؤ مع الإنجليز والخديو وخيانة الأمانة.. فقد قال في التحقيقات:[33]


عمر لطفي باشا.

"إنهُ في يوم الأحد 11 يونية سنة 82 الساعة 8,5 عربية من النهار كنت منشغلاً بالقومسيون المشكل للنظر في الطعن الواقع في إدارة الجمارك الجلسة التي كانت منعقدة بالمحافظة. في ذلك اليوم حضر لطرفي إلياس أفندي ملحمة أحد معاوني الضبطية وأخبرني أن مالطيًا تشاجر مع ابن عرب بجهة قرة قول اللبانة والمالطي ضرب ابن العرب بسكين في فخذه وإن حضرة وكيل الضبطية توجه محل الواقعة مصطحبًا بمقامي المستحفظين والبوليس لنظر الكيفية فإذ ذاك نبهت على حضرة وكيل المحافظة بالتوجه مبادرة لاستكشاف الأمر وإجراء ما ينبغي لانحسام ما عسى أن يحدث بدون شوشرة ثم أخبرنا المعاون أن يتبعهم ويعود ليخبرني بما يتم فبعد برهة عاد هذا المعاون قائلاً إنه وإن لم يكن صار ضبط الضارب المحكي عنه إلا أن جملة أناس تجمعت بتلك الجهة، ففي الحال تركت القومسيون وذهبت وإياه بعربية أجرة قاصدًا الجهة المعول عنها بحصول التجمع فيها ولحد ما وصلت إليها مارًا من المنشية وشارع إبراهيم ما كنت أرى أدنى شيء إنما بوصولي لجهة قهوة القزاز القريبة من قرة قول اللبان وجدت جمعًا من الأهالي وبأيديهم عصي وحاصل منهم تهور فشرعت في تفريق جمعهم وتسكين الهيجان الواقع منهم بواسطة من كان هناك من البوليس والمستحفظين، وإذ ذاك أُخبرت عن حصول طلق عيارات نارية من بعض الشبابيك كما وأني سمعت طلقات متعددة بالفعل إنما حيث كان مصدرها مجهولاً

33- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الثامن ص 607.

فأخذت في المسير لحد نفس القرة قول وهنالك وجدت أربعة أشخاص مجروحين منهم اثنان مسلمان والآخرون أجانب وموجود حكيم الضبطية وقتها عرّفتهُ بعمل الاحتياطات العلاجية لهم ثم يسرع بإرسالهم للمستشفى ولدى البحث عن المحل الجاري طلق العيارات النارية منهُ حصل الاستدلال على أحدهم وهو منزل هناك مسكون بمالطية وإذ كان قد حضر في أثناء ذلك جناب المسيو كوكسون قنصل وقاضي الإنجليز فاستصحبتهُ بالاتفاق ودخلنا بنفس المحل لضبط ما يوجد به من الأسلحة فوجدنا من داخله جملة نساء وأطفال ومعهم شخص مالطي وبالبحث عن الأسلحة عثرنا بروفلفر (مسدس) بأحد أدراج الترابيزة الموجودة بالأوضة المقيمين فيها المذكورين فأخذناه ونزلنا من المحل وبالحال أخبرت قائمقام المستحفظين أن يرسل يحضر عساكر الأورطة حالاً ثم دخلت بنفسي ومن بصحبتي من رجال الضبطية بقلب الاجتماع واجتهدنا في تفريق الأهالي المتجمعين وردهم عن الهيجان وإذ ذاك تصادف حضور سعادة إسماعيل باشا كامل قومندان عساكر إسكندرية وبالنسبة لازدياد تجمع الأهالي أخبرتهُ عن لزوم حضور أورطة عساكر من 5 جي بيادة لأجل الاحتياط والاستعانة بهم عند اللزوم غير أنه بعد برهة أخبرني أن الآلاي طلب كتابة بإرسال العساكر المرغوب حضورهم فاستحضرت قطعة ورق من القرة قول وحررت لحضرة ميرآلاي 5 جي بيادة ولأجل زيادة الاحتياط بجهة المنشية وخلافها حررنا إلى 6 جي بيادة بطلب أورطة أيضًا وبعد برهة أخذ التجمع في التناقص والأهالي ابتدأت بالانصراف إلا أنه خشية من اتصال التجمع وحصول شيء بجهة أخرى قد نبهت على قائمقام المستحفظين أن يأخذ بلكًا من عساكر الأورطة حكمداريته ويتوجه إلى المنشية كما أني نبهت على قائمقام البوليس بأخذ جانب من عساكره والتوجه بهم إلى جهات مينا البصل وكوم الشقافة وما يليها احترازًا من حصول تجمع من الناس الجاري انصرافهم من محل الواقعة أو خلافهم في تلك الجهات وفي هذا الأثناء أقبل علينا جناب قنصل الإنجليز مجروحًا برأسه والدم سائل منه ثم حضر جناب قنصل أيتاليا والكنشلير مضروبين ومجروحين كذلك وبعد إقامتهم بالقرة قول واستعمال ما لزم لهم بواسطة حكيم الضبطية رغبوا في التوجه إلى محلاتهم للإسراع في مداواة أنفسهم فصار إركابهم عربيتين لتوصيلهم وإرفاق

من لزم معهم من البوليس ثم تركت سعادة الفريق ووكيل الضبطية بجهة اللبانة بالنظر لكون الجمع كان تفرق معظمهُ وركبت عربية وتوجهت خلف حضرات القناصل المومأ إليهم وتوجهت إلى المنشية وهنالك وجدت جملة من الأهالي آخذين في كسر بعض دكاكين بجهة المنشية الصغيرة ونهب ما بداخلها فصار الهجوم عليهم بمن كان موجودًا هناك من البوليس والمستحفظين وتبديد شملهم ومنع تجاريهم الفظيع على نهب محلات التجارة، وفي أثناء ذلك حضرت أورطة 5 جي بيادة برفق القائم مقام وانصرفوا باقي الأوباش وقد صار توزيع العساكر على الجهات التي ينبغي لها الاحتياط ثم بعد برهة حضرت أيضًا العساكر المطلوبة من الآلاي السادس وفي أثناء توزيعهم على الجهات انكشف الحال عن وجود ثلاثة أو أربعة أجانب مقتولين بتلك الجهة فصار التنبيه منا بتوصيلهم إلى الإسبتالية وكان ذلك ثم بعد تتميم الأمن بهذه الجهات وترتيب جميع العساكر في المواقع المستلزم لهم ذلك وكان الليل قد دخل ففي الساعة واحدة ونصف بعد المغرب تقريبًا حضر أحد معاوني الضبطية وأخذ بيانًا عن وجود جملة قتلى مطروحين بشاطئ البحر مما يلي الأزقة المجاورة للضبطية وإذ كان وكيل الضبطية برفقتنا فعرفناه بالمبادرة بالتوجه مصحوبًا بمن يلزم لاستخراج أولئك القتلى وإرسالهم إلى الإسبتالية مع النظر في كيفية ما أصابهم ما دامت البقعة التي قيل عنها بوجودهم فيها بعيدة عن المعركة وما كان أحد يخبرنا بحدوث شيء في تلك الجهة، والغاية صار إخراج المقتولين بالحالة التي كانوا عليها وإرسالهم إلى الإسبتالية.

هذا الذي حصل وشوهد في اليوم البادي ذكره وأقول إن من كان معنا من عساكر البوليس وعساكر المستحفظين لم يألوا جهدًا عن إجراء واجباتهم ودفع ما كان حاصلاً من الثورة والهيجان وحيث يعلم أنه حاصل بعض تعد في جهات أخر خلاف محل الواقعة الأصلي ومن مقتضيات أصول الضبطية أن مركزًا من مراكزها يقدم تقريرًا بما حدث في جهة ضمن مطالعة التقارير المتقدمة من تلك المراكز يعلم ما صار في جهاتهم وأما جميع من قتلوا وجرحوا في هذا اليوم في كافة المحلات هذا يعلم من كشوفات الضبطية والإسبيتاليات".

يوميات المدينة الحزينة

انتهت الحكايات عن اليوم الحزين ولكن بقيت الذكريات والآلام وتوابع الأحداث ومنها ما حدث في مساء يوم المذبحة، حيث اجتمع قناصل الدول الأجنبية للتباحث في شأن ما حدث في المذبحة وقد حضر الاجتماع الكابتن مولينو من ضباط السفينة الإنجليزية "انفنسبل" نائبًا عن القنصل الإنجليزي "كوكسون" الذي كان يعالج من الإصابات التي لحقت به في الحادثة وفي الاجتماع وافق عمر لطفي محافظ المدينة على الطلب الذي أرسله الأميرال سيمور بأن ترسو إحدى البوارج الإنجليزية خارج الميناء الشرقية القديمة وأن يتم إرسال بعض الزوارق إلى الشاطئ لنقل النساء والأطفال، ولكن المحافظ ما لبث أن عاد ورفض هذه الفكرة وطلب عدم تنفيذها خشية أن يثير اقتراب هذه السفن حفيظة العرابيين ولكن يبدو أن كلام المحافظ ذهب أدراج الرياح إذ شوهدت بعض الزوارق ترسو بالقرب من الشاطئ بعد منتصف الليل مما أثار هياج الضباط المصريين.

ومن ناحية أخرى امتلأت القنصلية الإنجليزية بالفارين إليها من الأجانب أغلبهم من النساء والشيوخ والأطفال ولجأ نحو 15 ضابطًا من ضباط البحرية الإنجليزية إلى قنصلية الدانمرك الجنرالية إذ لم يتمكنوا من الوصول إلى البحر للنزول إلى سفنهم.

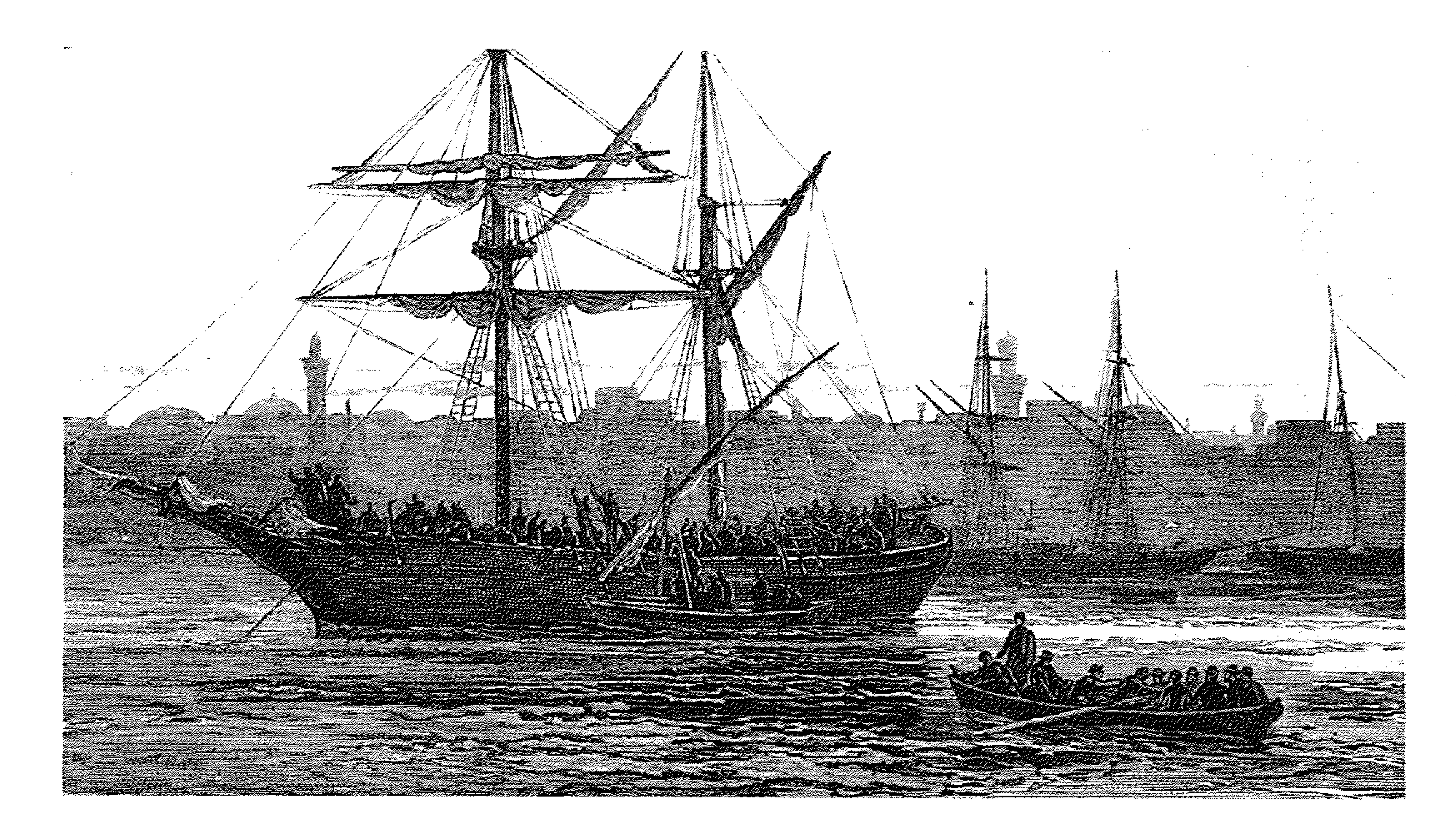
ثاني يوم المذبحة 12 يونية 1882

وقد أمضى سكان الإسكندرية ليلة عصيبة بعد انتهاء الأحداث المؤسفة ولكن في اليوم التالي يوم الاثنين 12 يونية كثُر عدد النازحين الهاربين حتى خُيل للناس أنه لم يبق أحد في المدينة من الأجانب وبلغت أجرة العربة عشرين فرنكًا وأجرة عربة النقل (الكارو) 30 وأجرة الزورق الواحد 40 أو 50 فرنكًا وكان أكثر الناس في ضيق شديد ولجأوا إلى بيع أمتعتهم ورهن ما عندهم بأبخس الأثمان والاستدانة بفائدة فادحة، وما بقي في الميناء سفينة إلا ومُلئت بالمهاجرين حتى أن السفن الشراعية

استؤجرت بمبالغ فاحشة، وكان الناس بين خوفين الأول أن تطلق الدوارع الإنجليزية والفرنساوية من البحر مدافعها على المدينة وحصونها والثاني أن تحصُل فتنة في البلد بين المسلمين والنصارى، ومن أجل ذلك بلغ عدد الراحلين في هذا اليوم وحده أكثر من عشرة آلاف مهاجر نزلوا إلى البحر متفرقين في السفن البخارية والشراعية، وكان من إدارة الجمارك أنها لم تعارض أحدًا فيما يُنزلهُ إلى البحر من أمتعة ولم يتعرض مأموروها البتة لفتح الصناديق والطرود ومثلها إدارة قلم التذاكر (الباسابورتات) فإنها تركت الناس وشأنهم يفرون من البلاء ولم تسأل أحدًا عن تذكرة مروره أو ورقة إقامته.

وقُفلت جميع مخازن ودكاكين الباعة كباعة الخبز وسائر المأكولات والأفران والمعامل حتى كاد يُقضى على الناس من شدة الضيق، ولم يبق في البلد شغل إلا للحامرة (الحمارين) وأرباب العربات وعجلات النقل وأصحاب الصنادل والزوارق وإدارة الوابورات ومصلحة السكك الحديدية وما إلى ذلك.

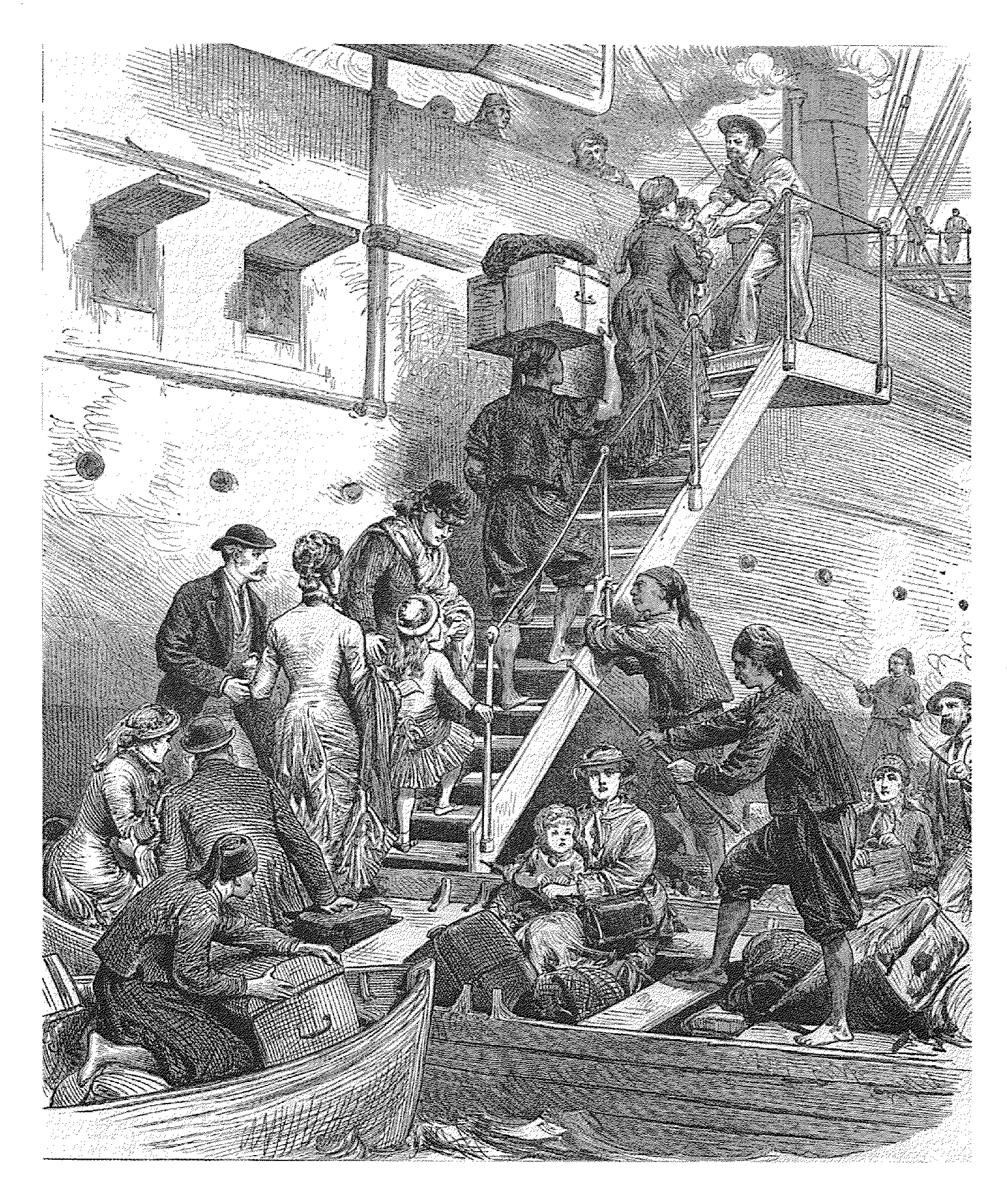
ومن ناحية أخرى شكل قناصل الدول الأجنبية المهمومون بضحاياهم لجنة من عدة أطباء من



صورة لعدد من المراكب الصغيرة التي حملت الأجانب فرارًا من المدينة الحزينة نشرت في The Illustrated London news بتاريخ 1 يوليو 1882.

جنسيات مختلفة تابعين للسفارات الأجنبية لإحصاء عدد القتلى والجرحى إحصاءً رسميًا ومعالجة الجرحى منهم وقامت هذه اللجنة بالطواف على المستشفيات ورفعت تقريرها الآتي:

"نحن الموقعون أدناه نصرح بأننا إجابة لأوامر قناصلنا دخلنا اليوم 12 يونية قبل الظهر إلى مستشفى الحكومة المصرية العمومي لتفقد جثث القتلى التي نُقلت إليه إثر الحادثة التي وقعت في الإسكندرية بعد ظهر أمس والنظر في حالة الجراح التي أصيبت بها تلك الجثث وكيفيتها فوجدنا فيه 42 أكثرها عربة من الثياب مبتلة بماء البحر المالح وورق الوارش (نبات بحري معروف) ومن هذه الجثث 38 لا أثر فيها للختان وهو ما يدل على أنها أجساد نصارى وهيئة تركيبها وأعضائها دلائل قاطعة تشير إلى أنها من أصل أوروبي أما الجثث الأربع الباقية فقد رأينا فيها أثر الختان وتحققنا أن ثلاثة منها جثث أعراب (يقصد مسلمين) والرابعة هي جثة ابن المسيو قطاوي وهو إسرائيلي من تابعية دولة أوستريا والمجر أصيب بعدة جراح بالغة ورضات شديدة في الرأس ومن الجثث الثلاثة الثلاث السابقة الذكر واحدة منها مصابة بجراح بالغة مسببة عن سلاح ناري والاثنتان مصابتان بجراح قاطعة أما الجثث غير المختونة وعددها 38 فلم يعرف منها إلى الآن إلا جثة واحدة هي جثة جورج جميل أحد موظفي قلم الترجمة بقنصلية فرنسا بالإسكندرية وفيها رضات شديدة وجراح قاطعة وشجات بالغة في الرأس. وأما الجثث الباقية وعددها 37 فلا يمكن معرفة كثير منها بسبب ما أصابها من الضرب الممزق والطعن المشوه في الرأس والوجه ومنها 3 أجساد مصابة بجراح متسعة بالغة في الرأس والعنق و3 أخرى مصابة تدل على أنها مسببة عن فعل سلاح حاد وقاطع وواحد منها مصاب بجرح بالغ في البطن ما عدا جراح الرأس والعنق و3 أخرى مصابة بجراح متعددة بالغة في البطن ماعدا آثار الرض في الرأس وقد جُس كلّ منها فوجدت دائرتة بالغة 4 سانتي وهي كلها تدل على أنها مفعولة بسلاح حاد يشبه السكين أو حراب البنادق وما شاكلها ورأينا في 31 جثة عدة جراح متسعة في الرأس وأكثر هذه الجثث قد تكسر عظم الرأس فيها إلى حد ظهر به النخاع ومنها ما شوه فيها الوجه تشويهًا فظيعًا فمن ذلك يستدل أنها مضروبة ضربًا شديدًا بالعصي الثقيلة أو الهراوي أو ما يماثلها".



هجرة وفرار الأجانب الجماعية العاجلة من مصر في مراكب صغيرة للوصول إلى السفن الأجنبية الراسية خارج ميناء الإسكندرية هرباً من مذابح الإسكندرية، صورة نشرت في جريدة The Illustrated London news بتاريخ 8 يوليو 1882.

وما عدا ذلك يتضح من تقرير الدكتور زنكرول طبيب المستشفى اليوناني أنه نقل إلى مستشفاه ثلاث جثث عُرف منها اثنتان الأولى جثة المسمى لانزوتا من تابعية دولة إيطاليا وهو فتى في الثامنة عشرة من سنيه مصاب بعدة جراح مسببة عن ضرب عصا أو هراوة والثانية جثة المسمى ألبرشوتز من تابعية دولة ألمانيا وقد أصيب بجرح بالغ مفعول بسلاح ناري أما الثالثة فلم تُعرف ولكن من المؤكد أنها ليست جثة رجل وطني وهي مصابة بعدة جراح مسببة عن ضرب عصا أو هراوة.

ويتضح من تقرير الدكتورين "ماصة وأردوين" طبيبي المستشفى الأوروبي والدكتور ديكاسترو مبعوث قنصلية إيطاليا أن قد نقل إلى المستشفى الأوروبي ثلاث جثث عُرفت واحدة منها أنها جسد المسمى جيلمي من تابعية إيطاليا وهو شاب يبلغ من العمر نحو 30 سنة أصيب بعدة جراح في الرأس مسببة عن ضرب عصا أو نبوت، أما الجثتان الباقيتان فلم تُعرفا ولكن يغلب الظن أنهما لرجلين مالطيين مصابين بجراح بالغة في الرأس.

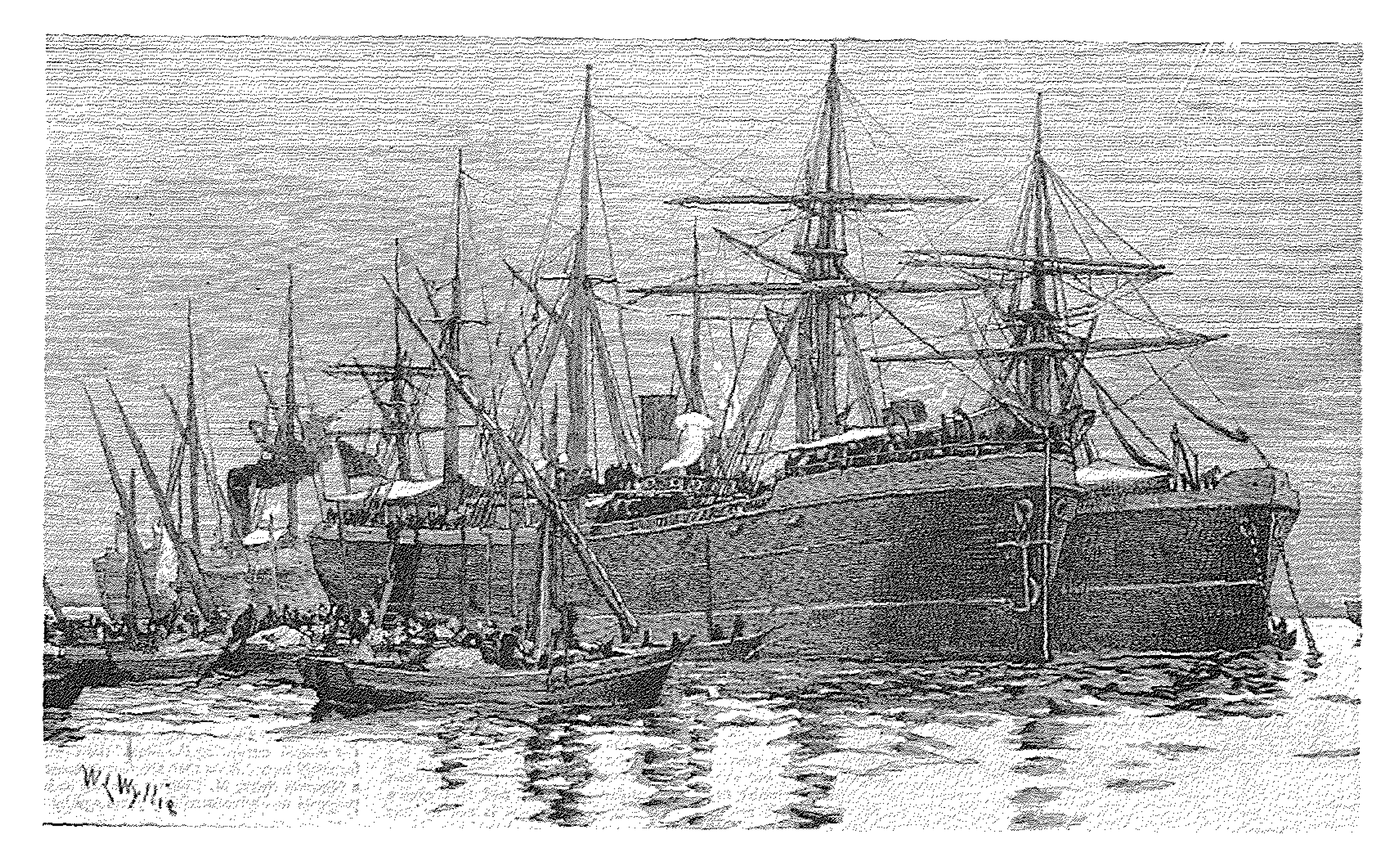
ويتضح أيضًا من تقرير الدكتور ماكي طبيب مستشفى "الدياكونس" أنه نقل إلى المستشفى جثة واحدة عُرفت أنها جثة ضابط من ضباط البحرية الملكية الإنجليزية وهي مصابة في الرأس برضات شديدة وجراح بالغة مسببة عن ضرب عصا وفي مجال كثيرة منها بجراح ورضات متعددة مع جرح بالغ مسبب عن سلاح حاد قاطع، فمجموع القتلى والحالة هذه يبلغ في المستشفيات المذكورة 49 وعدد الجرحى 71 منهم 36 من الأوروبيين و33 من الوطنيين المحليين واثنان تركيان.

وعلى صعيد آخر وصلت إلى الإسكندرية اللجنة التي شكلها الخديو للنظر في أمر الحادثة برئاسة عمر باشا لطفي محافظ المدينة واجتمعت في المحافظة وفيها طلب المحافظ من الضباط الحاضرين أن يتعهدوا بحفظ الأمن وحماية الأجانب فتعهدوا بذلك، ولكن اللجنة وقعت في حيرة بخصوص كيفية تفتيش بيوت الأجانب الذين كانوا تحت حماية قناصلهم ولم يكن مسموحًا للبوليس المصري في ذلك الوقت بتفتيش منازل الأجانب، فتقرر بعد المباحثة أن يتم اختيار مندوب من كل قنصلية لمساعدة البوليس المصري في القبض على الأجانب الذين يقومون بإطلاق النار على الأهالي والعساكر، كما

تقرر أيضًا زيادة عدد الخفراء ليلاً وأن يقوم الجنود بمساعدة رجال البوليس في حفظ الأمن، كما طلب القناصل من الضباط إصدار قرار بمنع الأهالي من الاحتشاد جماعات في المناطق والشوارع الآهلة بالأجانب فكان لهم ما أرادوا.

ولكن اللجنة لم تستمر في عملها بل انحلت وانفرط عقدها لأن قنصل إنجلترا أمر مندوبه بالامتناع عن حضور الجلسات لما تذرع به من اتهام أعضائها بالتحيز للوطنيين ومحاولة تبرئتهم من أحداث هذه المذبحة وإلقاء التهم على الأجانب.

وفي نفس اليوم أي 12 يونية انتشرت الكثير من الشائعات عن استعداد الأوروبيين للهجوم على المسلمين وأنهم يعدون الأسلحة والعدة للانتقام منهم بسبب ما حدث يوم 11 يونية، فوصلت هذه الأخبار إلى قادة الجند الذين اجتمعوا وكتبوا إلى قناصل الدول الأجنبية يعلمونهم بأنه في حال حدوث أي تحرش من جانب الأوروبيين بالوطنيين فلن يكون في مقدور الجهادية أن تحافظ على النظام



ومازالت الهجرة الجماعية تتوالى على المراكب الأوروبية الرابضة في الميناء هربًا من قلق المدينة الثائرة.. صورة نشرتها جريدة The Graphic بتاريخ 8 يوليو 1882.

والأمن في البلاد، وعندما وصل هذا القرار لقناصل الدول الأجنبية تشاوروا فيما يجب حدوثه ثم اتفقوا على نشر هذا الإعلان:

"يا أبناء جلدتنا الأعزاء: وقع أمس بالإسكندرية وقائع مهمة ولكن الجهادية المصرية أعادت الراحة وتعهدوا بالمحافظة عليها ونحن بهم واثقون فضلاً عن كوننا متوافقين مع المأمورين الملكيين والجهاديين على ما يجب إجراؤه من التدابير اللازمة المؤدية إلى وقاية الراحة العمومية وصيانتها.

فنتقدم إليكم أن تساعدونا بحكمتكم على القيام بهذا فلا تتقلدوا أسلحة نارية والزموا منازلكم ما استطعتم واجتنبوا أسباب المشاجرات والمنازعات.

وحرصًا على المصلحة العمومية قد حصل التوافق بين جميع القناصل الموقعين على ذيل هذا الإعلان على أن يكون لقواسة (يسقجية) القنصليات جميعًا من أية تابعية كانوا الاختصاصات المعروفة للبوليس وسائر رجال الشرطة فنكلفكم أن تمتثلوا لهم".

وقد وقع على هذا الإعلان 15 من القناصلة للدول الآتية: ألمانيا – أوستريا والمجر – بلجيكا – البرازيل – الدانمرك – إسبانيا – الولايات المتحدة الأمريكية – فرنسا – إنكلترا – اليونان – إيطاليا – هولندا – البرتغال – الروسية – أسوج ونروج (السويد والنرويج).[34]

ثالث يوم المذبحة 13 يونية 1882

وصل الخديو توفيق بالقطار إلى محطة الإسكندرية في الساعة الثانية من بعد ظهر الثلاثاء 13 يونية أي ثالث يوم المذبحة واصطف الجنود لاستقبال الخديو من رصيف المحطة إلى سراي رأس التين، وأُطلقت المدافع تحية له ولضيفه درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية الذي أوفده السلطان إلى مصر لتسكين الحالة وفض الاشتباك الواقع بين الخديو توفيق من جهة وأحمد باشا عرابي والجيش من جهة

34- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الخامس ص 16.

ثانية وقد اضطرب أهالي المدينة عند سماع صوت المدافع لخوفهم من أن تكون الأساطيل الإنجليزية هي التي تضرب المدينة، وقد كان لحضور الخديو توفيق إلى الإسكندرية بعد هذه الحادثة تفسيران أحدهما الرسمي أي الذي جاء على لسان الخديو وأفراد معيته وحاشيته وهو أنه ما ترك عاصمة بلاده وجاء للإسكندرية في هذه الظروف الحرجة إلا لبث الطمأنينة في نفوس القناصل والأجانب وإعادة حالة الهدوء للمدينة، بينما يؤكد العرابيون أن ترك الخديو لعاصمة بلاده في هذه الظروف الحرجة ما هي إلا حلقة في سلسلة خيانته لمصر وللمصريين وأنه ما جاء للإسكندرية إلا ليكون في حماية الأساطيل الأجنبية خصوصًا إذا ما وقعت الواقعة وضربت هذه الأساطيل مصر.. وهو ما يؤكد على وجود سوء نية مبيتة بين الطرفين كان من نتائجه ضياع البلاد.

وفي نفس هذا اليوم ورد تقرير الإسبتالية بخصوص المتوفين الواردين إليها في صباح 26 رجب سنة 1299 هـ الموافق 13 يونية 1882.[35]

"ثمانون أجانب أوروباويين وثلاثة مصريين جميعهم واحد وأربعون فالمصريون هم حسن عيسى جرى تسليمه لأهله وحسن إبراهيم الطواني ومحمد عبد المولى جرى دفنهم على المصلحة أما الثمانية والثلاثون بما أنهُ لا يمكن الوقوف على أسمائهم ولا على مللهم وحكماء القناصل حضروا للإسبيتالية وأجروا الكشف اللازم عليهم وجاري قيد الأسماء والجنسية فقط عند حضور مندوب من طرف القناصلية لاستلامهم، وأما المجروحون فهم ستة وثلاثون رجلاً وبنت عمرها نحو الاثني عشر وطفل عمره الثمانية سنوات فمن المجروحين الرجال اثنان عساكر واحد من المستحفظين السواري وواحد من 6 جي بيادة واتنين اروام رعية واتنين ترك وواحد يهودي وثلاثة سودانية وثلاثة برابرة والباقون المصابون فمنهم عشرون مصابون بجروح نارية وعشرة مصابة بالات راضة وستة مصابة بجروح قاطعة أما البنت مصابة بجرح رضي والطفل مصاب بكسر في الفخز (الفخذ) والجميع تحت المعالجة ومنهم اثنا عشر في حالة خطرة وتسعة إصابات شديدة وسبعة عشر بإصابات يؤمل شفاها وللمعلومية لزم شرحه".

35- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الثامن ص 611 .

رابع يوم المذبحة الأربعاء 14 يونية 1882

على أن يوم الأربعاء 14 يونية شهد قصة طريفة تدخل تحت باب "شر البلية ما يضحك" مفادها كالآتي:[36]

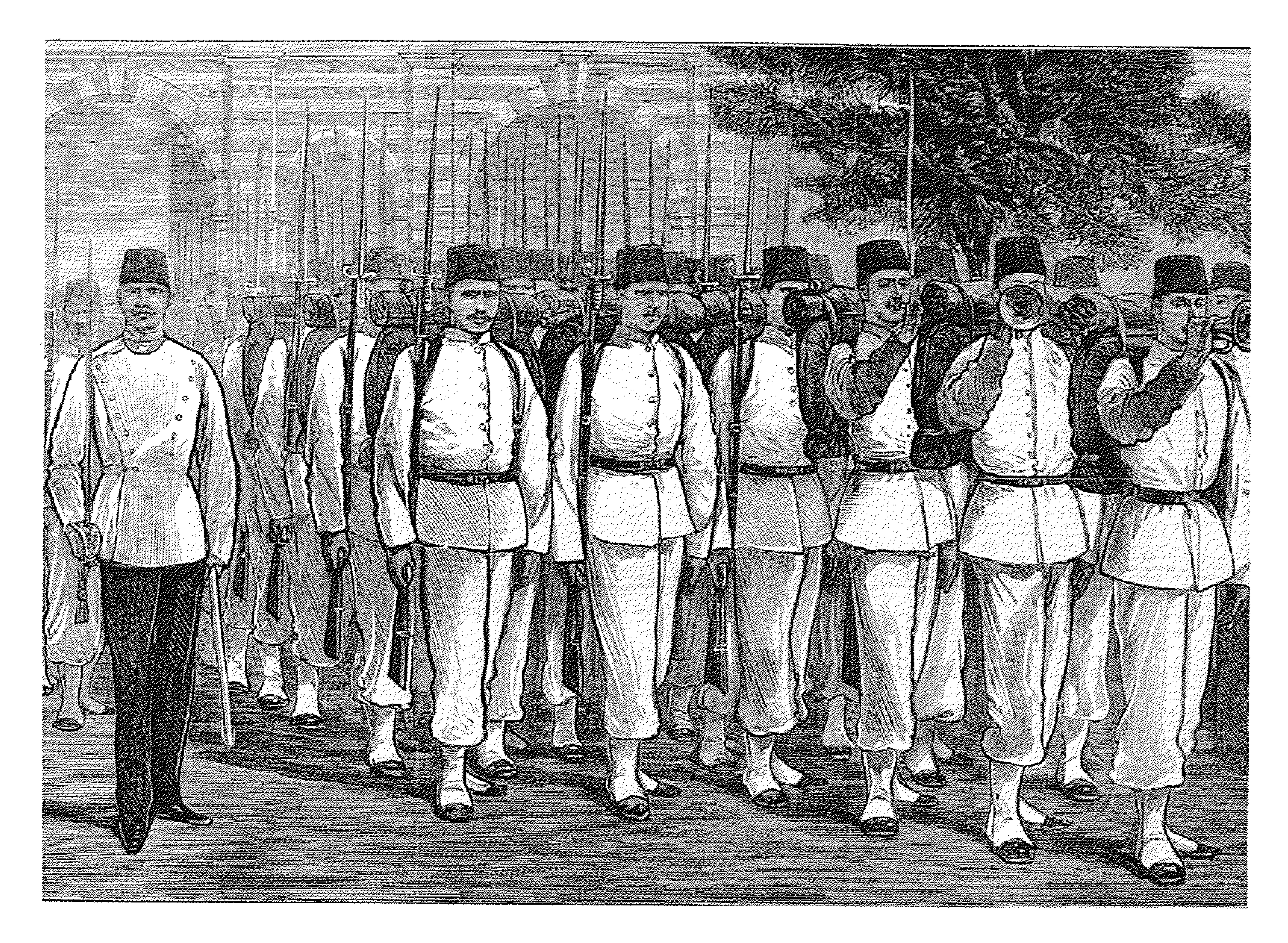
وبينما كان الحال في المدينة متوترًا مشدودًا كأنه وتر أحد الأقواس المستعدة للانطلاق.. انطلقت شائعة باحتراق جزء من المدينة حتى وصلت الشائعة إلى دار المحافظة، وكان فيها المحافظ وأعضاء اللجنة المشكلة لبحث مسألة حادثة 11 يونية إذ وفد عليهم رجل ينادى بأعلى صوته: يا سعادة الباشا أدرك المنشية.. أدركها من النار والرصاص..

وما أتم كلامه حتى علت الضوضاء وسارع ضباط الجهادية والمأمورون إلى خارج الباب حيث أُعدت لهم العربات والخيول فركبوها وقصدوا جهة المنشية وبعد نصف ساعة عادوا منها وأخبروا أنهم ما رأوا نارًا ولا رصاصًا ولا قتالاً، وكان السبب في ذلك أن أحد أصحاب الدكاكين رأى عربة نقل ملأى بما ينقله المهاجرون إلى البحر ورأى في أعلى الشحن كيسًا أبيض يتصاعد منه دخان كأنه يحترق ببقية سيكارة رمى بها أحد المارين في الطريق فوقعت على ذلك الكيس فساعدها الهواء على إحراقه وكان صاحب العربة غير منتبه إلى ما وراءه فناداه أحدهم بعجلة قائلاً: أطفئ... أطفئ فظن أحدهم أنه يقول: أقفل.. أقفل إشارة إلى وقوع الفتنة ووجوب المسارعة إلى إقفال دكانه والمبادرة إلى الفرار فقام من حينه ولم يلتفت إلى ما كان بل ترك دكانه وسار في الطريق مضطربًا هلعًا يردد تينك الكلمتين "أقفل.. أقفل" إشارة إلى وقوع الفتنة ووجوب المسارعة إلى إقفال دكانه والمبادرة إلى الفرار وكان يسمعه أصحاب الدكاكين على جانبي الطريق فيسارعون لإقفال دكاكينهم ويهربون، وكلما مر واحد منهم بصديق أشار إليه أن يقفل مغلقه ويهرب فرارًا من شر الفتنة التي وقعت والمذبحة التي حدثت.. وصار الخبر ينتقل من جهة إلى جهة حتى بلغ شارع الضبطية وقد تجسم وتنوع حتى قيل فيه

36- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الثامن ص 20.

إن الفتنة وقعت في المنشية، وقال آخر إن النصارى تجمعوا وحملوا السلاح قاصدين حارات المسلمين لينتقموا منهم وإنهم متألبون في المنشية جموعًا يبلغ عددهم 4 آلاف مقاتل.. فسمع الرجل هذا الخبر فرأى أن يسرع ويخبر به محافظ المدينة وضابطها ففعل ما فعل.

واتصل الخبر أيضًا بسراي رأس التين حيث كان الخديو ودرويش باشا (مبعوث السلطان العثماني) فأرسلا بعض السعاة يستخبرون عن الحقيقة ثم انتقل إلى حارات النصارى ولكن على غير تلك الصيغة إذ قيل فيه إن الجهادية عزموا على الفتك بالمسيحيين وإحراق المدينة وذبح الأجانب إلى غير ذلك، وهو ما جعل الخوف والاضطراب عموميين في المدينة وسبب كل ذلك في النهاية يعود إلى قول صاحب أحد الدكاكين: أطفئ.. أطفئ.



استعراض للجيش المصري كما نشرته صحيفة The Graphic الإنجليزية بتاريخ 24 يونية 1882 تحت عنوان الأزمة في مصر. ويبدو أن العرابيين أرادوا بهذا الاستعراض طمأنة خواطر المصريين وإرهاب الأسطول الإنجليزي في نفس الوقت.

ثم توالت الحكايات في المدينة الحزينة منها أن النار شبت يومًا في جهة الطرطوشة فشاع الخبر أن الأوروبيين أضرموها هناك انتقامًا من المسلمين ثم تبين أنه حريق عادي تم إخماده بدون خسائر تُذكر.

وبعد مرور حوالي عشرة أيام من الحادثة وبالتحديد في 21 يونية 1882 أرسل الخديو، توفيق كتابًا إلى إسماعيل باشا راغب رئيس النظار ضمنه الاستياء من حوادث 11 يونية وما وقع فيها من قتال وسفك دماء وما أفضت إليه من اضطراب ووقوع حوادث خطيرة بين الوطنيين والأجانب، وطلب من النظارة التحري عن المشتركين في هذه الأحداث لتوقيع العقاب على من يثبت عليه هذا الجرم؛ وبالفعل اجتمع مجلس النظار وقرر تشكيل لجنة جديدة برئاسة عبد الرحمن رشدي بك ناظر المالية، نصف أعضائها من الوطنيين والنصف الآخر من الأوروبيين المنتخبين بواسطة قناصل الدول بحيث يكون لكل قنصل مندوب في اللجنة، على أن تعرض هذه اللجنة نتائج التحقيق على الخديو لتوقيع الأحكام التي يقتضيها القانون.

وفي اليوم التالي أي 22 يونية 1882 انتقل مستر ماليت قنصل جنرال إنجلترا إلى الباخرة "منغوليا" إحدى بواخر الشركة الشرقية الرابضة أمام شواطئ الإسكندرية بعد تمارضه ثم تبعه مستر "كوكسون" قنصل إنجلترا بالإسكندرية يوم 25 يونية بحجة مرضه بسبب الجراح التي أصيب بها في حادثة 11 يونية ثم تبعة مستر بورج قنصل مصر عاهدين بأعمال القنصلية إلى السيد "هوجمان" بالقنصلية الإنجليزية في دمياط مما يعني أن الإنجليز كانوا يعدون العدة لتفريغ البلاد من رعاياهم تمهيدًا لضربها.

وقبل انقضاء الأسبوع الأخير من شهر يونية 1882 كان في ميناء الإسكندرية عدة سفن حربية من مختلف الجنسيات ترفع أعلامًا ذات ألوان مختلفة وكأنها احتفالية بحرية وليست مظاهرة تهديد لمدينة جميلة كل ذنبها أنها وقعت فريسة لدولة كبيرة أرادت الاستيلاء عليها لأغراض لم تكن واضحة وقتها. وهذه السفن تكونت من فرقاطة نمساوية وسفينتين أمريكيتين وسفينتين يونانيتين ومدرعة إيطالية وسفينة ألمانية وسفينتين روسيتين بالإضافة إلى الأسطولين الفرنسي والإنجليزي...

حكايات إنسانية من ملفات إنجليزية

وقد رأيت قبل أن أسترسل في سرد يوميات المدينة الساحلية الجميلة أن أنقل إليكم بعض الحكايات الإنسانية التي عثُرت عليها أثناء تفتيشي وغوصي في الملفات والأوراق، ولكن هذه المرة كانت الأوراق محفوظة داخل ملفات ومجلدات موضوعة بعناية على أرفف خشبية على بعد آلاف الأميال من مصر ومدينتها الحزينة؛ وبالتحديد في مبنى أنيق يبعد عن قلب العاصمة البريطانية لندن خمس عشرة دقيقة، هو مبنى "الأرشيف الوطني البريطاني" الذي وجدت أنه يضم عددًا ضخمًا من الوثائق والأوراق التي تحكي جزءًا كبيرًا من تاريخ مصر؛ وخاصة في الأجزاء التي تتقاطع مع تاريخ إنجلترا وهي فترات طويلة على مر الأزمان.

والدخول إلى هذا المبنى من أسهل ما يكون ويكفي أن تحمل بطاقة هوية ليتم السماح لك بالاطلاع على الوثائق التي تطلبها، على شرط أن يكون قد تم الإفراج عنها فهم يؤمنون في هذا المبنى بحرية تداول المعلومات، ومن على أجهزة الكمبيوتر الحديثة المنتشرة في كل قاعات الاطلاع يمكن أن تطلب أي ملف بعد ذكر تاريخه والحصول على رقمه وقد كان الحصول على ملفات عام 1882 سهلاً لكثرتها، ومنها على سبيل المثال تلك التي تحكي واقع الحياة في مصر بصفة عامة خلال "الأزمة العرابية" كما أُطلق عليها وبعضها يحمل اسم "الموقف في مصر" The situation in Egypt ثم في النهاية عثُرت على مجلد ضخم تزيد عدد أوراقه على الألف ورقة مغلف بغلاف جلدي قديم وتفوح منه رائحة التاريخ، وقد كان هذا المجلد هو بيت القصيد وقد اكتشفت أن كل ورقة من هذا المجلد يمكن أن تحكي حكاية إنسانية حزينة بطعم الفراق ورائحة الغدر والدم وهي لأناس عاشوا وماتوا منذ أكثر من 127 سنة، ولكنهم تركوا جزءًا من روحهم وحكاياتهم داخل هذه الأوراق، وبعض هذه الأوراق قد تجدها ممسوحة أو غير واضحة ربما بسبب الدموع التي ذرفها أصحابها أثناء كتابتها. وأنا لا أدعوك عزيزي القارئ أن تصدق أو تتعاطف مع هذه الحكايات بل كل ما أريده منك أن تعرفها لأنها في النهاية جزء من تاريخ

مصر كتبه أصحاب هذه القصص من وجهة نظرهم الحزينة، وهي قصص عن أجانب ساقهم القدر ليلقوا حتفهم في الأحداث الحزينة للمدينة؛ ومن هذه القصص واحدة بعنوان:

"حكاية السيدة هربرت بي ريبتون"

والحكاية كما تقصها الورقة الرسمية المحفوظة في ملف التعويضات عن أحداث العنف والقتل في مذبحة الإسكندرية هي كما يلي:

السيدة ريبتون هي أرملة هربرت بي ريبتون خريج جامعة دبلن، وفي نفس الوقت هو مواطن إنجليزي قُتل بوحشية في المذبحة الدموية التي جرت أحداثها بمدينة الإسكندرية بمصر في 11 يونية 1882. وبوفاته أصبحت السيدة ريبتون وابنتها التي تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا بدون عائل.

وكان السيد ريبتون يعمل كمهندس مدني ويقيم في مدينة دبلن، وكان أبوه الدكتور جورج ريبتون عضوًا مشهورًا في الجمعية الطبية بالمدينة. وكان السيد ريبتون ملحقًا بالعمل في المحكمة المختلطة بالإسكندرية في ذلك الوقت. في يوم الأحد المشئوم كان السيدة ريبتون وبصحبته ابنته وثلاثة من الأصدقاء في طريق عودتهم من زيارة الأسطول الإنجليزي في الميناء عندما تم قتله بواسطة مواطن من أهل البلد وبعض الجنود بطريقة وحشية، كما تم قتل حوالي 300 أوروبي في هذه المجزرة أيضًا.

وقد أصيبت ابنة مستر ريبتون بالذعر لمشهد مقتل أبيها وباقي الأوروبيين فقام أحد الجنود المصريين بإنقاذها وتهريبها إلى الحي العربي، وهناك قام شيخ طيب بإخفائها حتى المساء ثم ساعدها في التنكر في زي فتاة عربية وأعادها إلى منزلها وهي في حالة رعب وانهيار مازالت تعالج منه حتى الآن.

وقد استمر ذعر أسرة السيد ريبتون لمدة أربعة أيام حتى يوم الجمعة التالي حينما تمكنت أرملة السيد ريبتون القتيل وابنته من الهرب والصعود على سطح إحدى السفن التي استأجرتها الحكومة الإنجليزية لنقل المهاجرين الأجانب للفرار من الهلع الذي اجتاح المدينة.

وكانت النتيجة أن كل ما امتلكته السيدة ريبتون وابنتها في الحياة تركتاه في الإسكندرية وراءهما حينما هربتا حيث لم تستطيعا حمل أي شيء معهما.

والسيدة ريبتون تتقدم بهذا الالتماس لحكومة جلالة الملكة (الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا) للحصول على التعويض المناسب لمقتل زوجها خاصة وأنه تم إبلاغها بواسطة أيرل جرانفيل أنه لابد من التحقيق في شكواها بواسطة لجنة تحقيق دولية في مصر تم تشكيلها ومن المنتظر أن تباشر عملها قريبًا في مصر، وقد تم إخطار السيدة ريبتون أنه للنظر في شكواها لابد من أن تذهب هي وابنتها إلى الإسكندرية ولكنها في الحقيقة لا تملك مصاريف السفر إلى الإسكندرية ولا نفقات الإقامة هناك أثناء نظر الشكوى.

وقد تم التأشير على الخطاب بأن هذه السيدة قد فقدت أيضًا أصدقاء أعزاء آخرين في هذه الحادثة منهم السيدة "لأسترانج"، ثم تم تذييل الخطاب بقلم أسود بأنه لا حاجة لذهاب السيدة ريبتون إلى مصر.

ثم كان الخطاب الثاني الخاص بهذه الحالة والصادر من مدينة دبلن بتاريخ 27 يناير 1883 والذي يبدو أنه كان من محامي السيدة وابنتها والموجه إلى القنصلية الإنجليزية في الإسكندرية والذي يقول فيه:

MRS. HERBERT P. RIBTON'S CASE.

MRS. RIBTON is the widow of Herbert P. Ribton, C.E., University of Dublin, a British subject, who was savagely murdered at Alexandria, in the massacre of Sunday, the 11th June, 1882.

By his death Mrs. Ribton and her daughter, who is now seventeen years of age, have been left totally unprovided for.

Mr. Ribton was a native of the City of Dublin, a Graduate of T.C.D., a Civil Engineer by profession, and son of the late Dr. George Ribton, a well-known member of the medical profession in Dublin.

At the time of his death Mr. Ribton was one of the Civil Engineers attached to the "Tribunali Misti" at Alexandria.

On Sunday, the 11th June, 1882, Mr. Ribton, accompanied by his daughter and three friends, left home to visit the British Fleet then in the Harbour, and on his return was brutally murdered by the Arab Mob and Soldiers; about 300 other Europeans fell in the same massacre.

Mr. Ribton's daughter was frightfully beaten. She was seized by an Arab Soldier who carried her off to the Arab quarter. Here she was miraculously rescued by a friendly Arab Sheik, who kept her till night fall when he sent her home disguised as an Arab. She was, however, dreadfully bruised, and is still in extremely delicate health.

After remaining in terror of their lives for four days, on the Friday following, Mrs. Ribton and her daughter were enabled to effect their escape and to take refuge on board the vessel which was hired by the British Government for the reception of the refugees.

Everything that Mrs. Ribton and her daughter possessed in the world, save the clothes in which they fled, was left behind in Alexandria, and they are now absolutely destitute.

Mrs. Ribton presented a petition to Her Majesty's Government for compensation for the murder of her husband, and has been informed by Earl Granville, in reply, that her claim must be investigated by an International Commission in Egypt, which Commission has since been appointed, and is expected to sit shortly. Mrs. Ribton is advised that, in order to establish her claim it is absolutely necessary for her daughter and herself to go to Alexandria; but she has no means to pay their passage there, or to support herself and her daughter pending the investigation.

. this paper was printed. Mrs Ribton has lost a valuable friend by death — of Miss L'Estrange

ere is now no necessity for Mrs Ribton to go to Egypt.

"سيدي:

إلحاقًا بالطلب المقدم بخصوص حصول السيدة ريبتون وابنتها على التعويض المناسب لمقتل الزوج السيد ريبتون في خطابي السابق بتاريخ 11 يناير 1883، أرجو من سيادتكم توفير كل البيانات الخاصة بالسيد ريبتون ووضعه الوظيفي والمنصب الذي كان يشغله قبل مقتله وتقديم هذه البيانات والمستندات إلى البارون "دارمفيلت" رئيس المحكمة المختلطة بالإسكندرية و"كارلو راب" الملحق المختص بالأوروبيين في المحكمة المختلطة أو إلى القاضي "باركوجر".

كما أرجو من سيادتكم تقديم أي بيانات قد تحتاج إليها اللجنة المشكلة لفحص طلبات التعويض، بالإضافة إلى إعلامي بكل ما يجد خصوص هذه الحالة والموعد المحدد للتحقيق فيها وما توصلت إليه اللجنة وذلك بوقت كاف.

خادمكم المخلص

بي دبليو بروك"

وقد استمرت المداولات لفترة تزيد عن سنة ثم نجحت المساعي بحصول السيدة ريبتون وابنتها على تعويض كان مناسباً بمعايير ذلك الزمان ويتضح ذلك من الخطاب الذي أرسل من الإسكندرية بتاريخ 23 إبريل 1884 يقول فيه:

"سيدي:

يشرفني أن أبعث إليكم بهذا التلغراف الذي تلقيته بتاريخ اليوم السابق 22 إبريل الساعة الخامسة والنصف مساءً ونصه كالآتي:

هل تلقيتم مبلغ المائتين (200) جنيه الخاصة بالسيدة ريبتون.. إذا كانت الإجابة نعم بعد فحص الحساب فأرجو إبلاغي بدخول المبلغ الحساب".

Alexandria 23rd April 1884.

My Lord,

I have the honour to acknowledge Your Lordship's telegram as follows
"April 22 at 5.30. p.m. Have
"you received the Two hundred
"pounds for Mrs Ribton. if
"so debit your account with
"same" - and to confirm
my reply:
"Two hundred pounds
received

Honble

صورة من الخطاب الخاص بحصول السيدة ريبتون على مبلغ 200 جنيه إسترليني كتعويض عن وفاة زوجها.

H. B. M's Consulate
Alexandria Sept 20
1882.

Sir,
With reference to your letter of this day's date claiming on behalf of your client Mr Redding, armourer and British Subject, the sum of £s 536. for arms supplied to Her Majesty's Consulate upon the occasion of the massacres and riot of June 11th last, I beg to inform you that no record of this matter exists in this Office.

I shall therefore, be glad, as you state such were supplied under Consular Order, if you could give me a copy of this order and any other information touching the circumstances under which the arms were supplied, as you may possess.

I am Sir
Your obedient Servt
/signed/ Thos S. Sago
acting Consul.

الخطاب الموجه من القائم بأعمال القنصل الإنجليزي بالإسكندرية إلى محامي السيد "ريدنج" في 20 سبتمبر 1882.

أما أخطر ما عثُرت عليه في الأرشيف فهي مجموعة من الخطابات المتبادلة بين محامي أحد المتضررين من مذبحة 11 يونية 1882 وهو السيد "ريدنج" إلى القنصلية الإنجليزية بالإسكندرية يطالب فيها بالحصول على مبلغ 536 جنيهًا إسترلينيًا قيمة الأسلحة التي تم نقلها إلى القنصلية يوم الحادث وهو ما يكشف حقيقة خطيرة أن القنصلية الإنجليزية طلبت أسلحة لمواجهة هذه الحادثة، وبالفعل وصلت الأسلحة إلى مقر القنصلية بالإسكندرية حسب ما ورد بالخطابات الرسمية المحفوظة بالأرشيف البريطاني والتي تقول في الخطاب الأول الموجه من محامي السيد "ريدنج" إلى القنصلية بتاريخ 20 سبتمبر 1882:

"أرفع إلى سيادتكم طلب موكلي السيد "ريدنج" بعرض الأمر على سيادتكم بخصوص الأسلحة التي قام بتوريدها إلى القنصلية بناء على الأمر القنصلي الموجه إليه بمناسبة أحداث 11 يونية 1882 وذلك لاتخاذ اللازم بشأن دفع المبالغ المطلوبة ثمنًا للأسلحة والتي بيانها كما هو موضح في البيان الملحق بالخطاب.

خادمكم المطيع

كيث جروسيان"

ثم ألحق المحامي قائمة بالأسلحة التي تم تسليمها للقنصلية وعددها ونوعية كل قطعة وقيمتها في 15 سطرًا وتبلغ القيمة الإجمالية للقطع 536 جنيهًا إسترلينيًا.

List

3 Best central fire B.L. hammerless guns a £25. £
1 " " " gun with hammers "
2 " " " guns No16 bore choked a 16. "
1 " Muzzle Loading gun London make "
2 " " " " " " 6. "
2 Central fire B.L. Guns Belgian choke bore " 5. "
6 " " & pinfire guns 20 bore " 4. "
8 Saloon guns " " 2. "
1 Second hand English C/F. gun double barrel "
1 best second hand French double B.L. gun "
82 double barrelled Muzzle loading guns, Damascus
fine twist barrels a £3.10 " 2
1 box containing 100 cases saloon guns cartridges
1 second hand B.L. central gun } a 4/- p case "
No 16 bore

£ 53

قائمة بالأسلحة التي تم توريدها للقنصلية الإنجليزية كما وردت بالخطاب.

ثم كان الخطاب الثاني الموجه من القائم بأعمال القنصل الإنجليزي بالإسكندرية إلى محامي السيد "ريدنج" في نفس التاريخ وبالتحديد في 20 سبتمبر 1882 مما يعني أن الرد كان سريعًا جدًّا ولكن محتواه كان غريبًا جدًّا إذ يقول فيه وبالحرف الواحد:

"بالإشارة إلى خطابكم المرسل اليوم بخصوص طلب قيمة الأسلحة التي تم توريدها إلى قنصلية جلالة الملكة بتاريخ 11 يونية 1882 الموافق لأحداث الشغب والمجازر التي حدثت بالمدينة.. وقيمتها حسب ما ذكرتم في خطابكم 536 جنيهًا إسترلينيًّا، أتشرف بأن أبلغ سيادتكم بأنه لا يوجد لدينا أي تسجيل أو إشارة لهذا الموضوع في ملفات القنصلية.

وعلى ذلك.. نرجو من سيادتكم إعطاءنا نسخة من أي أمر صادر من القنصلية بخصوص هذا الموضوع أو أي معلومات موثقة بشأن توريد أسلحة أو خلافه تكون متوفرة لديكم".

ثم كان الخطاب الثالث وهو الأخطر في هذه القضية وهو الذي رفعه شخص يدعى "أر. ماريوت" من البحرية الملكية البريطانية إلى القنصلية بخصوص هذا الموضوع بتاريخ 13 أكتوبر 1882 ويقول فيه:

"ردًّا على خطابكم السابق بتاريخ 12 أكتوبر والذي طلبتم فيه معرفة الظروف والملابسات الخاصة بموضوع نقل الأسلحة من محل السيد "ريدنج" إلى مبنى القنصلية الإنجليزية بالإسكندرية في يوم 11 يونية الماضي، يشرفني أن أرفع لسيادتكم ما لديّ من معلومات بخصوص هذا الموضوع..

حيث إنني كنت متواجدًا في القنصلية بعد ظهر يوم 11 يونية الماضي حينما تم إحضار السيد كوكسون القنصل الإنجليزي في حالة سيئة من جراء الضرب والمعاناة التي تعرض لها في مذبحة هذا اليوم، وخوفًا من تجدد أو زيادة أعمال الشغب أمرني السيد كوكسون أن أحضر الأسلحة من محل السيد "ريدنج" خوفًا من وقوع هذه الأسلحة بين يدي مثيري الشغب سواء أكانوا من الأوروبيين أو الوطنيين. وفورًا ذهبت إلى المحل الذي وجدته مغلقًا وبدأت في فتح الباب عنوة في حضور القنصل "كافاس" وآخرين وفي لمح البصر اندفع نحونا مجموعة ضخمة من المالطيين واليونانيين حتى أنني

تراجعت وعُدت إلى القنصلية، ولم يمض وقت طويل حتى علمنا أن السيد "ريدنج" موجود في القنصلية ومستعد لفتح محله وبالفعل ذهبت معه لمباشرة عملية نقل الأسلحة بالسيارة إلى القنصلية.

وبالفعل تم نقل حمولة 3 سيارات إلى القنصلية وبلغ عدد القطع التي تم تسليمها 70 زوجًا من المسدسات، أما السيارة الرابعة التي كانت تحمل بعض المسدسات من نوعية saloon rifle فقد تم توقيفها بواسطة البوليس وقد قال محافظ الإسكندرية الذي كان حاضرًا وقتها إنه يمكن إعادتها أو تسلمها في اليوم التالي من خلال الضبطية. وفي نفس الوقت تم تعيين حارس بواسطة السلطات العسكرية على المحل واستمرت الحراسة عليه لمدة 3 أسابيع بعد الحادثة. هذا ولم أتلق أي أوامر أخرى بخصوص هذه الأسلحة من المستر كوكسون.

الإمضاء.. أر. ماريوت من البحرية الملكية لحكومة جلالة الملكة".

وبعد كثير من البحث وجدت أثرًا لهذا الموضوع ولكن على الجانب الآخر -أي الجانب المصري- على لسان عمر باشا لطفي محافظ الإسكندرية في ذلك الوقت في المحضر الذي أُجري بمعرفة القومسيون الذي شكله الخديو توفيق لبحث حادثة الإسكندرية ومسألة التعويضات في يوم الأحد أول إبريل 1883 فقال: [37]

"وأما السبب لذلك -أي تهور العساكر والضباط عليّ- كان لأجل أسلحة كانت قد وجدت في عربة وكنت أمرت بالتحفظ على الأسلحة المذكورة في دار المحافظة وتسليمها إلى صاحبها بعد التحقيق، فالعساكر والضباط جعلوا ذلك وسيلة لإظهار ضغائنهم القديمة، وأصل الأسلحة المذكورة هو أن ترجمان قنصلاتو الإنجليز شخص شامي يسمى في الغالب الخواجا خوري كان حضر عندما كنت بالمنشية بعد الغروب وأخبرني بأن قصدهم نقل بعض أسلحة موجودة بدكان تاجر سلاح إلى القونسلاتو خوفًا من أن تقع في يد الأهالي ويستعينوا بها على الثورة فأخبرته بعدم إمكان ذلك لأن العساكر إذا رأت الأسلحة المذكورة في يد الأوروبيين ولو في داخل عربة يكون سببًا لزيادة تهور العساكر، ولكن بعد مدة

37- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الثامن ص 409.

أخرجوا الأسلحة المذكورة بدون امتثال لأمري وصار القبض عليها أمام قونصلاتو الإنجليز من داخل العربة وبما أني في ذلك الوقت كنت داخل القونصلاتو لأجل التكلم مع قناصل جنرالية الدول فيما يتعلق بالأمن، وحال خروجي نظرت تلك العربة بإخبار أحد جاويشية البوليس لنا أنها تحتوي على أسلحة؛ فبالحال أمرت نفرين من البوليس بأخذ العربة بأسلحتها وتوصيلها إلى المحافظة لحفظ الأسلحة بها لحد الصباح حتى يُنظر في أمرها، ويظهر أن البوليس المأمورين بذلك عوضًا من أن يسلكوا بمُقتضى التنبيه أوصلوا العربة بالأسلحة إلى جمعية الضباط والعساكر وحصل ما قررت عنهُ".

ثم عثُرت على خيط آخر لهذا الموضوع في شهادة علي أفندي ذو الفقار الذي كان يعمل كمفتش في الضبطية إبان هذه الأحداث حيث قال:[38]

"نحو الساعة السابعة توجهت لمقابلة المحافظ الذي كان في المنشية فبطريقي وجدت سليمان داوود أمام قنسلاتو فرنسا وجنبه بندقيات صيد عددهم 24 وصندوق خرطوش وقال لي والي وكيل المحافظة الذي كان معي أن هذه البندقيات انضبطوا بواسطة يوزباشي آلاي وواحد جاويش عندما نظروهم يدخلونهم في قنصلاتو الإنجليز وأن المحافظ أراد يمنعهم بأن يضبطوا الأسلحة وأنه مع كونه أمرهم بذلك إلا أنهم فعلوا الواجب وأنه حضر بنفسه (أي سليمان داوود) إلى قنسلاتو فرنسا لكي يفهم القضية إلى قنصل جنرال فرنسا وطلبني بأن أكون ترجمانًا وقال لي أيضًا أن قنصل الإنجليز كان متفقًا مع قنصل الأروام بأن يعملوا لخبطات في البلد وأن المحافظ عوضًا عن أن يمنعهم ما كان يجرى شيئًا.

وفي الوقت ذاته حضر قنصل فرنسا وسألنا ما هذه الأسلحة فأفهمته فجاوب بأن هذه المسألة لا تعنيه وأنه لا يريد أن ينظر الأسلحة أمام القونسلاتو ثم دخل وبعدها حضر المحافظ فسليمان داوود قال له سعادتك منعت هؤلاء الأشخاص بأن يضبطوا الأسلحة ولكن هم ضبطوهم فالمحافظ جاوبه أنت غلطان أنا ما منعت أحد بضبط الأسلحة إنما قلت عوض ما يكونوا اتنين واحد فقط ممكن يضبطهم والآخر يفضل معي لأجل يساعدني".

38- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الثامن ص559.

وهنا أجد من الضروري التعليق على هذا الموضوع حيث إن الكلام الذي ذكره هذا الشاهد على لسان سليمان داوود عن رفض المحافظ ضبط الأسلحة يتنافى مع ما ذكره المحافظ في شهادته حول هذا الموضوع، ويؤكد أيضًا الدور الخطير الذي كان يلعبه سليمان داوود في المدينة حتى أنه كان يُطلق عليه "عرابي المدينة" حتى أنه قال إنه كان في نيته أن يضبط (يعتقل) المحافظ، ويثير التساؤل عن كيفية وصول هذه الأسلحة إليه...!

وقد امتلأت ملفات القنصلية الإنجليزية في ذلك الوقت بالعشرات من طلبات التعويض عن الأشخاص الذين قُتلوا في هذه المذبحة والذين كان من ضمنهم "جيمس بيبورث" أحد مهندسي البارجة "سوبرب" الذي مات كما يقول سليم النقاش ميتة مروعة ضربًا بالسكاكين و"جورج سبراكت وألبرت هيرن" اللذان كانا يعملان كخادمين عند أميرال إحدى البوارج الإنجليزية وقد شاء حظهما أن يتواجدا في ذلك الوقت بالقرب من مكان المذبحة؛ حيث كانا قد نزلا من سفنهما إما للتجول في المدينة أو لشراء بعض المستلزمات.. وقد عثرت على الكثير من الخطابات المتبادلة بين أهليهم من جانب والقنصلية بالإسكندرية والبحرية الإنجليزية من جانب آخر من أجل الحصول على التعويضات المناسبة ومنها على سبيل المثال الخطاب الذي أرسله والد المهندس بيبورث بتاريخ 13 يونية 1883 الموجه إلى إدارة البحرية الإنجليزية ويقول فيه:

"ابني السيد جيمس بيبورث والذي كان يعمل كمهندس على متن البارجة "سوبرب" والذي رُقي مؤخرًا إلى درجة كبير مهندسين، تم اغتياله في الإسكندرية بتاريخ 11 يونية 1882. ولي الشرف أن أطلب من سيادتكم أن

Copy

86 Margate Road, Southsea,
13th June 1883.

Sir,

My late son, Mr. James Pibworth, while serving as an Engineer on board H. M. S. "Superb" (he had passed for a Chief Engineer) when he was cruelly murdered at Alexandria the 11th June 1882.

I have the honor to request you will be pleased to inform me, if any of my family are likely to receive a monetary consideration, for the services & loss of my late son, from the Lords Commissioners of the Admiralty.

I have &c
(Sd) James Pibworth

The Secretary
of the Admiralty.
London

صورة من خطاب والد جيمس بيبورث الموجه إلى البحرية الملكية الإنجليزية بخصوص مقتل ابنه.

تعلموني إذا كان في إمكان العائلة الحصول على أي نوع من أنواع التعويضات المالية في مقابل الخدمات التي قام بها ابني للبحرية الإنجليزية؟".

ثم كان هناك خطاب آخر من والد "جورج سبراكت" بتاريخ 10 أغسطس 1882 يقول فيه:

"أشعر بالأسى بسبب مقتل ابني المسكين "جورج سباركت" الذي قُتل ببشاعة في 11 يونية 1882 بمدينة الإسكندرية.

أرجو من سيادتكم أن تدلوني إذا كان بإمكاني أن أرفع شكوى ضد الحكومة المصرية خاصة أن ابني كان يعمل تحت إمرة الأميرال بوشام سيمور".

ثم كان الخطاب المثير من القنصل الإنجليزي "كوكسون" بالإسكندرية بتاريخ 4 يناير 1884 والذي يقول فيه:

"بخصوص التلغراف المرسل في 19 من الشهر الماضي للاستفسار عن طلبات التعويض والشكاوى المقدمة من أقارب "جيمس بيبورث وويليام سبراكت وديفيد هورن" التابعين للبحرية الملكية الإنجليزية والذين كانوا ضمن ضحايا مذبحة 11 يونية 1882.

Copy

Appley Villa
St. Johns
I. of W.
10th August 1882

2445/22

Sir,

I received your letter of the 29th July, and regret to say my poor Son, George Sprackett, was brutally murdered on the 11th June in Alexandria.

Will you please to inform me, if I should be justified in making a claim on the Egyptian Government.

My Son was Valet to Sir Beauchamp Seymour, and he contributed towards my Support.

I am
Sir,
Your obedient Humble Servant

Signed William Sprackett

ولي الشرف أن أنقل لسيادتكم أن اللجنة قررت في اجتماعها الأخير تخصيص مبلغ لأقارب الضحايا على أن يتم التقسيم على النحو التالي:

- 25 جنيهًا إسترلينيًا لوالد المهندس بيبورث وأخته.
- 25 جنيهًا إسترلينيًا لوالد سبراكت وأختيه.
- 30 جنيهًا إسترلينيًا لوالد "هيرن".

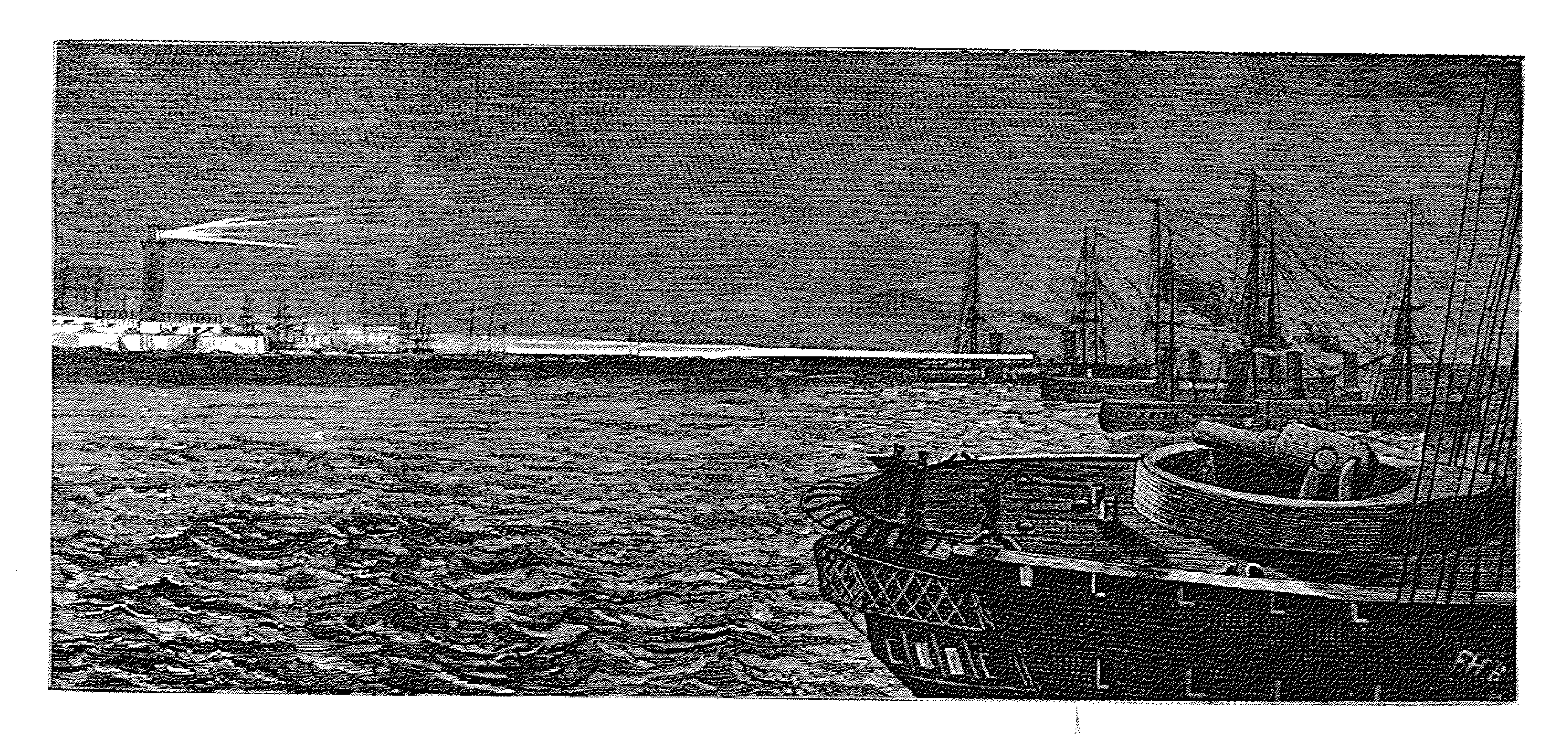
وبعد هذا القرار لم أجد من الضروري الإصرار على طلب مبالغ تعويضية كبيرة لأقارب الضحايا الذين عانوا كثيرًا من فقد أقاربهم، حيث قررت اللجنة صرف هذه المبالغ على حسب القواعد الموضوعة، ولهذا فمن الضروري من أجل حساب قيمة هذه التعويضات وصرفها لابد من إرسال بعض الأوراق إليّ في مقر القنصلية بالإسكندرية وهي أوراق رسمية تثبت أعمار المستفيدين من هذه التعويضات وتفويض منهم لشخصي لاستلام هذه المبالغ".

وهناك الكثير والكثير من هذه الأوراق التي تملأ العشرات من الملفات وتحتل مساحات كبيرة من الأرفف في الأرشيف البريطاني الذي قام بفهرستها وتبويبها وتصويرها إلكترونيًا وحفظها ثم أفرج عنها في النهاية للباحثين والجمهور للاطلاع عليها بعد انقضاء المدة القانونية اللازمة للحفاظ على السرية وهي غالبًا 30 سنة.. وقد اخترت هذه الأوراق كنموذج من بين مئات المطالبات بالتعويضات التي كان على الحكومة المصرية أن تدفعها للأجانب كتعويض وترضية عما أصابهم من خراب ودمار وقُتل بسبب تلك الحادثة التي لم يحسم التاريخ سببها حتى الآن، ولم يجزم أحد إن كانت مدبرة أو عارضة ولكنها في النهاية أثقلت كاهل الحكومة المصرية بالمزيد من الأعباء والديون والتي بلغت في مجملها الآلاف من الفرنكات والجنيهات الإسترلينية دُفعت للأجانب ما بين تعويضات لهذه المذبحة وما تلا ذلك من تعويضات للمضارين في حوادث ضرب وحرق ونهب الإسكندرية بعد ذلك بشهر في 11 يوليو ثم ما تبع ذلك من احتلال إنجلترا للبلاد والذي اتخذ من هذه الحادثة ذريعة للتدخل في الشئون المصرية واحتلال البلاد لمدة تزيد عن 70 عامًا.

يوميات المدينة في شهر يوليو 1882

لم يكن شهرا يونية ويوليو ساخنين فقط من حيث ارتفاع درجة الحرارة ولكن من حيث سرعة تصاعد وتتابع الأحداث في بحر وبر المدينة.. ففي البحر وعلى بعد 1500 متر من الشاطئ كانت ترابط قطع من الأسطول الإنجليزي تضم 8 مدرعات كبيرة و5 سفن خشبية ضخمة للمدفعية وسفينة للطوربيد وأخرى كشافة —وكان هذا الأسطول هو الأخطر في العالم في ذلك الوقت— موجهة مدافعها إلى المدينة الوادعة التي تحولت وفي أيام قليلة من شهر يونية إلى مدينة متنمرة مستعدة للانقضاض على الأجانب... ثم تلاحقت الأحداث سريعًا حتى أن المتابع للأحداث التاريخية هذه الأيام لن يستطيع التقاط أنفاسه من فرط السرعة، ويمكن للمتتبع أن يُلاحظ أن ما حدث خلال الأيام التالية كان مجرد تمثيلية موزعة الأدوار ومعروف نتيجتها مسبقًا.

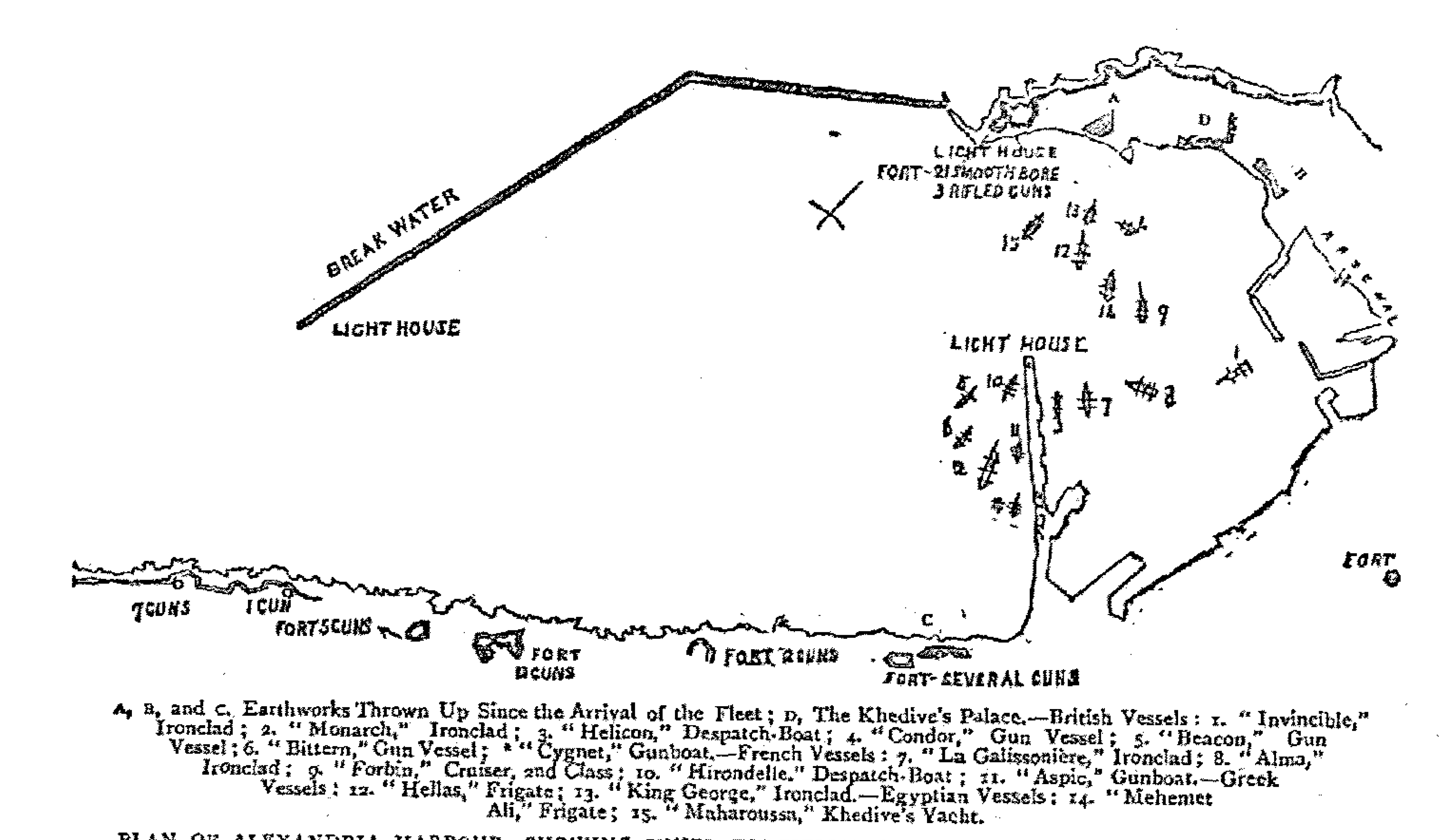
فمع شروق شمس أول شهر يوليو 1882 كان الأميرال سيمور قد حزم أمره بعد أن مل الانتظار، فانكب على مكتبه الخشبي في قمرة القيادة يكتب برقية إلى حكومته يخبرها أنه برغم كل التعليمات والتنبيهات التي أُعطيت للجهادية المصرية إلا أن أعمال ترميم الطوابي مازالت مستمرة وأنه اكتشف



المراكب الإنجليزية تفتش الميناء والطوابي بحثًا عن المدافع والتحصينات قبل ضرب المدينة بتاريخ 9 يوليو 1882 من ملفات البحرية الإنجليزية ونشرت في Illustrated London news.

بعض الترميمات التي تتم في حصون المدينة وأنهم يُركبون بطاريات جديدة تجاه البوارج الإنجليزية وأضاف أن الأمر أبعد وأخطر من ذلك؛ فقد وصل إلى حد أن المصريين وعلى رأسهم عرابي يعتزمون سد بوغاز الإسكندرية لحصر البوارج الإنجليزية التي كانت راسية في الميناء.

وبعد يومين... وفي 3 يوليو 1882 جاء الرد العنيف لمذكرة سيمور بخصوص سد البوغاز مؤكدًا أن على الأسطول الإنجليزي محاولة إيقاف هذه الأعمال بطلب وقفها رسميًا وفي حالة الرفض... فليدمرها بمدافعه.. منتهى العدل الإنجليزي.



MUNICIPAL FESTIVITIES

See page 632.

THE CRISIS IN EGYPT

PLAN OF THE HARBOUR OF ALEXANDRIA

ALEXANDRIA has two harbours, one on the eastern side, called the New, and the other on the western, known as the Old Port. The latter, a plan of which is annexed, is by far the most commodious, being provided with a breakwater, a jetty, lighthouses,

251 had entered the Royal Navy, 560 were provided with situati in merchant ships, 133 joined army bands, and 245 returned to th Unions or friends. In the reports which had been received of conduct and positions of the lads after leaving the ship, the m satisfactory accounts had been given. After a boat-drill and co petition for prizes the proceedings terminated. We may observe conclusion that Captain Bourchier, the Commandant of the *Exmou* shows a remarkable tact and knowledge of human nature. H thus able to gain the affections of the boys, and possesses a gr influence over them. He is admirably seconded by his wife and

A, B, and C, Earthworks Thrown Up Since the Arrival of the Fleet; D, The Khedive's Palace.—British Vessels: 1. "Invincible," Ironclad; 2. "Monarch," Ironclad; 3. "Helicon," Despatch-Boat; 4. "Condor," Gun Vessel; 5. "Beacon," Gun Vessel; 6. "Bittern," Gun Vessel; * "Cygnet," Gunboat.—French Vessels: 7. "La Galissonière," Ironclad; 8. "Alma," Ironclad; 9. "Forbin," Cruiser, 2nd Class; 10. "Hirondelle," Despatch-Boat; 11. "Aspic," Gunboat.—Greek Vessels: 12. "Hellas," Frigate; 13. "King George," Ironclad.—Egyptian Vessels: 14. "Mehemet Ali," Frigate; 15. "Maharoussa," Khedive's Yacht.

PLAN OF ALEXANDRIA HARBOUR, SHOWING INNER FORTIFICATIONS AND POSITION OF FOREIGN SHIPS OF WAR, JUNE 7, 1882

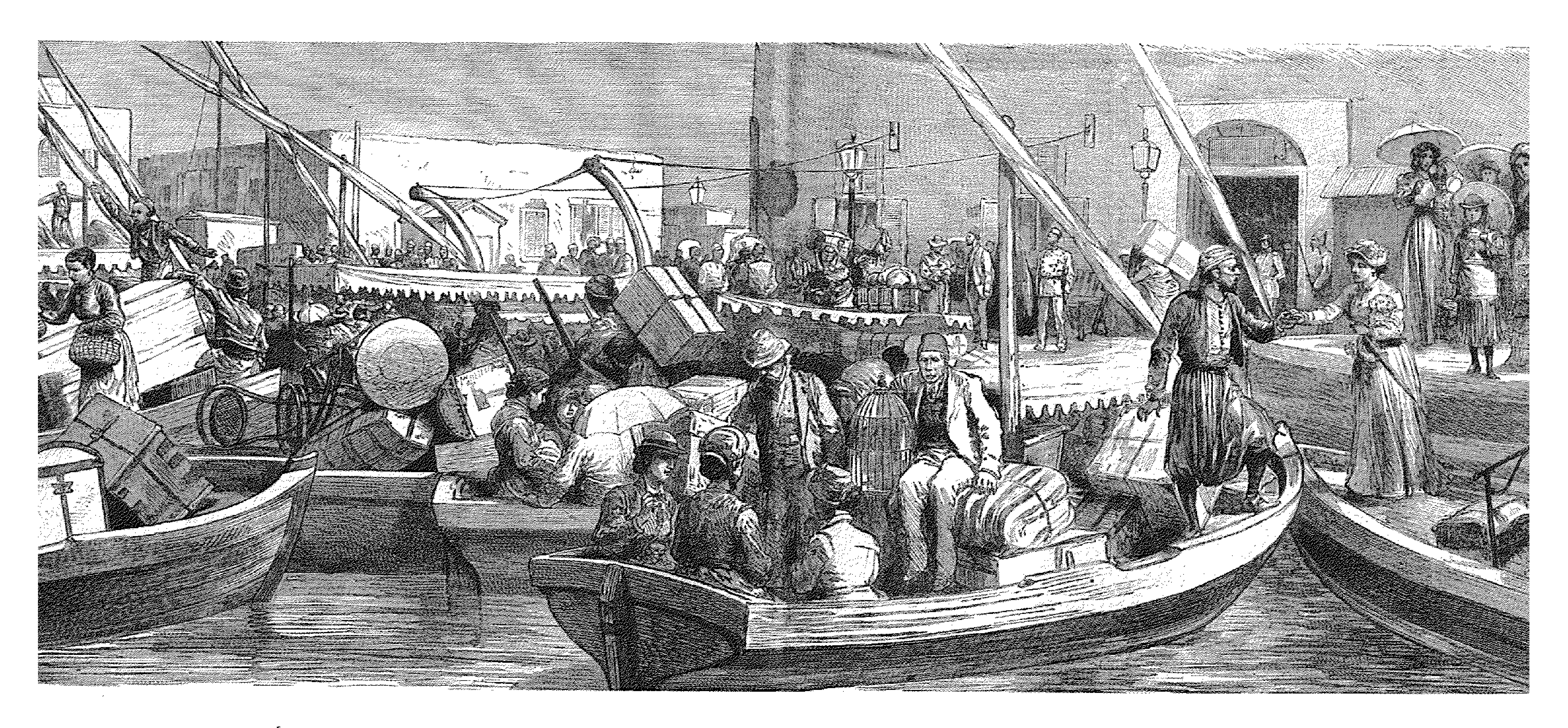
خريطة لطوابي الإسكندرية كما نشرتها الجرائد الإنجليزية.

ومن سخرية القدر أنه في نفس اليوم أرسل الأميرال "كونراد" الذي كان على رأس الأسطول الفرنسي الذي كان يقف بجانب الأسطول الإنجليزي رسالة إلى حكومته يخبرها بما يدور قبالة شواطئ الإسكندرية وما اعتزمه الأميرال الإنجليزي "سيمور"، ولكنه أضاف في رسالته جملة غريبة جدًا وهي أنه من جانبه لم يشاهد أي ترميمات في الحصون، وبالتالي يكون كل ما ذكره الأميرال سيمور لحكومته وللخديو وللباب العالي وللعالم كله "محض افتراء".

وقد تلقى الأميرال "كونراد" ردًا على رسالته من الحكومة الفرنسية يوم 5 يوليو 1882 أن يغادر ميناء الإسكندرية إذا ما قرر الأسطول الإنجليزي ضرب المدينة بحجة أن هذا يُعتبر عملاً عدائيًا ضد الحكومة المصرية ويخالف ميثاق النزاهة الذي وقعته الدول الكبرى التي دُعيت لمؤتمر الآستانة في 25 يونية 1882 وهي فرنسا - إنجلترا - ألمانيا - روسيا - إيطاليا - تركيا - النمسا والمجر والذي تعهدت فيه هذه الدول بأن كل اتفاق يحصُل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث فيه الدول الموقعة عن احتلال لأي جزء من أراضي مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجاري لرعاياها؛ وهذا الخطاب يعني أن الحكومة الفرنسية قد فطنت لما تخطط له إنجلترا ورفضت المشاركة فيه.

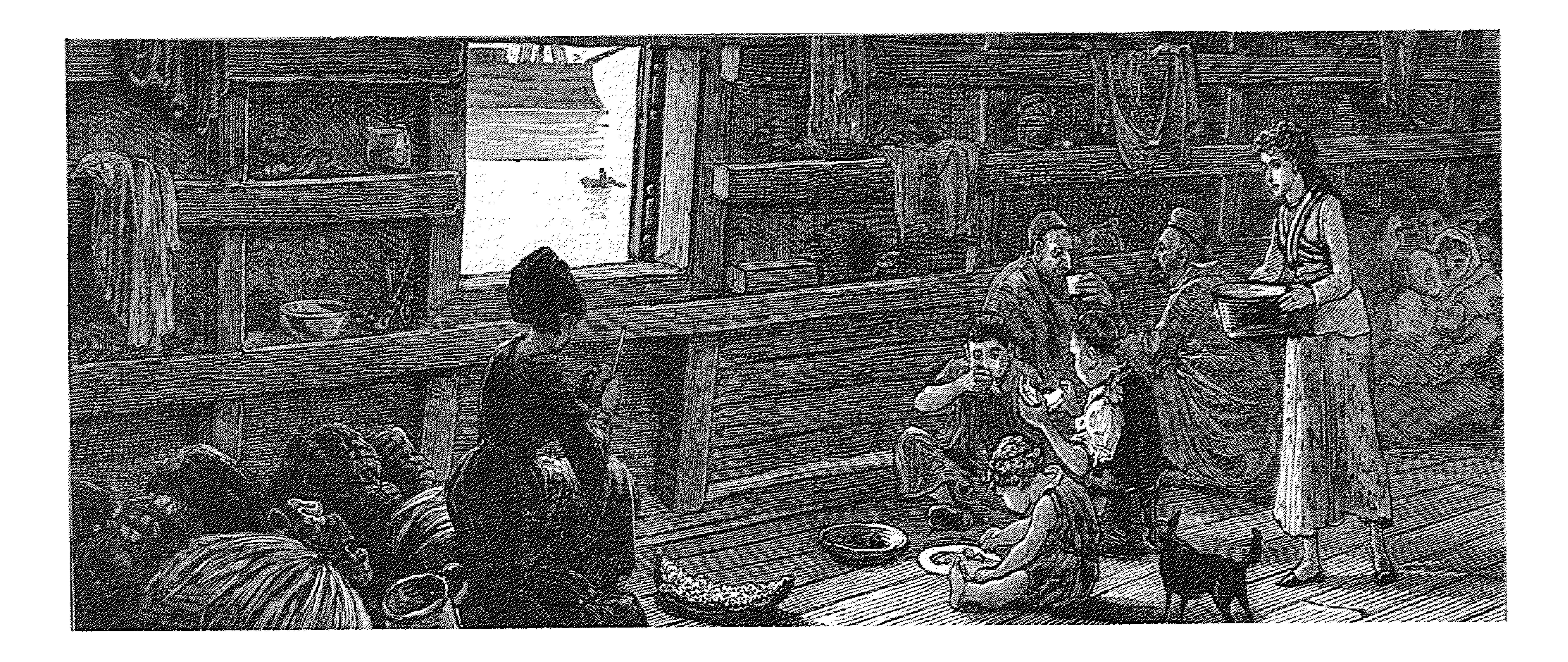
وفي 6 يوليو 1882 أرسل الأميرال سيمور الذي كان يبحث عن وسيلة لضرب المدينة بلاغًا إلى طلبة باشا عصمت قومندان الإسكندرية بالكف عن أعمال التحصين المستمرة في الحصون -على حسب رأيه- فرد عليه قومندان الإسكندرية "بأنه لا توجد أعمال ترميمات من أساسه وأنه لم يتم وضع أي مدافع جديدة في الحصون"، إلا أن هذا الرد لم يُقنع الأميرال سيمور الذي قرر أن يمضي في خطته إلى النهاية.

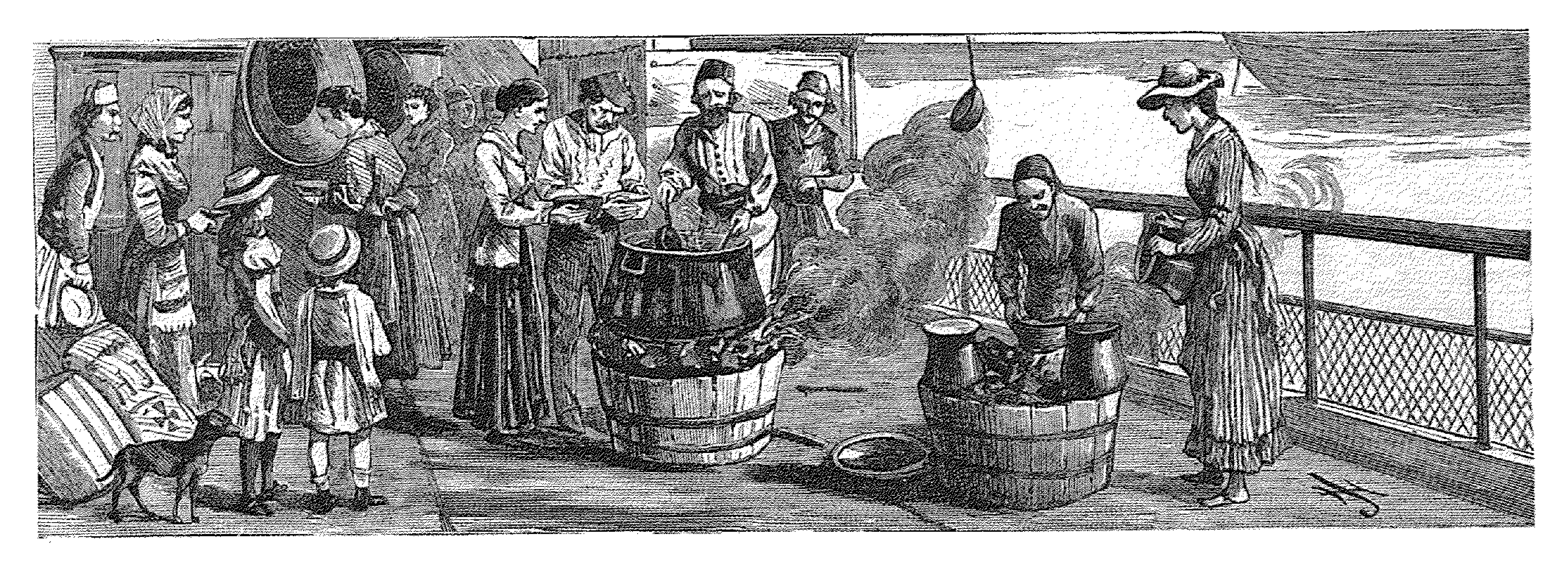
ثم سرعان ما انتشر خبر هذه المراسلات المتبادلة بين الجانبين المصري والإنجليزي فأيقن العارفون ببواطن الأمور بأن هذا نذير شر، فأسرع قناصلة الدول الكبرى وعلى رأسهم فرنسا وإنجلترا بدعوة مواطنيهم للهجرة وتفريغ المدينة من الأوروبيين تحسبًا للحرب القادمة؛ فتسابق الأجانب للرحيل حتى بلغ عددهم 60 ألف مهاجر قبل ضرب المدينة.



الأجانب يتسابقون للرحيل عن الإسكندرية حاملين معهم ما استطاعوا حمله من الأمتعة.. من استطاع منكم الهجرة والفرار من المدينة الحزينة.. فلينج بنفسه... هكذا كان أهل المدينة من أجانب أو أولاد عرب من الموسرين يحدثون أنفسهم... حتى أن البحر قد امتلأ بالفارين داخل المراكب الصغيرة سعيًا للوصول إلى السفن الكبيرة الراسية خارج الميناء..

من واقع ما نشرته The Graphic بتاريخ 8 يوليو 1882.





صور لحياة الأجانب على ظهر السفن الأوروبية هرباً من جحيم الإسكندرية كما نشرتها جريدة The Graphic في عددها الصادر في 8 يوليو 1882.

فقد تحولت السفن الأجنبية الرابضة في الميناء إلى منازل متنقلة للأجانب الذين فروا بأسرهم وأولادهم وما استطاعوا حمله من متاعهم.. ووفرت لهم حكوماتهم الطعام والشراب والإقامة على متن السفن مجاناً لغير القادرين. وقد نشرتها الجريدة تحت عنوان "وجبة آمنة على السفينة روزينا".

كما أسرع أغنياء المصريين والأتراك بالهجرة إلى بلاد الشام، ومن لم يستطع منهم تراجع إلى داخل البلاد حتى أن عرابي ورجال الجهادية فكروا في مصادرة ممتلكات وأراضي المصريين الذين هاجروا باعتبار أن ترك البلاد في هذه الظروف خيانة يجب أن يعاقبوا عليها، ولكن لم تنفذ هذه الفكرة بسبب المعارضة التي لقيتها من جانب الأغلبية.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة اجتمع قناصل الدول الأجنبية الموجودون في الإسكندرية يوم 7 يوليو 1882 للتشاور في الأمر وقرروا إرسال خطاب للأميرال سيمور محاولين إثناءه عن ضرب المدينة ومحاولين الوصول إلى حل يرضي الحكومة الإنجليزية وينقذ مواطنيهم في نفس الوقت من هذه الورطة وكان هذا نص الخطاب:

"لائحة قناصل الدول الأوروبية بالإسكندرية إلى الأميرال سيمور

إن لرعايانا مصالح مهمة في الإسكندرية ولهم فيها أملاك واسعة وعقارات كثيرة والمتخلفون منهم عن المهاجرة كثيرون وهو ما دعانا أن نتقدم إليكم ونسألكم هل اقتنعتم من جواب الحكومة المصرية على سؤالكم المتعلق بتحصين القلاع أم لا؟ فإن كان الجواب الثاني فإننا نستطيع أن نطلب تعديل الجواب المذكور بحيث يرضيكم ويقنعكم.. وإذا كنتم لا ترضون بذلك ولا تريدون أن تقتنعوا بأمر ما فنرجوكم أن تنبئونا عن المهلة التي تتركونها لرعايانا قبل الشروع في القتال ليتمكنوا من الرحيل.

وإننا نخطركم أن إطلاق المدافع سينشأ عنه ضرر عظيم يلحق بسكان المدينة من نصارى ومسلمين ولابد من أن تنهدم به أبنية عديدة للأوروبيين، وبودنا لو أنكم ترفعون إلى حكومتكم ملاحظاتنا هذه قبل أن تنفذوا أوامرها". [39]

وحتى هذه اللحظة كان القناصل الأجانب يطمعون في النيل الإنجليزي أو "العشم" بالبلدي الذي قد يكون بين الأوروبيين وبعضهم على أساس أن تدمير المدينة وضربها سيضر بمصالح الأوروبيين أكثر

39- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الخامس ص55 .

من الضرر الذي قد يعود على أصحاب البلد أنفسهم.. ولكن ذهبت محاولاتهم سُدى... فبمجرد وصول هذا الخطاب إلى الأميرال الإنجليزي "بوشامب سيمور" الذي كان يستعد لضرب المدينة بأي طريقة -بحثًا عن مجد خالد أشك في أنه ناله- حتى أرسل ردهُ إلى القناصل وكان ردًا لا معنى له حيث أكد أنه عازم على ضرب المدينة مادامت أعمال التحصين وتعزيز الاستحكامات مستمرة وأنه لا يثق بجواب طلبة عصمت ولكنه أكد بمكر ليس بغريب عنه أن الضرب لن يمتد إلى داخل المدينة بل سينصب على الطوابي والاستحكامات العسكرية وبالتالي لا داعي للقلق على مصير الأوروبيين ومنازلهم، وفي نهاية رسالته وعدهم ألا يبدأ الضرب إلا بعد 24 ساعة من الإنذار النهائي.. أي شرف هذا... إنه بلا شك الشرف الإنجليزي..! ومن ناحية أخرى كان الخديو توفيق يشعر بالقلق مما يحدث في بر وبحر المدينة خاصة وهو يرى من شرفة قصر رأس التين الذي يقيم فيه هو ودرويش باشا مندوب السلطان العثماني مراكب الأسطول الإنجليزي ومدافعها مصوبة إلى بلاده وهو لا حول له ولا قوة والأجانب يتدافعون للهروب من المدينة بأي وسيلة حتى أصبح بحر الإسكندرية يمتلئ بالسفن والمراكب الشراعية الصغيرة التي تقوم برحلات مكوكية لنقل الأجانب من البر إلى السفن الرابضة خلف الأسطول لتأمين الرعايا الأجانب. وعندما أدرك الخديو أن المدينة يتم تفريغها بسرعة من الأجانب أيقن أن الحرب والغدر الإنجليزي قادم لا محالة فاستدعى إليه المستر "أوكلاند كولفين" مراقب المالية الإنجليزي وطلب منه أن ينقل إلى حكومته ما ينويه إذا ما تم ضرب المدينة فقال:[40]

"إني لا أبرح من مكاني لو وقعت الواقعة وأُطلقت المدافع على الإسكندرية فإن لي من رعيتي قومًا أمناء لم يخونوني بل خدموني بأمانة وصداقة فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسي ولا يليق بي أن أترك البلاد في وقت الحرب ففي ذلك عارًا عظيمًا وإذا جاءت جنودًا عثمانية وقاومها أحزاب الجهادية الثائرون أُصرح حينئذ للعموم أننا تابعون لمولانا السلطان المعظم فإذا بقي الجهادية مصرين على عنادهم فأنا ودرويش باشا ننزل إلى البحر ونقيم في اليخت العثماني "عز الدين" أما إذا

40- سليم خليل النقاش – مصر للمصريين – الجزء الخامس ص 54.

جاءتنا جنودًا غير عثمانية أو إذا أطلق الأسطول الإنجليزي مدافعه على الإسكندرية فحينئذ نذهب أنا ودرويش باشا إلى سراي نمرة 2 الكائنة في المحمودية.. هذا ما صممت النية عليه فأرجوك أن تبلغه لجناب اللورد "جرانفيل" وزير خارجيتكم".

ولكن أحمد شفيق باشا الذي كان في معية الخديو توفيق يقول:[41] إن مستر "كارترايت" نائب القنصل البريطاني أشار على الخديو توفيق أن ينزل هو وأسرته إلى إحدى البوارج الإنجليزية ليكون في مأمن مما عساه يصيب سراي رأس التين لأنها عرضة لقذائف المدرعات فرفض.

وقد عرض الأمير عمر طوسون[42] برقية مُرسلة من مستر كارترايت إلى لورد جرانفيل بهذا الخصوص هذا نصُها:

"الإسكندرية في 7 يولية 1882..

أتشرف بإخبار سعادتكم أن سمو الخديو أرسل في طلب سير "أوكلاند كلفن" في صحوة هذا اليوم ليعرض عليه خطة السير التي ينوي سموه اتخاذها في هذه الظروف، فلقد نوى سموه في الحالة التي يستقر فيها الرأي على الضرب أن يبقى في الديار المصرية، وهو يقول في تعليل ذلك إنه لا يستطيع أن يترك جميع أولئك الذين ظلوا في معيته وأولوه في غضون هذه الفتنة إخلاصهم، كما أنه من جهة أخرى لا يستطيع أن يهجر مصر إذا أغارت عليها دولة أجنبية إذ يقال حينئذ إنه بارحها لينجو بنفسه.

وأعرب سموه عن نيته في الانصراف هو ودرويش باشا إلى أحد القصور القائمة على شاطئ المحمودية إذا كان الضرب من جانب الأسطول الإنجليزي وأنه بقدر الإسراع في إنجاز الضرب يقل الخطر الذي يحيق بشخص الخديو.

وكان سموه أثناء هذه المقابلة رابط الجأش يتكلم بصوت هادئ واختتم الحديث بتوجيه الرجاء إلى سير "أوكلاند" أن يبلغ قراره هذا إلى سعادتكم.

41- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 163.

42- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يوليه 1882- ص 58.

ثم عقب مستر كارترايت في نهاية برقيته قائلاً إنه عقد العزم على أن يخبر درويش باشا أنه في حالة حدوث ضرب تُلقي حكومة صاحبة الجلالة البريطانية عليه مسئولية سلامة الخديو الشخصية وأمنه.

ثم توالت البرقيات في مختلف الاتجاهات.. ولكن كانت كلها تحمل نفس المعنى..

وفي 9 يوليو 1882 ومن على ظهر السفينة "هيليكون" الرابضة بميناء الإسكندرية أرسل مستر "كارترايت" نائب القنصل البريطاني برقية إلى وزير الخارجية الإنجليزي اللورد "أيرل جرانفيل" يقول فيها:

"سيدي اللورد:

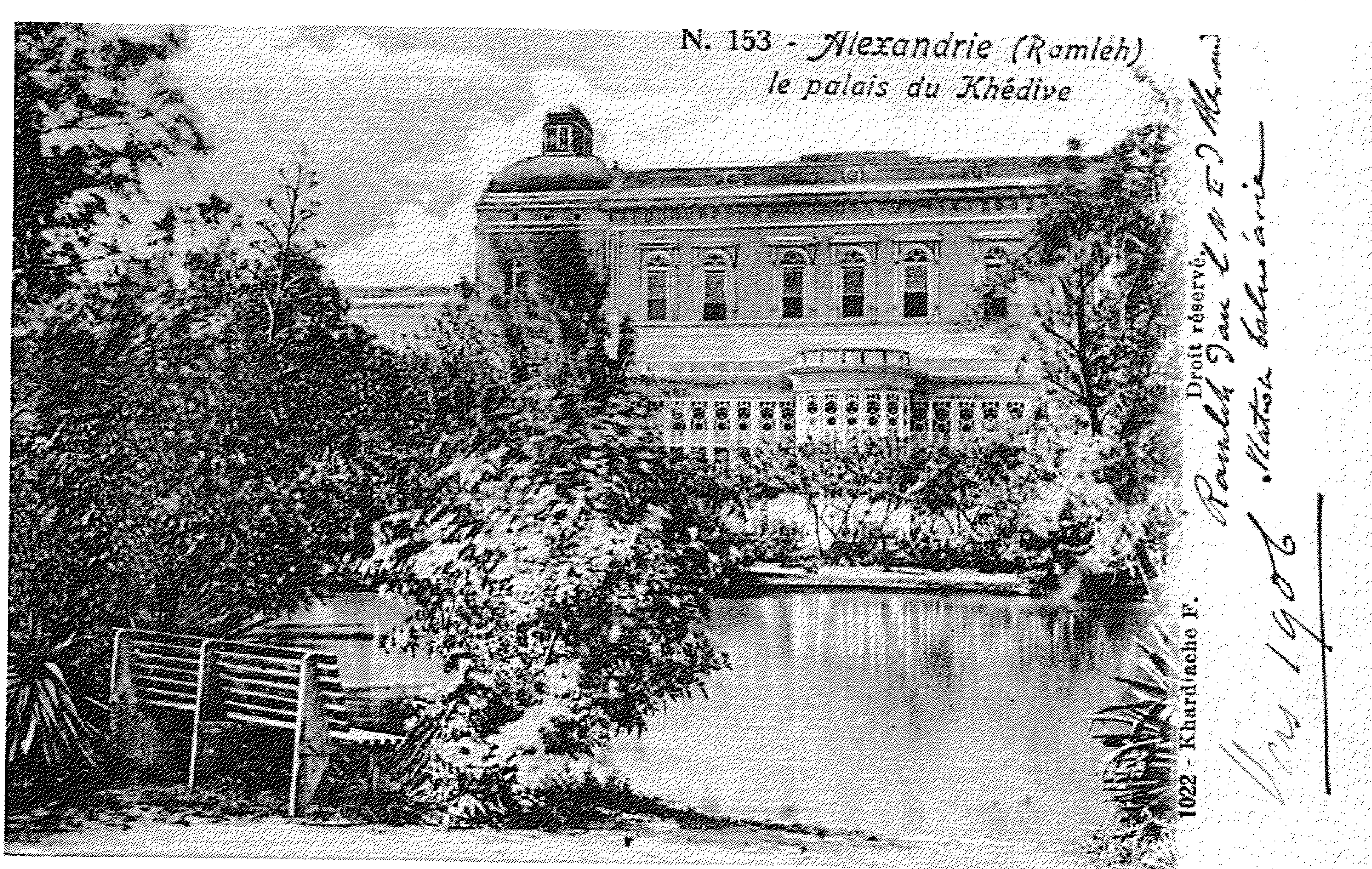
علم الأميرال "سيمور" أنه قد تم وضع مدفعين في القلعة المعروفة بقلعة "السلسلة" الكائنة تجاه المينا الجديدة علاوةً على المدافع الموجودة فيها فلم يعد في إمكانه أن يتحمل هذه الأمور ويصبر عليها ولذلك عزم على إطلاق المدافع في فجر الثلاثاء الآتي (11 من هذا الشهر) وسأخبر بهذا العزم القناصل الجنرالية والخديو ودرويش باشا في مساء هذا اليوم ثم أُجري من التدابير ما يلزم لكي يتمكن الباقون في الإسكندرية من النزول إلى السفن والالتجاء إليها".

وفي مساء نفس اليوم من على ظهر نفس السفينة "هيليكون" قام مستر "كارترايت" بإرسال البرقيات والمذكرات إلى قناصل الدول الأجنبية يطالبهم فيها بإجلاء رعاياهم على أن يكونوا على المراكب الراسية خارج الميناء في مدة 24 ساعة من تاريخه.

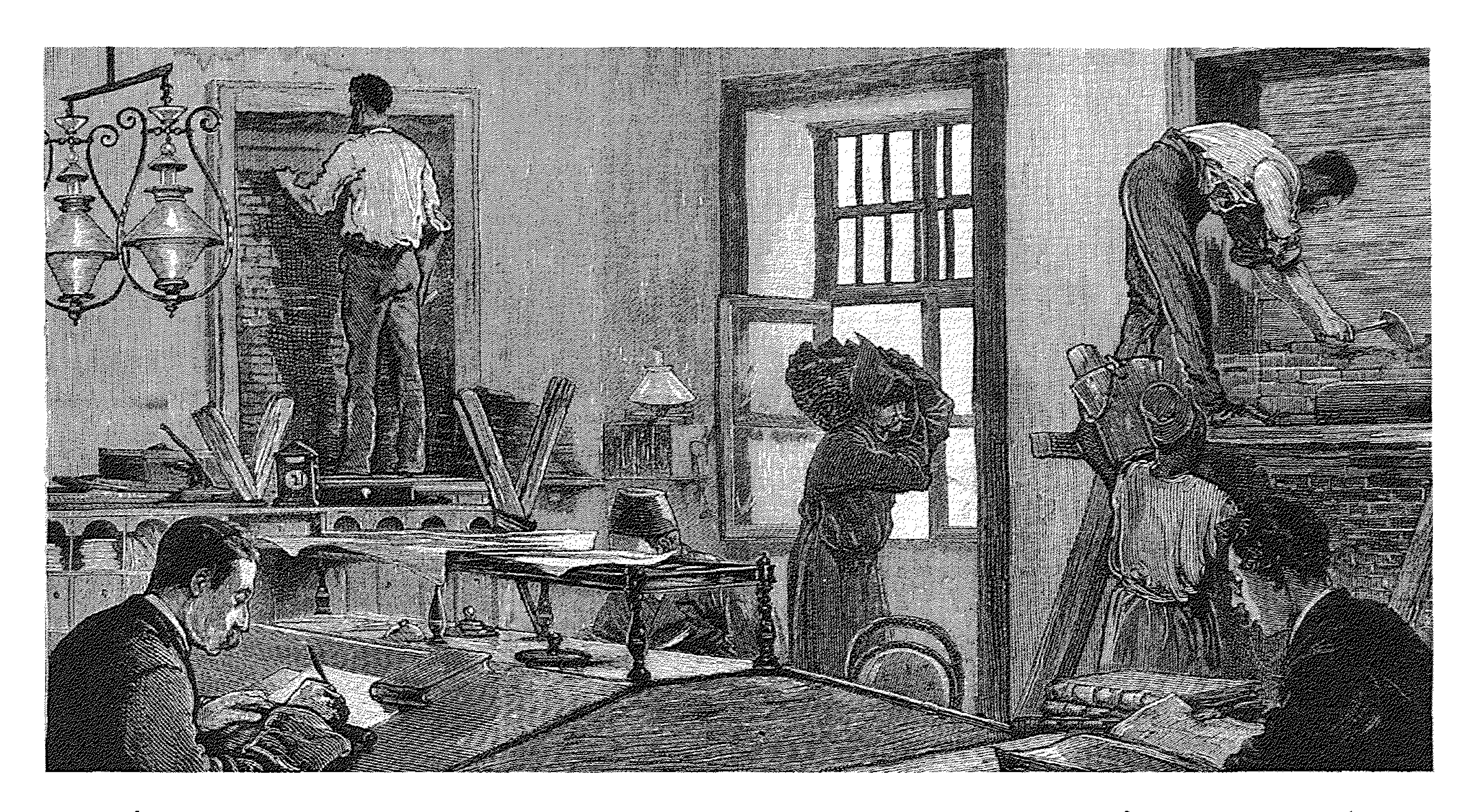
وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر المدينة، فقد أيقن الجميع أن الحرب على الأبواب وما هي إلا ساعات وستتحول المدينة إلى ساحة للمعارك، ولم يتقبلوا ما قاله الإنجليز بأن الضرب لن يتعدى الطوابي والاستحكامات العسكرية فطار صواب الجميع فتسابق الكل من مسلمين ونصارى إلى محطة السكك الحديدية مهاجرين إلى داخل البلاد والأرياف، أما الأجانب والموسرون فقد هرولوا إلى السفن الراسية في الميناء سواء أكانت شراعية أو بخارية ولم يمض الليل إلا وكانت المدينة التي كانت تعج

بالسكان والحياة منذ أسبوع شبه مهجورة إلا من الجند والحامية ونفر قليلين من الأجانب الذين أصروا على البقاء لحماية ممتلكاتهم ومبانيهم وأعمالهم ومنهم أصحاب "بنك الأنكلو إجيبسيان" ومديره مسيو "جوسيو" وزوجته ومدير بنك "كريدى ليونيه" أيضًا وهما البنكان اللذان يقعان في شارع شريف، وراهبات المستشفى الفرنساوي الثمانية اللاتي استدعاهن أحد القساوسة الفرنسيين لتهجيرهن من المدينة قبل الضرب فرفضن معلنات أن من واجبهن البقاء لمداواة الجرحى الذين سيقعون جراء هذا الاعتداء، كما رفض قنصل دولة الدانمرك الرحيل ودافع عن قنصليته وبيته دفاع المستميت وتمكن من إنقاذ الكثير من الأجانب والمواطنين من الموت المحقق، وذلك بفتح باب منزله لإيواء الكثيرين، بالإضافة إلى بعض الأهالي من البسطاء الذين لم يتمكنوا من الهجرة.

وفي مساء نفس اليوم 9 يوليو وبعد أن أنهى "كارترايت" مكاتباته توجه إلى سراي رأس التين وأعلم الخديو توفيق عزم الأميرال سيمور ضرب المدينة بعد غد الثلاثاء، وألح عليه أن يغادر سراي



سراي الخديو على كارت بوستال بتاريخ 1906.



بعض الأجانب الذين رفضوا مغادرة المدينة يتحصنون داخل منازلهم ويغلقون المنافذ ويضعون المتاريس خوفًا من حدوث أي اعتداءات...

صورة نشرتها جريدة The Graphic بتاريخ 8 يوليو 1882.

رأس التين ولكن ليس إلى سراي المحمودية كما كان الخديو يخطط ولكن إلى سراي الرمل أو سراي مصطفى فاضل باشا كما كان يطلق عليها، ولم يُعرف أبدًا السر في اختيار هذه السراي التي تبعد حوالي 15 كيلومترًا عن سراي رأس التين.

وبدأت الساعات تمر بطيئة على سكان المدينة الذين أصبحوا وأمسوا ينتظرون مصيرهم المعلق في الخطابات المتبادلة بين الأسطول الإنجليزي الرابض قبالة سواحل الإسكندرية والعاصمة الإنجليزية لندن، حتى حان الوقت ولم يتبق على ساعة الصفر إلا أقل من 24 ساعة.. وسوف أنقل في السطور القادمة ما حدث في الإسكندرية قبل ضربها بيوم واحد؛ وبالتحديد في 10 يوليو 1882:

وكان أول الأحداث في هذا اليوم العاصف أن أرسل الأميرال "سيمور" من على ظهر البارجة "انفنسيبل" رسالة إلى طلبة عصمت قائد الإسكندرية الحربي قال فيها:

"أتشرف بإخبار سعادتكم أنه نظرًا لحدوث استعدادات حربية آخذه في الازدياد منذ يوم أمس في حصون السلسلة وفاروس (قايتباي) وصالح، وهذه الاستعدادات موجهة بالطبع إلى الأسطول الذي تحت قيادتي؛ فقد عقدت العزم على أن أنفذ غدًا (11 الجاري) عند شروق الشمس العمل الذي أعربت لكم عنه في خطابي المؤرخ يوم 6 الجاري إن لم تسلموا لي حالاً قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة على برزخ رأس التين وعلى شط ميناء الإسكندرية الجنوبي لمنع التسلح بها".[43]

وقد نشر الأمير عمر طوسون هذه المراسلات يعقبها شهادة لرجل إنجليزي هو مستر "رويل" الذي كان محاميًا بالإسكندرية وعُين مستشارًا بمحكمة الاستئناف الأهلية فقال: "إن الخطر الذي كانت تتعرض له بوارج الأميرال من جراء الاستعدادات المصرية لم يكن إلا خطرًا وهميًا، ولو فرضنا وكان خطرًا حقيقيًا لكان في الإمكان السلامة منه والبعد عنه إذا غير الأميرال موقف سفنه تغييرًا طفيفًا، فقد أمسى تهديده بضرب الحصون بعد حوادث 11 يونية 1882 من بعض الوجوه ضروريًا حتى لو لم يكن ذلك إلا لإعادة كرامة الأوروبيين وفضلاً عما ذكر فإنه كان يمهد بهذا الضرب أول خطوة في سبيل ملاشاة سطوة عرابي وجيشه الذي كان محشودًا إلى حد كبير بالإسكندرية".

وبينما يؤكد المؤرخون عدم صحة ما أورده الأميرال سيمور بخصوص التحصينات نجد أحمد شفيق باشا يقول:[44] "إن العرابيون قد استمروا بعد ما دار بينهم وبين الأميرال في أعمال التحصين، فأتوا بمدفعين كبيرين في طابية السلسلة ومدافع أخرى في بقية الطوابي استعدادًا للمقاومة.

ولما صوبت المدرعات الإنجليزية أشعتها الكشافة على الطوابي ليلاً شاهد الأميرال أفواه المدافع الكبيرة فيها تُحرر وتسدد والمواعين تنقل فيها الأحجار لسد مدخل الميناء بغرض حصار الأسطول، فأرسل إنذارًا نهائيًا إلى طلبة عصمت باشا في يوم 10 يوليو يطلب فيه إنزال هذه المدافع من مواضعها، وترك التحصينات ومنع المواعين من حمل الحجارة وإلا اضطر لتدميرها بعد أربع وعشرين ساعة".

43- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص65.

44- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 161.

كما أرسل "كارترايت" خطابين إلى "درويش باشا" مندوب السلطان العثماني في مصر وراغب باشا رئيس النظار المصري أعلمهما فيه بالآتي:

"بناء على البلاغ الذي قدمه الأميرال سير "بوشامب سيمور" في هذا الصباح إلى القائد الحربي بالإسكندرية أراني مضطرًا إلى أن أخلي قنصلية صاحبة الجلالة البريطانية وأن أقطع الآن العلائق التي كانت بين سعادتكم وبين شخصي بصفتي أنني وكيل وقنصل جنرال بالنيابة عن جلالتها في مصر".

وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد وصلت إشارة من الحكومة الفرنسية لأسطولها بترك موقعه والرحيل إلى بورسعيد تاركة المدينة التي كانت وادعة بين براثن الأسطول الإنجليزي ومدافعه الجبارة ما عدا سفينتين صدر لهما الأمر بالتراجع إلى خارج الميناء وعلى متنهما الكثير من الفرنسيين الهاربين من نير المدينة المشتعلة.

وبعد الظهر انتقل الخديو بموكبه من سراي رأس التين إلى سراي مصطفى باشا فاضل المعروفة بسراي الرمل وفي هذا الخصوص يقول أحمد شفيق باشا:[45]

"اختار الخديو أن ينتقل هو ومن معه إلى سراي مصطفى باشا بالقرب من سيدي جابر وصدر الأمر بذلك، فهرعنا جميعًا إليها رجالاً ونساءً وأطفالاً ومعنا درويش باشا، وكانت هذه السراي خالية ومهجورة من مدة طويلة، فدخلنا على غير استعداد بها، واستوى كل منا في محله كيفما كان، وبتنا ليلتنا الأولى بغير طعام وقضيناها في مساورة الهموم وفي الحدس والتخمين فيما ستئول إليه حال البلاد، وقبيل طلوع الشمس كنا أمام المنافذ المطلة على البحر وكان الأسطول يستعد للضرب".

بينما يقول عبد الرحمن الرافعي[46] إن الخديو توفيق كان معارضًا لخطة التحدي التي اتبعها الأميرال سيمور حيال مصر، وإنه أرسل إلى الباب العالي برقية يدافع فيها عن موقف الحكومة ويقرر أن ليس

45- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 163.

46- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 304.

ثمة أعمال تحصين في الطوابي ولا شروع في سد بوغاز الميناء ولكن مع التصاعد السريع للأحداث وقطع العلاقات بين إنجلترا ومصر والتهديد بضرب المدينة في غضون 24 ساعة لم يجد راغب باشا رئيس النظار أمامه سوى أن يطلب من المسيو "دى مارتينو" قنصل إيطاليا العام بصفته أقدم القناصل أن يستدعي قناصل فرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا ليبذلوا مساعي أخرى لدى الأميرال لمنع الضرب فلبى القناصل دعوة زميلهم ولكنهم لم يفعلوا شيئًا لتيقنهم من وقوع الضرب في اليوم التالي.. ولكن راغب باشا لم ييأس بل توجه بصحبة عبد الرحمن باشا رشدي وزير المالية وتيجران بك سكرتير مجلس الوزراء لمقابلة الأميرال سيمور على متن البارجة "إنفنسبل" فوجدوه مُصرًا على إنذاره إلا إذا تم تحقيق شرطه وتم إنزال المدافع من الطوابي التي أشار إليها، فعاد الوفد بخفي حنين إلى سراي رأس التين وكان الخديو مازال بها لم يغادرها بعد. ويمكن للقارئ أن يتخيل مدى التوتر والقلق الذي كان يشعر به الجميع وهم يستعدون لتلقي ضربات مدافع أضخم وأقوى أسطول في العالم بدون ذنب جنوه، وأعتقد أن هذا الشعور كان يتملك الكل بدءًا من الخديو الذي كان يستطيع أن ينجو بنفسه وبأهله فينزل في ضيافة إحدى البوارج الإنجليزية حتى يكون في مأمن، ولكنه فضل التواجد في المدينة القلقة حتى لا يُتهم بالخيانة.. مرورًا بالأهالي الذين كانوا يستمعون لخطب الخطباء الذين كانوا يؤكدون أن الإنجليز أجبن من أن يحاربوا وأنهم يصبحون كالسمك خارج المياه بعيدًا عن أراضيهم، وأن عرابي ورجاله مستعدون لهم بالعدة والعتاد إذا ما سولت لهم أنفسهم ضرب المدينة وصولاً إلى عرابي نفسه الذي وضع البلاد في موقف لا تحسد عليه بسبب عناده هو ورجاله وهو ما تجلى في الجلسة الأخيرة.

فقد عقد الخديو مجلسًا عامًّا دعا إليه الوزراء وكبار رجال الدولة ليستشيرهم في الموقف وفيما يجب أن يكون جواب الحكومة على الإنذار النهائي وقد اختلفت الآراء في هذا الاجتماع، فذهب بعض الأعضاء إلى التسليم بشروط الأميرال وكان من هؤلاء درويش باشا وحجته في ذلك أنه توجه إلى طابية الفنار واختبر بنفسه المدافع المنصوبة فيها، وقال إنه بصفته من ضباط المدفعية يرى أن الحصون والمدافع التي بها لا تستطيع مطلقًا أن تقاوم مدافع المدرعات الإنجليزية ولذا نصح لعرابي

-الذي كان حاضرًا- القبول بطلبات الأميرال سيمور. وكان من القائلين أيضًا بعجز الحصون عن المقاومة محمد مرعشلي باشا إذ قال إنها لا تستطيع المقاومة أكثر من 24 ساعة إذا كان الضرب مستمرًا وإنها تتخرب في 4 أو 5 ساعات وأغلب مدافعها تنقلب على الأرض من إصابة القذائف لأنها مكشوفة،[47] فضلاً عن فتك القنابل والقذائف بجنود المدفعية الذين يكونون بالطوابي -وكان هذا الرجل الذي كان يشغل منصب مدير الاستحكامات السابق وكأنه يقرأ الغيب ويعرف المستقبل؛ ويا ليتهم أخذوا بمشورته في ذلك الوقت- ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه فقد عارضه في هذا الرأي محمود باشا فهمي مفتش الاستحكامات العام -من رجال عرابي- قائلاً إنه حضر حرب الصرب ونظر تأثير الجلل وما كان يخشى منها، وإن الحصون تقاوم من ساعة لثلاث ومن أسبوع لثلاثة ومن شهر لثلاثة حسب استعداد العدو وهو جواب لا يدل على أي معنى لأن المطلوب منه كان أن يوازن بين قوة الحصون وقوة الأسطول، لا أن يجيب جوابًا مبهمًا لا يُقدم ولا يؤخر، وبالطبع كان طلبة باشا عصمت وعرابي باشا من أشد المناصرين والمؤيدين لفكرة قوة الحصون والطوابي.

وبعد أن طالت المناقشة استقرت آراء الأغلبية على رفض مطالب الأميرال وإرسال وفد لمقابلته ومخاطبته وديًا والتوضيح له أن المصريين ليسوا أعداء للإنجليز وأنه لا يمكن سد البوغاز بالأحجار كما قيل. وأما إنزال المدافع فهذا أمر لا يمكن قبوله، وإنما يمكن إجابة لطلبه وسدًّا لباب النزاع إنزال ثلاثة مدافع من ثلاث طوابي هم (المكس وصالح والسلسلة) وأن يُكتفى بذلك ردًّا لشرف الدونانمة (الأسطول الإنجليزي) كما يزعم..

وذهب الوفد وأبلغ الرسالة ولكن الأميرال رفض وأصر على إنزال جميع المدافع بالإضافة إلى تسليم حصون (المكس والعجمي وباب العرب) وما وراء طابية المكس من الأراضي لاتخاذها معسكرًا للجنود الإنجليزية وأنه إذا لم يُجب إلى طلباته باشر القتال عند طلوع شمس الغد وبالطبع رُفضت هذه الطلبات وانفض المجلس بعدها.

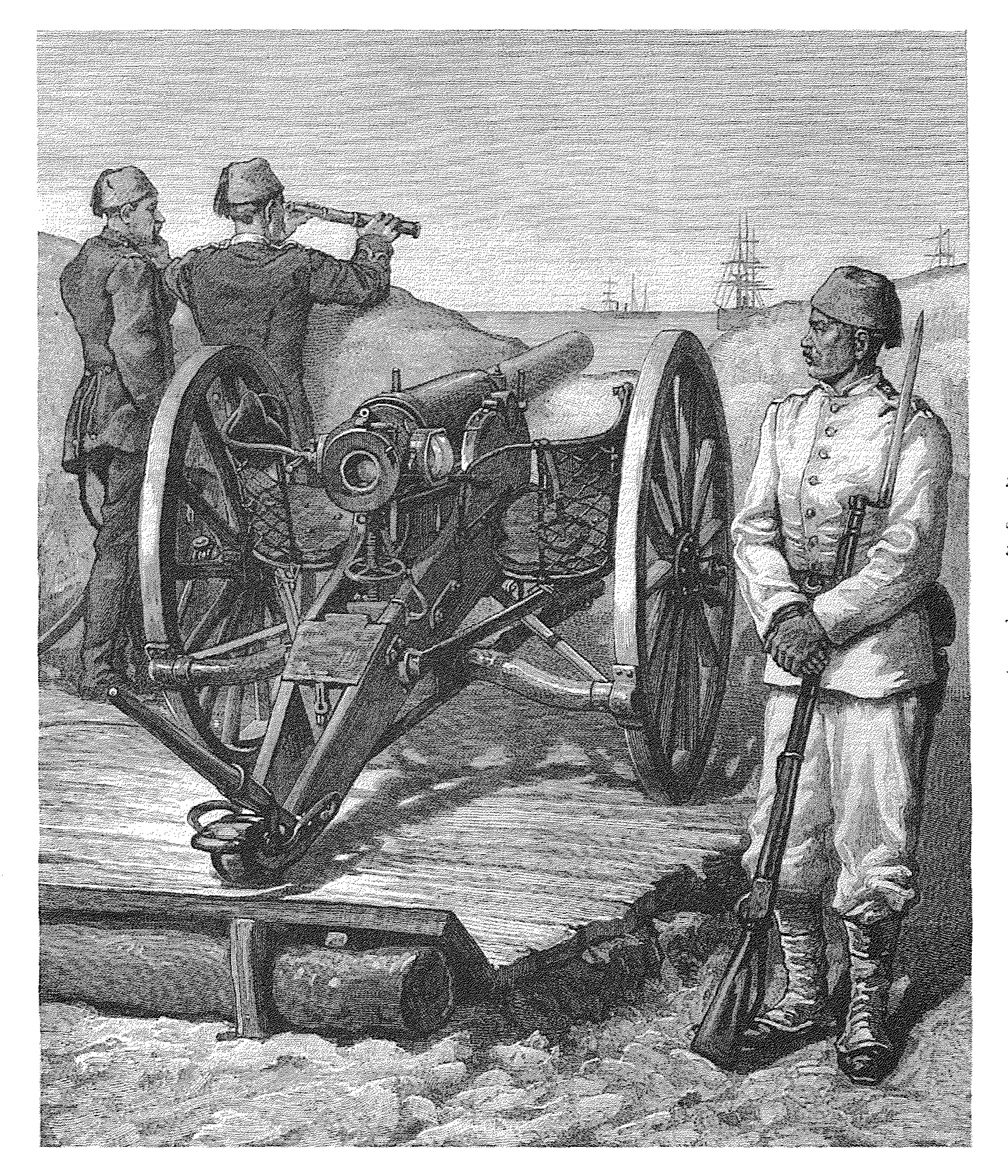
47- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 306.

وفي المساء حرر النظار الرد النهائي ومضمونه أن مصر لم تفعل شيئًا يقضي بإرسال هذه الأساطيل، وأن كل ذنب البلاد كان في القيام ببعض الإصلاحات الضرورية في الطوابي والأبنية القديمة وأننا في وطننا ومن حقنا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يُقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا... ومصر الحريصة على حقوقها وشرفها لا يمكن أن تُسلم أي مدفع أو طابية دون أن تُكره على ذلك فهي لهذا تحتج على البلاغ الإنجليزي الأخير وتُوقع مسئوليات جميع النتائج التي تنجم عن هجوم الأساطيل أو عن إطلاق المدافع على الأمة التي تقذف القنبلة الأولى على الإسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك أحكام حقوق الإنسان وقوانين الحرب.

وتوجه وفد مكون من ياور درويش باشا المندوب السلطاني وضابطين مصريين لتوصيل القرار إلى الأميرال الإنجليزي، ولكن منعهم الظلام من الوصول إلى سفينته حيث أطفأت كل السفن أنوارها استعدادًا للحرب فانصرفوا على موعد لتوصيل الرسالة الخطيرة صباحًا.

وبالفعل وعند ظهور أول خيط للشمس توجه الوفد للباخرة "هيليكن" التي كانت أول ما صادفهم من سفن الأسطول الإنجليزي، وبالفعل رحب بهم قائدها وأمر بتوصيلهم إلى سفينة الأميرال سيمور أو سفينة القيادة "أنفينسيبل" التي كانت محاطة ببقية سفن الأسطول فبدت وكأنها الملكة بين وصيفاتها، وكان الأميرال سيمور قد أتم ارتداء ملابسه الحربية ووقف على سطح سفينته يستعد لإعطاء إشارة البدء لقواته بفتح النيران على الإسكندرية.. وتقدم ياور درويش باشا وبيد مرتعشة سلم القائد الإنجليزي الرسالة المطوية بحرص وهو يغمغم أنه في انتظار الرد..

وما إن فض الأميرال الرسالة حتى تغيرت ملامح وجهه وهز كتفيه وانصرف إلى غرفة مكتبه ليكتب الرد، بينما وقف الوفد في حيرة لا يدرون ما التصرف، وأعتقد أنهم كانوا يحدثون أنفسهم عن رد فعل قائد الأسطول وما يمكن أن تسفر عنه الأحداث في الدقائق القادمة، وبالفعل عاد الأميرال وبيده رسالة سلمها لهم ليتم تسليمها لإسماعيل راغب رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية... جاء فيها:



جنود الحامية المكلفون بحماية الطوابي يرقبون تحركات سفن الأسطول الإنجليزي المواجهة لشواطئ الإسكندرية...

صورة نشرتها The Illustrated London news بتاريخ 15 يوليو 1882.

"من ظهر البارجة "أنفينسيبل" بالإسكندرية في 11 يوليو 1882....

يا صاحب السعادة،

أتشرف بإخباركم بوصول بلاغكم المؤرخ بتاريخ أمس وأني آسف أن أخبركم أنه ليس في استطاعتي أن أقبل ما عرضتموه في هذا البلاغ، و لي الشرف...،"

إلى هنا يبدو أن القضية كانت قد أغلقت "Case closed" كما يقول المثل الإنجليزي بالنسبة لقائد الأسطول الإنجليزي الذي حيا الوفد المصري بمنتهى الأدب، وانصرف معلنًا أنه لديه الكثير من الأعمال والأشياء لينجزها ولم تكن هذه الأعمال إلا الاستعداد لضرب المدينة بعد دقائق..

وانصرف الضابطان المصريان ومعهما الياور العثماني ليعودوا أدراجهم وهم يحدثون أنفسهم.. ماذا لو بدأ الأسطول الإنجليزي الضرب قبل أن يصلوا إلى الشاطئ؟ ماذا لو انحرفت فوهات المدافع قليلاً عن مسارها وأطلقت قنابلها قبل الموعد المحدد.. بالتأكيد سيحولهم هذا الأسطول إلى أشلاء...

ولكن القائد الإنجليزي كان شريفًا بمقياسه هو.. فقد انتظر حتى وصلوا بسلام إلى البر وأعطى إشارة البدء بإطلاق النيران..

وكان ذلك في الساعة السابعة صباحًا من يوم الثلاثاء الموافق 11 يوليو 1882....

حالة المدينة ليلة 11 يوليو من وجهة النظر السويسرية

وقد صور المسيو "جون نينيه" عميد الجالية السويسرية وصديق العرابيين الحالة في الإسكندرية ليلة الضرب حيث قضى جزءًا كبيرًا من الليل مع عرابي وضباطه المجتمعين بديوان البحرية بالترسانة فقال:

"كان الليل بديعًا، والبوارج الحربية قد تركت الميناء، والأسطول الفرنسي قد انتحى ناحيةً خارج المرفأ غربًا، أما الأسطول الإنجليزي فقد اصطفت بوارجه في عرض البحر متأهبة للتخريب والتدمير، ولمعت أنوار البوارج عن بعد، وكنت وقتئذ جالسًا على الديوان في قاعة مجلس البحرية أتأمل من

النافذة في ظلام الميناء، وأناجي نفسي هل هذا السكون البديع الذي يخيم ليلاً على الميناء يتخلله لمعان النجوم في السماء، ستعصف به غدًا المدافع المدمرة التي تطلقها أمة متمدنة على المدينة الهادئة، وبعد أن تلقى الضباط تعليمات عرابي وهي ضرورة عدم الرد على الأسطول الإنجليزي إلا بعد القنبلة الخامسة، ذهب كل منهم إلى ساحة الشرف التي عهد إليهم بالدفاع عنها.

أما أنا فغادرت الترسانة بعد منتصف الليل وقلبي يخفق متأثرًا بما سيحل بالمدينة في صبيحة الغد وصحبني إلى منزلي مراسل "الكلاريون" وهو شاب لطيف ولكنه كان يعتقد أن المدينة لن تصمد إلا ساعتين أمام ضرب المدافع ويمكن حتى أن يدخلها الأميرال سيمور قبل الإفطار".

ومن الحكايات الغريبة أيضًا التي يحكيها نينيه أن أحد ضباط الخديو توفيق قال له صبيحة يوم الضرب "مولاي ترى ماذا سيحدث لهذه المدينة الكبيرة إذا ضربها الإنجليز ولنا منازل فيها؟ خاصة أن سكانها سوف يحرقونها كما تعرفون، ولكن الفرصة مازالت موجودة فيمكنكم استدعاء ذو الفقار باشا محافظ المدينة ليسهر على حماية المدينة من الحرق بواسطة رجال الإطفاء الموجودين" فرد الخديو عليه قائلاً:

"إن شاء الله تتحرق البلد كلها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة.. دي فرصة عظيمة.. حرب بحرب.. دي تقع على رأس عرابي أو رأس أولاد الكلب الفلاحين الجهادية.. على الله الملاعين الأوروبيين يدفّعوهم تمن جبنهم ويخلوهم يهربوا زي الأرانب البرية"[48].

ومن ضمن ما قاله نينيه إن المحافظ ورجال الحكومة تبخروا ولم يعد لهم أثر في المدينة وأن الذي حافظ عليها بعد مذبحة 11 يونية وحتى 11 يوليو كان عرابي ورجاله.

ومن الضروري هنا أن أقول إن ما ذكره نينيه بخصوص حرق المدينة هو أمر غريب فهو يدّعي أن الخديو وضباطه كانوا يعلمون بأمر الحريق مما يُلقي بظلال من الشك على الخديو وهو أمر غريب.

48- John Ninet -Arabi Pacha- p. 167

حالة المدينة ليلة 11 يوليو من وجهة النظر الأمريكية

ويقدم "ألبرت فارمان" قنصل أمريكا في مصر 1876 – 1881 م وصفًا لحال الميناء والسفن الراسية به قبل ضرب المدينة بساعات قليلة فيقول :[49]

"قبيل ظهر يوم الأحد الموافق 9 يوليو تلقيت نبأ من مصدر خاص موثوق به أن إعلانات ضرب المدينة بالقنابل الذي سيحدث بعد ذلك بـ 24 ساعة سوف تطبع هذا المساء بعدة لغات مختلفة على ظهر سفينة الأميرال ثم توزع في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي" . وأضاف ألبرت: "وقد قضيت الليلة على سطح السفينة "جالينا" ثم نُقلت إلى السفينة "كوينيبوج" وصدر الأمر بإبحار جالينا بعيدًا" . وفي الفجر صدرت الأوامر بالتحرك بسرعة، وحينما صعدت إلى سطح السفينة حياني البحارة بطريقة مؤثرة ورائعة وكنا راسين في مرفأ رحب مقابل لقصر الخديوي رأس التين أي على بعد ميل أو أكثر من المرسى العادي وكان بالميناء عدد كبير جدًا من السفن الراسية، وكان يوجد إلى جوار البوارج الحربية بواخر وسفن بحرية من مختلف أنحاء البحر الأبيض من سفن ذات شراعين وغلايين وسفن للصيد وغير ذلك من السفن الصغيرة وكان بعضها بشراع مربع والآخر بقلاع مستطيلة.

وكان هناك قبل ذلك صف من القوارب الشراعية كل منها ترفع علمها القومي وعلى الرغم من أن البواخر الأمريكية كانت على أهبة التحرك إلا أنها ظلت في مكانها حتى يصل قطار القاهرة يحمل نائب القنصل العام الأمريكي وموظفيه.. ومن ثم تحركنا خارج الميناء ورسونا خلف الأسطول الإنجليزي.

وفي هذا المكان أخذنا نترقب أحداث الغد وكان خلفنا السفن التجارية والبوارج الحربية التابعة لكل الدول الأوروبية المحايدة تقريبًا وكان الأسطول الفرنسي قد انسحب إلى بورسعيد، وكان نسيم البحر العليل قد توقف ولما كانت الشمس تميل نحو المغيب كانت تنعكس أشعتها الأخيرة على صفحة المياه الهادئة وكانت حوالي 60 أو 70 سفينة راسية على الشاطئ الرملي على طول ساحل البحر.

49- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص 339.

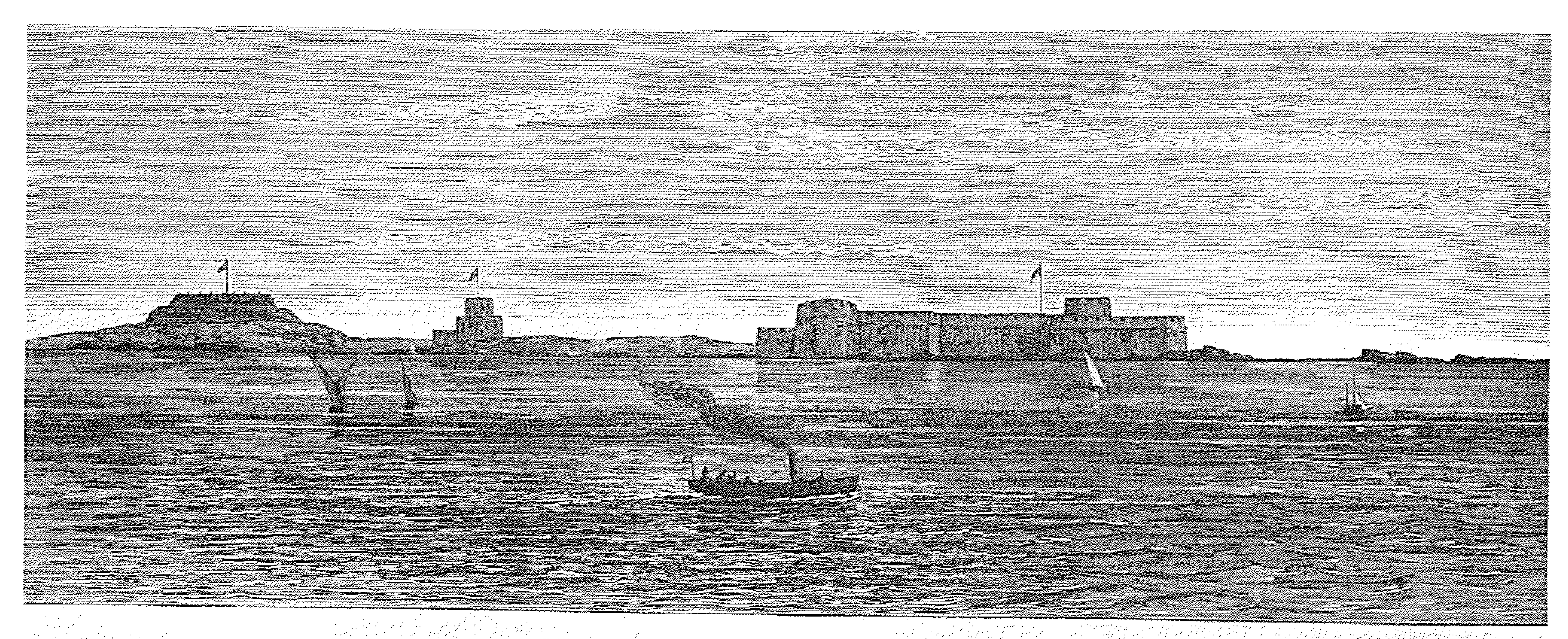
من الذي يمكنه التنبؤ بما سيحدث للمدينة؟ وأي مناظر مروعة ستشهدها حينما يجن جنون أهلها إذ تدوي القنابل التي تقذفها أساطيل العدو ويخر السكان الأبرياء صرعى؟

وكان السلك البحري الممتد تحت الماء تشرف عليه شركة إنجليزية فنُقل الطرف الواقع على الشاطئ المصري إلى سفينة راسية على بعد عدة أميال في عرض البحر، بينما كان الأسطول الإنجليزي في أثناء الليل يلقي بأضوائه على خطوط الدفاع الواقعة على الشاطئ.

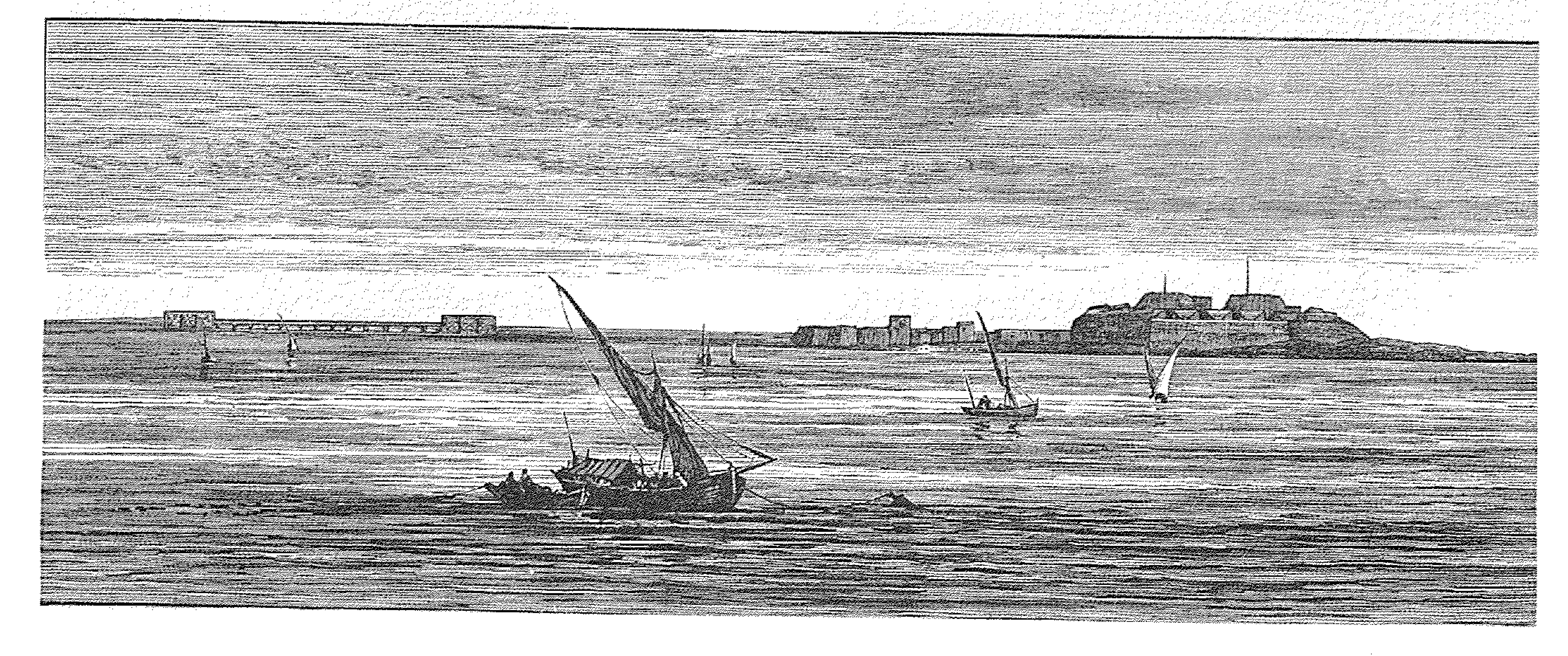
وبزغت الشمس صباح اليوم التالي في سماء صافية وكان يومًا من أيام الصيف الجميلة في مصر، وكانت الاستحكامات تمتد على الشاطئ يرجع بعضها إلى عهد محمد علي ولم يكن أحدها معدًا لمقاومة آلات الحرب الحديثة ولا لحماية الرجال الذين يتولون إطلاق المدافع، وكان بعضها مبنيًا من الحجارة بحيث كان من العسير أن تجد مكانًا أخطر من هذا المكان بالنسبة لجندي يقف على مرمى من قنابل بارجة حديثة مجهزة تجهيزًا كاملاً، وقد برهنت هذه الاستحكامات على أنها مذابح حقيقية.

وإذا نظرنا جهة الجنوب وجدنا على يسارنا استحكامات "فاروس" و"عدا" وكانت الأخيرة تقع في موقع الفنار إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة وعلى يميننا مدخل الميناء الجديد والمنارة الجديدة وبعض الاستحكامات الأخرى ويقع خلفها على مسافة بعيدة فوق مرتفع بسيط العامود الجرانيتي الشاهق الذي يُعرف باسم "نُصب بومبي" أما جهة الشرق فتقع المدينة المحتومة المصير. وأمامنا مباشرة كان يقف أقوى أسطول حديث تجمع لارتكاب أعمال عدوانية حتى وقتنا هذا، كان هناك ثماني مدرعات وخمس سفن مبنية من الخشب.

ومن هنا وبعد كل ما تقدم يتبين لنا أن المدينة -برها وبحرها- كانت في حالة غليان أو كانت تعيش هذه الأيام فوق سطح ساخن. وحتى يمكن للقارئ أن يتخيل الموقف أو الأحداث القادمة كان لابد أن أتوقف لأشرح حالة طوابي واستحكامات المدينة التي يدّعي أقوى أسطول في العالم في ذلك الوقت أنها كانت تهدده.



FORT TELEGRAPH AND FORT BOURG, ABOUKIR BAY.



قلعة البرج وقلعة التلغراف.. صورة نشرتها The Illustrated London news بتاريخ 26 أغسطس 1882.

وهذه الصورة للطوابي تحدث عنها كل رواة التاريخ فقالوا إنه كان هناك بالإسكندرية عدة حصون تسمى طوابي تمتد على شاطئ البحر من العجمي غربًا إلى أبوقير شرقًا، وأولها من الغرب طابية "العجمي" ويطلق عليها اسم قلعة المرابط أو طابية العجمي البحرية، وكانت تُعد من أمنع حصون المدينة ثم طابية الدخيلة ثم قلعة المكس، وكانت من أمنع القلاع ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء ثم تتوالى الطوابي والقلاع على طول الشاطئ الجنوبي؛ للميناء فهناك البرج نمرة 15 -طابية القمرية -طابية أم قبيبة- ثم برج مستدير فيه مدفعان ثم طابية صالح، وهناك أيضًا طابية باب العرب التي تقفل لسان الأرض الواقع بين البحر وبحيرة مريوط وهي تشابه طابية المكس في تسليحها.

وهناك الحصون التي توجد في شبه جزيرة رأس التين والتي تحمي الميناء من الجهة الشمالية وهي طابية الفنار وطابية رأس التين وطابية الإسبتالية وتلي هذه الحصون شرقًا طابية "الأطة" أو طابية القضا كما يطلق عليها وهي تقع شرق حمام الأنفوشي ثم طابية الهلالية ثم طابية قايتباي ومهمتها حماية المدينة من الجهة الشمالية الشرقية والميناء الشرقي يقابلها من الطرف الشرقي للميناء طابية السلسلة ويليها شرقًا قلاع أبو قير التي لم تشترك في القتال لبعدها عن الميدان؛ كذلك طابية كوم الناضورة وطابية كوم الدكة الموجودتان داخل حدود المدينة.

وهذه الحصون منشأة من عهد محمد علي ما عدا كوم الناضورة وكوم الدكة من عهد الحملة الفرنسية، وقد استمرت هذه الطوابي والحصون على حالتها منذ أُنشئت حتى حظيت ببعض العناية والتطوير في عصر الخديو إسماعيل أبو الخديو توفيق الذي أجرى فيها بعض الترميم وجلب لبعضها المدافع الضخمة من طراز أرمسترونج (49) مدفعًا وهي التي تشبه مدافع الأسطول الإنجليزي، أما المدافع الأخرى فلم تكن لها قيمة تُذكر لقدمها وضعفها وقرب مرماها وكان عددها 229 مدفعًا.

هذا عن المعدات العسكرية أما عن القوة البشرية أو الجنود فلم تكن بأحسن حالاً، فكما يقول عبد الرحمن الرافعي أن حامية الحصون كانت مؤلفة من آلاي طوبجية السواحل ومجموع قوته الرسمية 1762 مقاتلاً ما بين جنود وضباط بقيادة الأميرآلاي إسماعيل بك صبري، ولكن العدد

الحقيقي كان دون ذلك كما يقول عرابي في مذكراته حتى أنهم لم يزيدوا على 700 مقاتل يوم الضرب، أما جون نينيه فقد قال إن نصف رماة القنابل "الطوبجية" كانوا متغيبين في قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير، وهذا يفسر نقصان عددهم يوم الضرب وقال إن الأميرال سيمور كان موقنًا أنه لن يلقى في ميدان القتال سوى هيكل محارب قديم وكتب أيضًا عن الإهمال الذي تعاني منه الحصون فقال "أن معظم مدافعها قصيرة المدى لم تتحرك من مواقعها منذ نحو 38 عامًا حين قام "جاليس بك" مفتش الاستحكامات في عهد محمد علي بتركيبها أول مرة...

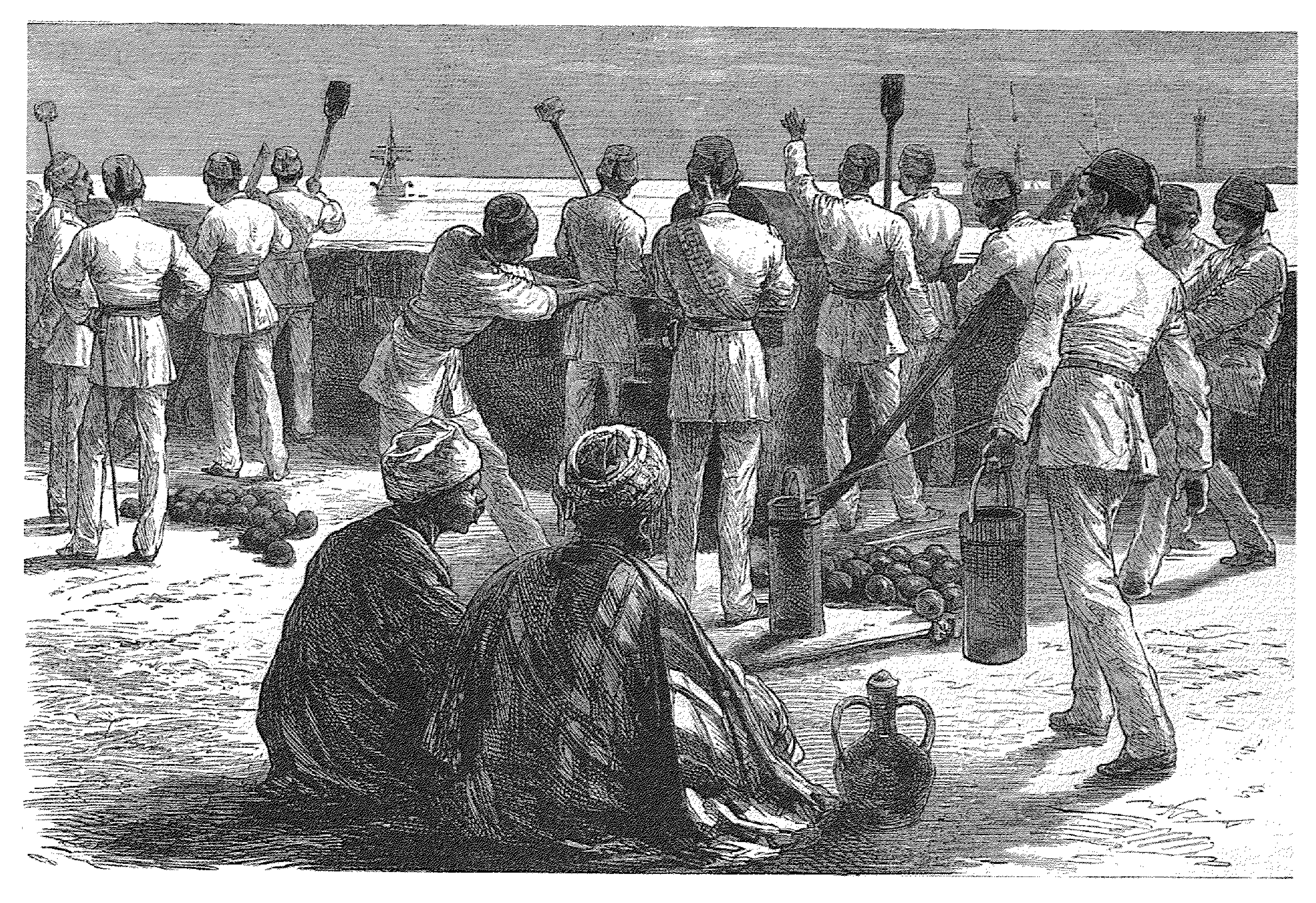
أما عن مدافع الأرمسترونج وعددها 101 مدفع من عيار 9 إلى 10 بوصات فكان منها 64 فقط مُركبة في مواضعها والـ 37 الأخرى كانت ملقاة بإهمال خارج مواضعها، أما الذخائر فإنها لم تنقل من مخازنها بالترسانة". هكذا كانت الحالة في المدينة التي تحولت وفي أيام قليلة إلى مدينة بائسة تنتظر قدرها بمنتهى الضعف والهوان...

فبعد أن كانت ملجأ الأجانب والأوروبيين الطامعين في الثراء السريع والحياة الرغيدة، تحولت إلى مدينة لا يسكنها سوى الجنود والأشباح وتنتظر الدمار في أية لحظة بقرار إنجليزي ظالم وضعف وخنوع خديوي وصراع غير محسوب العواقب بين الجهادية أو الجيش من ناحية والخديو من ناحية أخرى.. صراع دفع ثمنه سكان المدينة المساكين..

فأي تكافؤ كان بين قوة غاشمة ومدرعات ومدافع وأساطيل حديثة من جهة وطوابي وحصون مهدمة ومدافع قديمة ومتهالكة من جهة أخرى.

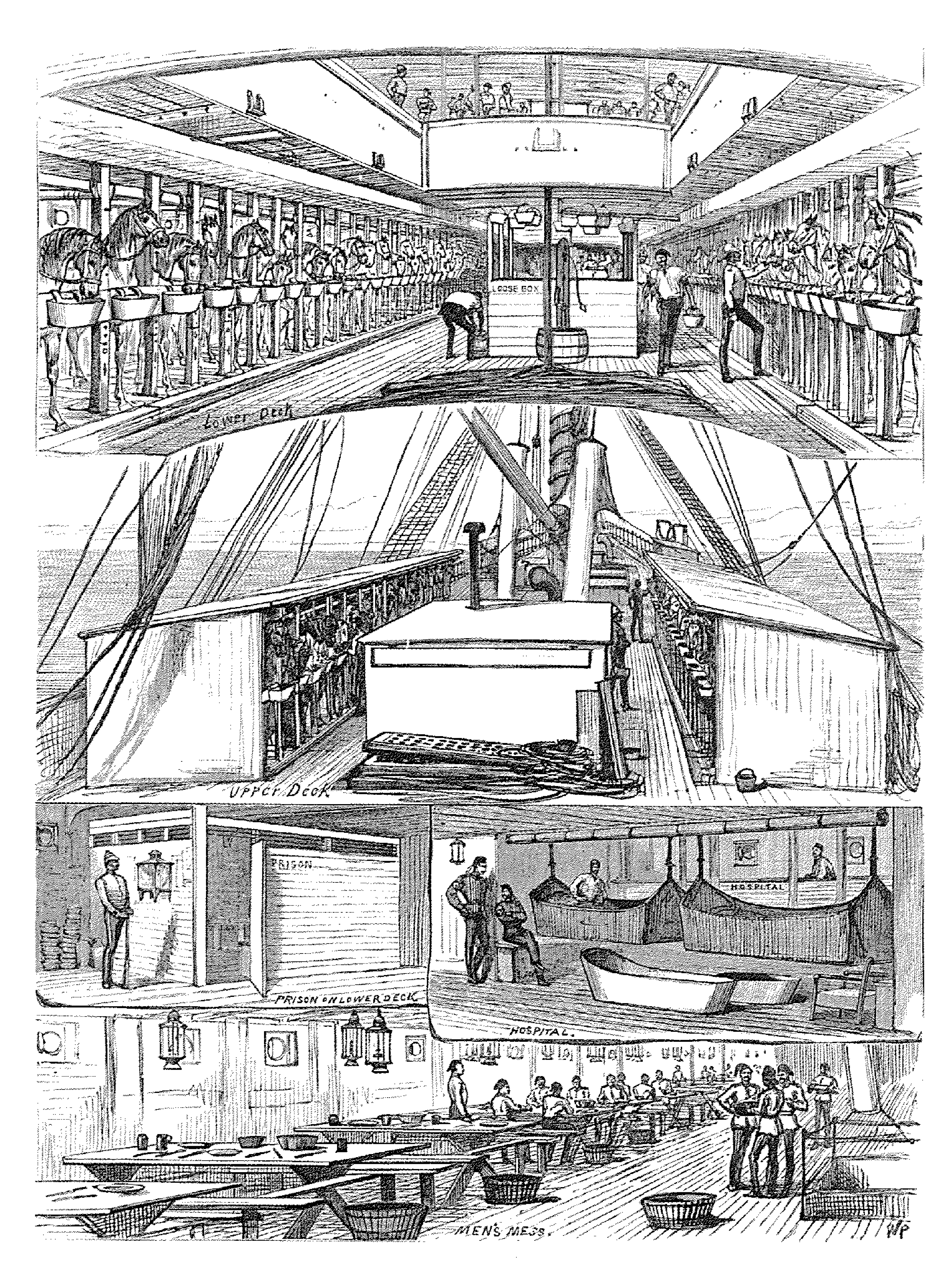
مما يفرض سؤالاً هامًا هو: لماذا لم يحفل أولوا الأمر بواقع الحال في المدينة ومدى قدرتها على المقاومة والاحتمال ولماذا هذا العناد بين كل الأطراف... وماذا كانت النتيجة؟

كانت النتيجة الحتمية لكل هذه الصراعات هو ضرب المدينة البائسة في الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء 11 يوليو 1882.



صورة مُعبرة عن واقع الحال في الطوابي يوم ضرب المدينة... فبينما يقوم الجنود بإعداد المدافع المتهالكة للقتال وتزويدها بالبارود.. كان هناك بعض المواطنين الذين هرعوا إلى الطوابي للمساعدة وتقديم يد العون للجنود... وبينما الجنود يضعون البارود كان الأهالي ينشدون أغنيتهم المشهورة.. مدد يا أبو العباس.. ويا ياقوت العرش.. لإثارة حماسة الجنود.

صورة نشرتها The Graphic بتاريخ 8 يوليو 1882.



الحياة على ظهر إحدى البوارج الإنجليزية كما رسمها رسام The Illustrated London news بتاريخ 12 أغسطس 1882.

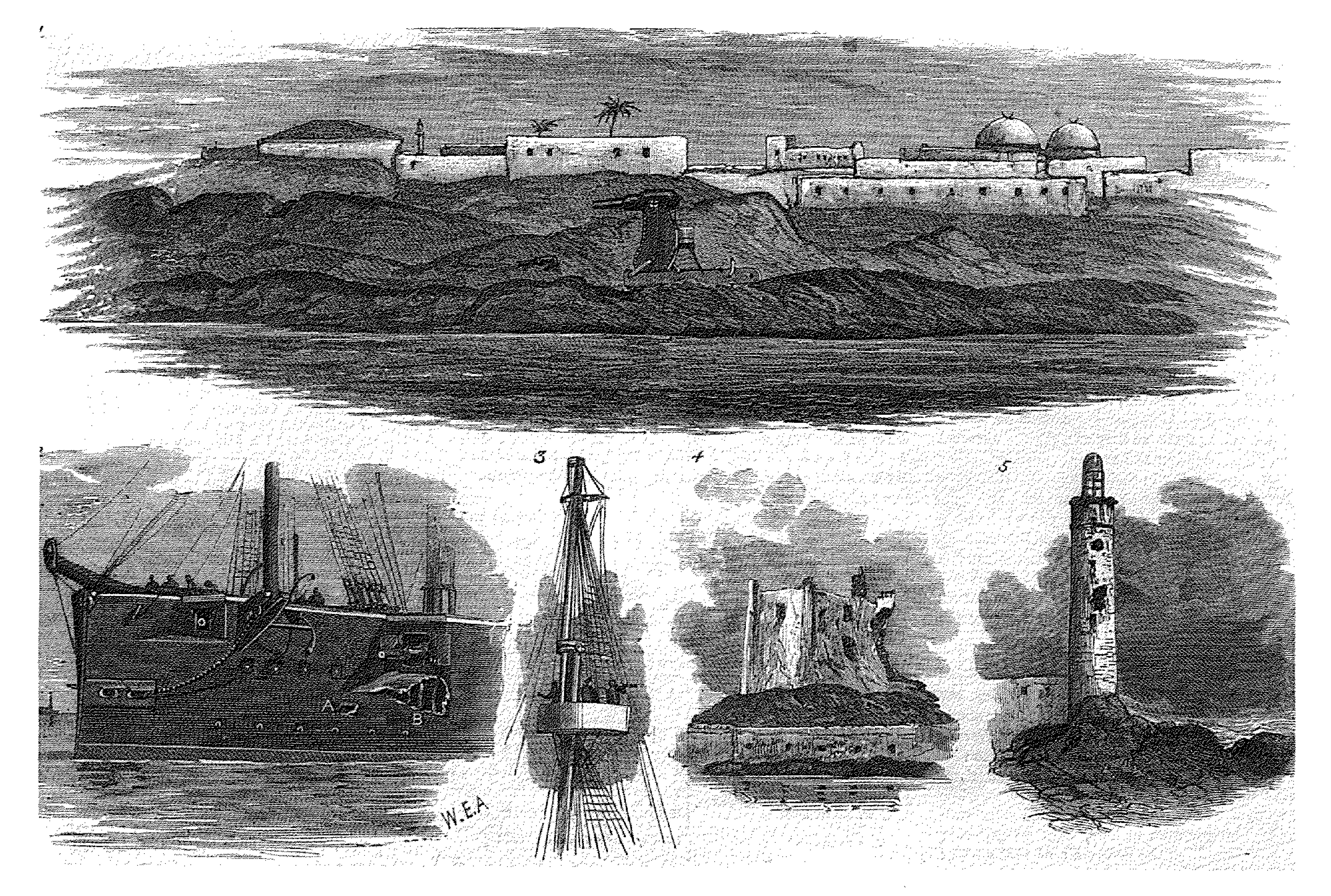
قنابل.. قنابل.. قنابل

4..3...2...1.... اضرب...! هكذا صرخ الجندي الإنجليزي لتنطلق القنبلة الأولى أو الشرارة الأولى من البارجة "الكسندرا" التي كانت تقف قبالة طابية الإسبتالية، ثم توالت القنابل والطلقات بعد ذلك من كل مكان، وفتحت البوارج نيرانها على المدينة بلا هوادة وتحول البحر إلى ساحة لاستعراض قوة أسطول الحكومة الإنجليزية، ولكن الطوابي المصرية لم تطلق قنابلها في الحال بل انتظرت بضع دقائق ويقال إنها بدأت الضرب عند الطلقة الخامسة. وبعض المراجع تؤكد أنها انتظرت حتى أطلقت البوارج الإنجليزية عشر قنابل أو يزيد.. المهم أنها بدأت في الرد ولكن هيهات فقد كانت ضرباتها ضعيفة وغير محكمة والمدافع متهالكة والمسافات بعيدة، حتى أن أغلب القنابل سقطت في البحر فقد كانت البوارج تتحرك أثناء الضرب والدخان الكثيف يلفها بسبب القنابل مما جعل إصابتها ضرباً من المستحيل، بالإضافة إلى أن كل بارجة كانت محاطة بشبكة من الفولاذ لصد ما يحتمل وصوله من القنابل والجنود مكشوفون في العراء لا يغطيهم أي ساتر بينما الجنود الإنجليز متحصنون ببوارجهم الضخمة التي تخرج فوهات مدافعها من فتحات محصنة في جوانب البوارج.. كل هذه الظروف جعلت هذه الحرب غير متكافئة؛ فبينما كان الإنجليز يعلمون كل شيء عن الاستعدادات العسكرية للمصريين ومدى قوة الطوابي والاستحكامات العسكرية ومدى ضعف المدافع.. كان المصريون لا يعلمون شيئًا عن الأسطول الإنجليزي واكتفوا بترديد الحديث عن ضعف الجنود الإنجليز وتناقلوا إشاعة -أنهم مثل الأسماك لا يستطيعون الحياة إلا في المياه -أي أنهم لا يستطيعون الحياة بعيدًا عن بلادهم وأنهم مهزومون لا محالة وهو ما ثبت عكسه على أرض الواقع..

وعلى أية حال فقد استمر الضرب من السابعة صباحًا ولمدة 4 ساعات حتى الحادية عشرة بأقصى ما يمكنهم من قوة، ثم توقف الأسطول الإنجليزي لاستراحة بسيطة -لتناول الشاي والمرطبات إن جاز القول مع الأسف الشديد- ثم استؤنف الضرب مرة أخرى حتى الثانية بعد الظهر، ثم توقف الضرب

للمرة الثانية لاستراحة أخرى ثم توالى للمرة الثالثة واستمر حتى منتصف الساعة السادسة مساءً أي قبل الغروب بساعة، ولكن مع انقضاء شمس هذا اليوم الـ (11من يوليو 1882) كانت معظم الحصون والطوابي قد دُكت والعشرات من الجنود المصريين قد قُتلوا ودفنوا تحت أنقاض طوابيهم وقلاعهم المتهالكة، بينما لم تصب سفن الأسطول الإنجليزي إلا بأضرار بسيطة لا تُذكر ولا تتناسب مع ضخامة هذا الحدث فكأنهم كانوا في نزهة بحرية لا معركة حربية.

صورة نشرتها The Graphic بتاريخ 29 يوليو 1882، توضح الخسائر التي حدثت في السفينة "سوبرب" إحدى سفن الأسطول الإنجليزي وبعض الطوابي المصرية مثل قلعة "فاروس".



وقد تهدمت في هذا اليوم حصون الفنار ورأس التين والإسبتالية وتم تدمير قلعة "الأطة" ونُسف مستودع البارود بها، بالإضافة إلى تدمير قلعة قايتباي على رؤوس من فيها.. وكذلك حصون المكس وأم قبيبة والدخيلة والعجمي.. وبهذا تحقق ما قاله درويش باشا المندوب السلطاني ومحمد مرعشلي باشا مدير الاستحكامات السابق، ولم تتحمل الحصون والطوابي إلا بضع ساعات وتهاوت على رؤوس من فيها ولكن إحقاقًا للحق فقد أبدى الجنود المصريون العزّل بسالة كبيرة في الدفاع عن طوابيهم ومن ورائها مدينتهم وكانت هذه البسالة محل احترام العالم كله في ذلك الوقت.

ومما يذكر أن الأميرال سيمور الذي كان يتابع تنفيذ العملية لحظة بلحظة قام بتعديل طريقة الضرب أكثر من مرة، فقد أرسل إلى السفن أن تتوقف عن الحركة وتستقر في أماكنها المحددة لها طبقًا للخطة الموضوعة حتى تتمكن من التصويب بدقة وحتى لا تسقط القنابل في البحر ويتم إهدارها، ولكنه في نفس الوقت طمأن قادة السفن بأن المدد من القنابل في الطريق إليهم على متن السفينة "همبر".

وبعد الظهر أرسل الأميرال سيمور عشرين بحارًا في مراكب صغيرة دخلوا قلعة "المكس" ودمروا مدافعها وعادوا إلى سفنهم بهدوء بدون أن يعترضهم أحد.. ويبدو أن الأميرال سيمور أراد بهذا العمل أن يتأكد من القضاء نهائيًا على قوة قلعة المكس التي يبدو أنها أرهقته كثيرًا أثناء القتال خاصة أنه لاحظ من خلال منظاره المكبر الذي كان يتابع به الضرب وموقف الطوابي أن القلعة أصبحت خالية بعد أن تركها الجنود واعتقد الرجل أن الجنود قد فروا ففعل ما فعل.. منتهى الجبروت... ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن الإنجليزية فسرعان ما عاد الجنود إلى مواقعهم في طابية المكس وبدأوا الضرب من جديد فجن جنون الرجل وأمر البوارج بتصويب المدافع إلى القلعة التي دبت فيها الروح من جديد فدكوها دكًا حتى منتصف الساعة السادسة حينما أمر الأميرال الإنجليزي بالكف عن القتال بعد عشر ساعات عصيبة مرت على المدينة وأهلها وجنودها وكأنها عشرة دهور، ولكن عبد الرحمن الرافعي يقول:[50] "أن الحاميات قد دافعت عن الحصون دفاع المستميت وقام رجالها

50- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 316.

بواجبهم قدر ما استطاعوا، ولكن قوة الأسطول ومدافعه كانت لهم الغلبة في هذا اليوم المشئوم، فتهدم معظم الحصون، وأصابت قنابل الأسطول كثيرًا من مساكن الأهلين فدمرتها وأحرقتها، كما أحرقت جناح الحريم بسراي رأس التين.

وقد تفانى الأهلون في الدفاع عن المدينة، على الرغم من أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج فقد بذلوا كل ما في استطاعتهم من تضحية وإقدام، وقد قتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو ألفين، ولم تزد خسائر الإنجليز على خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحًا".

وصف ضرب الإسكندرية بعيون سويسرية

ومن حسن الحظ أن السيد جون نينيه قد اهتم بتسجيل الأحداث وتصوير هذه المأساة بدقة حيث كان من المقربين لعرابي وصحبه وفي نفس الوقت من الساخطين على الحكومة الإنجليزية وأسطولها والخديو ورجاله، وكان يرى أن مصر وعرابي وقعتا ضحية مؤامرة محبوكة الأطراف ولذا سجل كل ما وقعت عليه عيناه ونقله للعالم في عام 1884 باللغة الفرنسية فقال: [51]

"أجابت بطاريات الحصون على ضرب الأسطول بعد الطلقة الخامسة، وكان رماة المدافع يطلقون قنابلها بحماسة وإحكام أدهشا خصومهم (يقصد الإنجليز) الذين استمر عملهم الجهنمي عشر ساعات ونصف دون أن يستطيعوا المباهاة بنصر حاسم، وقد غُطيت المدينة أثناء الضرب بطبقات كثيفة من الدخان والغبار، وكان قصف المدافع يصم الآذان وحينما كانت الريح تبدد سحب الدخان والغبار كنا نشاهد كرات المدافع المصرية تسقط في البحر في منتصف المسافة بينها وبين بوارج الأسطول، ومع أن المدافع الأرمسترونج المصرية كانت أقل عيارًا من المدافع الإنجليزية فإن رماتها قد أدوا واجبهم على أكمل وجه بحيث إن سبع مدرعات إنجليزية أصيبت بعطوب بعضها جسيم وبعضها خفيف،

John Ninet -Arabi Pacha- p. 175 -51

وكانت بوارج الأسطول تمرح في رميها ومدافعها تطلق قنابلها على مرمى بعيد وتصيب البطاريات وفي نفس الوقت لا تتعرض هي للأذى، وكل واحدة منها يبلغ طولها مترًا و30 سنتي ووزنها 480 رطل ومحشوة بما يقرب من 370 رطلاً من البارود (أي أن أغلب وزنها من البارود) ويبلغ ثمن الواحدة 70 جنيهًا، وقد سقطت أولى هذه القنابل الضخمة في طابية رأس التين دون أن تنفجر فاستوقف شكلها نظر الجند والضباط فقال أحدهم وهو يشاهدها: "أيها الإخوان تعالوا وشاهدوا مثلاً من إنسانية الإنجليز "فضحك الحاضرون ثم واجهوا الضرب الذي كان مستمرًا وهم يبتسمون، ويستمر نينيه في وصفه لهذا اليوم قائلاً: "وكانت مهمة أسطول السير بوشان سيمور سهلة، إذ لم تتعرض بوارجه لخطر حقيقي كما يبدو من قلة عدد الجرحى والقتلى وكانت البوارج تتقدم مثنى مثنى ثم تصطف تجاه كل طابية وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكًا وعندئذ تقترب منها تدريجيًا وتنسف البطاريات والمدافع التي تكون قد انقلبت عن مواضعها ثم تتجه إلى الرماة فتحصدهم بطلقات الميتراليوزات المركبة على ساريات البوارج، وهذا يؤكد أنها كانت مجزرة همجية لا ضرورة لها، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة للقتل وسفك الدماء وقد كان بودي أن أسأل أولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل الميتراليوزات هل يستطيعون حينما يعودون إلى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاي في بيوتهم أن يتحدثوا إلى أهليهم عن هذه المجازر البشرية؟ إني أشك في ذلك". ويتساءل نينيه الذي كان يبدو مغتاظًا وحزينًا في نفس الوقت مما يحدث عن الإهانة التي لحقت بالأمة البريطانية حتى تثأر لنفسها بهذه الفظائع؟

ولكنه رغم ذلك يقول "ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر.. منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهي مكشوفة في العراء وكأنهم في استعراض حربي لا يرهبون الموت الذي يحيط بهم وهم بلا دروع واقية ولا متاريس فقد كانت معظم الحصون بلا ساتر، ومع ذلك فقد كنا نلمح وسط الدخان الكثيف أبناء النيل الشجعان وكأنهم أرواح أبطال سقطوا في الحرب ثم عادوا من جديد ليقاوموا العدو، ورغم القنابل إلا أن الأئمة كانوا يزورون الحصون ويشجعون المقاومة. وقد قام



صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 5 أغسطس 1882 توضح حالة الطوابي المصرية وخاصة طابية الفنار بعد ضرب الإسكندرية 11 يوليو 1882.

الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ولم يكن هناك أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم بل إن عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التي تعرضوا لها كانت هي التي تثير الحماسة في صدور أولئك الشجعان".

ويستكمل السويسري نينيه وصفه لمشاهد الضرب وما حدث يوم 11 يوليو 1882 فيقول:[52]

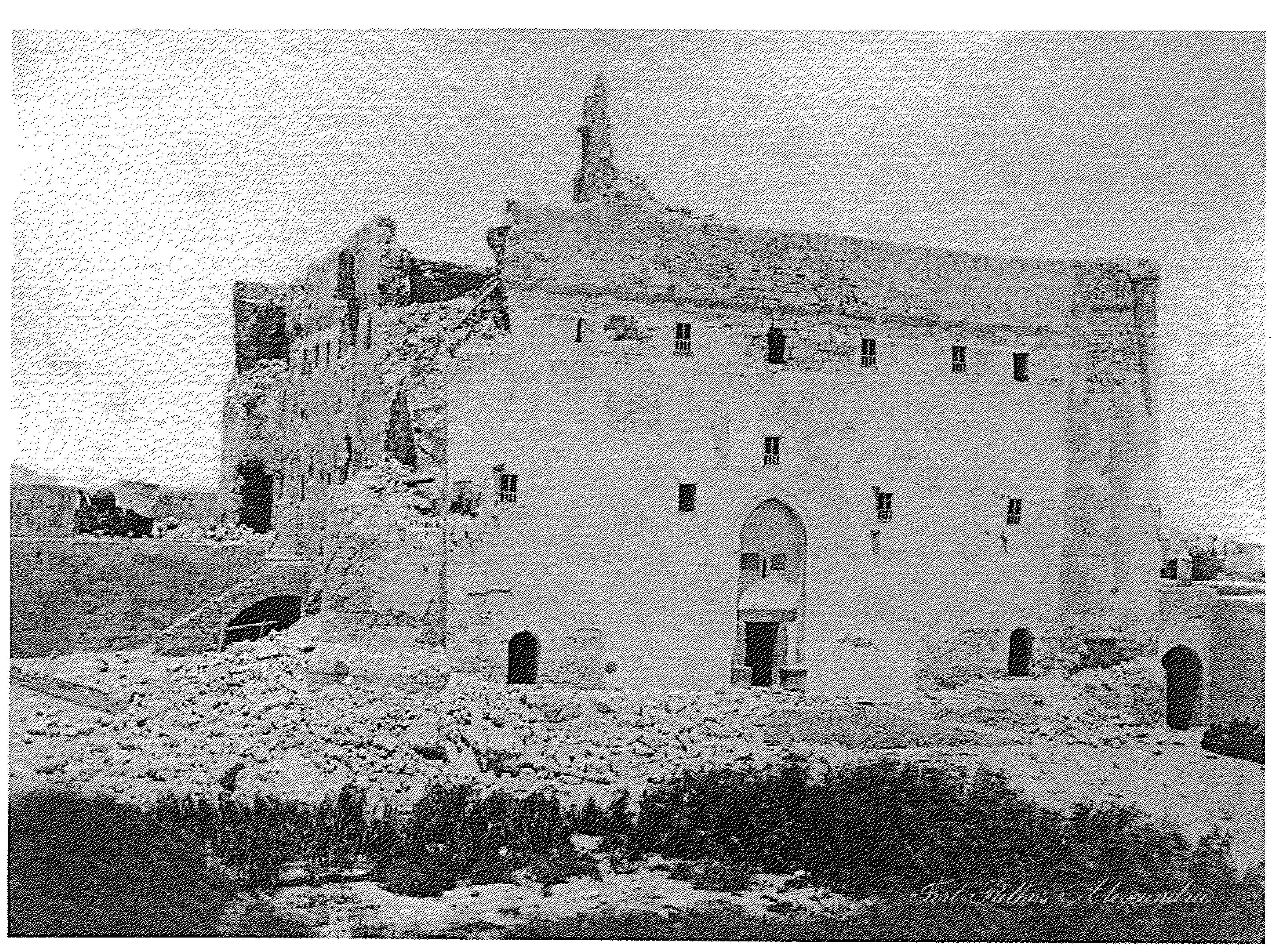
"وقد بدأت منذ الساعة العاشرة صباحًا عملية نقل جثث القتلى بواسطة عربات النقل من الحصون مخترقة المدينة إلى شارع محطة الرمل حتى المستشفى العسكري حيث كانت تعاين ويؤمر بدفنها في

52- John Ninet -Arabi Pacha- p. 177.

المقابر المجاورة للمستشفى بدون أي مراسم.. أما الجرحى فيتم نقلهم إلى المستشفى في مشهد مؤلم أيضًا على عربات النقل التي كانت الواحدة منهم تقل من عشرين إلى ثلاثين قتيلاً من الجنود أو الأهلين مشدودين بالحبال على ألواح من الخشب ممدودة فوق العربات والدماء تقطر من أجسامهم ومن بين المشاهد أمهات يحتضن أبناءهن في آخر رمق من الحياة، وجموع من النساء يعدون خلف العربات صائحات نادبات لاعنات من كانوا السبب في هذه المجازر.." ثم يستطرد الخواجة جون نينيه ليحكي ما حدث له شخصيًا فيقول: "وقد كنت واقفًا بالقرب من أحد البارات وهو "الأجيبسيان بار" عندما مرت عربتان تقلان جثث القتلى وخلفهما النساء المولولات عندما لمحتني بعضهن فأخذوا يلقون عليَّ باللعنات إذ كانوا يلعنون كل أوروبي وإنجليزي ثم قالوا وهم ينظرون إليّ: "تقتلون إخواننا ثم تأتون للفرجة على جثثهم.. اقتلوه.. اقتلوه.. وكاد يحاط بي لولا أن رآني أحد رجال الضبطية وكان يعرفني فأنقذني من بين أيديهم وعاد بي إلى داري.. وفي الطريق لاحظت أن الشوارع التي كانت عامرة بالناس وزاخرة بالأعمال فيما مضى قد خيم عليها السكون الرهيب كأنما هي شوارع مدينة قضى عليها الوباء... فقد أقفلت الدكاكين والنوافذ والأبواب في المدينة كلها وخيل إليَّ أنني في بلدة قضي عليها بالخراب النهائي، فقد كانت قنابل الأسطول الضخمة تنهال على المدينة وتخترق أحياءها في كل جهة وتدور فوق رؤوسنا وهي تدوي بشكل مفزع، فكانت تدمر المنازل في ناحية وتشعل النار في ناحية أخرى وترسل الموت في كل مكان.. وقد مرت فوق رأسي خمس قذائف -من رسائل الإنسانية الغربية على حد تعبير أحد الضباط- وقد مرت هذه القذائف من فوق سطح المنزل الذي كنت أقيم فيه تجاه حمامات كارتوني بالقرب من محطة الرمل فأصابت إحداها مدرسة فدمرتها وأصابت ثلاث أخرى بعض المنازل من قصور الأغنياء بالقرب من شارع باب شرقي فخربتها، أما الخامسة فقتلت أحد عشر شخصًا وحصانين بأول شارع محرم بك، ولم يكن لهذه القذائف القتالة التي أصابت قلب المدينة ما يقابلها من جانب المصريين فقد عزم عرابي على عدم إشراك قلعتي كوم الناضورة وكوم الدكة في الضرب لوجودهما في وسط المدينة.

وقد أصابت ثلاث قنابل أخرى عدة منازل في الحي المجاور لسكني وأحدثت إحداها تشققًا في الواجهة الشمالية لوكالة الدهان التي كان يتم بناؤها في ذلك الحين، ولم تكن قذائف الإنجليز في المجموع مصوبة بإحكام وقد تحققت من ذلك حين رأيت بعيني مستخدمًا منظاري المكبر أن عددًا غير قليل من القذائف التي كانت تدوي في الفضاء لم تصب أي هدف.

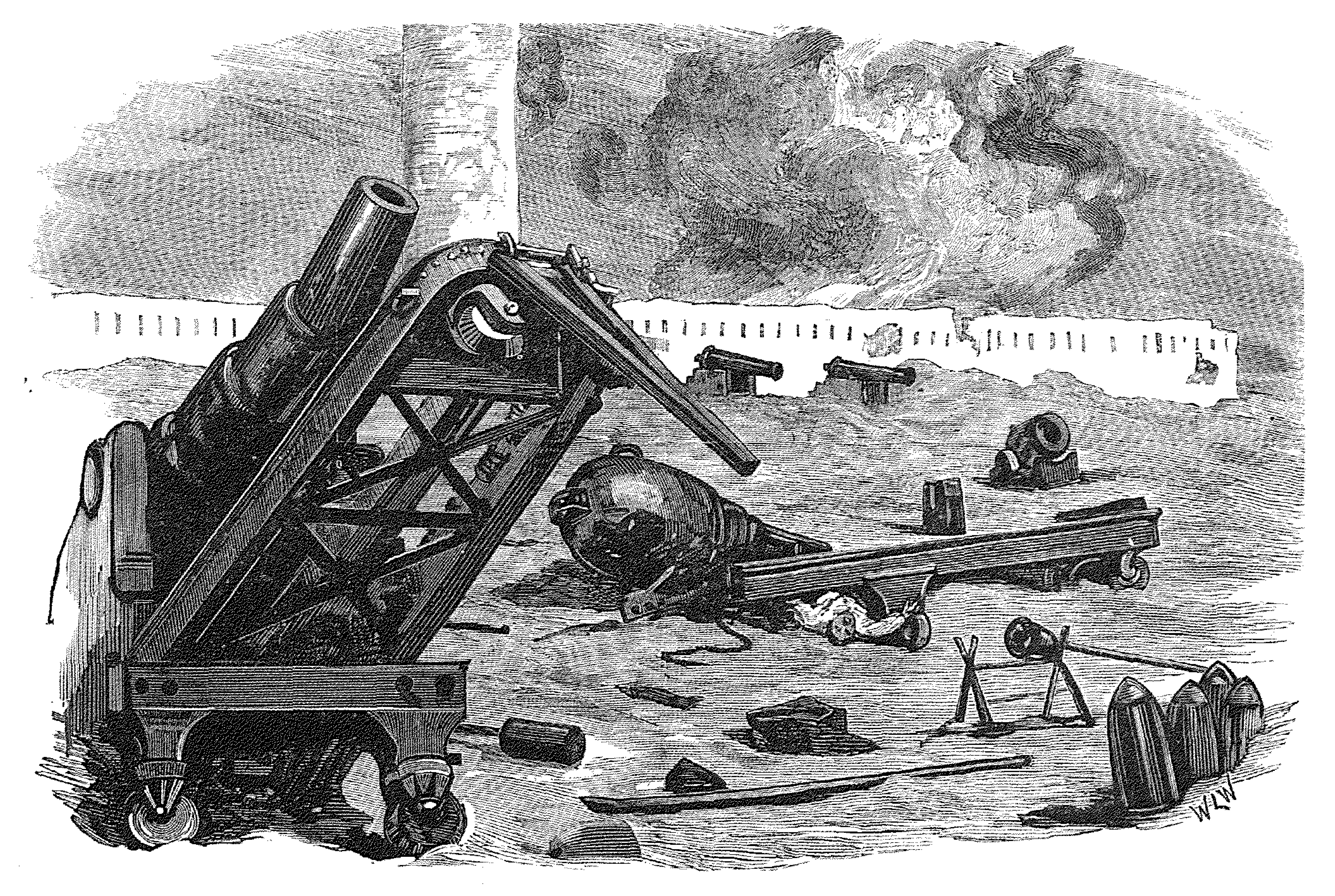
وكنت أرى تجاه نوافذ منزلي طابية قايتباي (قلعة فاروس) قائمة في أقصى حاجز الأمواج الأبيض بالميناء الشرقي وكانت هذه القلعة تبدو رائعة في بنائها الضخم يزينها مسجد بُني منذ 1450 ميلادية وكانت هذه القلعة هدفًا لضرب شديد استمر منذ شروق الشمس فتهدمت بين الساعة الحادية عشرة والظهر ولم تكن مسلحة تسليحًا كافيًا وكانت مخابئ المدافع فيها مبنية بناءً رديئًا مما أضر بالقلعة..



طابية قايتباي (قلعة فاروس) بعد الضرب.

وكم كانت دهشتي حين رأيت في نحو الساعة الرابعة بارجتين شامختين من البوارج الإنجليزية تصب نيرانها من جديد على هذا البناء الذي تخربت معظم مدافعه وانقلبت على الأرض، ولكن الإنجليز الذين كانوا يعملون على هدم طابية برج السلسلة وقلعة كوم الدكة رغم أنهما لم يشتركا في الدفاع قد أرادوا حسب ما أظن هدم هذا المسجد الجميل على أن المصريين لم يسكتوا إزاء هذه الوحشية فأطلقوا بعض القذائف من مدفعين كانا لايزالان قائمين بالقلعة ولكن قذائفهم لم تجدِ شيئًا إذ انهالت عليهم القنابل من البوارج الإنجليزية.

صورة نشرتها The Graphic بتاريخ 29 يوليو 1882 ويظهر فيها سوء حالة الطوابي بعد أن أطلق الأسطول الإنجليزي قذائفه عليها.. فانقلبت المدافع على الأرض ولقي كل من كان بالطوابي من الجنود المصريين حتفه.



وقد أحصيت بنفسي اثنتين وثلاثين قنبلة صوبت إلى هذا البناء الجميل لم يُصِب نصفها الهدف تمامًا وكانت غالبية القذائف تصيب الصخور فتنسفها وتنشرها في الهواء ثم تنطلق في الماء داخل الميناء الشرقي وتخرج ثانية في دوي هائل فتثير في الهواء عامودًا من الماء كأنه إعصار بحري لا يقل ارتفاعه عن ستين قدمًا..

وأخيرًا في منتصف الساعة السادسة مساءً تهدم هذا المسجد الصغير ودُفن تحت أنقاضه اثنا عشر جنديًا من الجرحى كانوا يأوون إليه.. وقد شاهدت بمنظاري المكبر أولئك الجنود التعساء وهم يأوون إلى هذا المسجد ثم ماتوا لعدم إمكان نقلهم إلى المستشفى العسكري تجاه برج السلسلة إذ كانت قذائف المتراليوزات المُعدة للإجهاز على الجرحى لا تنفك تنصب كالمطر وتمنع منذ الصباح كل محاولة للخروج من القلعة.

وبعد الظهر بقليل انفجر مخزن البارود في قلعة "الأطة" فسكتت مدافع هذه القلعة التي دافعت دفاعًا مجيدًا وفي نحو الساعة السادسة مساءً وقف الضرب من جانب الأسطول، وتبين أن الأميرال سيمور الذي تعهد بأن لا يضرب إلا القلاع قد تناسى عهده ونشر الموت والخراب في كل أنحاء المدينة وقد رأيت بعيني الحرائق التي شبت في عدة جهات دون أن يستطيع أحد إخمادها".

شهادات أجنبية على بسالة الجنود المصريين

وقد شهد العديد من القادة الإنجليز والأمريكان على مدى بسالة المصريين في الدفاع عن مدينتهم ومنها ما قاله القومندان "جودريتش" من رجال البحرية الأمريكية، وكان على متن السفينة الحربية الأمريكية "لانكاستر" في تقريره الذي رفعه إلى حكومته وقال فيه "إن جنود المدفعية المصرية جاوبوا نيران الأسطول الإنجليزي الجهنمية مجاوبة مدهشة لم تكن منتظرة بتاتًا وأظهروا بسالة عجيبة رغم التفاوت الجسيم بينهم وبين الإنجليز من حيث عدد المدافع وعيارها ولقد كانت البارجة "أنفليكسيبل"

تطلق مقذوفاتها التي تزن 1700 رطل على حصن الفنار وتصطدم بساتره فتثير الغبار والشظايا إلى ارتفاع الفنار نفسه ويتخيل المرء عندما يرى ذلك أنه ليس في استطاعة أحد من البشر أن يعيش تحت هذه النيران ولكن عندما ينقشع الغبار بعد بضع دقائق يرى جنود المدفعية المصرية في مواقفهم يطلقون القنابل على خصمهم الرهيب".[53] ثم تأتي شهادة الكابتن "وولتر جودسول" قومندان الباخرة "تشلترن" إحدى سفن شركة التلغراف الشرقية الذي قال: "لقد عجبت من البطولة التي كان يتحلى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن "الأطة" وبخاصة الموقف الذي وقفه قائد هذا الحصن قرب سارية علمه وهو بمفرده والمنظار في يده ليرى الآثار التي أحدثتها المقذوفات التي كانت تطلق..

لقد كان حقًّا رجلاً شجاعًا مزدريًا عدد المقذوفات التي كانت تلقى على حصنه الذي كان يرد بإطلاق مقذوفاته هو الآخر كل عشر دقائق، ثم رفعت البارجة "أنفليكسيبل" مرساتها وشرعت تصوب قنابل مدافعها الضخمة إلى هذا الحصن ويبدو أنها دكت أساسه ودمرته تدميرًا، وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر سددت قنبلة إلى مستودع باروده لابد وأنها أصابته ودخلت فيه لأنه انفجر في منتصف الساعة الثالثة، ولابد أنه أيضًا قتل جنودًا كثيرين.. لأن عددًا كبيرًا منهم طار في الفضاء وكذلك الضابط الذي كان واقفًا فيه وقفة الأسد في عرينه طار في الهواء هو وسارية علمه أيضًا".[54]

وقال البارون "دي كيوزل بك" وكيل مصلحة الجمارك المصرية الذي كان على متن السفينة "تنجور" في كتابه "ذكريات رجل إنجليزي عن مصر":

"لقد ثبت جنود المدفعية المصرية في مواقفهم أمام نيران المدرعات الإنجليزية الهائلة الفتاكة ثباتًا دل على بسالتهم وبطولتهم وظلوا يلقون القنابل باستمرار فتصيب أهدافها من هذه البوارج.. فليس هناك ريبة في بطولة الجنود المصرية فلقد قاتلوا مستبسلين ولكن لم يكن لهم الإلمام التام بسلاحهم ليجنوا من دفاعهم ولو بعض النجاح... ولم ينقض الضرب إلا في منتصف الساعة الثانية عشر من

53- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص95.

54- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص96.



حالة القلعة بعد ضرب المدينة.

صباح اليوم التالي (12 يوليو) لأن المصريين إذا كان لديهم مدفع في أي موضع لم يكن قد سقط.. استعملوه إلى أن يكره هذا المدفع على السكوت إكراهًا".[55]

وقال المسيو "سكوتيدس" وكيل قنصل اليونان في الإسكندرية: "وعند الطلقة الخامسة جاوبت بطاريات البر بنشاط وإحكام أدهشا الإنجليز وتقدمت البوارج الإنجليزية الضخمة ببطء واتخذت مواقعها أمام الحصون وصوبت إليها نيران مدافعها المركزة وكانت القذائف الهائلة تدعو إلى الظن بأنها ستدمرها

55- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص 129.

تدميراً فكانت تحطم المدافع الضخمة وتقلب قواعدها وتنسف مستودعات البارود وتحفر حفراً يقع فيها المصريون التعساء وبعدها تقترب شيئًا فشيئًا لتضعف قوة هؤلاء المصريين بتقويض حصونهم بسيل من قذائف المدافع المثبتة على ساريات السفن. وكانت قذائف المدافع المصرية تسقط في البحر وهي في منتصف الطريق فتثير عجاج الماء والبعض الآخر يصطدم بمدرعات الإنجليز الضخمة فيرتد عنها كأنها جسم من المطاط ويغوص في البحر، ومع هذا فلا ينبغي إلا الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات ورثاء أولئك الضحايا الذين راحوا طعمة للنار بطيش عرابي ورعونته وبجرأته التي أظهرها عبثًا. وكانت معظم الحصون بلا ساتر فقلبت القنابل الإنجليزية المدافع المصرية مما كان أكثر خطرًا وأعظم قوة فكثرت جثث القتلى وتناثرت حول المدافع المقلوبة". [56]

أما الماجور "تلك" أحد رجال المخابرات الإنجليزية وكان على متن السفينة "أنفينسيبل" التي كانت تقف أمام حصن المكس فقال عن جنود مدفعية حصن المكس:

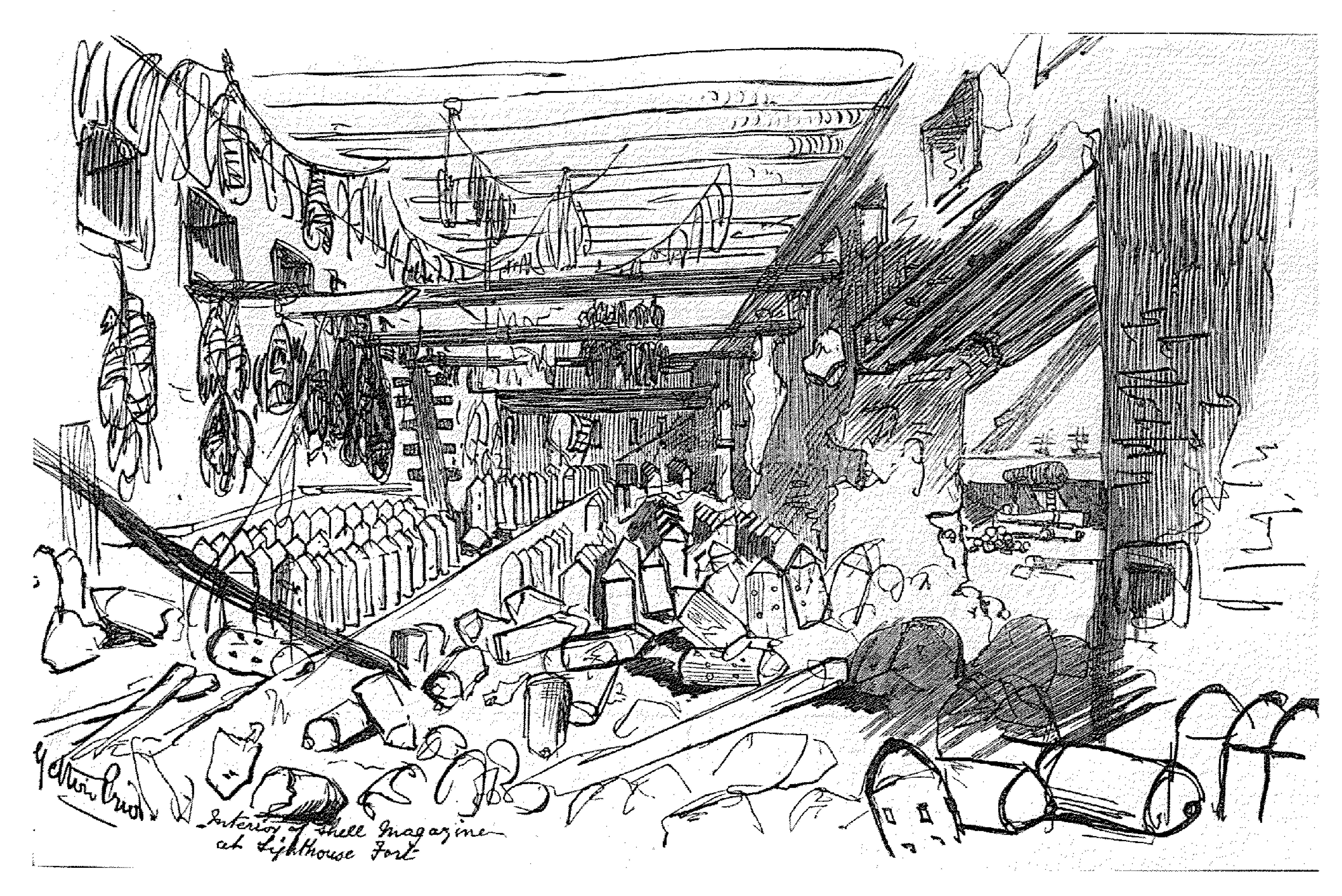
"كان من العجب العجاب أن أرى هؤلاء الجنود رغم شدة الضرب واقفين في أماكنهم ملازمين لمدافعهم... وقد رأيت أكثر من قذيفة من قذائفنا تدخل في إحدى كوات مدافعهم فقلت في نفسي إنه قد قُضي على هذا المدفع وأمسى في حيز العدم ولكن لم ألبث بعد ذلك حتى قلت: كلا ثم كلا.. فقد كان الجواب من هذا المدفع يعود في الوقت اللازم حتى أنه في إحدى المرات كان الرد سريعًا جدًا حتى أنني لم أتمالك نفسي وقفزت حتى وصلت إلى حافة السفينة ورفعت يدي صائحًا:

لقد أجدت العمل أيها الجندي المصري". [57]

أما أغرب ما قيل في هذه الشهادات فهو ما ذكره الضابط الأمريكي الذي كان يعمل لدى الحكومة المصرية "شاليه لونج" من أنهم عثروا في خطوط رأس التين على نحو 20 جثة من جثث الجنود المصريين وقد رُبطت أيديهم إلى أقفيتهم ولم يُعرف السبب، ولعلهم كما يقول داوود بركات في مقالته بتاريخ

56- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص 129.

57- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص99.



رسم كروكي للدمار الذي حدث بداخل قلعة الفنار نشرتها جريدة The Illustrated London News بتاريخ 5 أغسطس 1882.

29 ديسمبر 1931 من المدنيين ولكن الإنجليز زعموا والزعم خطأ أنهم انكرهوا على القتال وأن الضباط وقفوا وراء الطوبجية والرماة ليرموا بالرصاص كل من يمتنع عن الضرب أو يفر.[58]

كل هذه الشهادات كانت صادرة عن أشخاص كانوا في حكم الأعداء ومع ذلك لم تمنعهم خصومتهم من الشهادة في حق الجندي المصري الذي ضرب مثلاً رائعًا في البسالة والشجاعة يمكن أن يكون مثالاً تحتذي به الأجيال.

58- الثورة العرابية بعد خمسين عامًا – رؤية صحيفة الأهرام 1931-1932 - ص 189.

شهادة ألمانية.. صحفية

وفي نفس اللحظات التي تحولت فيها سواحل المدينة إلى ميدان للمعارك وارتفعت ألسنة اللهب والدخان وسحب الغبار من كل الطوابي والقلاع المنتشرة على طول الشاطئ.. كان هناك من رفض أن يغادر المدينة في هذه الظروف العصيبة وبقي فيها وشاهد وسجل كل ما حدث ساعة بساعة ويومًا بيوم وكتب ما شاهده بل ونشره في إحدى الجرائد السكندرية الأجنبية التي كانت تصدر في ذلك الوقت؛ إنه السائح الألماني الشهير "شونيفورث" الذي أقام طوال هذه الفترة العصيبة في بيت عُبيد الكائن قبالة المستشفى اليوناني -أي قلب المدينة الساخن- مما أتاح له أن يشاهد الكثير مما جرى والذي سوف أنقله بالنص:[59]

الساعة السابعة من صباح يوم 11 يوليو

- ابتدأ إطلاق المدافع - اطمئنان نفوس الأهالي بتصديق ما شاع من أن هذه المدافع إنما تُطلق ترحيبًا بالأسطول العثماني المنتظر وفوده بأمر الغازي عثمان باشا.

الساعة 7 والدقيقة 45

أُطلقت المدافع على قلعة العجمي ومع ذلك كان الأهالي لايزالون مطمئنين وقد سمعت بعض النساء البائعات (بائعات الحليب) ينادين في الشوارع "لبن – لبن" ولكن ما لاحظته هو الخوف الذي أخذ من العصافير والحمام وسائر الطيور كل مأخذ فأخذ ينتقل من جهة إلى جهة حائرًا لا يعلم أين يستقر آمنًا.

59- سليم النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 67.

الساعة 8

وصل عجين بعض البيوت إلى الفرن.

وقعت قنبلة كبيرة بين البيوت الخشبية وراء محطة الرمل فاضطرب السكان وهربوا لاجئين إلى البناية الجديدة بالقرب من المستشفى اليوناني.

القلاع البعيدة عن البحر لم تطلق حتى الآن مدافعها.

الساعة 9

خلت الطرق من المارة.

القلاع تطلق مدافعها على السفن ولكن بين المدفع والآخر وقت طويل.

سقطت قنبلة على جدار منزل كائن بالقرب من بيت "منشى" بشارع الباب الشرقي فأحرقته.

سقطت الآن قنبلة وراء قلعة كوم الدكة فوق قنصلية ألمانيا الجنرالية.

الساعة 9 والدقيقة 15

توقف إطلاق المدافع قليلاً ثم جاءنا مخبر يُنبئنا أن الأهالي مجتمعون في أحيائهم يتعاطون القهوة والنارجيلة في القهاوي العمومية وأنهم فرحون بما بلغهم مستهزئون بأعدائهم مستخفون بقوتهم وأنهم غير مبالين بما هو حاصل بين السفن والحصون.

الساعة 9 والدقيقة 45

السفن الراسية في الجهة الشرقية ابتعدت عن الشاطئ كثيراً وهي لاتزال تُطلق قنابلها على القلاع بدقة إلا أنها قللت عدد الطلقات عن ذي قبل.

الساعة 10 والدقيقة 20

تحولت الآن سرعة إطلاق المدافع من السفن إلى ما يعادل طلقتين اثنتين في الدقيقة الواحدة.

الساعة 11

الأهالي يخبرون بعضهم البعض في الطرق والشوارع أن الأسطول الإنجليزي لم يبق منه إلا ثلاث سفن وأن البقية أغرقتها مدافع القلاع.

الساعة 11 والدقيقة 30

لانزال نسمع بعض الطلقات من جهة الغرب وبلغنا الآن أن بعض الجهادية فتحوا باب إدارة التلغراف الإنجليزي عنوة وقسراً وقطعوا جميع الأسلاك التلغرافية فيه وذبحوا المنكود حظه "ترنان". (ولم يذكر لنا "شونيفورث" من هو هذا الترنان الذي تم ذبحه ولكن فيما يبدو أنه كان الموظف المختص بحراسة المكان وإلا فما هو سبب تواجده فيه بعد نزول جميع الموظفين إلى السفن الإنجليزية ونقل جميع الخطوط إلى السفن).

الظهر

أخذ الآن إطلاق المدافع في الازدياد بعد أن تناقص قليلاً.

نُقل كثيرون من الجرحى على عربات أومنيبوس إلى ما خارج المدينة وقد نظرتهم حال مرورهم أمام المستشفى اليوناني.

الساعة 12 والدقيقة 20

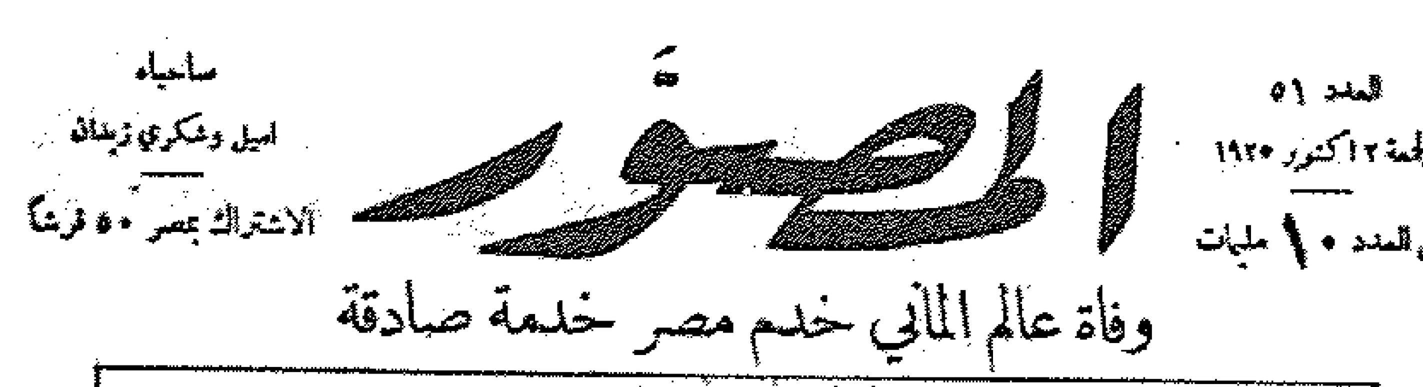
سقط الآن قنبلتان بالقرب من المدرسة الحرة المجانية وبانفجارهما تصاعد من الأرض غبار كثيف.

في هذه الساعة وصل إلى أمام منزلنا ثلاثة من الجنود ومعهم اثنان من البوليس وجماعة من رعاع القوم وأحاطوا بالبيت الذي كنت فيه مع المسيو فريدهايم، وكلفونا بالنزول ليأخذونا إلى القرة قول فإن الأوامر قد صدرت فيما يبدو بالقبض على كل من يرونه على السطوح أو مشتغل بمخابرة السفن الإنجليزية بالإشارات وأخذه إلى دائرة البوليس.

وفي الساعة عينها رأيت أحد المشايخ وقد اغتصب من أحد الجهادية بندقيته ليطلقها على نوافذ المستشفى اليوناني.

رأيت كذلك أولئك السفلة الرعاع يركضون وراء رجل خرج من المستشفى وهرب فتبعوه ولكنهم لم يدركوه فنجا.

وعند هذا الحد توقف الرجل الألماني -وهو بالمناسبة مؤسس الجمعية الجغرافية بأمر عال من الخديو السابق إسماعيل- عن سرده للأحداث حيث تمكن الذين حاصروا منزله من كسر الباب والدخول فتيقن السائح أنه مقتول لا محالة كما يقول سليم النقاش فأحضر مسدسه وشرع في قتل نفسه عملاً بمبدأ (بيدي لا بيد عمرو) ولكن صديقه حال بينه وبين تنفيذ هدفه وأقنعه أنه لا يجب أن ييأس؛ فحينها خرج الألماني من مخبئه وأخذ يخاطب المهاجمين برقيق الكلام وأخبرهم أن التعليمات التي لديهم تقضي بأن يقبضوا على من يرونه يخابر السفن الإنجليزية بالإشارات وهو ليس منهم بل هو صديق للمصريين وهو في نفس الوقت ألماني الجنسية، وأضاف أن جلالة السلطان قد أنعم عليه برتب عالية وأن له عنده حظوة وشأناً إلى غير ذلك من الكلام اللين حتى تركوهما فتمكن من الهرب هو وصديقه من نافذة المنزل واختبأ في الحديقة حتى صباح اليوم التالي حتى تم إنقاذه على يد ذو الفقار باشا ومن معه وأخذوهما إلى مستشفى الراهبات.



المصوّر

العدد ٥١
الجمعة ٢ أكتوبر ١٩٢٥
ثمن العدد ١٠ مليمات

صاحباه
اميل وشكري زيدان
الاشتراك بمصر ٥٠ قرشاً

وفاة عالم ألماني خدم مصر خدمة صادقة



صورة الرحالة الألماني "جورج شوينفورث" على غلاف مجلة المصور بتاريخ 2 أكتوبر 1925 بمناسبة وفاته.

عبد الله النديم وأكاذيب الطائف

وعلى الرغم من أن كل الشواهد كانت تؤكد تفوق وتقدم الأسطول الإنجليزي على الجنود المصرية إلا أن ذلك لم يمنع الجهادية المصرية من بث الأكاذيب وتوزيع المنشورات التي تؤكد على فشل الأسطول الإنجليزي في دحر الجنود المصريين تمامًا، كما كان يفعل عبد الله النديم خطيب الثورة -كما كان يُطلق عليه- وذلك بقيامه بإذاعة بعض الأخبار الكاذبة على صفحات جريدته الطائف التي أصبحت في ذلك الوقت لسان حال الثورة العرابية وزعيمها أحمد عرابي، وصدرت الصحيفة على مدار عدة أيام وعلى صدر صفحاتها الأولى شعارات من نوعية "يا ثأر الإسكندرية، يا مجد عرابي، يا شرف الوطن".

ومن الأخبار ما يلي: "في الساعة العاشرة جنحت دارعة تجاه "أطنه" وعند الظهر أُغرق مركبان بين طابية فاروس وطابية العجمي وفي الساعة الواحدة غرقت بارجة خشبية عليها ثمانية مدافع، وفي الساعة الخامسة أصيبت الدارعة الكبرى بقنبلة من طابية فاروس وتعطلت بطاريتها فرفعت العلم الأبيض إشارة إلى طلب عدم الضرب لذلك أوقف الضرب الذي دام من الساعة السابعة صباحًا ودك بعض جدران طوابينا ولكنها أُصلحت في الليل". ولكن إذاعة الأكاذيب لم تقتصر فقط على جريدة الطائف بل امتدت لجريدة الوقائع المصرية وكانت تعد بمثابة الجريدة الرسمية أو لسان حال الحكومة فقد نشرت في عدد 11 يوليو 1882 صورة التلغراف المرسل من عرابي إلى يعقوب باشا سامي وكيل نظارة الحربية يقول فيه "الحالة جيدة وقد شوهدت حريقة في مراكب الإنجليز"... وبالطبع لم تكن الحالة جيدة بل كانت أكثر من سيئة ولم يحدد لنا عرابي أي حريقة يقصد وفي أي مركب شبت...!

ومن الأمثلة على الأخبار التي كانت تنشر على المصريين عن هذه الحرب:

"يوم الثلاثاء 11 يوليه في الساعة 7 أطلق الإنجليز النار على حصون الإسكندرية فرددنا عليهم، أما في الساعة 10 عربية (5 مساءً) أصيبت المدرعة الكبيرة بقذيفة من قلعة قايتباي أتلفت بطاريتها

فرفعت العلم الأبيض إشارة إلى الكف عن إطلاق المدافع عليها، فامتنع الضرب من الجانبين بعد أن استمر عشر ساعات متوالية وتخربت بعض جدران الحصون ولكنها أصلحت ليلاً.

والطلقات والقنابل التي أُطلقت من الجانبين بلغت نحو ستة آلاف وهذه أول مرة أطلق فيها عدد كبير من المقذوفات في وقت قصير كهذا.. وما من جندي كان يستطيع أن يقف بثبات في مركزه رابط الجأش كما وقف المصريون أمام نيران 28 سفينة حربية مدة عشر ساعات".

هذه أمثلة من الأخبار التي كانت تذيعها هذه الجريدة وهي كلها مفتراة للأسف وليس فيها مثقال ذرة من الصحة اللهم إلا الفقرة الأخيرة.[60]

وعلى الرغم من أن هذه الحرب غير المتكافئة كانت بين سفن وقطع حربية إنجليزية من جانب وطوبجية وجنود مصريين من جانب آخر إلا أن ذلك لم يمنع المصريين من المشاركة ومد يد المساعدة للجنود كما يقول الشيخ محمد عبده: "كان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يتغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله".

ومن الأمثلة على الأغاني الطريفة التي أطلقها السكندريون البسطاء في وجه أعدائهم:

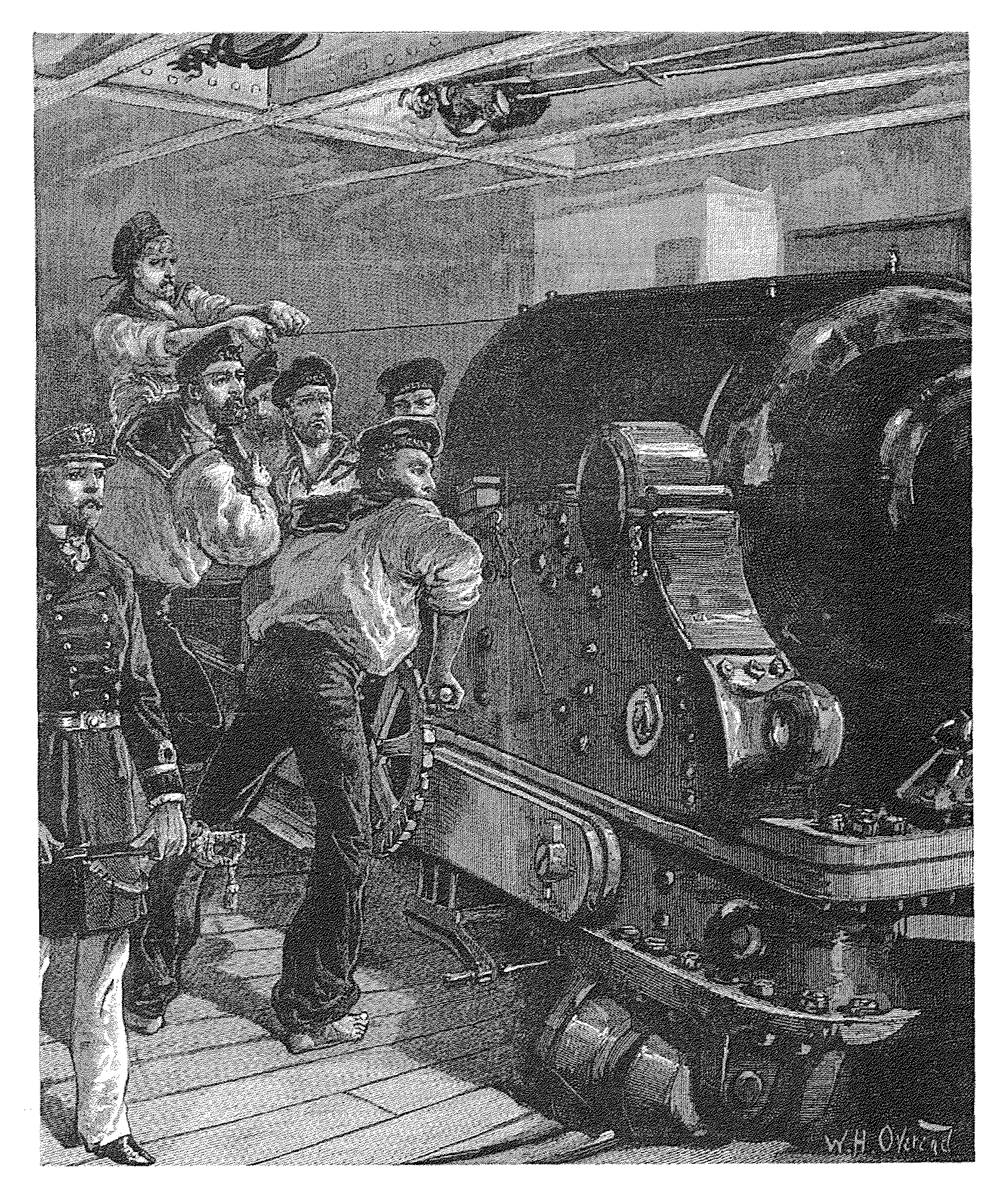
"يا سيمور يا وش القملة.. مين قالك تعمل دي العملة".

"مدد يا مرسى يا أبو العباس.. مدد".

"يا شيخنا يا أباصيري.. يا سيد ياقوت عرشي" ومما يقال أن الأهالي اختلطت بالجند وتزاحمت على القلاع لمساعدة العسكر.. فكان إذا صوب الجندي مدفعه إلى الإنجليز صاحوا مهللين ويقال أيضًا إن الكثير من أهل الطرق الصوفية وقفت على الساحل بالبيارق والأعلام والطبول وهم يصيحون "يا لطيف.. يا لطيف" فما هي إلا لحظات وحولت المدافع فوهاتها إلى الجموع المحتشدة وأُطلقت

---

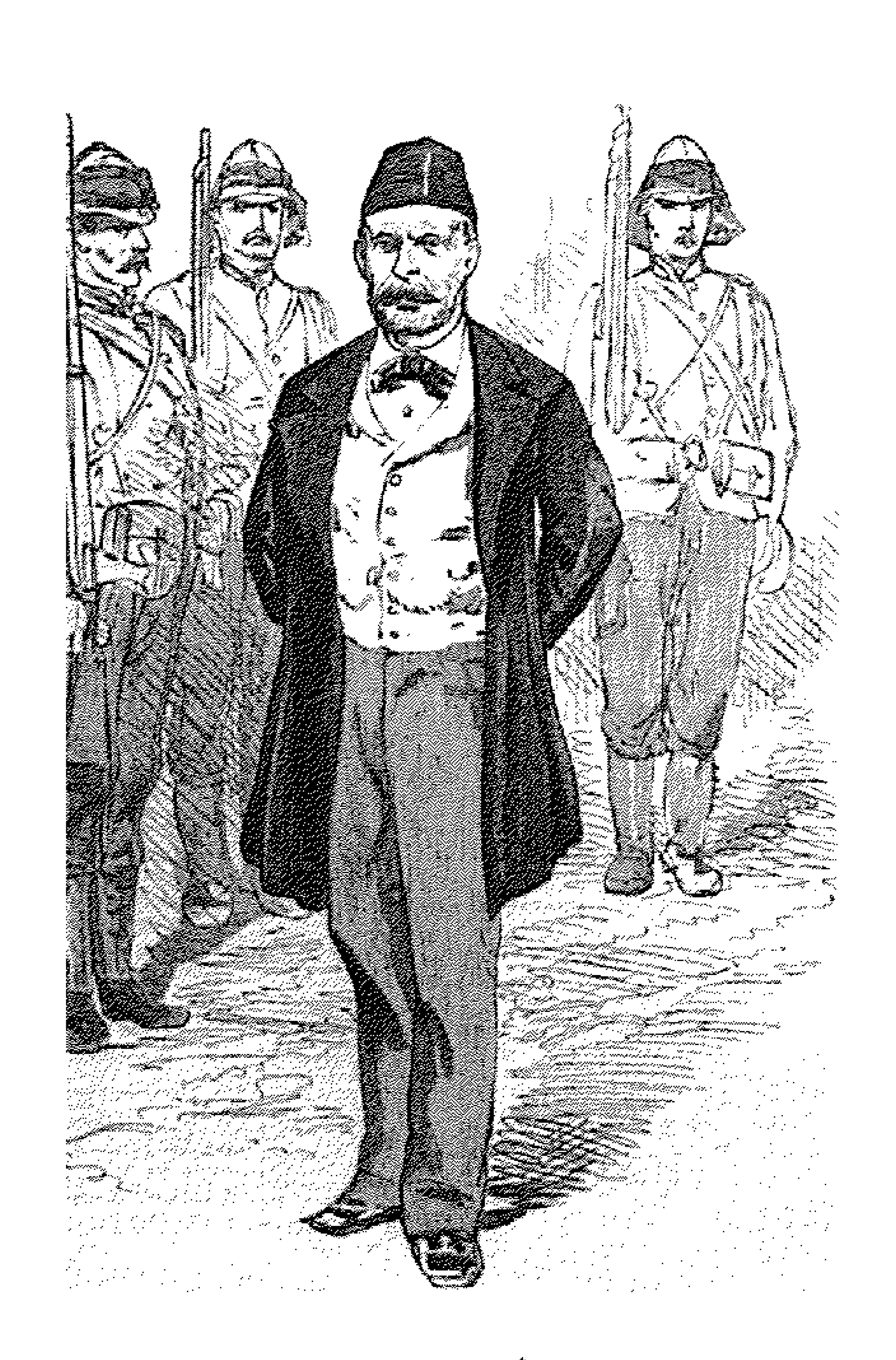
60 - الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص 101.



تحت عنوان "الأزمة في مصر" نشرت جريدة The illustrated London news هذه الصورة في صدر صفحتها الأولى في العدد الصادر بتاريخ 15 يوليو 1882 أي بعد أربعة أيام من ضرب الإسكندرية وفيه يتم تدريب الجنود الإنجليز على إطلاق القذائف من المدافع الموجودة على متن البارجة "سلطان" المرابطة قبالة سواحل المدينة.

القنابل التي لم تفرق بين الجنود والأهالي ومزقتهم تمزيقًا شديدًا فكان منظرًا يفتت الأكباد في منطقة السيالة.أما محمود باشا فهمي وهو واحد من أهم رجال عرابي في تلك الفترة وشغل منصب ناظر الأشغال العمومية في نظارة محمود باشا سامي البارودي فيقول كلامًا خطيرًا جدًا عن سلوك بعض الجنود في بعض المواقع مقارنة بسلوك الأهالي:

"وصارت عسكرنا المصرية تهرب من وراء المدافع، وقد رأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصل من غيرة الأهالي بجهة رأس التين وأم قبيبة وطوابي باب العرب وهمتهم في مساعدة عساكر الطوبجية وذلك بجلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم.. بل وأن البعض من الأهلين صار يعمر المدافع بنفسه ويضربها على الأسطول، وقد خربت مدافع الأسطول طوابي رأس التين وما فيها من القشلاقات العسكرية والسرايات الخديوية وشاهدت ضباط وعساكر آلايات البيادة الذين كانوا يتبخترون في سيرهم بسيوفهم في شارع عابدين ويظهرون قبل الحرب الشجاعة والبسالة وكذا عساكرهم ظهر أن أهالي ونساء وبنات وشبان جهات رأس التين وباب العرب وأم قبيبة أشجع وأحسن منهم قلبًا وقالبًا وشجاعة"..



محمود باشا فهمي كما نُشرت صورته في جريدة The Illustrated London news بتاريخ 16 سبتمبر 1882.

ويستطرد محمود باشا فهمي في حكايته عن هذا اليوم فيقول: "كان معي في ذلك الوقت في رأس التين لمشاهدة الحركة زبير باشا ومحمد رؤوف باشا وآخرون وشاهدوا ذلك وتأسفوا جدًا على ما شاهدوه من جبن عساكر المشاة والطوبجية، وقد استمرت نيران الأسطول الإنجليزي متساقطة على المدينة إلى حد الساعة الواحدة والنصف إفرنكي بعد الظهر، فلما رأت أهالي الإسكندرية ما هو جار من استمرار ضرب المقذوفات عليهم خرجوا مهاجرين من مدينتهم على شواطئ ترعة المحمودية مثل الجراد المنتشر، ناهيك أن عدد سكان مدينة الإسكندرية نحو 320 ألف نفس تركوا جميعًا مساكنهم ومنازلهم وهرعوا على سواحل ترعة المحمودية شرقًا وغربًا لا يدرون أين يتوجهون مع أطفالهم ونسائهم... شيوخ وشبان وأطفال -ملقحين- على شواطئ الترعة جائعين، لا زاد عندهم ولا قوت، وكل رجل حر شاهدهم أخذ يلعن من كان السبب لعنًا مؤبدًا لأنه أصل هذه البلايا والآفات والمصائب والخسارات.

فلما رأيت هذه الأحوال صرت أفتش على عرابي في أي جهة يكون حتى أقف عليه هذه الحوادث الفظيعة، وما زلت أفحص عليه حتى وجدته قاعدًا في قلعة "كوم الديماس" (كوم الدكة) داخل محل من محلاتها وبجانبه طلبة عصمت وعمر رحمي واضعين أيديهم على خدودهم باهتين.. ساكتين.. مصفري الوجوه.. لا يبدون حراكًا كأنهم جميعًا على هيئة الأموات".[61]

أما عرابي الذي كان في "كوم الديماس" للإشراف على مواقع القتال فيقول مبررًا ما حدث من خيبة:

"إن مقذوفات المدافع القديمة كانت لا تصل إلى المراكب الإنجليزية ومدافع الأرمسترونج لا يوجد بها المساطر التي تعرف المسافات وتحكم الإصابة بواسطتها إلا مسطرة واحدة كانت في العباسية وتم استحضارها ليلاً وتم تسليمها إلى الشهم المقدام سيف النصر بك قومندان طابية الفنار، فكان يُطلق المدافع بنفسه وينتقل من محل إلى آخر ويُحكم الإصابة بواسطة المسطرة المذكورة فكانت معظم الدوارع التي تعطلت من المقذوفات التي أحكم هو إطلاقها ولو كانت مدافع الأرمسترونج ذات مساطر كلها لأمكن تعطيل كافة الدوارع الإنجليزية".

ويؤكد عرابي أنه في أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات.

ولكن عرابي انتقل في مذكراته إلى نقطة أخرى هي أن النار قد اشتعلت في ذلك اليوم من تأثير مقذوفات العمارة الإنجليزية في سراي رأس التين وكثير من بيوت الإسكندرية نعرف منها بيت "أجيون" الكائن بجوار النبي دانيال وبيت الخواجا "إبراهيم بيجا" وبيت الخواجة "يوسف نصر" ومعمل الخواجا "دهان" وغيرهم كثير، وقد تم تخصيص عساكر الطلمبات لإطفاء حريق سراي رأس التين وغيرها من المحلات التي شبت النار فيها..

61- مذكرات محمود فهمي وزير الأشغال أيام الثورة العرابية -وثائق تاريخية- ص 55.

وقد استشهد في ذلك اليوم من جميع الطوابي مائة رجل وامرأتان من المتطوعات من اللواتي كن يضمدن جروح الجرحى وفيه أخذ الإسكندرانيون في المهاجرة من المدينة بحالة مدهشة.[62]

وفي الساعة السابعة مساءً وبعد توقف الأسطول الإنجليزي عن الضرب نزل عرابي من مكمنه وتوجه مع الضباط إلى منزل راغب باشا رئيس النظار على الشاطئ الغربي للمحمودية للتباحث في الأمر واحتدمت المناقشة بين الحاضرين حتى أن الزبير باشا قال لرئيس النظار:

"والله أنى رأيت العساكر على غير قوة ولا مقاومة ولا ينفعون بشيء، وإن هذه الحرب مشئومة على البلاد والعباد" فاغتاظ طلبة عصمت وقال بشراسة: "كيف تقول ذلك وعساكرنا مثل الأسود ضربوا الأسطول الإنجليزي حتى كسروا مراكبه".[63]

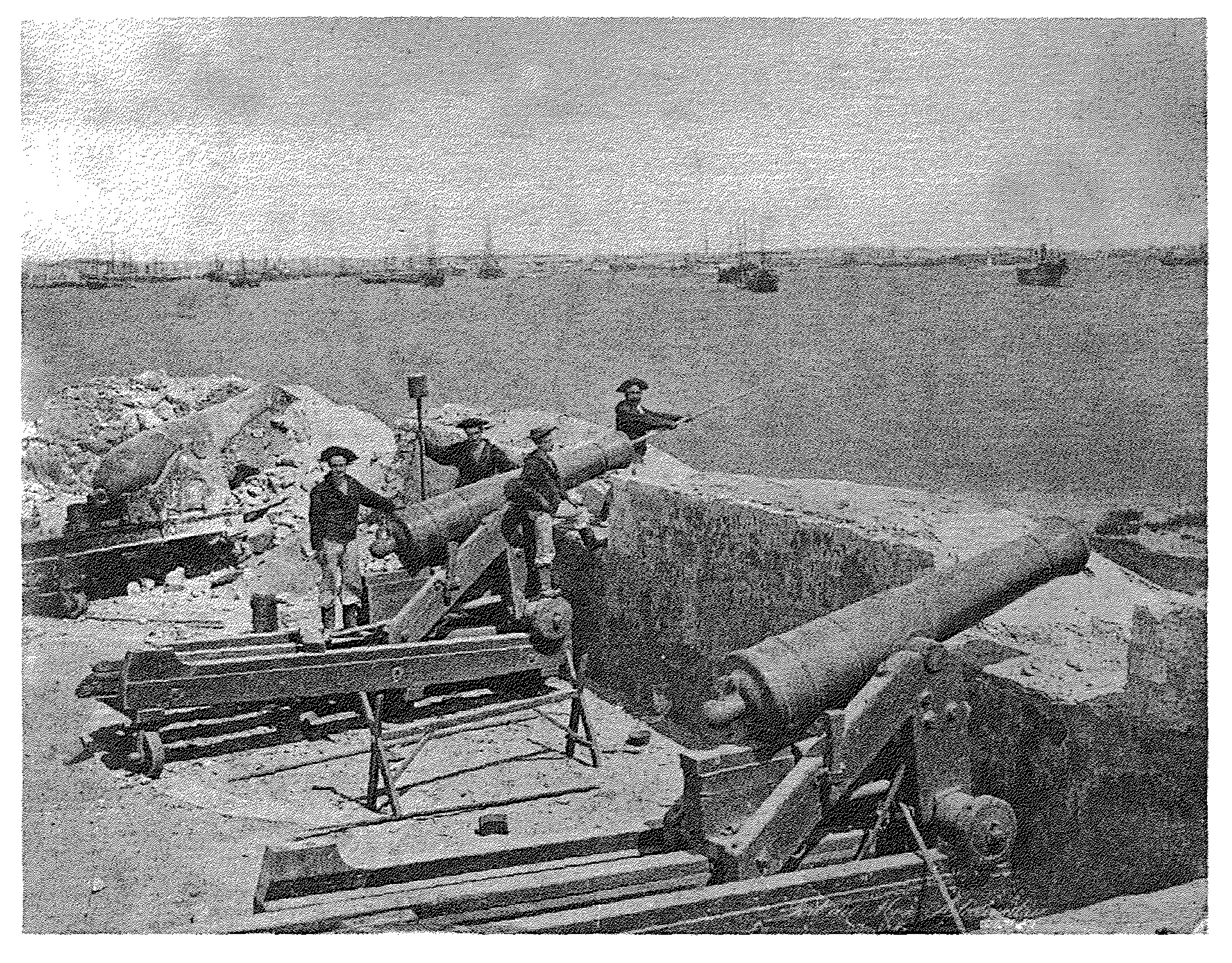
ولكن سلطان باشا رئيس مجلس النواب التفت إلى محمود باشا فهمي وسأله عن الموقف فأيد كلام الزبير باشا وأضاف يحكي ما رآه من انكسار الجنود وغيرة الأهالي.. وهنا سكت الكلام واتفق الجميع على التوجه للقاء الخديو في سراي الرمل وإخباره بأمر الهزيمة.

وعلى الجانب الآخر يقول عبد الرحمن الرافعي[64] إن الخديو توفيق كان قلقًا في قصر الرمل وينتظر أخبار عن الأحداث حتى دخل عليه راغب باشا في بداية النهار، وأخبره أن الجنود المصريين قد أصابوا بعض البوارج الإنجليزية بأضرار جسيمة وأن الحصون قد قاومت أشد المقاومة، ولكن ما لبثت الأنباء الحقيقية أن بلغت الخديو بعد الظهر ومضمونها أن القلاع تهدمت أو كادت ولم يعد في وسعها أن تقاوم فأرسل يستدعي عرابي فجاءه في نحو الساعة السابعة مساءً وتبادل وإياه عبارات تدل على ما يحمله كل منهما من بغض للآخر، وفي النهاية سأله الخديو عن نتيجة الحرب فأجابه: "واعجبًا! كيف أفندينا يجهل إلى الآن ما كان!".

62- مذكرات أحمد عرابي -كشف الستار عن سر الإسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية- ص 575.

63- مذكرات محمود فهمي وزير الأشغال أيام الثورة العرابية -وثائق تاريخية - ص 58.

64- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 325.



قلعة المكس في الأسكندرية بعد ضرب المدينة.

فاستاء الخديو من الجواب وقال: "كل العجب منك أنت... إنك لم تكتب إلى الآن تقريرًا عما حصل حالة كونك ناظرًا للجهادية"، فقص عليه عرابي ما كان من تهدم الحصون وقال:

"لم يبق في الاستطاعة أن نحاول الدفاع، ولم يبق لنا إلا الالتجاء إلى تدابير أخرى، أو نتساهل مع الأميرال" فطلب منه الخديو كتابة تقرير مفصل ولكنه رفض.

ولكن درويش باشا مندوب السلطان الذي كان حاضرًا قال لعرابي "كيف تجسر على مثل هذا الجواب وقد أقسمت أن تخضع للخديو وتمتثل لأوامره ولاشك أن خسرانك كان نتيجة سوء تصرفك ومخالفتك لما نصحت لك أن تفعل بإجابة الأميرال إلى ما طلب".

وفي النهاية قرر المجلس رفع العلم الأبيض (راية التسليم) على الحصون إذا استأنف الإنجليز الضرب في اليوم التالي وإرسال طلبة عصمت إلى الأميرال سيمور ليطلب منه وقف القتال.

بالفعل وفي الصباح وبالتحديد في الساعة العاشرة والدقيقة الأربعين استأنف الأسطول الإنجليزي -الذي كانت تملأ قائده الأميرال سيمور نشوة النصر- الضرب وما هو إلا وقت قصير حتى رُفعت الأعلام البيضاء على حصون (الأطة وقايتباي ورأس التين) إيذانًا بطلب الهدنة فتم إيقاف الضرب وذهب طلبة باشا عصمت لمخابرة الأميرال سيمور طبقًا لما تم الاتفاق عليه مع الخديو ليلة أمس. وعندما قابله مندوب الأميرال سأله:

"ماذا تريدون من رفع الأعلام البيضاء؟"

فأجابه طلبة عصمت بأن الخديو يقول:

"إن الطوابي تخربت والمدافع التي كنتم ترغبون نزولها نزلت، ولم يحصل بيننا وبين دولة إنجلترا ما يخل بالعلاقات الودية ولذا نرغب في التكلم في إبطال الضرب".

فأجابه المندوب الذي يبدو أنه كان يحفظ تعليمات رئيسه الأميرال سيمور عن ظهر قلب:

"أن الأميرال يطلب أن يُرخص لجنوده من البحارة في النزول إلى البر واحتلال ثلاث قلاع هي العجمي والدخيلة والمكس وإلا استأنف الضرب في الساعة الثانية من ظهر اليوم".

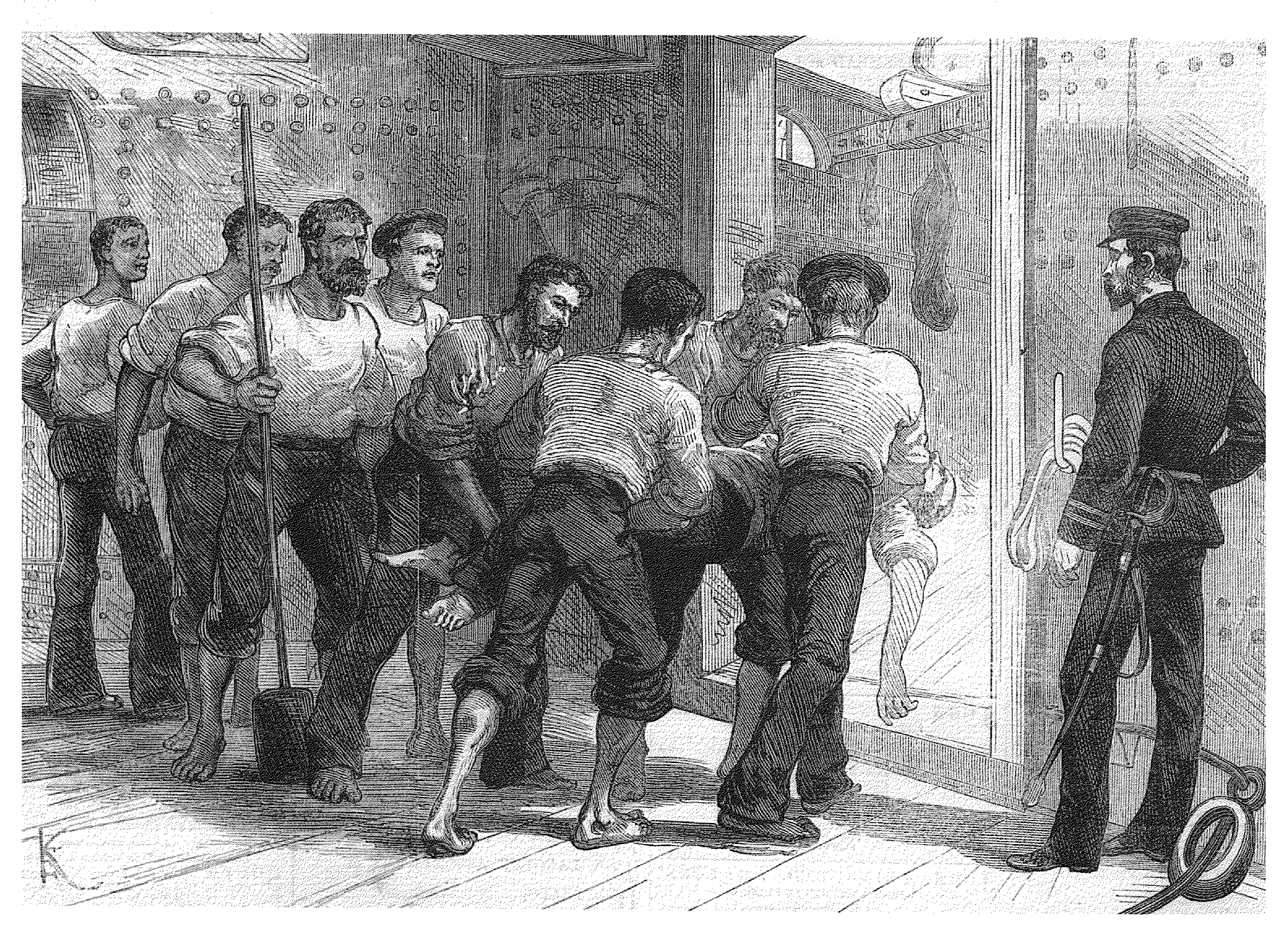
فلم يدر طلبة باشا بماذا يجيبه فاستأذن وأسرع يهرول وهو مبلل بالعرق لعلمه أن المهلة التي منحها المندوب لن تكفي ليصل إلى قصر الخديو ويعود حتى أنه حاول إطالة الوقت ولكن المندوب رفض.

وعند مثوله لدى الخديو عرض عليه نتيجة اللقاء فما كان من الخديو إلا أن عقد مجلسًا للبت في هذا الموضوع حضره عدد من النظار من بينهم عرابي واستقر الأمر على أن يكون الجواب النهائي "أنه لا يحق لمصر أن ترخص لنزول جنود أجنبية إلى البر بدون الرجوع للسلطان العثماني باعتبار مصر جزءًا من السلطنة العثمانية".

وبالفعل عاد الوفد إلى الميناء فلم يجدوا مندوب الأميرال الإنجليزي الذي عاد إلى سفينته بحجة انتهاء المهلة، وبالتالي لم ينزل الوفد إلى البحر وعادوا أدراجهم يجرون أذيال الخيبة ويمسحون العرق الذي سال على وجوههم من شدة الخزي بالإضافة لحر شهر يوليو الشهير... وما هي إلا دقائق حتى استأنفت البوارج الإنجليزية قذائفها على قلعة المكس فلم ترد وبعدها رفعت الأعلام البيضاء من جديد على القلاع.. وهنا كان الاستسلام التام.. وبالفعل توقف الضرب وترقب الجميع ما قد يحدث حتى كانت المفاجأة...... ولكن وقبل أن أنتقل إلى صفحة أخرى من عمر المدينة البائسة وجدت لزامًا عليّ أن أقول إن أكثر ما استفزني أثناء الإعداد لهذا الكتاب هو ذلك الموقف الغريب الذي تمت به إدارة هذه الأزمة التي كانت تستلزم لم شتات الأمة بأسرها ونبذ الخلافات والتوحد على قرار واحد..

ولكن بدلاً من ذلك تم تبادل الاتهامات بين أهم جانبين على الساحة المصرية آنذاك وهما (عرابي والخديو) نتيجة لتراكمات سابقة بينهما فقد كان الخديو يشعر بالخيانة من جانب عرابي ورجاله حتى أنه في وقت من الأوقات سرت شائعات كثيرة عن محاولة عزله عن الأريكة الخديوية وتعيين حليم باشا مكانه أو حتى البارودي؛ فكانت النتيجة الطبيعية أن نفر منهم الخديو وحاول جاهدًا استمالة الباب العالي حتى طلب درويش باشا مندوب السلطان من عرابي التوجه إلى الآستانة للتفضل بلقاء السلطان وتكريمه، ولكن عرابي فطن للحيلة الذكية لإخراجه من البلاد واحتجازه في الآستانة فرفض مغادرة البلاد بحجة تردي الأوضاع وأن العدو على الأبواب؛ وبالتالي بقي الوضع الشائك على ما هو عليه، وما إن بدأ الضرب حتى هرب كل منهما إلى جهة تاركين الشعب السكندري التعيس يواجه مصيره وحده بالتعاون مع مجموعة من الجنود المصريين الشجعان...

فبينما هرب الخديو إلى قصر الرمل البعيد عن الساحل بالاتفاق مع الإنجليز لضمان سلامته.. ذهب عرابي ليختبئ في طابية كوم الدكة بحجة التباحث مع الضباط بشأن المعركة، ولم يقم حتى بتفقد الخطوط الأمامية للمعركة. ويقول كل من شاهده أنه أمضى الوقت في الصلاة والذكر؛ بينما كانت قذائف الإنجليز تمزق أجساد الجنود المصريين الموجودين في الطوابي والقلاع.



تحت عنوان "الحرب في مصر" أصدرت جريدة The illustrated London news ملحقًا خاصًا بهذه المناسبة ضم هذه الصورة التي رسمها أحد مراسليها للجنود الإنجليز يحملون أحد ضحاياهم داخل البارجة "الكسندرا" وذلك في العدد الصادر بتاريخ 29 يوليو 1882.

الهروب من نار الإسكندرية

وفي هذه الأثناء بدا أن المدينة وسكانها قد أصابهم مس من الشيطان أو لوثة جعلت الكل يجري في كل اتجاه ويحاول الفرار بأية طريقة، وكأنهم كانوا يعلمون أن الموت على الأبواب فأرادوا الفرار.. ويقول عبد الرحمن الرافعي في وصف هذا اليوم:[65]

"بدأت الهجرة في مساء يوم 11 يوليو، فهرع الناس إلى المحطة أفواجًا وهم في حالة ذعر وفزع وركبوا القطارات التي أُعدت لهم مجانًا وبلغ عدد المهاجرين من الأهلين في هذا اليوم وما تلاه 150 ألفًا هاموا على وجوههم؛ إذ كانوا يخرجون من أبواب المدينة لا يدرون أين يذهبون، فمنهم من قصد العاصمة ومنهم من سار مشيًا على جسر ترعة المحمودية وإدكو، ومنهم من كان كثير العيال فمكثوا على جسر المحمودية أو في الملاحة. أما المرضى والحوامل الذين لا يستطيعون السير فقد تركهم أقاربهم بالإسكندرية فمات كثير منهم لعدم وجود من يعتني بهم، وتفرق المهاجرون في البنادر والأرياف والقرى، وذهبت أفواج منهم إلى العاصمة في حالة تفتت الأكباد ومنهم كثير من الضعفاء والنساء والأطفال". وقد كان هذا وصف عبد الرحمن الرافعي الذي استقاه مما كُتب عن تلك الفترة أو من الأشخاص الذين عاصروا تلك الفترة وبلغوا من العمر أرذله، ولكن يبقى الوصف الأبشع والأكثر وحشية وإثارة للعواطف هو وصف الشيخ محمد عبده الذي عايش هذه الأيام الكئيبة من عمر المدينة فقال:[66] "كان هناك نحو 150 ألفًا من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في الحركة بغير قصد أو هدف على شطوط المحمودية إلى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور إلى القاهرة، والموت والفزع ملء نفوسهم.... وكانت المهاجرة تكون خطوطًا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة متحركة في كل جهة أشبه بسلسلة إنسانية طويلة، هنا ينزلون وهناك يمشون ببطء، لا وقاية ولا عيش على طرفي

65- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 333.

66- السيد محمد رشيد رضا -تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده- جزء أول- ص 252.



صورة لحالة المواطنين في المدينة الذين يعانون من الجوع والعطش أثناء الضرب ومحاولة كل مواطن الهجرة بما يمكن أن يحمله.. صورة نشرتها The Graphic بتاريخ 5 أغسطس 1882.

تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة، وكان الهاربون كالأعاصير يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين في حالة عقلية أشبه بالجنون سائقين أمامهم أو حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم (حيوان – أثاث ضئيل – ثياب رثة حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها).

ثم يستطرد الإمام محمد عبده ليصف حاله هذا الشعب الذي طُرد من بيته فيقول:

"كان الحر شديدًا وغيم من الغبار تسد الأفق وكانت النساء يبحثن عن أولادهن، يتشاجرن بعضهن مع بعض، يتضاربن في أخلاط لا يمكن التعبير عنه، عربات بلا عجل استُعملت كمساكن وأخرى مقلوبة، عربات من كل نوع بعضها ساقط في المحمودية، بعضها بخيل وأخرى بدون.. وفي هذا الجو الحزين كان بعض المارة يصيحون "الخبز – الخبز".

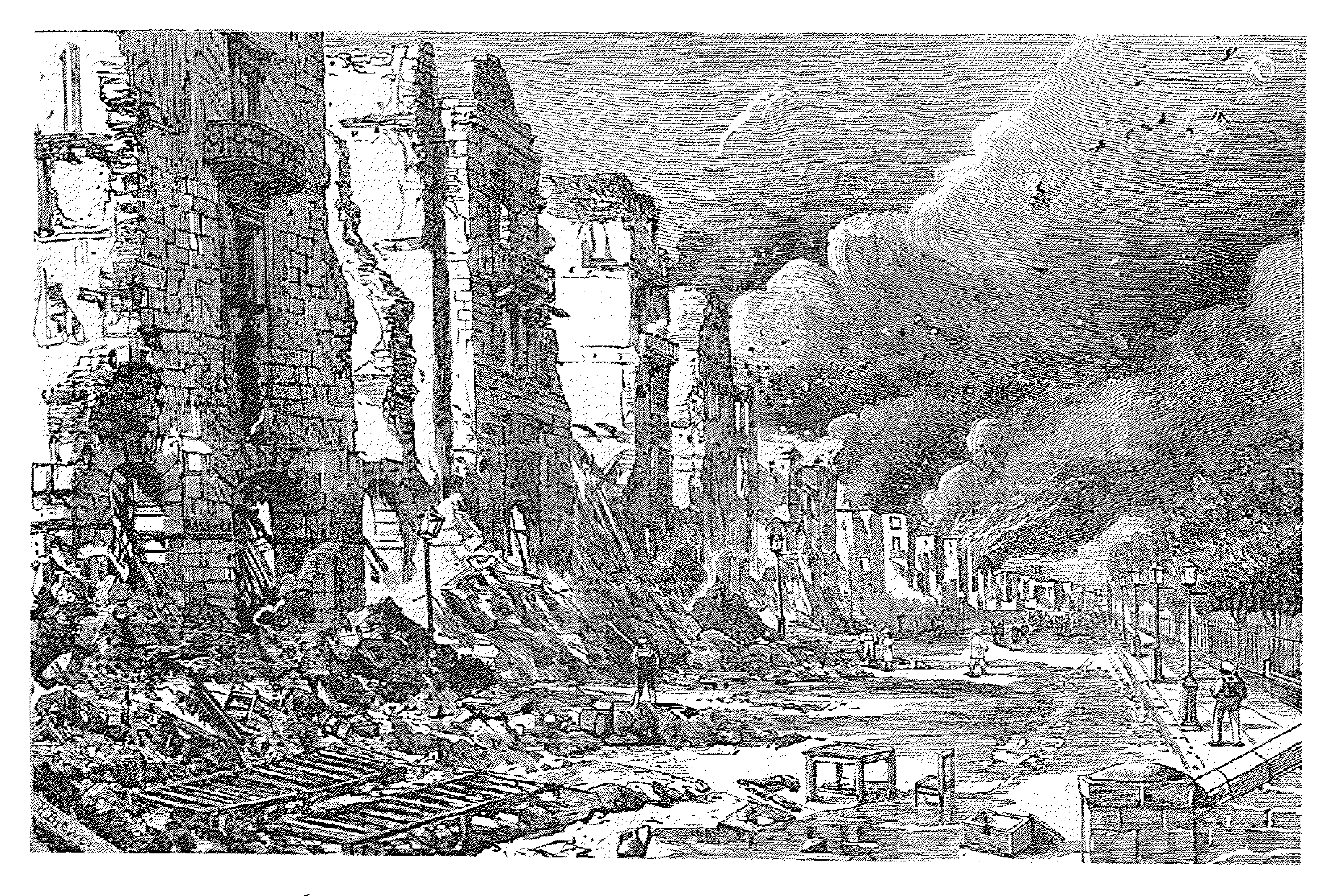
ولكن ما زاد من فزع السكان ورغبتهم في الفرار بأي شكل هو ما حدث بعد ظهر يوم 12 يوليو؛ حيث انتشر المنادون في الأحياء العربية والحارات والأسواق يطلبون من السكان الهجرة والرحيل من المدينة فورًا حيث سيتم حرقها بعد ساعة...

وتعالى الهمس الذي ما لبث أن تحول إلى صراخ "من سيحرق المدينة؟ ولماذا؟" ولا أحد يجيب فالمنادون أنفسهم وهم من العسكر لا يعرفون إلا ما قيل لهم؛ وبالتالي فليس لديهم أي معلومات بهذا الخصوص..!

وعندها أسقط في يد الأهالي.. فالكلام صريح والوقت يمر... هرع الجميع بلا تفكير واختلط الحابل بالنابل وديس الأطفال والشيوخ والنساء تحت الأقدام وتفرق شمل الأسر وتوافد الأهالي على محطة القطارات وامتلأت العربات بالفارين من المدينة، وفي غمرة هذه الأحداث المتصاعدة كانت هناك يد خفية قد امتدت إلى أبواب السجون ففتحتها وقامت بتسريح المساجين الذين اختلطوا بالشعب السكندري المسكين في لحظات هروبه كما انقض البدو الذين يقيمون خارج حدود المدينة عليها من كل جانب، فأصبحت مرتعًا للمجرمين والبدو واللصوص من الأجانب الذين رفضوا الرحيل عندما بدأت هذه الأحداث وعندها بدأت أضخم حملة لنهب المدينة وسرقة محتوياتها وتدمير منازلها ودكاكينها. ولم يعد في المدينة من يردع هؤلاء عن خطتهم الجهنمية وأفكارهم الشيطانية.. فقد خرج الجميع من بوليس وجند وجهادية وتركوا المدينة المسكينة تواجه مصيرها المحتوم...

اللهم إلا آلاي واحد من الجيش هو الآلاي السادس بقيادة القائمقام سليمان سامي بن داوود الذي كان مرابطًا في قشلاق باب شرقي وكان هذا القائد كثير الشرود وبدا لكل من رآه وكأنه كان يخطط لعمل خطير فماذا فعل؟

أمضى سليمان سامي صباح يوم الأربعاء وهو يترقب الأخبار الخاصة بالضرب ويتسمع الأنباء من كل مكان حتى أنه أرسل العديد من رجاله لتقصي الأخبار وسرعان ما عادوا إليه بنبأ الهزيمة الواضحة للجند المصريين المرابطين في الطوابي وخبر مقتل أكثر من 700 جندي هم عدد رجال الحامية الذين كانوا في المدينة وتهدم الطوابي والقلاع على رؤوس من فيها حتى رُفعت الأعلام البيضاء طلبًا للاستسلام والكف عن القتال.. فأي مهانة شعر بها هذا القائد؟



مشهد لحرق المدينة كما صورته الجريدة الإنجليزية The Graphic بتاريخ 5 أغسطس بعنوان "خرائب الميدان الكبير".

وفي هذه اللحظات الحارة من يوم الأربعاء وبالتحديد في الساعة الثانية ظهراً شعر سليمان سامي داوود وكأنه البطل المكلف بإنقاذ المدينة وردع الفرنجة الإنجليز عنها فأمر بضرب البروجي وصف الجنود وأمرهم بالتحرك حتى وصلوا إلى ميدان المنشية بقلب المدينة؛ وهناك بدأ الاستعداد لتنفيذ خطته التي لم يعرفها جنوده وضباطه إلا حينما توقف الضرب بين الجانبين وأيقن الجميع أن النصر لا محالة للإنجليز، ساعتها فقط قفز سليمان داوود من على كرسيه الذي كان يجلس عليه بجوار النافورة التي تتوسط الميدان المعروف بميدان القناصل، وصف الضباط والجنود وخطب فيهم قائلاً:

"إن العدو يريد استلام المدينة بالقوة ولكننا نحن عزمنا على إخلاء المدينة من الناس وعلى إحراقها حتى لا يستطيع العدو أن ينتفع بشيء منها". [67]

67- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين ...

وفي نفس الوقت الذي كان يتم فيه إشعال النيران في قلب الإسكندرية لتلتهم جزءًا جميلاً من مصر وتحرق قلب أبنائها عليها، كان هناك تطور ولكن على صعيد آخر.. فقد خاف العرابيون أن يبيعهم الخديو توفيق وينحاز إلى الإنجليز، فحاولوا بطرق غير مباشرة الإيعاز إلى بطانته وحاشيته بضرورة سفره إلى القاهرة ليكون في عاصمة المحروسة وفي مقر الحكم وبجوار النظار ومجلس النواب وكبار القوم ليدير القتال من عاصمة البلاد، ولكن يبدو لسبب أو لآخر أن الخديو المترقب رفض التوجه للقاهرة أو ماطل مما دفع العرابيين إلى إرسال قوة مكونة من 500 جندي وضربوا الحصار بالجنازير حول قصر الخديو بالرمل ليتفرق شمل الأمة المصرية؛ فبدلاً من توجيه القوة كلها إلى الإنجليز تفتت الجيش بين الإنجليز والخديو.. فلمصلحة من ما حدث؟ هذا السؤال هو ما يجب أن يجيب عنه الباحثون والمؤرخون.

ويقول أحمد شفيق باشا:[68] "وفي نفس اليوم (يقصد 12 يوليو) وبينما كنا نرتقب جواب الأميرال، وصلت عساكر من المشاة والسواري المصرية فاحتلت القشلاق المجاور لسراي مصطفى باشا، فجزعنا لهذه الحركة ولم ندرك الغرض منها، وكان المرحوم محمد بك منيب على رأس السواري وكان له أصدقاء في حاشية الخديو فهرعوا إليه وسألوه عن الخبر فأسر إليهم أن الأوامر التي أصدرها العرابيون إليه تقضي في الظاهر بالمحافظة على الخديو، وفي الباطن بضرب الحصار على السراي والقبض على الخديو وإرساله إلى القاهرة خوفًا من التجائه إلى الإنجليز، وإن ذلك سوف يتم عند وصول الطوبجية من مصر وإحضار المدافع التي كانت قد وصلت إلى محطة سيدي جابر.

وكان توفيق يتوقع ذلك من العرابيين ليسخروه في تنفيذ أغراضهم، وأن رفض يعزلوه أو يقضوا عليه، لهذا أراد أن يغرر بهم، فأمر بإعداد قطاره الخاص بحجة رجوعه لعاصمة بلاده فاستراح العرابيون لذلك؛ ولكن نظرًا لازدحام الطريق بين مصر والإسكندرية بقطارات المهاجرين تأخر وصول القطار ولكي لا يفلت من أيديهم قرروا إرسال القوة التي جاء ذكرها... فلما تحقق الخديو من نيات العرابيين أرسل في طلب منيب بك وأقنعه بوجوب البقاء على طاعته والانضمام إليه فامتثل.

68- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 166.

وأمر توفيق بإرسال أحد الياوران ليستقدم عرابي فحضر ومعه راغب باشا فسأله سموه عن سبب إرسال هذه العساكر فأجابه عرابي:

"لا علم لي بالأمر ولكن قد يكون الغرض تقوية الحرس الخديوي".

فأجاب سموه:

"لا لزوم لهذه التقوية وأنه يحسن أن يقتصر الأمر على الحرس السواري".

فخرج عرابي متظاهرًا بأنه سيصدر الأمر بانصراف الجند المشاة، ولما رأى الخديو أنهم لم ينصرفوا أمر محمد بك منيب أن يبذل جهده في إقناع زميله قومندان المشاة لينحاز إلى جانبه فكان له ما أراد."

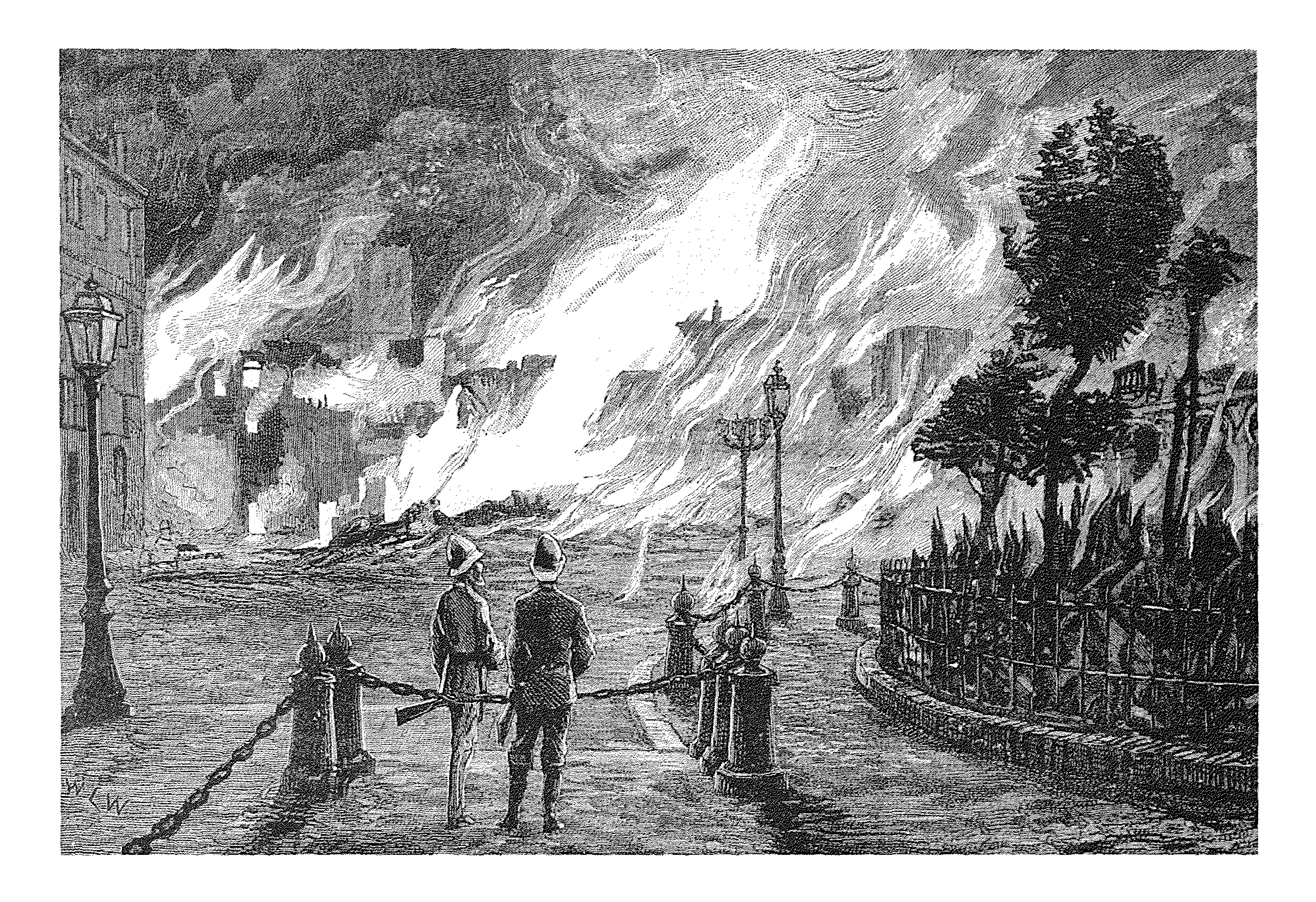
بينما يقول عبد الرحمن الرافعي في روايته[69] "إن الخديو أخذ يستعد للدفاع عن السراي بمن بقي معه من الحرس الموالين له والخدم والأتباع وقد أرسل بعض الباشوات لعرابي في قشلاق باب شرقي ليستفسروا منه عما يحدث، فتظاهر عرابي بأنه لا يعلم بأمر هذا الحصار ولم يأمر به، وأوفد طلبه باشا عصمت إلى السراي الخديوية لرفعه وقد قال للخديو إن رئيس الجند الذين جاءوا للسراي قد أخطأ فيما فعل".

فقال الخديو: "لماذا أحضرتم هؤلاء العساكر وحاصرتم السراي؟ هل أنتم خائفون أني أهرب؟"

فأجابه طلبه باشا: "لا يمكن أن يقال ذلك عن سيد البلد" و انحنى وقبل يد الخديو وطلب منه الصفح ولكن طلبة باشا قال في التحقيقات التي أُجريت معه بعد فشل الثورة والقبض على زعمائها أنه عند عودته من سراي الرمل قابل عرابي وسأله عمن أمر بوضع هذا الكوردون ولماذا؟ فأجابه أن سليمان بك سامي قائد الآلاي السادس هو الذي أجراه".

ويقول الرافعي إن عرابي أدرك خطورة هذه الحركة فأصدر أمره في مساء ذلك اليوم إلى الجند المحاصرين للسراي بالحضور إليه فانسحبوا وتخلف عنهم البكباشي محمد منيب ومعه 250 من

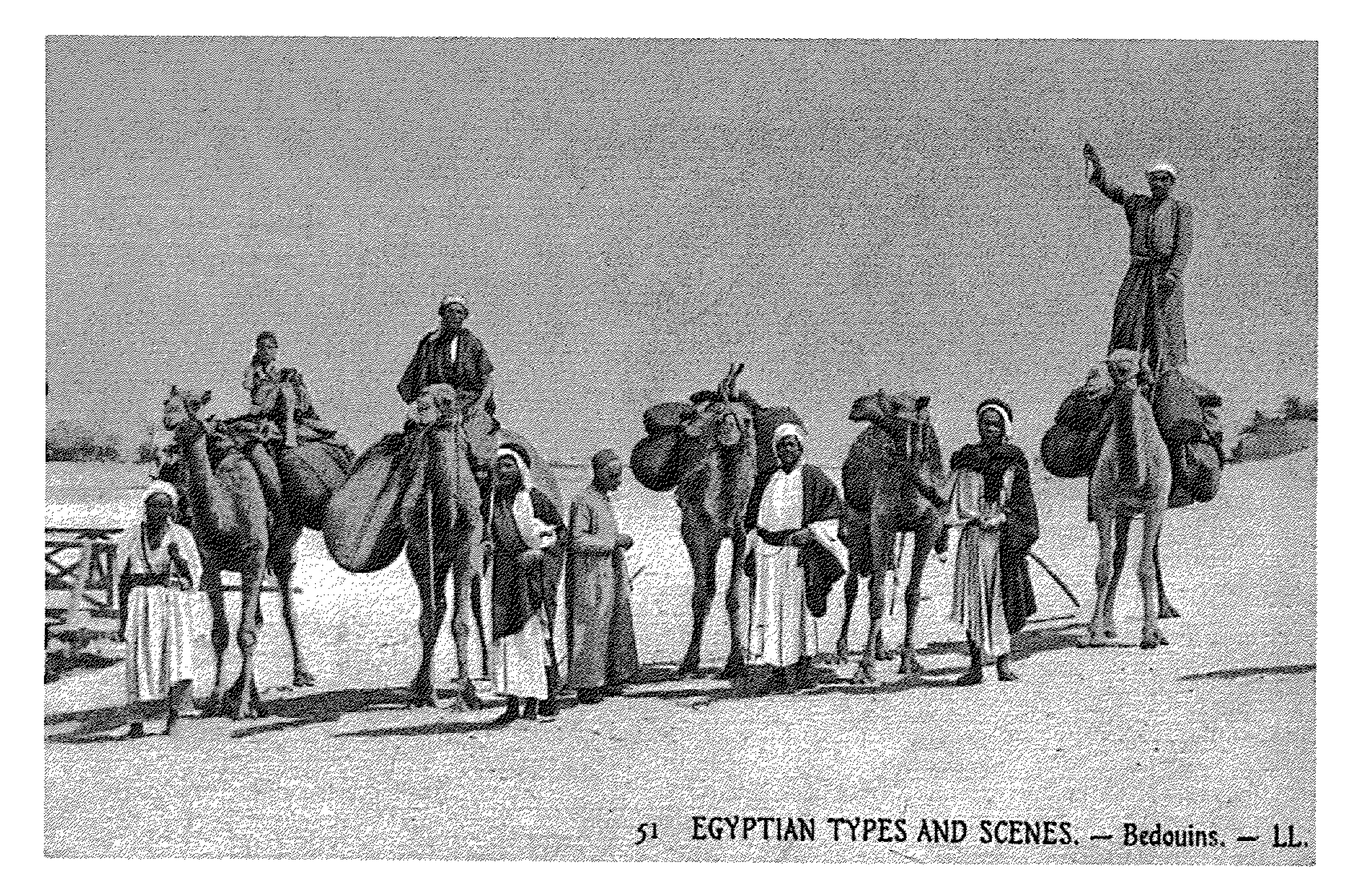
69- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 329 .



مشهد لحرق المدينة كما صورته الجريدة الإنجليزية The Graphic وفي الصورة مراسل الجريدة ورسامها يتابعان الحريق من أمام المحاكم المختلطة بتاريخ 5 أغسطس .

الجنود، فبقي ولم يخضع لأمر عرابي، وأقبل على الخديو هو ومن معه من الجند وأعلن ولاءه له وأقسم أنه يموت بين يديه وأن بدافع عنه حتى آخر نفس من حياته، وحذا الجند الذين معه حذوه.. فهدأ روع الخديو قليلاً.

ومما يقال أيضًا عما حدث في قصر الخديو في ذلك اليوم الغريب هو قدوم أكثر من 500 من البدو من قبائل أولاد علي وعرب البحيرة بحجة الدفاع عن الخديو وحمايته بأرواحهم إن لزم الأمر، وهو



صورة لبدو مصر في تلك المرحلة.

الأمر الذي لم يطمئن الخديو توفيق الذي أصبح يشك في كل ما يحدث من حوله... فلم يعد الفرق واضحًا بين العدو والصديق... ومع ذلك أمر الخديو فمُدت لهم الموائد في حديقة السراي فأكلوا وشربوا ثم انصرفوا بدون تفسير..!

ولكنهم سرعان ما انتشروا في المدينة وقد قيل عن فظائعهم الكثير والكثير من الحكايات من سرقة ونهب وحرق وغدر امتد إلى درجة قتل المواطنين الأبرياء الذين كانوا يحاولون الفرار من جحيم المدينة.

ورغم غرابة كل ما تقدم من أحداث إلا أن النهج الذي انتهجه عرابي وزير الحربية فيما بعد كان الأكثر غرابة على الإطلاق؛ فبدلاً من إعداد العدة لحماية المدينة بزيادة عدد الحامية وتوفير الجنود والأسلحة لمواجهة العدو قبل نزوله إلى أرض الإسكندرية خاصة أن الشواهد كانت تؤكد قلة عدد

الجنود الإنجليز على ظهر السفن في مواجهة عدد رجال الجهادية المتوفرين في هذا الوقت؛ مما كان يعطي فرصة جيدة للانتصار عليهم وطردهم قبل وصول أي مدد أو على أقل تقدير القيام بأي محاولة للدفاع عن المدينة حتى ولو كانت يائسة... ولكن بدلاً من ذلك أصدر عرابي تعليماته إلى الجيش بالانسحاب إلى كفر الدوار مما أعطى الفرصة لسليمان داوود بالقيام بفعلته الشنيعة التي لم يجزم أحد حتى الآن إن كانت من بنات أفكاره هو أم بتعليمات مسبقة من عرابي الذي نفى علاقته بهذا الموضوع في التحقيقات التي أُجريت معه فيما بعد؟

المهم في الموضوع هو ما قاله سليمان سامي في التحقيقات وهي التي اعترف فيها بقيامه بإشعال الحريق وذلك في محاولة لعرقلة نزول القوات الإنجليزية للإسكندرية ومنعها من التوغل في الأرض المصرية ومنح الجيش المصري الفرصة لترتيب الصفوف والاستعداد للمواجهة، ولكن ما لم يدركه سليمان سامي أنه بفعلته الشنعاء هذه لم يمنع نزول العدو سوى أيام وساعات قليلة إذ سرعان ما نزلوا وأطفأوا الحريق ودخلوا وأقاموا ولم يخرجوا... ولكن المؤكد أنه تسبب في الكثير من الخسائر التي أضيفت للفاتورة التي كان على الحكومة المصرية أن تدفعها للجميع من أجانب وتجار مصريين وغيرهم من المضارين.

ويقول ألبرت فارمان:[70]

"وفي الصباح التالي كان كل شيء هادئًا وكان الإنجليز قد دفنوا موتاهم في البحر وقد ألقيت قنبلتان أو ثلاث قنابل على الاستحكامات ولكنها لم ترد بشيء، وقد شاهدنا بعد ظهر ذلك اليوم دخانًا كثيفًا يتصاعد من الجزر الشمالية للمدينة واستمر يتزايد حتى أقبل الليل فشاهدنا ألسنة النيران تمتد تدريجيًا فوق الحي الأوروبي مهددة بإفناء هذا الجزء من المدينة وأخذت الرقعة المحترقة تتسع طيلة اليوم التالي والليلة التالية، وكان الأوروبيون يمتلكون معظم هذا الجزء من المدينة ولكن لم يكن هناك جنود لإنقاذ تلك الممتلكات من الدمار".

70- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص343.

وبعد غياب عدة ساعات أمضاها الخواجة "شونيفورث" السائح الألماني في الاختباء في حديقة منزله من أعين البصاصين والجند المصريين الذين أرادوا إلقاء القبض عليه، عاد من جديد صباح يوم الأربعاء لكتابة مذكراته والتي يسجلها لحظة بلحظة ويقول فيها:[71]

يوم الأربعاء 12 يوليو سنة 82

الساعة 8 صباحًا

رأيت جماعات من الأهالي وفي مقدمتهم نفر من الجهادية يطوفون الأزقة والشوارع ربما يفتشون عن الأجانب المختبئين (أصدر العرابيون تعليمات بالقبض على كل أجنبي يشتبه أنه يقوم بتوصيل معلومات للإنجليز عن الحالة داخل المدينة قد تساعدهم في الضرب).

الساعة 10 والدقيقة 20

وصل إلينا محافظ المدينة ذو الفقار باشا وأنقذنا أنا ورفيقي من الخطر ثم أتانا بالمسيو مارك مأمور البوليس وبعدها بعشرين دقيقة إطلاق المدافع وقد سمعنا نحو 10 طلقات من جهة الغرب.

الساعة 11

وصلنا مستشفى الراهبات الواقع على مقربة من باب محرم بك ووجدنا فيه نحو 70 شخصًا.

وقد قيل لنا إن أمس عند الظهر جاء المستشفى نحو مائتي رجل من الأهالي والجهادية والضبطية ودخلوا وكلفوا رئيسته أن تنزل العلم المرفوع فوق السطوح بحجة أن إبقاءه مرفوعًا فائدة للإنجليز في البحر وكان بالمستشفى بخلاف الراهبات جماعة من اللاجئين المسيو موريس قنشلير القنصلية الألمانية وامرأته وابنه والمسيو دي فيلبسكير المبشر الألماني وأباه والدكتور كولب وامرأته، وقد شهدت أثناء الحوادث من رئيسة المستشفى الراهبة بربارة ثباتًا وهدوءًا عجيبين تستحق عليهما أطيب الثناء.

71- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 69.

الساعة 2 بعد الظهر

لايزال الوطنيون يهربون من المدينة حتى كادت الإسكندرية تخلو من السكان. قطارات السكة الحديدية متتابعة من الإسكندرية إلى كفر الدوار واحدًا بعد الآخر وجميعها ملأى بالركاب أما القطارات العائدة من كفر الدوار فتخلو من كل روح ناطقة. شارع محرم بك غص بالناس الهاربين القاصدين ضواحي المدينة وأكثرهم يحملون ما يطيقون حمله من الأشياء المنهوبة من مخازن الإسكندرية، ومنهم من ينقل تلك الأشياء على عربات النقل ومنهم على حمير وغيرهم على خيل وكلهم مسرعون في المسير لينجوا بما نهبوا ولا تقف أقدامهم إلا عندما يحاولون أن يسرق بعضهم بعضًا، وكثيرًا ما أفضى ذلك بينهم إلى المضاربة والملاكمة، وقد استمر مرورهم بالشارع المذكور إلى أن أرخى الظلام جناحيه فكانوا كلما مرت جماعة منهم وفدت جماعة أخرى وهكذا حتى جن الليل. وقد كان عندنا في المستشفى خمسة رجال من الحرس أرسلتهم إدارة البوليس للمحافظة على المستشفى والاثنان الأخران كانا مع المسيو مارك حين جاء بنا إلى المستشفى فأبقاهما عندنا لحمايتنا وفي الظهر هرب الخمسة المذكورون رجاء أن يصيبوا نصيبًا من النهب والسلب.

الساعة 2 والدقيقة 20

اشتعلت النار حول المستشفى.

يوم الخميس 13 يوليو في الصباح

لم يتبق عندنا ماء فإن شركة المياه تعطلت أشغالها. شبت النار في منزل بالقرب من المستشفى فأحرقته. عدد الناهبين الهاربين من المدينة في ازدياد.

الساعة الواحدة بعد الظهر

عادت مياه الشركة إلى مجاريها.

الساعة 4 بعد الظهر

بدت حرائق جديدة حول المستشفى.

الساعة 4 والدقيقة 50

مر الآن الخديو وبطانته بالشارع أمام المستشفى وساروا من جهة باب محرم بك ليدخلوا المدينة وكان الخديو في عربة مكشوفة والى جانبه درويش باشا ووراء عربتهما عربة في مقدمتها ثلاثة من الخصيان وعربة نقل عليها بعض أمتعة. وكان موكب الخديو مؤلفًا هذه المرة من 60 أو 70 فارسًا يتقدمهم طائفة من الحرس بسيوف تعلو رؤوسها أعلام بيضاء إشارة إلى المسالمة. وقد اضطر الخديو في رجوعه إلى المدينة أن يمر بجماعات من الناهبين وبين المنازل الملتهبة بالنار.

الساعة 5 والدقيقة 20

رأيت بعض الأفندية يطوفون في الشوارع باحثين عن المنازل المختصة بإدارة الوقف المعرضة لخطر الاحتراق.

يوم الجمعة 14 يوليو

الساعة 5 والدقيقة 20 صباحًا

جماعات الناهبين من سفلة الأهالي يعودون إلى المدينة وبأيديهم النبابيت.

الساعة 6

عاد إلى المدينة الآن قوم آخرون ولكنهم مستصحبون هذه المرة عربات مثقلة بالأحمال وهم بهيئة تشبه هيئة القوافل وجميعهم بين نساء ورجال وأولاد مسلحون بنبابيت تعلو رؤوسها خرق بيضاء.

الساعة 7

احترق ثلاثة منازل غير المنازل الأولى بينما يحاول بعض الناس بالقرب منا فتح بعض المنازل عنوة.

الساعة 10 والدقيقة 20

شبت النار في المنزل الكائن تجاه المستشفى ونحن في خوف من أن ينالنا لسان النار.

الساعة 2 بعد الظهر

وصل عندنا الآن أميرآلاي من حرس الخديو أُرسل لتفقد أحوال المستشفى.

الساعة 2 والدقيقة 20

مر الآن أمام المستشفى نحو مائة من الجنود الإنجليزية متجهين نحو ترعة المحمودية.

عدد العربات العائدة إلى المدينة يتزايد في كل دقيقة.

الساعة 3 والدقيقة 45

وفد علينا نحو خمسة عشر رجلاً من الإنجليز ليتفقدوا المستشفى وعلمنا أنهم نزلوا من السفينة "طنجور" وأنهم يطوفون المدينة.

الساعة 5 والدقيقة 40

جاء نحو 300 رجل من الجنود الإنجليزية وأقاموا عند باب شارع محرم بك بإمرة القبودان "كامبل".

الساعة 6

قدم الآن إلى المستشفى 31 رجلاً من ملاحي سفينة المدفعية الألمانية (هاتبش) بإمرة الليوتنان "دي بريتونيز" وأقاموا فيه وعُهد إليه أمر وقايته.

يوم السبت 15 يوليو

نزلنا إلى المدينة فرأينا منازل كثيرة تحترق بالنار وفي الساعة 11 من الصباح شبت النار في المنزل الكائن فيه بنك همبورجر وشركاؤه.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر شاع في المدينة أن عرابي قادم بجيش جرار لمهاجمة الإسكندرية.

وفي الساعة التاسعة مساءً أرسل البارون "دي ساورما" قنصل ألمانيا خبرًا للراهبات أن يتأهبن لإخلاء المستشفى وأنه متى صدر لهن الأمر بالرحيل يجب أن يهرعن جميعًا في الحال إلى البحر وينزلن إلى السفينة المدفعية الألمانية (هاتبش).

في الساعة الأولى بعد نصف الليل أرسل الضابط "شنفلدر" رئيس حامية المستشفى الألمانية بعض رجاله إلى جهة محرم بك ليقف على التدابير التي عولت الجنود الإنجليزية على اتخاذها وإجرائها فتوجه وعلم أنها غير كافية لوقاية اللاجئين إلى المنازل الكائنة فيما خارج أبواب المدينة فإن رئيس قوم الإنجليز الحالين في مخفرة محرم بك صرح له أنه غير حاصل على مراكز متقدمة على مركزه فيما خارج المدينة لتنبئه قبل حين بقدوم المهاجمين وأنه إذا وقع مثل ذلك اضطر أن ينسحب مع رجاله إلى حصن كوم الدكة امتثالاً للأوامر الصادرة إليه فعاد الضابط الألماني وشرع في التأهب لإخلاء المستشفى ولم تمض ساعة حتى كنا جميعًا على أهبة السفر والفرار.

وفي الساعة المعينة للرحيل (أي في نحو الساعة الواحدة و30 دقيقة بعد نصف الليل) رأينا شهابًا ناريًّا صادرًا من جهة البحر فعلمنا أنها إشارة اتفق عليها الأميرال سيمور وقنصل ألمانيا للإيعاز بوجوب هرب الأجانب وإسراعهم في الفرار إلى البحر وكان قد قال للقنصل إنه ليس لديه من الجند قوة كافية

لصد هجمات عرابي وجماعته عن المدينة فإذا هاجمها أُكره الأميرال على استرجاع جنوده إلى السفن والتحرز فيها، وإذا وقع ذلك أو تُوقع حدوثه أطلق في الجو سهمًا ناريًا دلالة على ما تقدم فيكون إذ ذاك من الواجب على من بقي في المدينة أن يسارع في الحال إلى الفرار.

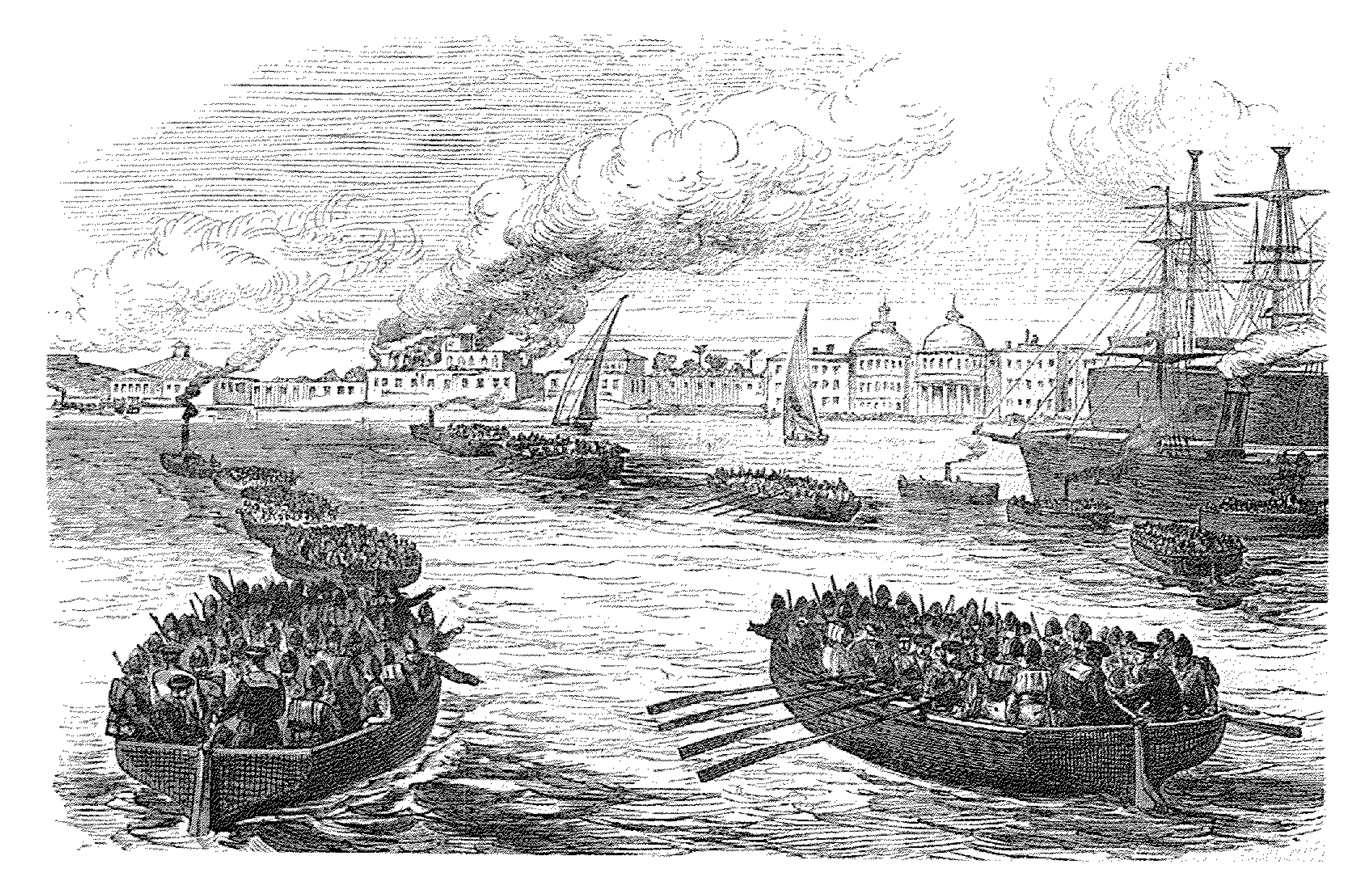
فلما رأينا السهم منطلقًا ساطعًا عمدنا إلى الهرب متجهين إلى البحر من جهة شارع محرم بك ولا يخفى أن بين المستشفى والشارع المذكور نحو ألف قدم فقبل أن نقطع هذه المسافة وقع حادث مهم تناقلت الجرائد الإنجليزية خبره ولكن على غير تثبيت فيه فقد زعمت أن قلعة كوم الدكة أطلقت علينا مدافعها خطأ وواقع الأمر أننا استصحبنا بنزولنا إلى البحر أربع عربات تقل الضعيف منا سائرة ومن حولها الملاحون الألمانيون فلما بلغت قافلتنا المضيق المؤدي إلى السكة الحديدية الممتدة فيما يلي شارع محرم بك وكان بعض العربان مختبئين هناك يحجبهم سواد الليل عن الأبصار (وربما كان في نيتهم الفتك بمن يرونه منفردًا من الحرس الإنجليز) فأحسوا بنا وبدا لهم في الدجنة بياض لباس الملاحين فأطلقوا علينا النار إطلاقًا متواليًا فكان من الحصن الآنف الذكر أن أطلق مدافعه في الفضاء إرهابًا..

ومرت قافلتنا بدون أن يصاب أحدنا بسوء وضر ثم بلغنا المدينة فقصدنا البحر ونزلنا إلى السفينة "هاتبش" فاطمأنت نفوسنا وصرنا في حرز الأمان وكان الوقت إذ ذاك بالغًا حد الساعة الخامسة من صباح سادس عشر شهر يوليو.

إلى هنا انتهى تقرير "شوينفورث" الذي لم يكن يعرف أنه يكتب تقريرًا سوف يحفظه التاريخ وأنه سوف يتحول إلى مرجع للمؤرخين، فقد كتب عن كل ما كان يدور حوله في تلك الأيام بدءًا بضرب المدينة والأماكن التي سقطت عليها القنابل مرورًا بعمليات السلب والنهب والعربان الذين انتشروا في الإسكندرية وعودة الخديو إلى قصر رأس التين ونزول الجنود الإنجليزية والألمانية إلى البر حتى أورد أهم نقطة في التقرير من وجهة نظري وهي ما قاله عن الاتفاق الذي يبدو أنه تم بين الأميرال سيمور والقنصل الألماني والذي يبين أن الأميرال الإنجليزي كان يحسب حساب قوة العرابيين وأنه أعد خطة للانسحاب في حالة عودة الجيش المصري إلى المدينة وأنه كان في حالة خوف هو أيضًا رغم كل

القنابل والمدافع التي كان يحتمي بها خاصة وهو يعلم أن عدد جنوده الـ 5700 لا يمكنهم الوقوف أمام حامية المدينة، إلا أن عرابي لم يفعل ما توقع العالم كلهُ أن يفعله.. فلم يبق في المدينة ولم يدافع واكتفى بما فعله جنود الطوابي البواسل الذين راحوا ضحية هذا الأيام الحزينة وانسحب هو والحامية وترك المدينة لقمة سائغة للعدو.. وسواء أكانت مسألة حرق الإسكندرية قد تمت بإيعاز منه أو من بنات أفكار صديقه سليمان سامي ذلك الضابط المتهور الذي كان يُطلق عليه "عرابي الإسكندرية" بسبب سطوته وجبروته إلا أنه وفي النهاية وفي نظر الكثيرين "ترك المدينة تحترق ولم يلق حتى نظرة للوراء.."

فأي حرب كانت هذه..!



مشهد لإنزال أول فوج من الجنود الإنجليز إلى شواطئ الإسكندرية وبالتحديد أمام سراي رأس التين التي تتصاعد منها ألسنة النيران وفي الصورة تبدو ألسنة الدخان تتصاعد من أبنية المدينة المحترقة صورة نشرتها الجريدة الإنجليزية The Illustrated London news بتاريخ 29 يوليو 1882.

كلاكيت... مشهد حرق الإسكندرية بالتفصيل

والآن نعود إلى المشهد الأخطر في تاريخ المدينة لهذا العام وبالتحديد في ظهر يوم 12 يوليو 1882 حيث قام سليمان سامي داوود من على كرسيه أو المصطبة الرخامية التي كان يجلس عليها بجوار النافورة في قلب ميدان القناصل أو المنشية ذلك الميدان الذي تحول إلى صحراء جرداء خالية من البشر اللهم إلا من الضباط والجنود والخفر المنتشرين في المكان ووضع السيف الذي كان يعبث به جانبًا، وكان قد حصل عليه من علي بك رشدي وأمر بدق الطبول وفي ثوان اصطف الجنود والضباط، فقال لهم بحزم وبصوت عال:

"إن المدينة ستُترك للإنجليز والنظام العسكري يقضي بألا نتركها لهم وفيها شيء يستطيعون استخدامه أو الانتفاع به فالواجب إذن أن ننهب هذه المدينة قبل أن نحرقها".

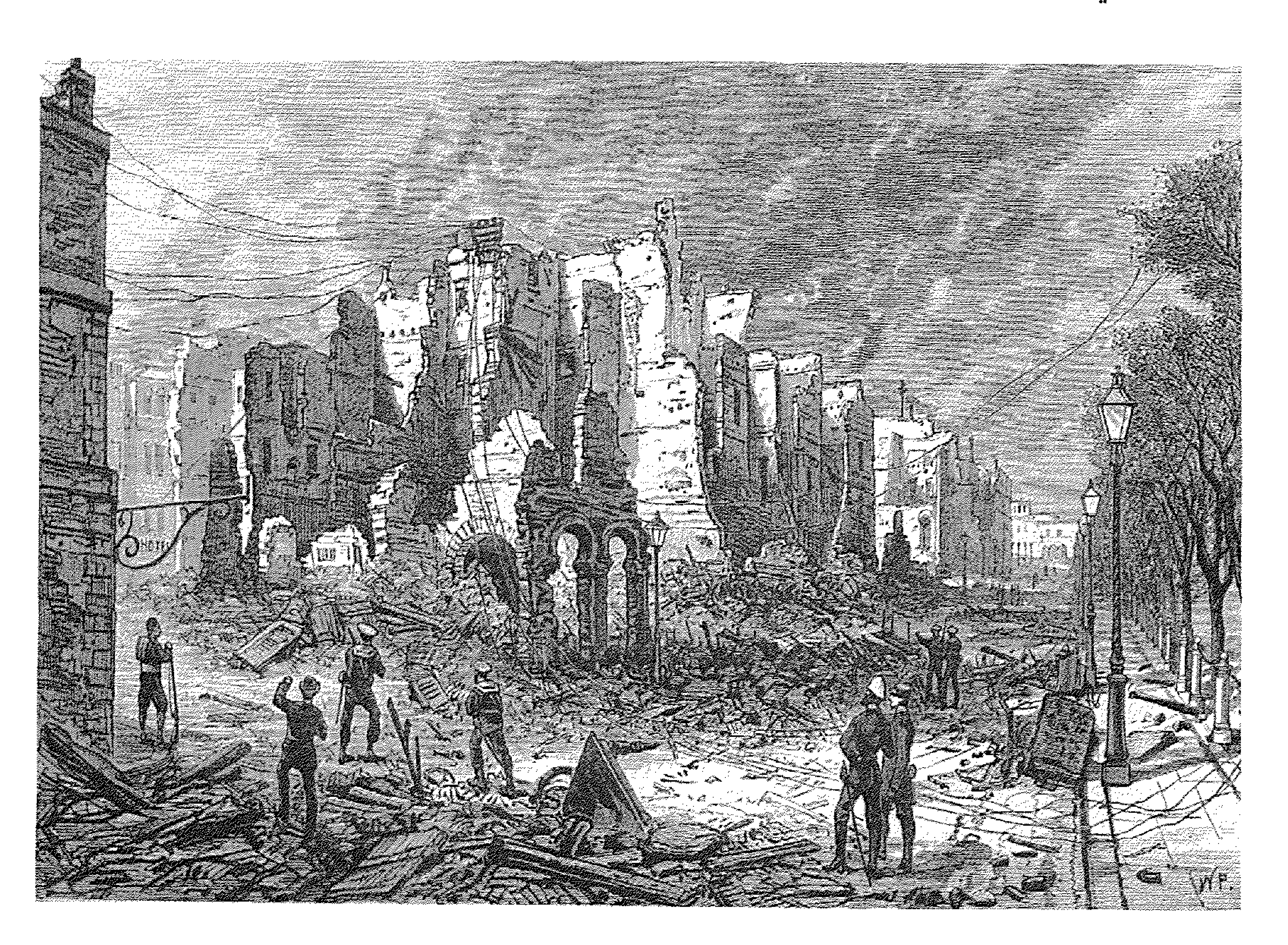
وهنا تعالت الهمهمات والاعتراضات البسيطة كما ذكر بعض الضباط في الشهادات التي أدلوا بها أمام لجان التحقيق فيما بعد أمثال الضابط فرج يوسف الذي أدلى بشهادته في إطار التحقيقات التي أُجريت مع سليمان داوود يوم الثلاثاء 20 فبراير 83 والتي قال فيها إن سليمان داوود جمع البكبشية وهو منهم ونبه عليهم بحرق البلد فأبينا ولم نمتثل لأوامره بحجة عدم وجود أوامر مكتوبة بهذا الخصوص من عرابي ناظر الجهادية.[72]

ولكن سليمان سامي لم يهتم بما قاله هؤلاء الضباط بل صرفهم من أمامه وجمع بقية الضباط وأعطاهم الأوامر نفسها ثم أرسل المنادين في المدينة يدعون الأهالي للخروج منها ثم أخذ يهتم بإعداد المواد اللازمة للحريق والتي يقال إنها كانت عبارة عن صفائح مملوءة بزيت البترول وصلت إلى المكان مما يؤكد أنها كانت مُعدة مسبقًا لهذا الغرض، ومما يقال أيضًا أنه تم الحصول على بعضها بكسر الدكاكين التي كانت تبيعها وكان سليمان سامي يستشيط غضبًا إذا أشار عليه أحد بالعدول عن حرق المدينة،

72- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين-الجزء التاسع ص 827.

ثم تقول التحقيقات إن أول دكان كسروه ونهبوه هو دكان بقال بالقرب من قرة قول المنشية حيث قام سليمان سامي بنفسه وسار قاصدًا هذا الدكان ثم أمسك بطرف بندقيته وكسر الباب بمساعدة بعض الضباط الآخرين الذين استجابوا لتعليماته، ثم أمر الجند بإخراج صفايح زيت البترول ليستعينوا بها الحريق ثم تركهم بعدها وانصرف لتقوم العساكر بكسر الدكاكين وتنهبها على مرأى الموجودين وكانوا يستعينون على كسر الأبواب بالبلط والبنادق.

وكانت هذه الحركة بمثابة الشرارة الأولى لانطلاق الرعاع والسفلة بالإضافة للعساكر للقيام بنهب البيوت وإضرام النار فيها فانتشروا في الشوارع والأسواق والأزقة والطرقات مدمرين ومخربين، أما الطريقة التي استخدموها في إحراق الأبنية والمنازل فكانت إيقاد أخشاب مغموسة في زيت البترول



مشهد لحرق المدينة.. صورة نشرتها الجريدة الإنجليزية The Illustrated London news بتاريخ 5 أغسطس 1882.

وإلقائها إلى داخل المباني والمخازن والوكالات وكانت البداية في دكان البقال ثم تبعها مخازن المسيو بوتشيا تاجر الموبيليات ومن ثم نشطت هذه الحركة التدميرية فامتدت إلى المخازن والبيوت تنهبها وتُضرم النار في جوانبها ثم انتقلوا من المنشية إلى شارع شريف وشارع البوسطة الإيطالية. ومما قيل أيضًا في أحداث هذا اليوم أنه بينما كانت عمليات النهب والحرق مستمرة كان سليمان سامي يتمشى في الميدان ويحمس العسكر بضرورة النهب والحرق حتى لا يبقى للإنجليز سكة يمرون منها أو – طوبة على طوبة – كما يقال بالبلدي ولم يخرج سليمان سامي من المنشية إلا وكان قتام الدخان قد ارتفع ولسان اللهيب قد اندلع يبتلع ما يقابله من منازل الأغنياء والفقراء.

وقد شهد علي بك رشدي رئيس حجاب المجالس (المحاكم) المختلطة أنه شهد حضور سليمان سامي داوود ومعه أكثر من 1500 نفر من شارع شريف ثم أوقف العساكر من أمام دكان "كرافوبلو" وحتى قونسلاتو فرنسا ثم أرسل في طلبه وعندما حضر سأله: "هل عندكم نقود في المجلس؟" فأجابه بالنفي فقال: "لما يرجع طلبة عصمت من عند سيمور رايحين نحرق البلد وانت تحرق المجلس" فأخبره أن بالمجلس خلاصات إذا حُرقت يحصل ضرر بالحكومة فقال: "والله لازم نحرقها"

وأكمل علي بك رشدي شهادته قائلاً: "فقلت له حاضر.. ما أنا إلا واحد منكم"[73]

وبعد هذا الحديث بما يقرب من عشرين دقيقة ظهر سليمان سامي مرة أخرى وبعدها بدأت العساكر بكسر الدكاكين ودخولها ونهبها وبدأوا بملك البرنس إبراهيم باشا ثم توزعت العساكر على جهات مختلفة وصاروا يخرجون الأشياء من الدكاكين والبيوت ويلقون فيها الحريق وكانوا يقتلون البرابرة الذين يحرسون هذه المحلات، فما كان مني إلا أن أغلقت باب المجلس أنا وثلاثة جاويشية كانوا معي وانسحبت إلى جهة فندق "أبات" وقد فعلت هذا لعدم الإلحاح عليّ بحرق المجلس وليتوهم العصاة أنني بالداخل. أما عن الطريقة التي كان الحرق يتم بواسطتها فقال: "نظرت أنهم كانوا يستعملون قطع أخشاب على هيئة يد الهون بداخلها أشياء محرقة".

73- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين-الجزء التاسع- ص 779.



مشهد لحرق المدينة.. صورة نشرتها الجريدة الإنجليزية The Graphic بتاريخ 29 يوليو 1882.

كما شهد "مانولي باروق" المخبر بضبطية الإسكندرية أنه رأى سليمان سامي جالسًا على كرسي في وسط المنشية وسمعه ينادى العساكر قائلاً "اجتهدوا يا أولاد" وهم ينهبون ويأتون بالمنهوبات ويضعونها في عربيات فارغة كانت هناك.[74]

والغريب أن سليمان سامي نفسه لم ينكر في التحقيقات كلامه بشأن حرق المدينة ولكنه قال إنه كان في هذا اليوم بباب شرقي فطلبه عرابي ونبه عليه شفاهة بحرق البلد قبل تركها بحسب القانون، وإنه أبلغ ضباطه بأن ناظر الجهادية يأمر بحرق المدينة قبل تركها... وقد أنكر عرابي هذا الكلام قائلاً

74- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين-الجزء التاسع- ص 779.



مشهد لجندي يقف أمام المحكمة التي نجت من الحريق وهو يراقب احتراق المدينة كما صورتها الجريدة الإنجليزية The Graphic بتاريخ 5 أغسطس 1882.

إن هذه الفكرة كانت من بنات أفكار سليمان سامي داوود وحده وإنه لا دخل له بما حدث بل إنه أرسل إليه من يثنيه عن فعلته ولكنه لم يستمع لا للأوامر ولا حتى للنصح.

وقد شهد إبراهيم فوزي أن عرابي أرسله مع نسيم بك إلى سليمان سامي لأجل منعه من حرق البلد فأجابه سليمان سامي بحدة كشفت عن نواياه: "سوف أحرقها حتى لا يبقى فيها طوبة على طوبة ولا حتى خاروفان يتناطحان" ثم رفع صوته للعساكر قائلاً "احرق يا ولد".

وقد أفردت جريدة "The Graphic" [75] الإنجليزية أكثر من صفحة للتعليق على الأحداث التي كانت تجري في بر مصر، وبالتحديد في الإسكندرية بعنوان "ضرب الإسكندرية" فقالت في تعليق

75- The Graphic-5 august-1882

خطير لها على الموقف : "إن الانطباع العام لعملية ضرب الإسكندرية أن الأسلحة والمدافع المصرية لم يتم استخدامها بمهارة وأنها لو كانت بين أيدٍ خبيرة لأمكنها أن تحقق خسائر كبيرة للأسطول الإنجليزي خاصة وأن تقرير الأميرال سيمور الذي تم إعلانه هذه الأيام قال فيه إن المدافع الموجودة بالطوابي المصرية من نفس نوع المدافع الموجودة بسفن الأسطول الإنجليزي ولذا لا يمكن تصور مدى الخسارة الضئيلة التي حدثت للسفن الإنجليزية مقارنة بالعدد الضخم للقنابل التي أُطلقت عليها كما أضاف المقال أن هناك قلعتين سكندريتين كانتا السبب في عملية ضرب المدينة وهما قلعة "مرابوط" وقلعة "عجاني" وهما من أقوى القلاع المصرية وكانتا المسئولتين عن حراسة مدخل ميناء الإسكندرية وكان تسليح هاتين الطابيتين هو السبب المباشر لما حدث".

ثم انتقلت الجريدة في فقرة أخرى للحديث عن الحرائق وحركة السلب والنهب التي تلت ضرب الإسكندرية فقالت إنها أحدثت ضررًا كبيرًا في الحياة الاجتماعية للمدينة مما أدى ليس فقط إلى تعليق الأعمال ولكن تدميرها تمامًا. وقد شح الطعام والشراب وعانى الشعب وخاصة الفقراء من المسلمين واليهود من الجوع، ثم نقلت الجريدة وصف مراسل جريدة "التيمس" لحالة ميدان القناصل والتي تفوق الوصف على حد تعبيره:

"شعلة من الدخان ترتفع في وسط الميدان ويبدو من خلالها تمثال محمد علي باشا لم يصبه سوء وخلفه أستطيع أن أرى قصر العدالة (المحكمة) ولا شيء آخر.. ولكن النيران تمتد على جانبي الميدان مشكلة لسانًا طويلاً من اللهب، وبين الحين والآخر ترتفع أصوات انفجار ضخمة تشبه أصوات القنابل التي كانت تنطلق من الأسطول الإنجليزي منذ عدة أيام...

وقد زار الميدان عصر يوم الجمعة مراسلنا الرسام السيد "فيلبيه" برفقة السيد "كاميرون" المراسل الصحفي لجريدة "الأستاندارد" ووصفه قائلاً: "فوضى عارمة من النيران تجتاح المكان بالإضافة إلى أصوات مرعبة لمبانٍ تتهدم وحوائط وأسقف تتساقط ومبانٍ مهدمة حديثًا.... إنها باختصار مأساة إنسانية...

أما جريدة "الأهرام" المصرية والتي كانت تصدر من الإسكندرية فقد نشرت في صفحتها الأولى بتاريخ الاثنين 7 أغسطس 1882 مقالة رأيت أن أنشر منها بعض المقاطع وكانت بعنوان "حرب الإسكندرية" وكانت تتحدث في بدايتها عن إصرار عرابي على تسليح الطوابي رغم رفض الخديو فقالت: "أما عرابي الغشوم فقد أتم كل تلك الإجراءات دون إذن سيده الحضرة الخديوية، ورغمًا عن بلاغ الأميرال النهائي لم يفق من سكرته بل أصر على عناده وهكذا أُطلقت المدافع الإنجليزية، فلم يمض بعض النهار حتى خُربت جميع الاستحكامات وعُطلت غالبية المدافع وأماتت من الطوبجية المصرية فوق الألفين. ولا نسأل عن انذعار الأهلين الذين أرادوا السفر نهار الاثنين والثلاثاء فمنعهم العساكر بأمر زعيم العصاة الذي نفسه أرسل صباح الأربعاء مئات ينادون:

اهربوا.. اهربوا وكل ما ترونه أمامكم فهو حلال لكم.. اهربوا.. اهربوا فإنني أمرت بحريق البلدة.

لا يمكن لقلم أن يُعبر عن ذلك اليوم المهول الذي لم يُسمع بمثله.. يوم يشيب الأطفال ويفتت الصخور.. يوم برزت به المخدرات باكيات حافيات.. الأم تبكي ابنها والابن أباه والعاصي أخرس أصم وأعمى.

نرى أجلاف القوم والجهادية يقتلون وينهبون ويحرقون ولم يبقوا على المسلمين لكم من سيدة سلبوا حلاها وزاد توحشهم فارتكبوا الفظائع وشنعوا إلى حد لم نسمع به في الأجيال المتوحشة".

الأهرام يوم 7 أغسطس 1882.

ثم عادت جريدة "الأهرام" المصرية للكتابة في هذا الموضوع ثانية يوم الخميس 24 أغسطس 1882 فنشرت مقالة في صفحتها الثانية بدون إمضاء تقول:

"الإسكندرية يوم 17 يوليو (تموز) بقلم معاين (بحروفها)

نزلت إلى الإسكندرية في هذا اليوم مع من نزل من العمارة الإنجليزية لدفن القتلى بأمر الأميرال فدخلنا المدينة من الجمرك. من يعرف هذا المحل واحتباكه بالناس والأشغال وهجة وموجة قبل بضع أيام يفهم مقدار انذهالنا لم نر به نفسًا حية بل القوارب سابحة بدون نوتية والساحة والمخازن والحواصل والشوارع خالية من كل بشر، ثم تقدمنا في شارع المينا فابتدأنا أن نرى آثار الخراب إذ بعض البيوت قد احترقت وتهدمت في هذا الشارع أيضًا، ومررنا في شارع الضبطية حتى سوق الصيارف فرأينا كل دكان أو مخزن على طريقنا مفتوحًا ومنهوبًا وليس به سوى بقايا لبعض الأدوات مهشمة ومكسرة إربًا إربًا، والبيوت مفتحة أبوابها ولا من واقف بها ولا من متحرك في جميع هذه الأزقة الطويلة ما خلا بعض البحرية الإنجليز مارين صامتين وبواريدهم على أكتافهم وعبوس الموت المستحوذ على البلد جميعه قد انعكس على وجوههم فكأنهم أشخاص منحوتة وبعض الرمم ممتدة هنا وهناك ولا من نائح عليها ولا نادب وعدة من الكلاب والهررة هزيلة كالخيالات لما ألم بها من جوع. فتوهمت نفسي في أزقة بومباي الخربة الأصمعية التي أهلك الله أهلها دفعة واحدة بصعقة عظيمة.

ولكن أين هذه الدهشة والانذهال مما أصبنا به لما وقفنا في وسط البقعة التي كانت بهجة الإسكندرية يومًا ما وهي المنشية ورأينا جميع ما يحيط بها من الأبنية الفاخرة قد أضحى خرابًا ينعق به الغراب وأغلب القصور الشاهقة في سكة شريف باشا وسكة الرملة والمنشية الجديدة والشوارع التي تمتد منها إلى جهات مختلفة قد تحولت إلى تلول من الردم والتراب ولم يبق منها منتصبًا إلا بعض أعمدة وجوانب حيطان تتهدد من يمر بها بدفنه حيًّا، فقلت لصحبي: أفي يقظة نحن.. أم في منام؟

ما هذه الظلل البالية والخرابات القفرة؟ وما هذه الروائح النتنة والجيف المنتنة؟ ألم نكن الآن في مرفأ الإسكندرية؟ فكيف أرانا قد نزلنا على آثار بابل أو تدمر أو بعلبك؟ هل.... (البقية تأتي)".

ثم استكمل كاتب المقال مقالته في اليوم التالي في منتصف الصفحة الأولى من أهرام الجمعة 25 أغسطس فقال في بعض مقاطع منها:

"حولت أيدي الطغاة الباغين أعداء الإنسانية والوطن عروس الشرق أو زهرته الإسكندرية لما نراه من الآثار المحزنة.. ويحك أيتها العناصر كيف تخدمين رسل الخراب وفعلة الشر كما ترضخين إلى خدمة الإنسانية وعملة الخير.

أيقتل الأولاد الصغار والرجال الأبرار غير شاكي السلاح والذين لم يشهروا عليكم حرباً بل استأمنوا جواركم وسكنوا في حماكم؟ أم بتفضيح الأحرار تمتاز الأبطال؟ الذين يدّعون تحرير البلاد وترقية أحوال العباد.. خسئتم إنكم لأنذال غير أبطال...وأوغاد غير أمجاد.."

ثم يستمر الكاتب في توبيخ عرابي ورجاله ويصفهم بأبشع الأوصاف ويلقى عليهم تبعة ما حدث للبلاد والعباد ثم يعود في الفقرة الأخيرة فيقول: "بينما كنت غارقًا في بحر هذه الهواجس والأفكار وإذا بأحد رفاقي قد صحى من دهشته وقال لنا: - هيا لإتمام ما أرسلنا إليه.. فنواري هؤلاء المنكودي الحظ التراب.

زمن يستلزم تأييد الوفاق وعرابي عامل على شق عصا الاتحادوقد نبه اوربا الى امور كان عدم ظهورها اولى لنا لاسراع الاسراع فان الوقت لمن وصرنا نؤمل ان نرى قرب الاتفاق لما نهدمن سهر الحضرة السلطانية ورجالها العظام على مصلحة الامة والوطن وانا بلسان العثمانيين عموماً والمصريين خصوصاً نطلب الانتقام من عرابي الذي ولد للشرق مسالة جديدة وسبب احتلالاً اجنبيا فضلاً عما رزئت به البلاد من الفتن وابليت به الاهلين من المحن

**

اعلان

من قومبانية فرسينه

ان الوابور المسمى نجونون حضر من مرسيليا نهار البارح الاربعاء ويقوم اليوم ٢٤ من الجاري الساعة ٦ قبل الزوال الى يافا ومالطه ونابولي ومرسيليا ومحل القومبانية المذكورة كائن بشارع الرمل ضمن محل البنك الانترناشيونال

**

حوادث محلية

اجتمع بعد ظهر البارح سمو الخديو مع صاحبي الدولة شريف باشا ورياض باشا وتداولوا في بعض المسائل المهمة اما تشكيل الوزارة فيتم اليوم او غدا"

نرى حركة البلدة تروج يوماً عن يوم ولا نشك بانه بعد ورود ماء المحمودية يهجم المهاجرون راجعين فتزداد الحركة رواجا ويحصل بعض الاشغال

ان عدداً من العائلات القاطنين قربنا لا يرجعون هذا الشتاء بسبب احتراق بيوتهم والبعض الاخر ياخذ الرمل والمحمودية سكنى له

نزل دولتلو رياض باشا في اوتيل ابات حيث يقبل وفود المهنئين

يصرف دولتلو شريف باشا النهار براس التين ناظراً في جميع المسائل بحل مشكلاتها وتسهيل مصاعبها

سينشر نظر قضايا المالية اعلاناً يبين فيه لرعايا الحكومة المحلية كيفية تقديم طلباتهم بخصوص ما لحقهم من الاضرار ان بالحريق او بالنهب

خرج سمو الخديوي عصر البارح المحمودية وقد نظر الى نقط العصاة وحركاتهم وعاد عند المغرب بالعز والاقبال والعالم صفوفاً يهتفون بطالعه الحوفيق

يؤكدون ان قسماً عظيماً من معسكر كفر الدوار رجع الى الوراء قاصداً التل الكبير ولا يبعد ان يحتله الجيش الانكليزي قبل وصوله

قبض الانكليز على ثلاثة جواسيس للعصاة فاودعوهم السجن وقد وجد معهم بعض مراسلات

سافر بالرخصة قنصل جنرال الروسية وسينوب عنه مدة غيابه مأمور عسكري

ان اللائحة التي طلبها اللورد دوفرين بامر حكومته تتضمن الشروط الاتية فيما يخص التداخل العسكري العثماني في مصر اولاً لا تمكث العساكر العثمانية في مصر اكثر من ثلاثة اشهر . ثانياً يقتضي اجلاء العساكر التركية عن مصر قبل المدة المعينة اذا رأت انكلترة وجوب ذلك ولو ان عساكرها استمرت في البلاد . ثالثاً ان عدد التجريدة العثمانية لا يتجاوز مطلقاً نصف عدد العساكر الانكليزية . رابعاً يكون الجيش العثماني تحت قيادة القائد الانكليزي العام

خامساً ان جميع الاوامر التي تصدر من الحضرة الخديوية او من القواد العثمانيين لا يمكن نشرها مدة الاحتلال الا بعد التصريح من القائد الانكليزي العام

سادساً . يلزم صدور الاعلان عن عصيان عرابي قبل نزول العساكر العثمانية الى البر

اما الدولة العلية فرفضت الشرط الرابع واضافت شرطاً اخر . ذلك ان يكون لجلاء العساكر العثمانية والانكليزية بآن واحد

وقد خاضت الجرائد في حركة عرابي وبينت ما نتج عنها من الاضرار التي تلحق الباب العالي اكثر من سواه سوية ومتصلة ذلك وجهها توبة

اصدر الامبراطور الروسي ارادة في مشترى عدد من الخيول ولكن حركات وزارة الروسية الحربية نبهت الافكار

افادت اخبار العاصمة ان حكومتها الموقتة ستنسحب الى اسيوط متى تقربت الانكليز منها . اما نحن فنقول ان في اسيوط مديراً شجاعاً واعياناً عقلاء يقبضون على المفسدين ويذيقونهم مر العذاب

كل رجل ياتي لقربنا يدور باسور لا نسمح له بالدخول بل يجبر على الرجوع

افادت اخبار زامبوانكا (وهي من جزائر فيلبين في بحر الصين عدد سكانها نحو ٨ ملايين والقسم العظيم منها يخص اسبانيا) بان الهواء الاصفر ظهر فقرر مجلس الكرنتينات وجوب الحجر على واردات تلك البلاد وعلى السفن التي مرت بها

ان السفينة الحربية النمسوية نوبليوس بمرورها على ابي قير رأت الراية البيضاء فظنت ان الانكليز احتلوا تلك الطوابي فنزل الى البر ضابط وملازم والطبيب وثمانية بحرية فبوصولهم قبض العصاة عليهم ولا عجب اذا قرأنا في الطائف بانهم اسروا عشرة من كبار ضباط الجيش الانكليزي وعند ذلك يرسلونهم الى العاصمة ويهللون بصيحتهم مفتخرين امام الاغبياء من القوم الذين خدعوهم بترهاتهم وكذبهم ونفاقهم . ولو كانوا يعلمون اصول الحرب لاطلقوا سبيلهم بالحال لانهم تابعون لدولة لا تحاربهم

شاع البارح ان بيتا او بيتين في شارع الاسماعيلية بمصر نهبا واحرقا اما نحن فلا نصدق ذلك لما نعرف من تمدن عقلاء القوم الذين بلغهم ما حل بالاسكندرية من الويل فضلاً عن تهييج الخواطر ضد القاطنين سواء في اوربا ام في مصر لحذار حذارينها . الانه من وقوع مثل هذا المصاب فان الخسارة عائدة على البلاد

كيف تصنعون عن اعمال هذه الشرذمة الرديئة وانتم صاغرون لا ننكر انكم تزعمون القوة ولكن عزيز النفس لا يرتضي بالمذلة

كاس الحياة بذلة كجهنم

وجهنم بالعز اطيب منزل

قال الحكيم عز نفسك تجدها تالبوا عشرات ثبات وافرط بعزمكم ويحزمكم نير ظلم البغاة وخلصوا وطنكم العزيز

***

الاسكندرية يوم ١٧ لوليو (تموز) بقلم معاين (بيروتيا)

نزلت الى الاسكندرية في هذا اليوم مع من نزل من العمارة الانكليزية لدفن القتلى بامر الاميرال فدخلنا المدينة من الكرك . من يعرف هذا المحل واحتكاكه بالناس والاشغال وجه وموجه قبل بضع ايام يعلم مقدار اندهاشنا لما لم نر بو شاحبة بل القوارب سابحة بدون ترتيب والساحة والمخازن والحواصل والشوارع خالية من كل بشر ثم تقدمنا في شارع الميناء فابتداءنا ان نرى آثار الخراب اذ بعض البيوت قد احترقت وتهدمت في هذا الشارع ايضاً ومررنا في شارع القصبلية حتى سوق الصيارف فرأينا كل دكان او مخزن على طريقنا مفتوحاً ومنهوباً وليس به سوى بقايا بعض الادوات مهشمة ومكسرة اربا اربا والبيوت مفتحة ابوابها ولا من واقف بها ولا من متحرك في جميع هذه الازقة الطويلة ما خلا بعض البحرية الانكليز مارين صامتين وبواريدهم على اكتافهم وعيون الموت المتعوذ على البلد جميعه قد انعكس على وجوههم فكلامهم الخاص مخوف وبعض الزمر قد تحاورها الى ولات نائح عليها ولا نادب وعدة من الكلاب والهررة هزيلة كالخيالات لما الم بها من الجوع . فخيل لنفسي في ارتقبوما في الحزينة منذ اجيال او في احدى تلك المدن الاصحية التي اهلكت الله جميع اهلها دفعة واحدة بصعقة غضبه . ولكن اين هذه الدهشة والانذهال ما اصبنا به لما وقفنا في وسط البقعة التي كانت بهجة الاسكندرية يوماً ما وفي المنشية ورأينا جميع ما يحيط بها من الابنية الفاخرة قد الحق حراً يعني بو الخراب واغلب القصور الشاهقة في سكة شريف باشا وسكة الرملة والمنشية الجديدة والشوارع التي تمتد منها الى جهات مختلفة قد تحولت الى تلول من الردم والتراب ولم يبق منها منتصباً الا بعض الاعمدة وجوانب حيطان يتهدد من يمر بها بدنو حتفه فقلت لنفسي اني يقظة نحن ام في منام ما هذه الطلل البالية والخرابات المقترنة بها هذه الروائح النتنة والجيف المنتنة الم تكن الان في مرفأ الاسكندرية فكيف ارانا قد نزلنا على آثار بابل او تدمر او بعلبك هل

(البقية تاتي)

التلغرافات العمومية

لوندرة في ٢٣ اب . تكلمت جرائد اوربا عن اعمال الجيش الانكليزي في القتال ومدحت كثيراً مهارة القائد العام في الفنون الحربية

بومباي في ٢٣ منه . سافر اليوم الاي آخر

(مطبعة الاهرام) (سليم تقلا)

ما نشرته جريدة الأهرام بتاريخ الخميس 24 أغسطس 1882.

فكان منهم عدد وافر في الأزقة والشوارع والبيوت وتحت الردم القليل منهم نصارى والأغلب إسلام، فمن هؤلاء من قُتل بنار القنابر ومنهم من قُتل بسلاح إخوانهم وشركاهم في النهب والسلب، وقد حدثنا من يوثق بكلامهم ممن شاهدوا الحال عياناً وقتئذ أن كثيراً من المصريين وهم حاملون ما سرقوا كانت تصادفهم العربان ويقتلونهم رمياً بالرصاص طمعاً بما حملت أيديهم مما جنت به أنفسهم ولكل شيء آفة من جنسه.

ولكن العدد الأكبر والأوفر من القتلى هو ما كان مدفوناً تحت ردم الحصون والقلع ومنبسطاً في عرصاتها وبقرب المدافع المنقلبة رأساً على عقب لا يمكن تحديد عدد هؤلاء القتلى لأن المدفونين تحت الردم منهم لا يخرجون من هنالك ليوم البعث..

وقد رأينا محلات متهدمة يبرز منها عشرات عديدة من أطراف أيد وأرجل ورؤوس، فالمظنون عددهم لا ينقص عن الألفين ولا يتجاوز الثلاثة آلاف. فياله من منظر مريع محزن تقشعر منه الأبدان".

مكاتبات الاهرام

جميع المكاتبات التي ترسل الينا متعلقة بالاهرام ينبغي ان تكون خالصة الاجرة باسم بشاره بك تقلا مدير الجريدة ومحل ادارتها على شارع بولوناكي بغرب الجمرك

يمكن الحصول على الاهرام اما بارسال قيمة الاشتراك الينا واما بتسليمها الى وكلائها

ثمن كل نسخة قرش صاغ

الاهرام

جريدة
يومية سياسية تجارية ادبية

قيمة الاشتراك

	عن سنة	عن ستة اشهر
في القطر المصري وسائر الجهات	٥٥	٣٥

قيمة الاشتراك تدفع سلفاً

اجرة سطر الاعلان في الصحيفة الاولى خمسة فرنكات وفي الثانية اربعة وفي الثالثة ثلاثة وفي الرابعة فرنكان

العدد ١٤٢٨ — الجمعة في ٢٥ اغسطس (اب) سنة ١٨٨٢ — الموافق ١١ شوال سنة ١٢٩٩ — السنة السابعة

الاسكندرية في ٢٥ اغسطس سنة ١٨٨٢

السير ادوارد مالت الوزير المفوض

رجل مهذب في مدارس انكلترا العليا ودخل نظارة الخارجية وتقلب مناصب السياسة فصرف بضع سنين بين باريز والاستانة وفينا وغيرها وكان دائماً محبوباً من رؤسائه لما شاهدوه من اخلاصه وحزمه ومعرفته اساليب السياسة فانه جمع الى رقته ومهارته مبادئ دولته الا وهو الثبات والحزم . وفوق مهاب تفتخر به الرتب وتعتز به المناصب وهو ابداً على دماثته واتضاعه وقد منحته جلالة الملكة نياشين الشرف واعطته رتبة فخيمة وزيراً مفوضاً يوم كان في سفارة الاستانة العلية

عهدت اليه حكومته اعمالها في القطر المصري من اكثر من حولين فاتى من الاستانة توّاً الينا واخذ في صيانة مصالح دولته مشتركاً بكل اخلاص مع رجال سمو الخديوي الكرام بما فيه مصالح القطر ايضاً . وقد ارانا من اعماله تسهيلات لا ينكرها الا الغشوم الى ان ظهر عرابي الذي امتحن به مصر شيطان المصائب . فجمع بهذا العاصي ضربات اسرائيل السبعة

اما السير مالت فلم ييأس من الحركة بداية بدء بل ظنها وطنية ولم يرض مقاومتها ليبرهن على ان دولته تحب امتداد الحرية وانتشار قوانينها فصمت لا بل ساعد نوعاً وعضد زعماء الحركة وكفل لهم العفو من سيدهم اميرنا الطاهر الذيل ولكنه رأى من اعمالهم ما ادخله في شك وسافر بالرخصة . وبعد تمنيعه اقدم عرابي على مسالة عابدين الشهيرة فاجتمع السير مالت باللورد غرانفيل وبقية وزراء الدولة وبعد المداولة نظر الى وجوب التداخل العثماني العسكري وان ذلك هو الدواء الوحيد فقصد الاستانة وحظي بمقابلة الحضرة السلطانية وبين لها حقيقة المسالة وقال بوجوب ارسال قوة لردع العصاة خوف تفاقم الشر ومن دار الخلافة عاد ثغرنا وقد مضى على ذلك نحو الحول وانا نذكر قراءنا بما نقلناه مراراً عن جرائد اوربا بهذه الرسالة وعن احتدام بعض الجرائد لكراهيتها التداخل العثمانية وتنديدها في حضرة السير مالت

اما حضرته فرضي بما كان وظن ان تلك الشرذمة قد اكتفت بما اتته وان بوجود صاحب الدولة الشريف يصلح الامر فاخذ وزارته باصلاح الشؤون وتمحيص من اعمال العصاة ما سودوه من تاريخ مصر ولكن ابى اللئيم ان يرجع عن غيه فان عرابي استمر على خطته رغماً عن نصائح حضرة دولتلو شريف باشا التي لم تنجع به بل زاد غروراً وعتواً

اما السير مالت فمع تأثره مما آلت اليه الحالة لم يتأخر عن نصح عرابي مرة وتهديده اخرى وكم من مرة اوضح له المخاطر التي ستلحق بالبلاد اذا اصر على عناده ولكن عرابي او قل تلك الوزارة البارودية استبدت في الامور فبطرت حتى نزعتها كل عقل ولم يستمر مفتخراً باولئك الجهال الا الخطباء الذين بثوا روح الفساد واوقدوا نيران الفتنة حتى كان ما كان مما اقدم عليه عرابي وحزبه من مس حقوق سمو الخديوي المقدسة والمعاهدات الدولية فتحولت المسالة الموضوع اخر واخذت الوزارات الاوربية في المخابرات لمعرفتها ان المسالة مهمة وان شرها عظيم

فقل لي ايها القارئ متى عرفت حقيقة سياسة الوزير مالت المذكور الذي اتبع اوامر دولته الحرة الا تحكم بان ما نسبه العصاة الى حضرته محض بهتان من اختلاقات بارودي . قل لي كيف ننكر فضل هذا السياسي وخدمته لدولتنا العلية وقد ذهب بنفسه يطلب الى الحضرة السلطانية ارسال قوة تقمع العصاة

اي نعم انا نعترف بجميل هذا الرجل الذي لا يزال بعد عودته الينا مؤخراً يبرهن باعماله على صدق اخلاصه لقطرنا المصري وللحضرة الخديوية . ومن اطلع على كتاب انكلترا السياسي وافقنا بهذا المذهب وعرف ان الرجل الصادق برهانه عمله وكلامه شاهد عليه

اعلان

من حيث انه تقرر بالمجلس الذي تشكل لتقسيم المياه بجلسته المنعقدة في يوم الاربعاء ٢٣ اغسطس سنة ٨٢ بانه من ابتداء يوم ٢٨ الشهر المرقوم يجري ادارة وابورات مياه اسكندرية في كل ثلاثة ايام مرة بعد ان كان جاري ادارتها في كل يومين مرة فيكون معلوم الكافة بذلك ليأخذوا اكتفايهم من المياه في كل مرة من التاريخ المذكور وبذا لزم الاعلان

***

الاسكندرية يوم ١٧ يوليو (تموز) بقلم معاين (بجروفها) تابع ما قبله

حوّلت ايدي الطغاة الباغين اعداء الانسانية والوطن عروس الشرق او زهرة الاسكندرية لما نراه من الآثار المحزنة . ويحك ايها المعاصر كيف تحدمون رسل الخراب وصلة الشر كما زعمتم الى خدمة الانسانية وحملة الخير . هولاء بجد وعناء لا مزيد عليها يعملون لاخضاعكم الماء والكهربائية والنار لخدمة التمدن والعمار ولولاك بعود يعلو قليل من الفصفور وشيء من زيت البترول عليهم لما نشاهده من الخراب والدمار . ويل لكم ايها العصاة المتمردون اهذا ما كنتم تطنطنون به من حب الوطن وتنوير العباد اهذه هي ناركم التي ارتأيتم ان تتورط بها البلاد . ايقتل الاولاد الصغار والرجال الابرار غير شاكي السلاح والذين لم يشهروا عليكم حرباً بل استأمنوا جواركم وسكنوا في حماكم ام بتفجيع الاحرار تمتاز الابطال الذين يدعون تحرير البلاد وترقية احوال العباد خسئتم انكم لا تنالون غير ابطال ولو غاد غير انجاد تفعلون هذه المنكرات وتقتلون مسالميكم وضيوفكم الذين لا واسطة للدفاع بايديهم وتفرّون هاربين امام من لا يبلغ معشار عددكم من الجنود تاركين بلادكم في ايديهم . لقد كان لكم قبل هذه الاعمال البربرية وقبل مذبحة ١١ حزيران وجزيرة طنطا وغيرها من الارياف حب وصداقة واعتبار في قلوب من خدع بادعائكم واقوالكم من محبي العدالة والاستقامة والحرية وطيبين واجانب وعضد بمساعدتهم ولكن الان ليس من يتكر عنكم الا انكم ارواح شريرة نجسة خرجت من اعماق التوحش والظلام فافتخر بها نور التمدن فاعلمت بنتائجه طبائعها الشريرة القذرة

بينما كنت غارقاً في بحر هذه الهواجس والافكار واذا باحد ارفاقي قد صحى من دهشته وقال لنا هيا الامام ما ارسلنا اليه فنوارى هولاء المنكودي الحظ التراب فكان منهم عدد وافر في الازقة والشوارع والبيوت وتحت الردم القليل منهم نصارى والاغلب اسلام فمن هولاء من قتل بنار القنابر ومنهم من قتل بسلاح اخوانهم وشركائهم في النهب والسلب وقد حدثنا من يوثق بكلامهم ممن شاهدوا الحال عياناً وقتئذ ان كثيراً من المصريين وهم حاملون ما سرقوا كانت تصادفهم العربان ويقتلونهم رمياً بالرصاص طمعاً بما حملت ايديهم مما جنت به انفسهم ولكل شيء آفة من جنسه . ولكن العدد الاكبر والاوفر من القتلى هو ما كان مدفوناً تحت ردم الحصون والقلاع ومنبسطاً في عرصاتها وبقرب المدافع المنقلبة راس على عقب .

ما نشرته جريدة الأهرام بتاريخ الخميس 24 أغسطس 1882.

الخديو توفيق ورحلة العودة إلى قصر رأس التين

وفي منتصف نهار يوم 13 يوليو 1882 عاد الخديو توفيق إلى قصر رأس التين ولعودته حكاية يرويها أحمد شفيق باشا فيقول: [76]

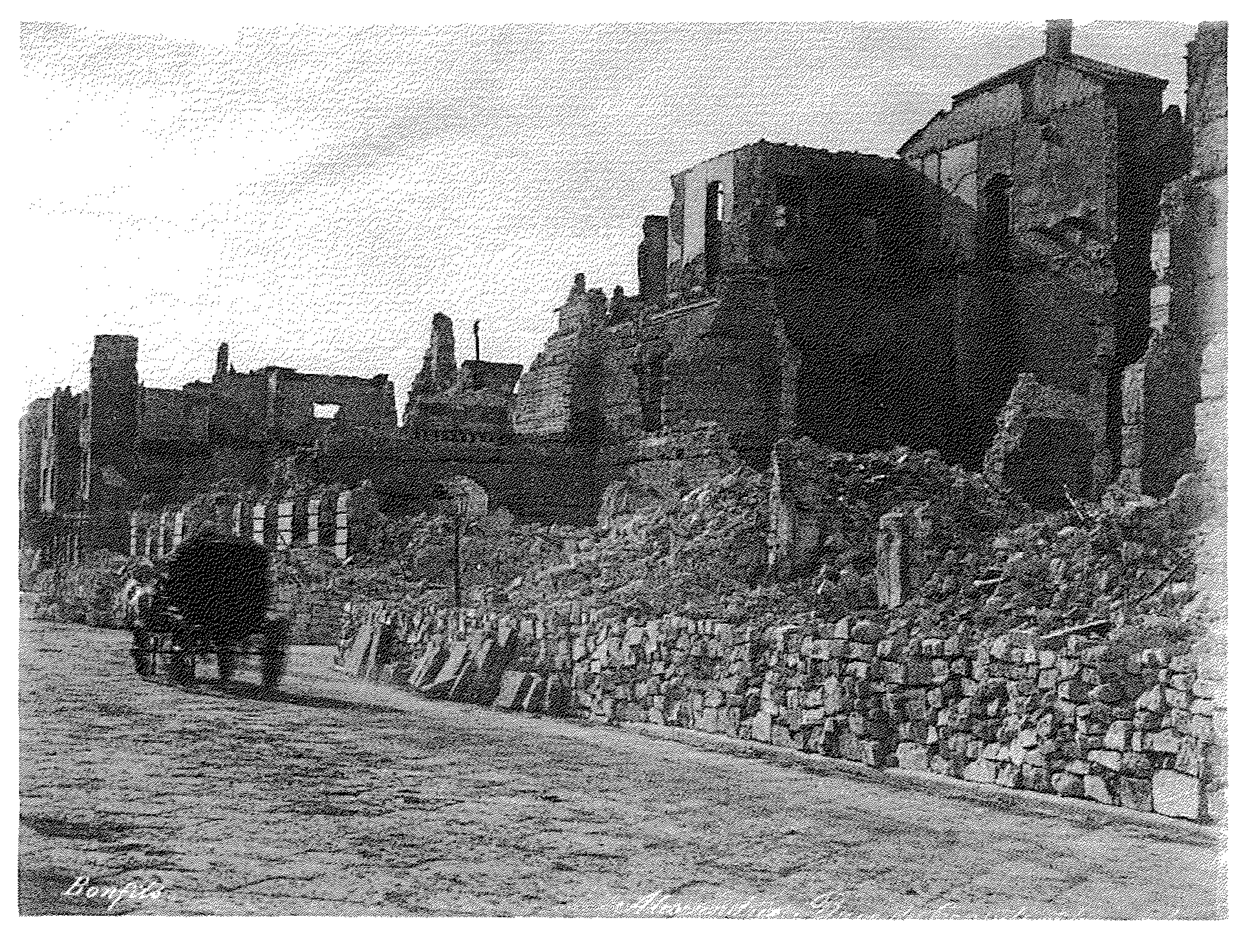
"وفي يوم 13 يوليو علمنا أن كثيرًا من العساكر التي كانت في الإسكندرية تركوا فرقهم وانصرفوا إلى بلادهم، وخشي الخديو أن ينفذ العرابيون ما أضمروه له، فقرر العودة إلى سراي رأس التين..

وأوفد الخديو زهراب بك إلى الأميرال سيمور ليخبره بذلك، وفي الساعة الأولى من بعد ظهر يوم 13 عاد فأخبره أن الأميرال أمر بإقامة الحرس الكافي في سراي رأس التين وجهة ديوان البحرية وجهة القباري، فاستعدت المركبات والدواب لنقل الخديو وأنجاله ورجال الحاشية من سراي مصطفى باشا فمنهم من استقل العربات ومنهم من امتطى الدواب ومنهم من سار على قدميه.. وكان نصيبي أن تعلقت مع المرحوم محمد زكى بك التشريفاتي الثاني في مؤخر العربة، التي كانت تقل حاشية درويش باشا وكانت تسير وراء العربة التي استقلها الخديو والمندوب الشاهاني ومن حولها الحرس الراكب وشاهدنا في سيرنا المدافع التي استُحضرت لحصارنا.. وكان الخديو قد أصدر أمره إلى سراي مصطفى باشا إلى أخي المرحوم محمود أفندي وهبي مأمور مركز أبى حمص ليرسل بعض البدو للحراسة فلبى الطلب فوصلوا في صباح 11 يوليو فمُدت لهم موائد الطعام حيث أكلوا وشربوا.

وقد شاهدناهم عند عودتنا إلى سراي رأس التين منتشرين في شارع باب رشيد منصرفين إلى سلب المهاجرين من الإسكندرية والنساء يصحن ويولولن وهم في أثرهن وقد أحاطوا بهن وسدوا عليهن سبل النجاة وأخذوا ينزعون الحلي من صدورهن وآذانهن قسرًا، حتى جرحوها وأسالوا منها الدماء.

ومازلنا نسير بين هذه المناظر المؤلمة حتى دخلنا المدينة، وفي وسط لهب الحرائق التي كانت مشتعلة في الأحياء المهمة، وكانت فظيعة لاسيما في شارع شريف باشا وميدان محمد علي (المنشية) الذي

76- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 168.



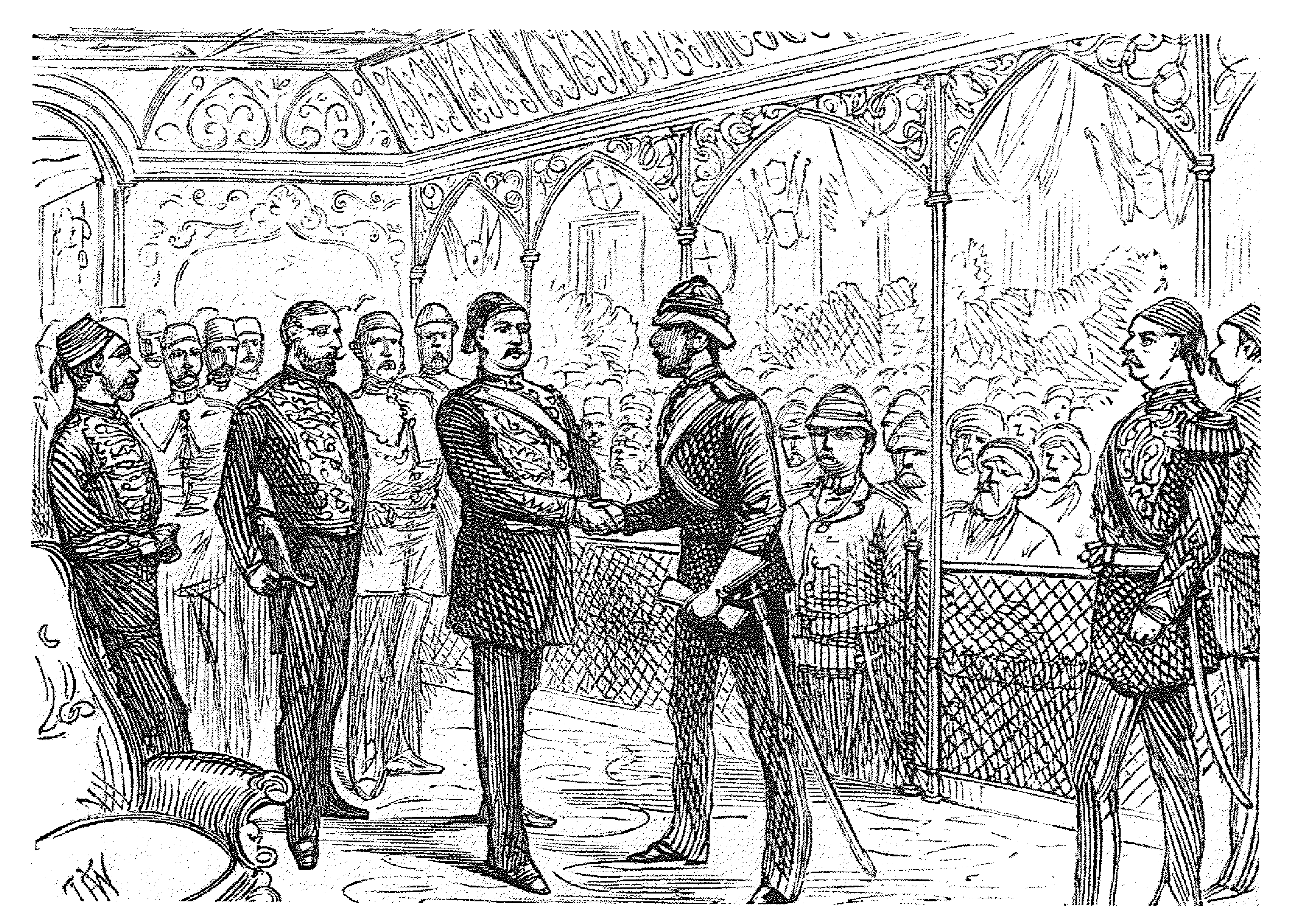
صورة التقطها واحد من أشهر مصوري المدينة في ذلك الوقت "Bonfils" للتدمير الذي حدث في الجزء الجنوبي من ميدان القناصل بعد ضرب المدينة.

بدا لنا كأتون من نار.. وما كنا نتصور أننا سنجتاز هذا الميدان دون أن نصبح طعامًا للنيران. وكان الجو مزيجًا من دخان ولهيب ودرجة الحرارة تلفح وجوهنا وتكاد تشوي جلودنا كأننا في جهنم.

وقد أضرم هذه النيران رجال سليمان داوود عند انسحابهم من المدينة بإشعال زيت البترول بالإضافة إلى أنهم تركوا الرعاع ينهبون المدينة والمهاجرين حتى أننا أثناء اختراقنا المنشية رأينا اثنين من العربان يركضان خلفنا فانزعج زميلي وسألهما بحدة:

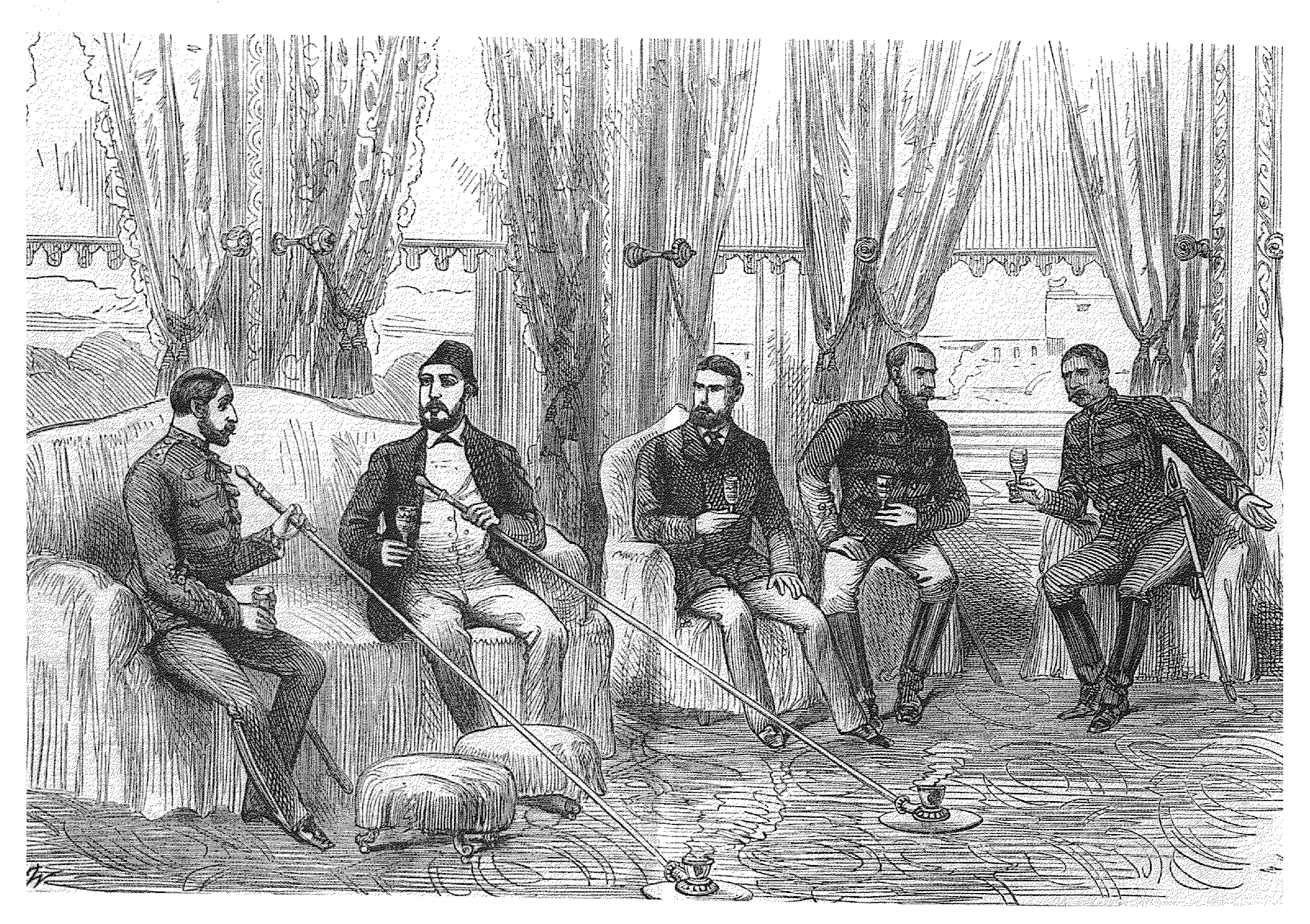
- ماذا تريدان؟ ولكنني أشرت عليه أن يتركهما فسيرجعان بطبيعة الحال وهذا ما حدث...!

وعند وصولنا إلى أول شارع رأس التين التقينا بسليمان داوود بك راكبًا جواده، فخشينا عدوانه



الخديو يلتقي بأحد الضباط الإنجليز.

ولكنه تولى مسرعًا إلى جهة المنشية.. ربما كان ذلك خوفًا على حياته من الحرس السواري الذي كان خلف مركبة الخديو. وعلى هذا النحو وصلنا إلى سراي رأس التين في الساعة الرابعة آمنين على حياتنا فوجدنا عددًا من البحارة الإنجليز واقفين للحراسة على مدخل السراي وفي داخلها وكان الأميرال سيمور واقفًا على سلم السلاملك يرتقب قدوم الخديو، وبعد أن أدى التحية لسموه رافقه إلى الدور الأعلى وهناك أخبره بما لحق السراي من تخريب في قسم الحريم.



الخديو توفيق يصل إلى سراي رأس التين ليجد الأميرال سيمور وضباطه في استقباله.. وجلسة ودية لتدخين النارجيلة والحديث كما صورتها جريدة The Illustrated London news بتاريخ 2 سبتمبر 1882.

وقد لحق بنا إلى السراي كثيرون من الوطنيين والأجانب، فوزعت غرف السراي على اللاجئين، وعدنا نقاسي ألم الجوع فأرسل الخديو في الحال شرذمة من العساكر إلى مخبز القباري التابع للبحرية بعد أن انسحب منه العرابيون فأحضروا ما وجدوه من الخبز "الصامولي" وكان يابسًا فوُزع علينا وكنا في شهر رمضان فكان في أفواهنا لذيذ المذاق وكأنه الحلوى يفطر الصائم عليها.

وأذكر أن وصفي بك تمكن من الذهاب إلى المدينة فعاد إلينا بعلبة كبيرة من "الغريّبة" وكأنه جاءنا بالدرة اليتيمة وسلمها إلي قائلاً: أنت أدرى يا شفيق بما نحن فيه من العوز والجوع، وأنا أعهد فيك الأمانة وحب الاقتصاد فوزعها علينا بالعدل "فكانت في أفواهنا ألذ الأشياء مذاقًا". [77]

إلى هنا انتهى كلام شفيق باشا ولكنه قدم لنا صورة حزينة ليس فقط لحال المدينة المحترقة ولكن أيضًا لحال سكان السراي أو رجال الخديو الذين عانوا أيضًا الجوع والخوف والقلق..

وبهذا يتضح أن الخديو ورجاله لم يكونوا في برج عاجي ينعمون بكل شيء بينما البلاد تحترق والشعب يجوع، ولكن الحقيقة التي قدمتها هذه الشهادة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن رجال القصر كانوا يعانون نفس المعاناة التي عاناها الشعب ولكن على درجات مختلفة.

وقد ذكر سليم النقاش عن معاناة إحدى أميرات الأسرة المالكة هي الأميرة توفيده فقال: "لما وصلت حال أهل السراي إلى تلك الدرجة من الخطر عم الخوف وكانت الأميرة توفيده هانم حامل فلما حاق بها ما حاق من الخوف والرعب أسقطت سقطًا فنقلت إلى رأس التين ولم يمض على انتقالها يومان أو ثلاثة حتى توفاها الله فراحت شهيدة بَغي العرابيين ودُفنت في مسجد النبي دانيال ثم بعد شهور قليلة نُقلت بالإجلال والتعظيم إلى مصر ودُفنت في مدفن العائلة الخديوية في القلعة". [78]

77- أحمد شفيق باشا -مذكراتي في نصف قرن- الجزء الأول ص 172.

78- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 122.



صورة التقطها أحد أشهر مصوري المدينة "Zangaki" لميدان القناصل في المنشية بعد ضرب المدينة بالقنابل وتظهر آثار الهدم والتخريب واضحة على جانبي الميدان.

وصف للكارثة التي حلت بالمدينة بلسان أمريكي

ويقول ألبرت فارمان في حكايته عما أصاب المدينة بعد الضرب والحريق وانطباعاته عما شاهده بعد الأحداث المؤسفة بـ 4 أيام:[79]

"على الرغم من أن الجنود المصريين كانوا قد أخلوا المدينة قبل ظهر يوم الأربعاء إلا أن الإنجليز لم يدخلوها حتى يوم السبت، بعد أن أعادت قوتنا الصغيرة الهدوء إلى أحيائها ورفعت العلم الأمريكي عند الطرف الجنوبي من ميدان محمد علي.

ودخلت المدينة كذلك يوم السبت، وكان جزء كبير من الحي الأوروبي عبارة عن كتلة من الأنقاض المحترقة وكانت الشوارع التي لم تصل إليها النيران تشبه شوارع بومبي في عزلتها، وكانت المحال قد نُهبت ولم تكن لترى شخصًا سائرًا، ولمدة يومين عقب انسحاب السلطات المحلية بسبب قنابل الأساطيل كانت المدينة بأكملها في أيدي اللصوص.

وكان قلب المدينة لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال طرق ملتوية وكانت جدران المباني عالية ويبلغ سمكها حوالي ثلاثة أقدام وهي مبنية من الأحجار غير المستوية والملاط، ويصل بعضها ببعض كتل من الأخشاب ولذا كانت كتلة الأنقاض ضخمة جدًا لدرجة أنها كانت تغطي الأرض لارتفاع عشر وخمس عشرة قدمًا وتملأ حتى الشوارع الواسعة.. وقد دُمرت عدة أميال من المباني وكانت النار لاتزال تنتشر ولحسن الطالع كانت كمية الأحجار والأسمنت والملاط الكبيرة المستخدمة مقارنة بكمية الأخشاب الصغيرة قد جعلت هذه المباني تحترق احتراقًا بطيئًا. وقد أنقذ بحارتنا قصر الحقانية والقنصلية الأمريكية وعددًا كبيرًا من المباني الأخرى وكانت هناك بضع قنابل ملقاة في الشوارع لم تنفجر بعد، كما كانت هناك آثار قنابل أخرى في المباني الباقية وطبقًا لما نشرته التقارير الرسمية قُتل حوالي 200 من السكان العُزل من السلاح بواسطة هذه القنابل الطائشة، وقد تبين أن القوات التي

79- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص 344.

أخلت المدينة هي التي أشعلت فيها النيران ومن المحتمل أن بعض الحرائق قد حدثت بفعل القنابل ومنها أحد المباني الملحقة بقصر رأس التين. وقد قمنا بزيارة القلاع عقب الضرب فظهر لنا مدى المحنة التي تعرض لها الجنود المصريون في هذه الاستحكامات المكشوفة غير المحصنة.. فالمدافع ملقاة والجدران مهشمة وبقايا القنابل المتفجرة وكسر الحجارة المبعثرة فوق مساحة القلاع الداخلية كلها كانت في حالة يستحيل معها أن يستطيع أي شخص الإفلات من هذه المجزرة البشرية.

وقد احترق كل الحي الخاص برجال الأعمال في المدينة أما الجزء الذي أفلت من ألسنة النيران فقد نُهب تماماً".



صورة التقطها واحد من أشهر مصوري المدينة في ذلك الوقت "Bonfils" لشارع البوسطة النمساوية بعد ضرب المدينة وتظهر آثار الهدم والتخريب واضحة على المباني وفي وجوه الناس.

ثم عاد ألبرت فارمان – الذي يظهر من مذكراته مدى حبه واهتمامه بهذه المدينة وأهلها –فقد عاد يكتب عن عودة المهاجرين إلى المدينة المحترقة فيقول:[80]

"كانت عودة المهاجرين الذين لجأوا إلى داخل البلاد مأساة محزنة، وكان الناس قد فهموا أن الهجوم سوف يقتصر على القلاع فحسب وبالتالي لم يزد عدد المهاجرين في البداية عن 60 ألف مواطن من جملة السكان البالغ عددهم 250 ألف نسمة، ولكن ما إن انفجرت القنبلة الأولى حتى أيقظت الباقين من عدم اكتراثهم، فلم تدرك جموع الطبقة الدنيا الخطر الذي يحيق بهم إلا حينما بدأت القنابل الطائشة تتساقط بينهم وحينئذ شرعوا في الهروب وسرعان ما عمت حركة الهجرة المدينة وقد تشبث الكثيرون حتى في هذه الساعات الرهيبة بحمل ممتلكاتهم الضئيلة، وكان الطريق العملي للهروب بالنسبة للحشود الفارة هو جهة الشرق أو الجنوب من ضاحية الرمل وهي ضاحية صغيرة مقامة في الصحراء على مقربة من البحر.

وبدأت القوات تفد من قبرص يوم الاثنين أي عقب الضرب بستة أيام وأنشئت مراكز خاصة بالجيش وأصبح هناك قوة كافية لإقرار الأمن في المدينة وبُعث برسل إلى المهاجرين الذين كانوا معسكرين في الرمال يبلغونهم بأن في وسعهم العودة في أمان إلى المدينة، فأخذوا يفدون إلى منازلهم في شغف على الرغم من بؤس هذه المساكن ودخلوا المدينة عن طريق بوابة رشيد أو بوابة الرملة ومروا في شارع عريض كان يعج بهم لمدة ساعات.

كانوا عبارة عن سيل متدفق من الإنسانية المعذبة، وكلهم كانوا يرتدون ملابس بسيطة تعلوها القذارة والغبار وكانوا حفاة الأقدام شبه عراة، وكانت النسوة يحملن أطفالهن الرضع بين أذرعهن بينما كان الأطفال يسيرون متثاقلين وهم نصف عراة بجوارهن، والكل يحمل ما بقي له من متاع وبين الحين والآخر كان يبدو أحد الأثرياء وقد حمّل ظهر حصانه أو حماره أو عجله ما له من ممتلكات كما كان هناك بعض العربات العتيقة محملة باللوازم الشخصية.

80- ألبرت فارمان –مصر وكيف غُدر بها– ص 351.

هكذا كان حال هذه الجموع المتباينة التي كانت تمر من الشوارع التي كانت تفوح منها رائحة الدخان المتصاعد من الأنقاض المحترقة قاصدة أحياءهم الفقيرة التي سلمت من الحريق ولكن لم تسلم في نفس الوقت من اللصوص الذين جردوها من كل الأشياء ذات القيمة.

أما عن الخديوي فقد بقي في قصره بالرمل خارج المدينة ثم عاد إلى قصر رأس التين في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي الذي نزل فيه البحارة الأمريكيون إلى البر.. وقد قال لي سموه في مقابلة لي معه فيما بعد أنه أصدر أوامره لعرابي بألا يسمح للإنجليز أن ينزلوا إلى البر وكان يبدو من حديثه أنه يوجه إليه اللوم لأنه لم يستطع تنفيذ أوامره ثم أضاف قائلاً:

(بصفتي ممثل للسلطان فإن من واجبي أن أدافع عن البلاد ولا أستطيع أن أتنازل من تلقاء نفسي عن شبر واحد من الأرض)".

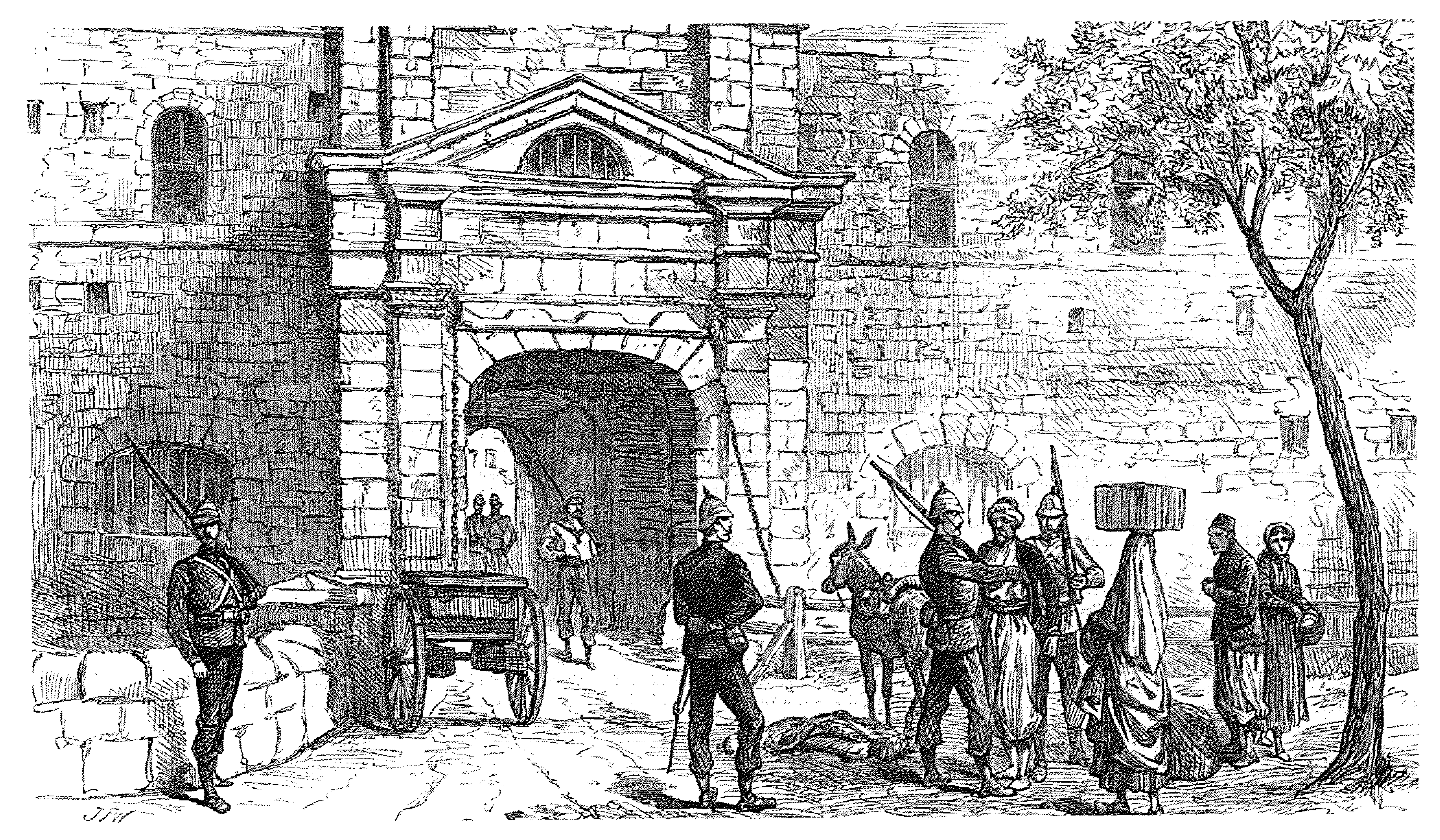
ولكن فارمان يفاجئ الجميع بقوله:[81] "كل الإشاعات التي سُمعت بعد ذلك عن اتهام عرابي بأنه كان ينوي الإضرار بالخديو كانت محض خرافة، فلو ثبت شيء من هذا لكان قد حكم على عرابي بالإعدام بدلاً من النفي.. ولقد روى لي سموه ما حدث بالتفصيل ما مفاده أن عرابي كان يرغب أن ينسحب الخديو إلى داخل البلاد ويظل هناك ومن ثم أرسل ضباطًا لكي يصحبوه وفي نفس الوقت أراد الإنجليز وضع سموه تحت سيطرتهم ذلك بأنهم حاولوا أن يجعلوه يرحل على ظهر إحدى السفن التابعة لهم قبل ضرب الإسكندرية ولكنه رفض مفضلاً أن يبقى مع شعبه. وليس من المعروف إن كان الخديو قد توقع أن يكتب له النصر في الدفاع عن البلاد ولكن من المؤكد أنه كان يرغب في ذلك وفي نفس الوقت كان من السهل عليه أن يتولى أمر عرابي ولكنه أدرك بناء على نصيحة مستشاريه أن إنجلترا إذا أطبقت يدها على مصر فلن تفلت منها على الإطلاق وبالتالي فحينما أدرك أن المزيد من المقاومة لن يُجدي سلم نفسه على أنها الوسيلة الوحيدة التي ينقذ بها عرشه بما تبقى له من سلطة شكلية ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته لم يكن أمامه سوى أن ينفذ مشيئة

81- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص 353.

أسريه (من قاموا بأسره) أما الخيانة المزعومة التي تنسب إلى عرابي فتنحصر في أنه عصى أوامر الخديو بينما كان الأخير أسيرًا في الواقع".

هكذا قلبت مذكرات فارمان الأوضاع والتاريخ رأسًا على عقب فقد جاء القنصل الأمريكي الذي كان يحظى باطلاع واسع على بواطن وخبايا الأمور في ذلك الوقت ليقدم لنا تفسيرًا جديدًا للأحداث من وجهة نظره؛ فلا خان الخديو وطنه وشعبه وارتمى في أحضان الإنجليز كما يقول رواة التاريخ ولا باع عرابي وصحبه بل فعل ذلك مُرغمًا مُجبرًا فقد أمسى وأصبح أسيرًا لدى الإنجليز لا حول له ولا قوة.. ولا كان عرابي يدبر لخلع أو قتل الخديو وكل ما في الأمر أنه عصى أفندينا أو ولي النعم كما كان يُطلق عليه في ذلك الوقت... إنها نظرية ورغم اختلافها وغرابتها إلا أنها جديرة بالدراسة...

صورة لعودة المهاجرين إلى المدينة من باب محرم بك حاملين ما تبقى لهم من أمتعة بسيطة ورجال الأمن يقومون بالتفتيش.. صورة نشرتها جريدة The Illustrated London news في عددها الصادر بتاريخ 5 أغسطس 1882.



حكايات القنصل الوحيد في الإسكندرية

ومن الحكايات المثيرة التي تُحكى عن هذه الأيام العصيبة ما ذكره المسيو دومريكر قنصل الدانمرك عن أفظع أسبوع قضاه في حياته وهو الذي بدأ من يوم الأحد 9 يوليو الذي أعلمت فيه قنصلية إنجلترا جميع القنصليات بوجوب خروج رعاياها من الإسكندرية في مدى 24 ساعة وحتى يوم السبت 15 يوليو حينما استقرت الأوضاع في المدينة على حد تعبيره وتم إخماد الحرائق ونزول قوات إنجليزية لحفظ الأمن في البلد؛ فيقول المسيو دومريكر في تقريره عن أحداث هذه الأيام العصيبة:[82]

"كان أحد أصدقائي المسيو أوجست جيني في ساحة المنشية فلما علم بوجودي وحيدًا في الوكالة أتاني ولازمني، وبعدها بفترة وجيزة ابتدأ إطلاق المدافع فكنا نرى جماعات من العساكر المسلحين بالعصي والسيوف تطوف الشوارع والطرقات صارخة "النصر للسلطان ولعرابي". وقد حاول جمع وفير من الوطنيين الدخول إلى المنزل الذي كنا فيه ولكن منعهم البوليس بصعوبة، وبعد ساعات حضر بعض المشاغبين وطلبوا تنزيل الراية النمساوية التي كانت مرفوعة فوق سطح الوكالة وبعدها بقليل قُتل بالقرب من الوكالة 3 أشخاص من الوطنيين بمقذوفات المدافع فكان ذلك داعيًا إلى خوف وفرار الآخرين الذين كانوا يختبئون في أحد محلات شادر البطيخ الملاصق لوكالتي.

وبعد ساعات تعالى صوت وعيد وتهديد من بعض الوطنيين لنا ولكنهم رحلوا عندما رأوا انقذاف النيران وانفجار القنابل فيما وراء حمام باللوني المجاور للوكالة، وكنا إذ ذاك خمسة رجال ملء قلوبهم الخوف والاضطراب فقد كنا نفرًا ضعافًا لا طاقة لنا على الدفاع زمنًا طويلاً عن بناية واسعة إذا هجم علينا الرعاع بشدة وعنف.

وقد كان بالوكالة عدد وافر من الأهالي من خدام وموظفين تركهم المستأجرون قبل سفرهم حراسًا لمنازلهم وقد كنت أتوجس خيفة من بعضهم خاصة أحدهم من حراس الأبواب لانضمامه إلى رجال

82- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 93.

الحريق واشتراكه مع الناهبين في اقتحام البيوت وسلب ما فيها فكنا مضطرين أثناء وجوده بالوكالة إلى تهديده بالسلاح إذا ما بدا منه السوء...

وفي صباح اليوم الثاني أيقظني الخادم وأخبرني بوجود عساكر عددها من 20 إلى 40 جنديًا مع ضابط من العرابيين يطلبون تنزيل الراية النمساوية بأمر من عرابي وإلا أطلقوا علينا الرصاص فنهضت من الفراش مذعورًا وأتيت شرفة المنزل فرأيت العساكر متألبين أمام المنزل يضجون ويشيرون بأيديهم إلى الراية فأخذت في تسكينهم ثم خاطبتهم بقولي:

"ألا تخجلون بما تفعلون بإقلاق الناس في الصباح وتكديرهم، ألا تعلمون أني أنا القنصل الوحيد الباقي في المدينة وأنه إذا كان لأحد منهم ما ينبغي إبلاغه لي يجب أن يرسل إليّ ضابطًا عالي الرتبة لا ضابطًا ثانويًا وإن عرابي كقائد ووزير حرب يجب أن يعلم أنني لا أستطيع تنزيل رايتي ولكن إذا صمم على تنزيلها فليرسل إلى الشاطئ القريب من منزلي زوارق مخصوصة ليمكنني من الذهاب إلى السفن حيث أحصل على الرعاية والإكرام.." ولم أنته من الكلام حتى هجموا على القطع الحمراء التي كانت منشورة على جوانب الشرفة ثم انصرفوا وهم يضجون بأصواتهم ويقولون "سوف ترون ما يحل بكم سنعود إن شاء الله إليكم ونرميكم بنارنا من فوق السطوح"، فتوقعت هجومهم من حين لآخر ثم أُعلمت أن الأهالي آخذون في التجمع في ساحة البطيخ عازمين أن ينصبوا حبالاً ليصعدوا إلى السطح لتنزيل الراية فبدأنا في إعداد وسائل للدفاع كالماء الساخن والماء شديد الاندفاع وقطع الحجارة وقراطيس الديناميت وجعلنا نرتب استخدامها بالإضافة للبنادق التي أبقيناها ذخيرة لوقت الضيق ثم خرجت على الثائرين وقلت لهم أنهم يختلقون أسبابًا للهجوم علينا ونهب ما لدينا وإنهم إذا ما لمسوا باب الوكالة بأطراف الأنامل حل بهم على أسف مني ما يكرهون.. فأثر هذا الوعيد في نفوس المتجمهرين فابتعدوا عن الوكالة.

وبلغني بعد وقوع هذا الحادث أن أهل المستشفى الألماني لم ينجحوا في التخلص من شر الهائجين الذين حطموا أبواب المستشفى ودخلوا قاصدين تنزيل الراية، وبعد ذلك أقبل علينا الحارس الذي

كان يحرس الجهة الثانية من الوكالة وأخبرنا أن الكثير من رجال البوليس الأوروبيين قد لجأوا إلى الوكالة الفرنساوية آتين إليها من دار الضبطية بعد أن ذبح المستحفظون عددًا كبيرًا منهم وأن هؤلاء اللاجئين يؤكدون مسألة إخلاء سبيل الأوروبيين الذين كانوا مسجونين في سجن محرم بك ويخبرون أن المدينة ستنهب بعد الظهر وتُضرم النار في شوارع الأوروبيين وأن طائفة الحراس لم يبق لها رابطة أو نظام وأن الأهالي سيخلون المدينة، وقد أتى ضابط من كبار الضباط العرابيين ولعله سليمان داوود إلى جوار الوكالة الفرنساوية في نحو الساعة الثانية مصحوبًا بفرقة من العساكر، وهناك أصدر أمره بالنهب مشيرًا إلى بعض الجند بكسر باب أحد المخازن الكائنة في الوكالة الإنجليزية ومنذ ذلك الوقت لم يُسمع إلا فرقعة الأبواب المتحطمة وزجاج النوافذ الساقط منثورًا في الهواء.

وبعد منتصف النهار رأينا المستحفظين وحراس الشواطئ وسائر رجال المحافظة والخفراء مهتمين بنقل قطع من الجوخ وأنواع القماش وأمتعة كثيرة من الأموال المنهوبة على الحمير والبغال والخيول، ورأينا رجالاً مسلحين بالعصي والسيوف يودعون عند باعة البطيخ أمتعة مسلوبة وبضائع منهوبة وحليًّا ثمينةً يقومون بدفنها تحت أعمدة الخيام المنصوبة لبيع البطيخ وأمام الوكالة الفرنساوية كان يقف أحد الوطنيين أمام سلم جامع وفي يده خنجر يشحذه على درجات المسجد ويشير إلى رفيقه بوجوب الدخول إلى وكالتنا لنهبها ولكن الآخر نهاه عن ذلك لوجود أشخاص كثيرين داخل الوكالة قادرين على المقاومة.

وقد أطلق العرابيون علينا من الحصون مدفعين محشوين رصاصًا رشاشًا ولكن لحسن الحظ لم تصب أبنية الوكالة ولا الراية بل سقطت في البحر ويبدو أن العرابيين أرادوا قبل أن يخرجوا من حصن كوم الدكة أن يحيونا بمثل تلك التحية العدوانية جزاءً لنا على عدم الامتثال للأمر الذي صدر لنا بتنزيل الراية.

ثم بدأ لمع الحريق من جانب القنصلية الإنجليزية والبورصة آخذًا في الامتداد شيئًا فشيئًا وكانت أبواب البيوت والدكاكين ومداخلها مسارح لمناظر تقشعر منها الأبدان، وعلمت أن الأهالي عندما صدر

لهم الأمر بالجلاء عن المدينة نقلوا معهم كل ما لديهم من الحلي والأمتعة الثمينة وعندما وصلوا إلى أبواب المدينة هجم عليهم الرعاع وسلبوهم ما كان معهم من غال ورخيص موقعين بالنساء المحصنات من نساء الأتراك أنواع التحقير والتعذيب فكانوا يقطعون أذن البعض منهن ومعاصم البعض الآخر بالسلاح انتزاعًا لما فيها من الحلي والمجوهرات بل كانوا يقتلونهن إسكاتًا لهن وتخلصًا من الاستغاثة والبكاء والنحيب. ولكنهم ما كادوا يبتعدون قليلاً عن أبواب المدينة حتى فاجأهم العربان الذين كانوا قادمين إلى الثغر ليشتركوا في السلب والنهب فقبضوا عليهم وسلبوهم كل ما كان معهم.

وعند مغيب الشمس وفد على وكالتنا أشخاص كثيرون يلتمسون التواري فيها عن أعين الفتكة وبعد أن اشتعلت النيران بجوار الوكالة فأدخلناهم ساحة البناية وبذلك بلغ عددنا 150 نسمة في مساء الأربعاء، وكان اللاجئون نساءً وأطفالاً وشيوخًا وفتيانًا من جميع الجنسيات ومنهم التاجر والطبيب والعالم والأديب والوجهاء والأغنياء والفقراء ووكلاء الدعاوى والخدام والصناع وأهل الحرف وغيرهم إلى المتسولين العراة.

وكنا نكتشف من سطوح الوكالة حرائق أخرى في جهة كل من شارع شريف باشا وشارع كنيسة الروم الأرثوذكس وكنا نرى لهيبها آخذًا في الامتداد والاتصال بالبنايات الشاهقة حتى كنا نخالها قريبة منا.. وحاول بعض الموجودين الوصول إلى حمام باللوني في محاولة للوصول للبحر ولكنهم عادوا إلى الوكالة إذ كان التواجد بالحمام أخطر لقربه من الحريق ولكونه مبنيًا من الخشب.

وقد حاولنا بعد ذلك الذهاب إلى ساحة محمد علي لاستطلاع الموقف وكانت الطريق خلف الوكالة الإنجليزية خاوية لا أثر فيها لبشر ولكننا لم نتجاوز المخفرة الواقعة بين سراي زيزينيا وقهوة محمد علي حتى لقينا قومًا من رجال الحريق مشتغلين بحشو صرر صغيرة من المواد السريعة الالتهاب فلما اقتربنا منهم انتصبوا واقفين فأخذنا نتراجع إلى الوراء ثم أخرجت أنا غدارة (مسدس) وصوبتها نحو وجوههم قائلاً: "خذوا حذركم منا وإلا أرميكم بالرصاص" بينما وقف رفقائي بين المخفرة والوكالة الفرنساوية فأقلعوا عن عدوانهم وتركونا ندخل الوكالة وانصرفوا.

وقد تيسر لنا أن نقف على أحوال الحريق فرأينا النار مضرمة في الوكالة الجديدة وقد ابتلعت جانبًا عظيمًا منها وفي ثلاث جهات متفرقة من ساحة المنشية.

وفي مساء الأربعاء كانت النار مضرمة في جوانب الإسكندرية وشوارعها الكبيرة المعروفة بشوارع الأوروبيين والبيوت والمخازن منهوبة وفي صباح الخميس كان البعض لايزالون مستمرين على الحرق ومنهم بعض المستحفظين الذين منع دخولهم إلى الوكالة الفرنساوية فرموها بالنار حتى أضرموها في جوانبها وكانوا عازمين على إحراق وكالتنا لولا أننا كنا قائمين خفراء عليها وكان أحدهم قد أتى في الصباح إلى ساحة البطيخ وسأل الرجال الذين كانوا متجمعين فيها عن سبب بقاء الوكالة ناجية من النار سالمة من العطب فأجابوه أنهم لم يتمكنوا من إحراقها بالنظر إلى كونها مملوءة بالحراس والخفراء.

وكانت المؤن القليلة التي ادخرناها قد نفدت وصار الماء على وشك النضوب وفوق هذا وذاك تجدد فينا الخوف من رجوع الوطنيين للهجوم علينا اعتقادًا منهم أن العساكر الإنجليزية لا تستطيع الخروج إلى البر وفي هذا الحال طُلب إلى بإلحاح أن نخرج من الوكالة ونلتجئ إلى غيرها وعندما رأينا بعد منتصف النهار أن النار قد اشتعلت بقوة في جهة الجمرك استحال عليَّ إقناعهم بالبقاء فقد قالوا لي:

"إن وجودنا محاطين بالنار من كل جانب محتاجين إلى كسرة من الخبز تسد الرمق ونقطة ماء تروي الظمأ معرضين لوثوب الثائرين علينا مرة أخرى كل ذلك يجعلك مسئولاً عن حياتنا".

وفي النهاية قررنا الخروج قاصدين الجمرك فسلكنا الطرق المؤدية إليه حتى وصلنا إلى رصيفه فلقينا جماعة من العساكر الإنجليزية الذين كانوا قد خرجوا إلى البر يرمون رجال الحريق بالرصاص فتوهمونا في بادئ الأمر أعداء ولكنهم عندما علموا بما كان من أمرنا رحبوا بنا ثم ذهبنا إلى الباخرة "الشرقية" في رأس التين وقضينا ليلتنا هناك.

وفي نهار الجمعة نزل البحرية الأمريكان إلى البر.. وعندما نزلت العساكر إلى المدينة كانت الشوارع والطرقات لاتزال مغطاة بجثث القتلى والأتربة والحجارة متساقطة من المساكن المتهدمة وقد خرج في ذلك اليوم المسيو "أوجست جيني" إلى ساحة المنشية رغم الخطر الذي كان مازال متبقيًا فوجد



العساكر الإنجليزية يطلقون النار على النهابين كما صورتهم جريدة The Graphic بتاريخ 29 يوليو 1882.

جثث القتلى مطروحة في تلك الأرض منها جثة صاحب الحانة المعروفة بحانة "رومة" ووجد في شارع شريف باشا جثثًا كثيرة من جثث الأوروبيين وبعض المستحفظين وكانت علامات الرض والضرب الشديد ظاهرة في أجسام الأوروبيين.

وفي يوم السبت رأيت طائفة من الملاحين والعساكر الإنجليزية تطوف أزقة المدينة وأحياءها ولكنهم لم يقبضوا على مفاتيح أبوابها إلا بعد أيام عديدة".

ثم ينهي "دومريكر" تقريره بالشكر لضابطين إنجليزيين ساعداه في إطفاء النار في الوكالة الفرنساوية وحماية وكالته من الحريق والنهب وأضاف بأنه لو نزل الإنجليز إلى المدينة بعد إطلاق المدافع عليها لما حدث ما حدث من حرق ونهب ولما أصيبت بتلك النازلة الهائلة ولأضعف ذلك عزائم العرابيين.[83]

كانت هذه حكاية القنصل الوحيد الذي أصر على أن يبقى بالمدينة البائسة ليحمي ممتلكاته وتمكن في نفس الوقت من حماية الكثير من الأرواح التي كادت تضيع لولا أن وجدت هذا المأوى.. إنها حكايات بلون الخوف ورائحة الإنسان.. حكايات لا يمكن أن تتكرر إلا في ظروف غير عادية كتلك التي عاشتها المدينة التي كانت يومًا ما وادعة.

83- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 104.

حكايات بنكية شجاعة

ويبدو أن المسيو "دومريكر" لم يكن هو الشجاع الوحيد الذي فضل الإقامة في المدينة والدفاع عن ممتلكاته، فقد كان هناك بالقرب منه رجل آخر هو المسيو "جوسيو" مدير بنك الأنجلو إجيبسيان الذي كان يقع في شارع شريف باشا وهو الشارع الذي كان يمتلئ في ذلك الوقت بالبنوك الأجنبية، فقد أصر هذا الرجل على البقاء في بنكه لحماية أموال المودعين هو وامرأته وأهله وتأهب للدفاع عنه فأعد كل ما يحتاج إليه من سلاح وعتاد، وجمع معه بعض الرجال ممن كان يعهد فيهم الطاعة والأمانة وبقي في مكانه إلى نهاية الحرب وقد شجع موقفه هذا المسيو "موج" الفرنساوي مراقب صندوق الدين أن يلجأ إليه مع عائلته وحمل معه النقود التي كانت في حوزته في ذلك الوقت والتي كانت تخص الحكومة المصرية وكانت مبالغ كبيرة فأودعها خزانة بنك الأنجلو إيجيبسيان وكان ذلك سبباً في حمايتها من النهب والحريق ويقول المسيو "جوسيو" في تقريره الذي رفعه فيما بعد والذي يحكي فيه ما عاصره من أحداث وحكايات:[84]

"في صباح 11 يوليو حصل في المدينة هيجان عظيم وكانت الطرق في الساعة الثالثة من الصباح غاصة بالعساكر الذين كانوا يردون إليها من الباب الشرقي ويتوجهون إلى رأس التين، وفي الليل أخذ الوطنيون في إخلاء المدينة متوجهين إلى داخلية البلاد وفي الساعة السابعة أطلقت إحدى الدوارع الإنجليزية بعض مدافع وفي الساعة الثامنة ركب عرابي باشا وطلبة باشا عربة وأخذوا يطوفون بها المدينة وفي الساعة التاسعة أُرسل نفر من العساكر إلى مساكن الأوروبيين ليتجسسوها ويعلموا إذا كان بينهم وبين اللورد سيمور مخابرات بالتلغراف أو بالتليفون وكان بعض العساكر وأمامهم أحد الضباط يصعدون على سطوح البيوت ويقطعون أسلاك التليفون وقد رأينا فأس ملطخة بالدم في يد أحدهم فعرفه خادمي وقال لي إنه ذبح إنجليزياً وجده في حالة مخابرة مع الأميرال فلما سمعت ذلك تيقنت أنه لم يكن إلا

84- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص105.

الفتى الفرنساوي الموظف في إدارة التلغراف الذي قُتل بينما كان يحاول الالتجاء إلى مكتب الإيسترن تلغراف كومباني. واستمر إطلاق المدافع النهار بطوله ولم تسقط في المدينة إلا كرات قليلة من المدافع الإنجليزية وكنا بين الحين والآخر نسمع صفير القنبلة وطوراً صوت قصفها من فوق رؤوسنا وقد هدمت إحداها جداراً في شارع الرمل وراء بيت أنطونيادس ونفذت إلى داخل البناية.

ولم تنقطع في خلال النهار مهاجرة الأهالي ولكن في نحو الساعة الخامسة حدث تغيير مهم فإن الهاربين أمسكوا فجأة عن الجلاء وعادوا إلى المدينة فرحين يتبادلون التهاني بالتعانق ثم سمعن النساء ينشدن الأغاني المعروفة بالزراغيط وحرنا في بادئ الأمر من ذلك ثم علمنا أن ذلك الانقلاب ناشئ عن وفود كثيرين من ضباط البحرية وأعلموهم أن نار الإنجليز قد انقطعت إثر إغراق الحصون المصرية دراعتين فأخذنا نضحك من سخافة عقول المصدقين فقد كان الخبر في الواقع مقلوباً معكوساً وبعد وقت يسير انقلبت أفراح الوطنيين إلى كدر ويأس.

وفي اليوم التالي انتظم في ساحة المنشية نحو ألف جندي من الجنود المصرية انتظاماً حربياً وحاول ضباط هؤلاء الجنود الدخول عنوة إلى بنك "الأنجلو إجيبسيان" وبنك "الكريدي ليونيه" ثم قالوا للمسيو موج مدير إدارة الصندوق أنهم تلقوا من مصادرهم السامية أمراً بذبح جميع الأوروبيين ولكن إذا دفع إليهم ما لديه من الأمتعة والأموال عفوا عنه وأبقوه سالماً.

وفي الساعة الثالثة رأيت أحد أمراء الآلايات متأبطاً حذاءً جديداً وآخر قابضاً على ساعة كبيرة من الساعات الثقيلة فلما رأى أنه لا يستطيع حملها قذفها من يده فصدمت جداراً فسقطت قطعاً صغيرة وفي الواقع أن الأمتعة التي أُتلفت تفوق عدد الأمتعة التي نُهبت، وكان الثائرون يجمعون أوراق البالات والصناديق بعد النهب ويشعلونها فتضطرم ناراً تحرق المخازن المنهوبة في لحظة عين.

وفي الساعة الخامسة انقطع عمل الناهبين وتشتتوا فرق وجماعات وكان قد صدر لهم الأمر في الساعة الثانية بعد الظهر بترك حراسة البيوت المودعة لهم وفي الساعة السادسة تحولت شوارع الأوروبيين إلى شعلة نار وكنا نرى قوماً من الوطنيين يدخلون الحوانيت المحترقة ويأخذون ما تركه الجند

غير منهوب ولزيادة المحافظة على البنك الذي كانت النار محدقة به من كل جانب أرسلت طائفة من رجالي ليتبعوا أثر الأشقياء ويطردونهم من جوار البنك بنار البنادق وفي الليل أقبل علينا شراذم من العائلات الأوروبية طالبة ملجأ تأوي إليه.

ولما رأيت في صباح الخميس أن الجنود الإنجليزية أبطأت في الخروج إلى المدينة لإنقاذها من أهوال الحريق قررت الخروج من البنك والذهاب لملاقاتهم فسرت مستصحباً جميع رفقائي وعددهم نحو 70 شخصًا أما النساء والأطفال فجعلناهم يسيرون في وسط جيشنا الصغير الذي كان يحميه من جميع أطرافه بعض من اليونانيين ورجال الجبل الأسود وفي الطريق لقينا قوماً من الأوروبيين في مثل الحالة التي كنا فيها عددهم 35 شخصًا فانضموا إلينا وسرنا سوياً إلى الميناء بين المنازل المتهدمة والبيوت المشتعلة، ولما وصلنا إلى الباب المؤدي إلى رصيف المرفأ وجدناه مقفلاً فأخذنا نكسره بالفأس حتى



إسكتش للحالة في شارع شريف واندلاع النيران في المباني المجاورة لبنك "كريدي ليونيه" الذي نجا من الحريق كما صورتها جريدة The Illustrated London news بتاريخ 5 أغسطس 1882.

جعلنا فيه مدخلاً فنفذنا منه إلى الرصيف وهناك وجدنا بعض قوارب صغيرة مهجورة فركبناها وسرنا بعد أن قضينا نحو ربع ساعة في المسير وصلنا إلى السفينة "هليكون" حيث استقبلنا اللورد سيمور بمزيد التأهيل والإكرام".

حكاية حزينة من قلب المدينة

ثم نقل سليم النقاش تقريرًا آخر لشخص يدعى "بونزيللي" لم يذكر من هو غير أنه يوضح أنه كان شاهد عيان للمهزلة التي مرت بها المدينة خاصة أنه يبدو من حديثه أنه كان في قلب المنشية أو بالقرب من تمثال محمد علي مما مكنه من مشاهدة الكثير من الأحداث مما دعاني لنقل بعض المقتطفات من تقريره:[85]

"في الساعة الثانية من ظهر الثلاثاء سمعنا صوت النفير يدعو الجند إلى الاجتماع في ساحة المنشية فاجتمعوا ثم انتشروا على طول خط المخازن وأخذوا في كسر أبوابها بالبنادق وفي لحظة امتلأت ساحة المنشية برجال السلب والنهب فكانوا جميعًا مسلحين بالسيوف والهراوي وآلات الكسر والقتل ويساعدون العساكر في تحطيم الأبواب والنوافذ ولم يمض وقت يسير حتى كانت الأرض قد تغطت بأصناف البضائع وأنواع الملابس والساعات الكبيرة وزجاجات الروائح والأعطار والبنطلونات وقطع القماش، ولا أستطيع حصرًا للأسلحة التي نُهبت فإننا ما رأينا من المارة أحدًا إلا كان حاملاً بندقيتين أو ثلاثة وكثيرون منهم كانوا يأتون بعربات النقل ويملأونها بالغنائم وكان بعضهم عندما يصلون إلى مخازن "غاستو وبريمي" يطرحون أحمالهم على الأرض فتتحطم ويستبدلونها بما يكون أخف ثقلاً وأغلى قيمة فكان هذا يرتضي بعلبة من علب الموسيقى وآخر بجرس ساعة كبيرة ومما يُذكر أنه كان هناك بعض شيوخ يصرخون بأصوات محزنة ناهين رادعين ويرفعون أيديهم نحو السماء قائلين

85- سليم خليل النقاش –مصر للمصريين- الجزء الخامس ص116.

"يا الله.. يا الله" لكن الناهبين وجدوا مشقة في فتح مخزن "شيكولاني" حيث قضوا أكثر من ساعتين في ضرب القضبان الحديدية حتى فتحوه وبينما هم كذلك إذا بضابط كبير (عرفنا فيما بعد أنه طلبة باشا) أوقف عربته حينما مر من أمام المخزن ودنا من الأشقياء وأخذ يضربهم بحد السيف ثم دخل إلى المخزن وطرد من كان فيه وأمر أحد الجنود بمنعهم من الدخول من جديد فلاح لنا أنه أجابه سلبًا فما كان من طلبة باشا إلا أن شهر السيف عليه وقصد أن يضربه ففر الجندي من أمامه فتبعه طلبة باشا حتى انتزع بندقيته ثم ما لبث أن عاد الناهبين إلى المخزن وبعد مضي ربع ساعة كان فارغًا من الألبسة والمنسوجات.

وقد خرج أحد السودانيين من المخزن حاملاً قطعة من المخمل فالتقى به أحد العربان الذي انقض عليه وأمسك كل منهما بطرف من الثوب يشده إليه فلما رأى البدوي نفسه متعبًا استل مدية وطعن بها السوداني الذي سقط يتخبط في دمه فتدحرج حتى وصل إلى قاعدة تمثال محمد علي وهناك حاول النهوض فأطلق عليه بدويان آخران الرصاص وتركاه قتيلاً.

وفي نحو الساعة الخامسة نظرنا اثنين من الرهبان العازاريين يركضان ووراءهما بعض الشباب الرعاع يتبعونهما وأحدهما معصب الرأس وكانا يتلفتان أثناء ركضهما ويتعرجان اتقاء الحجارة التي كانوا يرجمونها وعندما وصلا إلى القنصلية الفرنساوية هجم عليهما أحد رجال النهب السارحين في الطرقات والشوارع بهراوة مرفوعة في يده ولحسن حظهما تقدم أحد الجند وأوقف الهاجم عن فعله وأمر بقية الأوباش بالابتعاد عنهما وعلمنا بعد ذلك أنهما لم يتمكنا من الوصول إلى الدير بل اختبآ في دار البوسطة المصرية يومين كاملين من غير طعام، وقد أصبحت ساحة المنشية قفرًا وأمسينا لا نرى فيها إلا بعض من حملهم الخوف والجبن على عدم الاشتراك مع الأشقياء في النهب والسلب فكانوا يسيرون الهوينا ويلتقطون الأمتعة والثياب الساقطة من أيدي الناهبين.

وفي نحو الساعة السابعة والنصف مساءً صعدنا إلى السطوح فرأينا النار مضطرمة في شارع شريف باشا وشارع البوسطة الإيطاليانية وشارع السبع بنات وسكة المنشية الصغيرة وشارع العطارين كما

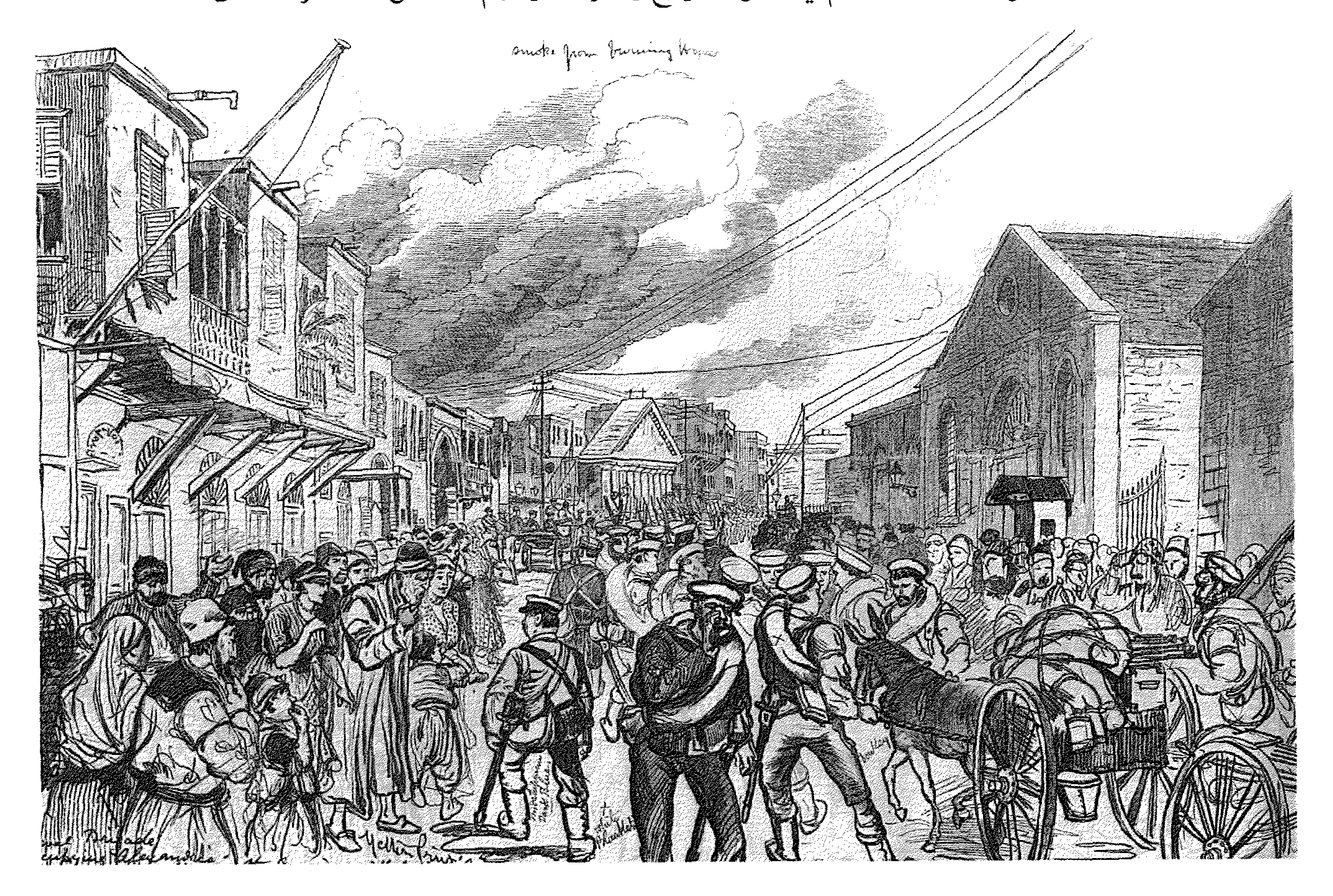
رأينا النار متقدة في فندق أوروبا كما رأينا زمرة من رجال الحريق يضرمون النار في مخزن شيكولاني وكانت النار قد لعبت في ثلاث جهات من الوكالة الجديدة وسرت من مخازن شيكولاني إلى دار القنصلية الفرنساوية.. ولما عظُم الخطب قررنا المسارعة إلى النجاة فخرجنا من الباب الصغير وبينما كنا سائرين إذ رأت السيدة (ب) ثلاثة عساكر مقبلين نحونا فدنت منا وقالت لنا بصوت هامس خفي "اهربوا.. اهربوا.. هاهم مقبلون" ولكنهم كانوا قد أدركونا فقبضوا على الجارية وسألوها إلى أين هي ذاهبة فقالت إنها فرت من بيتها لاضطرام النار فيه فسألوها: "هل أنت مسلمة أم مسيحية؟ فقالت: "مسلمة فقالوا لها: "اتبعينا فننجيك" فقالت: "إني متوجهة مع صديقتي المسلمة أيضًا إلى مقر والدتها المقيمة في إحدى الحدائق خفيرة مأجورة" فقالوا لها: "اذهبي وأسرعي في المسير فإن النار سارية وستحترق المدينة بجملتها"... فسرنا حتى وصلنا إلى باب كنيسة القديسة كاترين فلقينا زمرة من رجال الحريق فسألونا "هل أنتم مسلمين" فقالت الجارية "نعم نحن مسلمون" فقالوا "طيب" وأخذوا في إتمام مسيرهم.

وأكملنا المسير حتى وصلنا إلى دار الجمعية الأرمنية وتسلقنا الأسوار الحديدية أما السيدة (ب) فقاست شديدًا بالنظر إلى اكتناز جسمها فإنها انطرحت أرضًا مغشيًا عليها، وقد وجدنا في هذه الدار نحو 60 نسمة من كل جنسية ومذهب وقد قام كاهنين من هذه الدار بتعيين رجال مسلحين بالسكاكين والغدارات والهراوي للمحافظة على الجمعية ووقايتها من غدر الرعاع وكان يطرق آذاننا صوت سقوط البيوت وإطلاق المدافع وقد روى لنا الخفراء أن ذلك الصدى هو ضوضاء مذبحة المسيحيين الذين التجأوا إلى كنيسة القديسة كاترينا وآخرون قالوا إن الإنجليز خرجوا إلى البر وأخذوا يقتلون الثائرين برصاص بنادقهم. وعندما نفد الزاد تنكر اثنان أو ثلاثة من الخفراء بالزي الوطني وخرجوا إلى السوق فابتاعوا من الخبز بثلاثة فرنكات.. وانبرت النساء الأرمنيات لصنع أرغفة من الخبز بدون خمير فكن يشوينها على أغطية الحلل ويدفعونها إلى الجياع وهكذا استعضنا بالأرز المغلي مع قليل من البقدونس عن مرق اللحم وقضينا على هذه الحال يومين كاملين هما الخميس والجمعة.

في يوم الخميس وصل إلينا لطيف أفندي آتيًا من دمنهور، وأخبرنا أنه رأى ضفاف الترعة مغطاة بجثث القتلى وكانت جثث رجال النهب الذين قتلهم العرب أثناء الطريق وأنه رأى في شارع الباب الشرقي عددًا كثيرًا من القتلى وكان أكثرهم من السوريين سكان محلة كوم الدكة وقد رأى أمام مخزن "شيرفوليا" قتيلين من الأوروبيين كان الثائرون قد فتكوا بهما حيث كانا خفيرين على المخزن.

وفي صباح السبت خرجنا لنرى ما وصلت إليه حال منازلنا فرأينا النار مستمرة على الإفناء والإتلاف ورأينا بعض القتلى يتخبطون بدمائهم في بعض الشوارع والطرقات ومنهم ثلاثة من العساكر

دخان الحرائق وعودة المهاجرين كما صورتها جريدة The Illustrated London news بتاريخ 5 أغسطس 1882.



المصرية منطرحين في رصيف مخفرة العطارين ووجوههم لاصقة بالأرض ومنهم بواب كان في حالة النزع أمام باب وكالة طوسون باشا، وكنا نرى بين الحين والآخر جدران البيوت تتساقط.

وبعد أن تفقدت منزلي وتأكدت أنه لم يصب إلا بالنهب فقط رجعت إلى دار الآباء الأرمن متأثراً من الفظائع التي رأيتها حتى سافرت إلى أوروبا في التاسع عشر من يوليو".

الأباء الفرنسيسكان وحكاية المدينة الحزينة

الآباء الفرنسيسكان هم رهبان وكهنة دير سانت كاترين، وقد حاول القنصل الفرنساوي عند اشتداد الأزمة حثهم على مغادرة الإسكندرية والصعود على متن إحدى السفن التي أرسلتها حكومته ليكونوا في مأمن من الضرب ولكن بعضهم وعددهم 11 راهباً رفضوا وعلى رأسهم الأب "غليوم" وفضلوا البقاء في المدينة التي كانت على شفا الانفجار بالإضافة لثماني من راهبات المستشفى الفرنساوي الذين أعلنوا أن من واجبهم البقاء لمداواة الجرحى الذين سيقعون جراء هذا الاعتداء وسوف أنقل بعض الحكايات عن هذه الأيام من التقرير الذي كتبه الأب "غليوم" وقال فيه:[86]

"امتلئ الدير في يوم 10 بالأمتعة والمنقولات وأشخاص كثيرين نساء وأطفال وشيوخ وفتيان من كل جنسية ومذهب وبلغ عدد أهل الدير يوم إطلاق المدافع 84 نسمة منهم 11 من الآباء و22 من الطليان و4 من اليونان و5 من الفرنساويين و6 من الإنجليز و18 من النمساويين و10 من المصريين و8 من العثمانيين غير المصريين وفي الأيام التالية زاد عددهم كثيراً.

86- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 107.

وفي يوم 11 وبينما كنت في غرفتي سمعت صوتًا هائلاً ففتحت باب الغرفة فإذا بغبار يثير في الفضاء فقد انفجرت قنبلة من قنابل المدافع وسقطت بجواري وهدمت قسمًا من مخدع مجاور لغرفتي وبعدها سقطت قنبلتان من تلك الكرات الهائلة بالقرب منا على مسافة عشرة أمتار من الكنيسة.

وبينما كانت الراهبات يعتنين بمرضاهم في المستشفى إذا بقنبلة سقطت فوق الطابق العلوي من المستشفى ولحسن الحظ لم يصب أحد بأذاها.

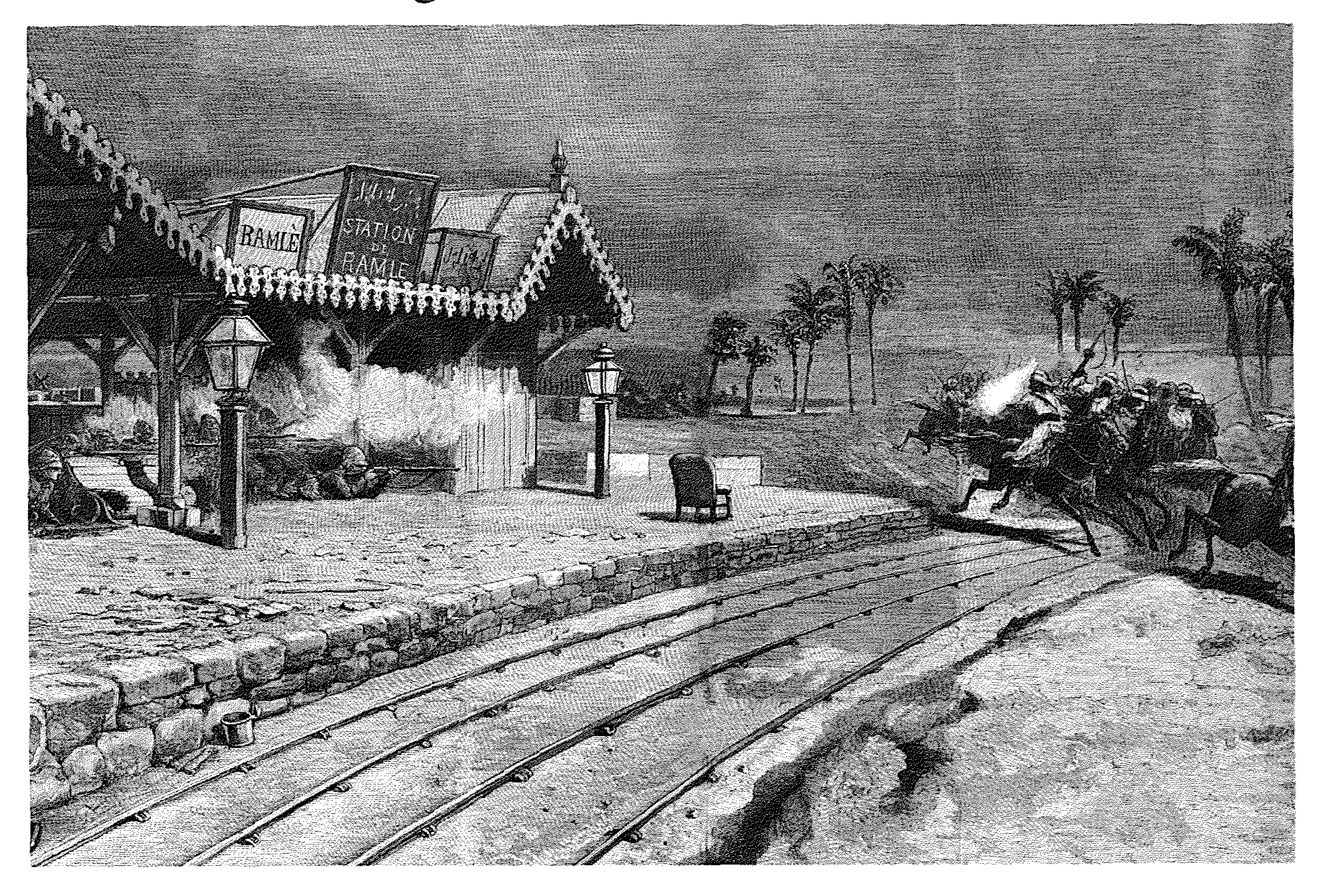
وفي اليوم التالي (12) عادت أصوات المدافع وهرع كثيرون إلى النوافذ يستشرفون منها الطرق والشوارع وبدلاً من أن يروا وجوه الإنجليز رأوا عصابة من رعاع الوطنيين والعربان المسلحين يقتحمون البيوت وينهبونها فزاد هذا المشهد خوفهم وأخذوا يصرخون ويستجيرون. وقررت أن أذهب إلى المستشفى فالتقيت راهبة هناك قالت لي: "إن طفلاً صغيرًا مات بالأمس ولم يكن من واسطة لنقله إلى المدافن فأطلب إليك أن تدفنه في الحديقة" فطلبت صندوقًا فلم أجد فحفرت حفرة في الحديقة دفنت فيها الجثة، وفي نحو الساعة الرابعة أخبرنا أحد الملتجئين أن رجال الفظائع أخذوا في الجلاء عن المدينة وأن في قلبها وأطرافها نارًا ولم يمض وقت يسير حتى احترقت بعض البيوت القريبة منا وتبين أن النار قد أُضرمت في خمس أو ست جهات مختلفة وازداد لهيبها في الليل، وفي منتصفه وجدت نفسي أمام مشهد هائل لا تمحوه من ذهني تغيرات الأيام فقد أبصرت عصابات من الأشقياء تسكب زيت الغاز في الطرق وعلى أبواب البيوت ونوافذها ثم يشعلونه فيلتهب وقد أخبر أحد الرهبان أنه شاهد اثنين من رجال الحريق اقتربا من باب الدير حاملين براميل صغيرة ملأى بزيت البترول ولكنهما بعد أن تشاورا انصرفا دون أن يفعلا شيئًا.

يوم 14 سمعنا أن الإنجليز عزموا على الخروج إلى المدينة ولكن النار كانت ماتزال مشتعلة وابتلعت مساكن وأبنية كثيرة ومنها المدرسة الإيطالية، وقد خرجت أنا وأحد الآباء العازاريين فرأينا المدينة في هيئة محزنة وعندما وصلنا إلى المنشية لقينا أحد محرري جريدة التيمس الذي أبان لنا سروره من اجتماعه بمن يخاطبه بعد مرور تلك الأيام الهائلة ثم وصلنا إلى موقع كنيس الإسرائيليين المقابل لكنيسة الأقباط

فرأينا أبواب هذين الملجأين تنفتح وتخرج منها رؤوس خائفة تستشرف الطرق فلما رأونا أحرارًا ناجين من الخطر تلقونا بسرور وفرح. وعندما عدنا إلى الدير رأينا أحد البيوت الملاصقة لدار القنصلية اليونانية مشتعلاً فحاولنا أن نوقف سير اللهيب وفشلنا فوسائل الإطفاء لم تكن كافية وبينما نحن كذلك أقبل الملاحون اليونان وأخذوا في إخمادها حتى تمكنوا من إطفائها بواسطة مطافئهم".

هذه بعض الشهادات والحكايات المرعبة التي عاشها أصحابها ونجوا من الموت فيها بأعجوبة ليقدموا شهادات حزينة أصبحت بمرور الزمن جزءًا لا يتجزأ من تاريخ المدينة.

هجوم العربان على الإسكندرية من جهة الرمل قادمين من صحراء أبي قير.. صورة رسمها إف. فيليبة مراسل جريدة The Graphic ونشرت بتاريخ 19 أغسطس 1882.



إنجليزي.. أمريكاني.. يوناني.. ألماني.. روسي.. كله في المدينة المشتعلة

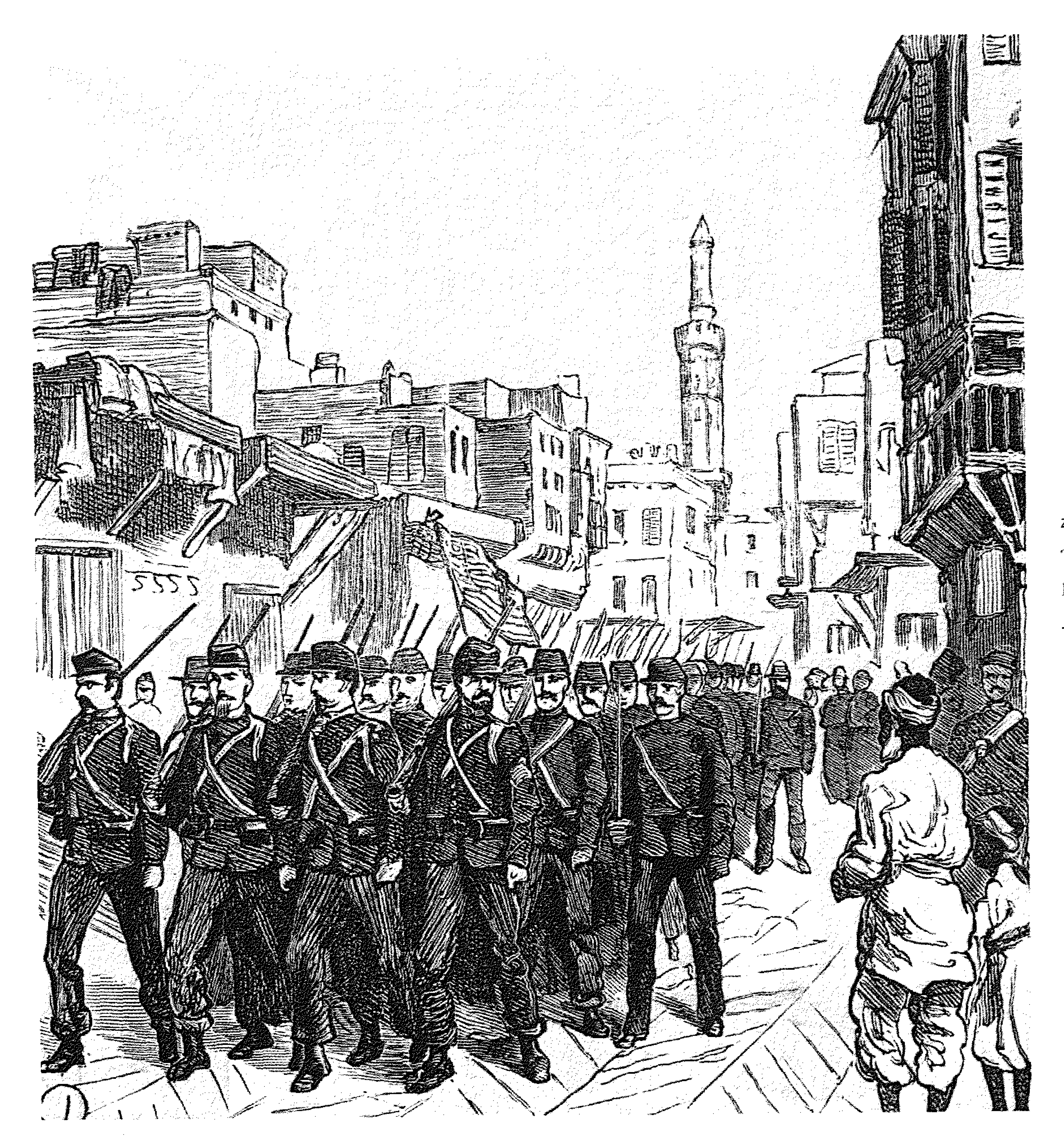
وبعد هذه الحكايات والروايات الحزينة عن أناس قتلهم الخوف والقلق والترقب عما تسفر عنه الأيام بل الدقائق القادمة.. بقي أن أقول إن الأجانب كانوا ينتظرون الفرج المُتمثل في نزول الجنود الإنجليز إلى البر بفارغ الصبر.. وكان الكل يتعجب من تأخر الإنجليز في القيام بذلك، بينما كان الأسطول الانجليزي وقائده يخشون مما قد يحدث في المدينة المحترقة ويعتقدون أن العرابيين قد يكونون في انتظارهم داخل الإسكندرية وهو ما ثبت عدم صحته فقد هرب العرابيون وتركوا المدينة تعاني ما عانته على مدار يومين كاملين حتى كان يوم 13 يوليو عندما أنزل الأميرال الإنجليزي سيمور فرقة من جنود البحرية وعددهم 300 جندي لحماية الخديو توفيق ومن معه بعد عودته لسراي رأس التين، ولكن تبين أن هذا العدد قد يكون غير كاف إذا قرر الثائرون -الذين كانوا مايزالون في المدينة- مهاجمة السراي ليلاً فبقي من في السراي غير مطمئنين على أرواحهم اطمئنانًا تامًا حتى أصبح الصبح فأنزل الأميرال فرقة أخرى من جنوده وأردفها بفرقة ثانية طافت شوارع المدينة وأمامها عدد من المدافع "الميتراليوز".

ثم قام قائد السفينة الأمريكية بإنزال 140 جنديًا بحريًا ومعهم مدفعان من مدافع "الميتراليوز" مساء يوم 13 يوليو فنزلوا وانبثوا في الشوارع والطرقات ووصلوا إلى دار قنصليتهم الكائنة في الوكالة المعروفة "سين مارك بلدينج" ورأوا النار مشتعلة في مخزن واقع فيما وراء دار القنصلية فأطفأوها فأنقذوا الدار والوكالة وتحرزوا في الوكالة وأعدوا وسائل الدفاع فوضعوا أحد المدفعين في الجهة المشرفة على المنشية والأخر في الجهة المقابلة لها، ثم أقام الضباط في "السركل" المعروف بسركل محمد علي في الوكالة المذكورة.[87]

وعن نزول القوات الأمريكية يقول ألبرت فارمان:[88] "وقبيل ظهر اليوم الرابع عشر وكان يوم الجمعة كان الأميرال الأمريكي قد سئم من الانتظار فأرسل 175 بحارًا إلى المدينة لإعادة فتح القنصلية

87- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 80.

88- ألبرت فارمان -مصر وكيف غُدر بها- ص 344.



انسحاب البحرية الأمريكية من الإسكندرية The Illustrated London News في 12 أغسطس 1882.

الأمريكية وليفعلوا ما بوسعهم لإخماد النيران وقد أعادت قوتنا الصغيرة الهدوء إلى بعض أحياء المدينة ورفعت العلم الأمريكي عند الطرف الجنوبي من ميدان محمد علي".

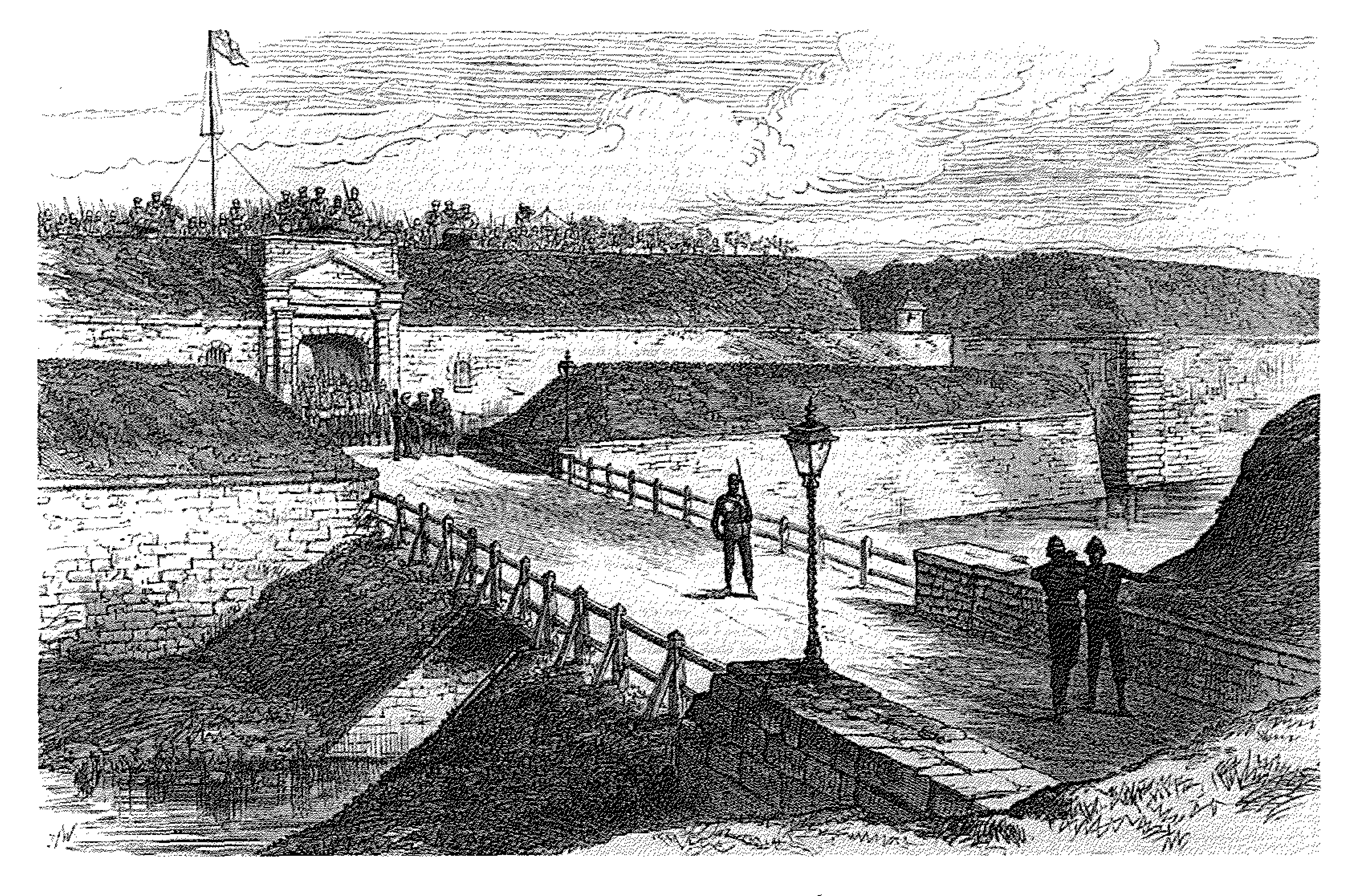
وقد ظهرت بعض الاختلافات بين روايتي فارمان وسليم النقاش من حيث توقيت نزول الجنود الأمريكان إلى البر وعددهم ولكنها في النهاية اختلافات بسيطة لا تؤثر على السياق العام للحكاية.

ثم قام "بريتويتز" قائد السفينة الألمانية هانجت بعد ظهر يوم 14 يوليو بالنزول إلى المدينة ومعه 20 رجلاً من ملاحيه لحماية مستشفى الراهبات (دياكونس) وعن ذلك يقول في تقريره:[89]

"وصلنا إلى الترسانة في نحو السابعة ودخلنا أبواب المدينة وقد قام عليها جنود من البحرية الإنجليزية لحمايتها ومررنا بباب محرم بك وكنا مستصحبين قواسًا من قواسة قنصلية ألمانيا الجنرالية ليرشدنا إلى المستشفى وبعد أن مررنا بالباب الأول أمرت رجال فرقتي بحشو بنادقهم وبلغنا المستشفى دون معارضة من الأهالي بل كانوا يحيونا بالسلام واضطررنا أثناء مسيرنا أن نغير طريقنا مرارًا بسبب اتقاد النار في البيوت المحترقة على الجانبين وتهدم جدرانها، وفي الشوارع الأولى وجدت جميع البيوت والمساكن منهوبة ومحروقة وأبوابها محطمة حتى وصلت إلى الجهة القريبة من مركز قنصليتنا فوجدت الإتلاف والفظائع أقل منها في الطرق التي مررت بها وقد مررنا أثناء سيرنا بنحو عشر جثث وفي اليوم التالي زاد عدد الجثث فعرفت أنها أجساد بعض رجال الضبطية الذين رمتهم الجنود الإنجليزية بالنار إذ رأتهم ينهبون ويسرقون وكانت الشوارع خالية من المارة غير الرعاع السقاط وبعض ساقة العربات الأجرة وجميعهم يمسكون النبابيت والعصي التي تعلوها الخرق البيضاء إشارة إلى المسالمة.

وعند وصولنا إلى المستشفى سر بقدومنا كل الموجودين ومنهم السائح الألماني "شونيفورث" ووجدت أن المستشفى لم ينهب بيد أن بعض الناس تسارعوا إليه يوم إطلاق المدافع وكسروا باب حديقته ودخلوا إلا أن كاتب القنصلية أطلق رصاصة من غدارته فارتدوا وقالوا إنهم لا يرغبون إلا في إنزال العلم خشية أن يكون إشارة للدوارع الإنجليزية فلما أُنزل العلم أخذوه وساروا.

89- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 76.



الجنود الإنجليز يقومون على حراسة بوابة محرم بك.. صورة نشرتها جريدة The Illustrated London News بتاريخ 5 أغسطس 1882.

وفي اليوم الرابع عشر من يوليو أيضًا نزلت فرقة من جنود الملاحين اليونان إلى البر مؤلفة من 120 ملاحًا مدججين بالسلاح نزلوا إلى رصيف القباري ومعهم مطفئتان للحريق ولم تستطع هذه الفرقة المرور من شارع الجمرك لشدة الحريق وتهدم المنازل فاتجهت نحو الجهة الجنوبية ثم شارع السبع بنات وشارع الساقية ومنها إلى مشمس التبن حيث منازل اليونانيين ودار القنصلية اليونانية، وكانت النار قد التهمت أبنية المنشية وامتدت إلى دار القنصلية اليونانية فعملت الفرقة على إطفائها.. وقامت الفرقة اليونانية كذلك بإنقاذ منزل المسيو أنطونيادس أحد أغنياء اليونان والمنزل الكائن إزاءه وفيه بنك "كريدي ليونية" وكان معهم أحد مراسلي جريدة "الجرافيك" الإنجليزية الذي أخذ يرسم الحادثة وأحد الضباط اليونان لما رأى المنزل الملاصق للبنك ملتهبًا أتى شرفته ومعه فأسًا وأخذ يضرب بها الجسور الخشبية الملتهبة حتى اقتلعها فلم يبق في البناء خشب تعلق به النار وبهذه الوسيلة دفع شر



الجنود الإنجليز يقبضون على جاسوس من العرب بعد النزول إلى البر بالقرب من بوابة محرم بك.. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 5 أغسطس 1882.

النار عن البنك وما إن نزل حتى رأينا الشرفة ساقطة على الأرض بفعل النار والبناء قد تقوض وانهدم حتى أساساته.[90]

أما الجنود الروسية التي نزلت إلى البر فلم يكن عددهم يزيد على ثلاثين رجلاً انطلقوا إلى دار قنصليتهم فوجدوها سالمة غير أنهم وجدوا بعض المنازل المجاورة تحترق فساعدوا على إطفائها.

وفي مساء اليوم الخامس عشر أعلن الأميرال سيمور أنه لم يعد هناك مبرر لبقاء الفرق الألمانية واليونانية والروسية والأمريكية في المدينة وبالتالي غادروا المدينة تباعًا حتى جاء يوم 17 يوليو إلا وقد

90- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 79.

خلت المدينة من كل هذه الفرق ولم يعد بها إلا الجنود الإنجليز الذين اتخذوا من سراي الحقانية مركزًا لهم.

وفي هذه الأثناء حاول كثير من الأجانب العودة لتفقد منازلهم إلا أن ذلك لم يكن مسموحًا به بدون إذن مخصوص كان يتم الحصول عليه من مجموعة من القناصل الذين عادوا للمدينة واتخذوا مكانًا لهم على طاولة أُعدت لهم خارج دار القنصلية الأمريكانية بالقرب من مخزن "بناسون" وكانوا يقدمون للأجانب تراخيص خاصة تسمح لهم بتفقد منازلهم موقعة من القومندان الإنجليزي الذي اتخذ له مركزًا أمام سراي المجالس المختلطة في المنشية؛ وبهذه الطريقة تمكن كثيرون منهم من إنقاذ أمتعته من النهب فإن بعض السفلة من الأجانب كانوا قد طافوا المنازل لنهب ما يجدونه فيها فلما بلغ ذلك للقومندان الإنجليزي أمر برميهم بالرصاص عقابًا لمن يتم القبض عليه منهم وردعًا لمن هم على هذه الشاكلة".

كلاكيت الإسكندرية.... بعد الحريق

وبينما كانت الحياة تمضي بطريقة طبيعية في كل مكان.. كان الوضع مختلفًا في الإسكندرية.. فقد كانت كل لحظة وكل دقيقة تحمل خبرًا جديدًا وأحداثًا مختلفة.. فما إن وضع الجنود الإنجليز أقدامهم في المدينة حتى بدأ التخطيط لإعادة إعمار المدينة ولعودة الأمور إلى طبيعتها... ورغم ذلك كان الحزن والخوف والقلق يخيم على المدينة وسكانها الذين بقوا فيها وشهدوا أحداثها المريرة فلا أحد يمكن أن يتكهن بالمستقبل أو ما يمكن أن تسفر عنه الأحداث...

ففي داخل سراي رأس التين كان الخديو توفيق يشعر بالقلق من كل ما يدور حوله فأمر بزيادة الحراسة حتى أن الخفراء قتلوا خادمًا ورجلين من ساسة الخيل رميًا بالرصاص ليلاً ظنًّا منهم أنهم جواسيس على السراي لصالح العرابيين؛ ففي ذلك الوقت كثُر الجواسيس وانتشرت الخيانة على الجانبين.

أما المدينة نفسها فقد تبدل حالها ولم تعد عروس البحر المتوسط.. بل يمكن أن يقال عنها إنها تحولت إلى أرملة المتوسط فقد اتشحت بالسواد بسبب غبار الحرائق الذي علق بمبانيها ونفد فيها الزاد والطعام وخاصة الخبز بسبب هروب الخبازين مع جملة السكان الذين هاجروا قبل الحريق، بالإضافة إلى عدم وجود الدقيق بسبب سحب أغلب كمياته لصالح الجيش.. كما شحت المياه وكادت أن تنقطع تمامًا بسبب تغيير مجرى ترعة المحمودية وهو العمل الذي قام به العرابيون للضغط على القوات الإنجليزية التي نزلت إلى الإسكندرية...

أما المصالح الحكومية فقد كانت معطلة ومهجورة وكذلك المستشفيات التي تُركت بدون أطباء أو تمريض اللهم إلا المستشفى الأوروبي والألماني؛ وبالتالي كثُر عدد المرضى والجرحى الذين أصيبوا في الأحداث الأخيرة ولزم توفير الرعاية الصحية لهم.

أما القتلى فحدث ولا حرج.. فقد كثُر عددهم وامتلأت بهم الحصون وبقايا الطوابي والمباني المهدمة حتى أن الهواء كان يحمل رائحة الموتى والقتلى؛ لدرجة أن سكان قصر رأس التين وعلى رأسهم الخديو كانوا يشمون هذه الروائح. ومما يُذكر في هذا السياق أن الماجور "تلك" من رجال المخابرات الإنجليزية والذي كان على ظهر البارجة "أنفينسيبل" ذكر أنه بعد نزوله إلى البر طاف حول البطاريات بقرب رأس التين فرأى أن الخسائر في الأرواح من جنود المدفعية والبيادة بلغ أكثر من 800 قتيل، وأنه لما وجد أن عدد القتلى في نهاية الحرب كان كبيرًا جدًا لم يجدوا بدًا من فتح حفرة واسعة في رأس التين وأُلقيت أجسادهم فيها ثم ووريت في التراب. ورغم ذلك كان الإنسان في عدة مواضع من هذه الحفرة يستطيع أن يرى الطبقة العليا من هذه الأجساد ظاهرة على وجه الأرض، بالإضافة إلى أن سواتر بعض الحصون قد سقطت على الجنود فأزهقت أرواحهم وبقيت أجسادهم تحت الأنقاض دون أن يستطيع أحد إخراجها.[91] وهذه القصة قد تقدم تفسيرًا لرائحة الموتى التي تصل إلى أنف سكان سراي رأس التين.

91- الأمير عمر طوسون -يوم 11 يولية 1882- ص 128.



القوات الإنجليزية بعد نزولها إلى البر تعبر الكوبري الذي يربط ترعة المحمودية بالإسكندرية... صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 26 أغسطس 1882.

وقد أمر الخديو توفيق بتشكيل لجنة صحية من بعض الأطباء المصريين والأجانب لفحص موضوع جثث القتلى، فلم تجد هذه اللجنة وسيلة لنقل الجثث التي كانت مطروحة في الشوارع أو موجودة تحت الرديم حتى أن طبيبين من الأجانب مرا بشارع السبع بنات فرأيا كلابًا متجمعة على جثث آدميين فرمياها بالرصاص ونقلا الجثث على عربة بأيديهما.

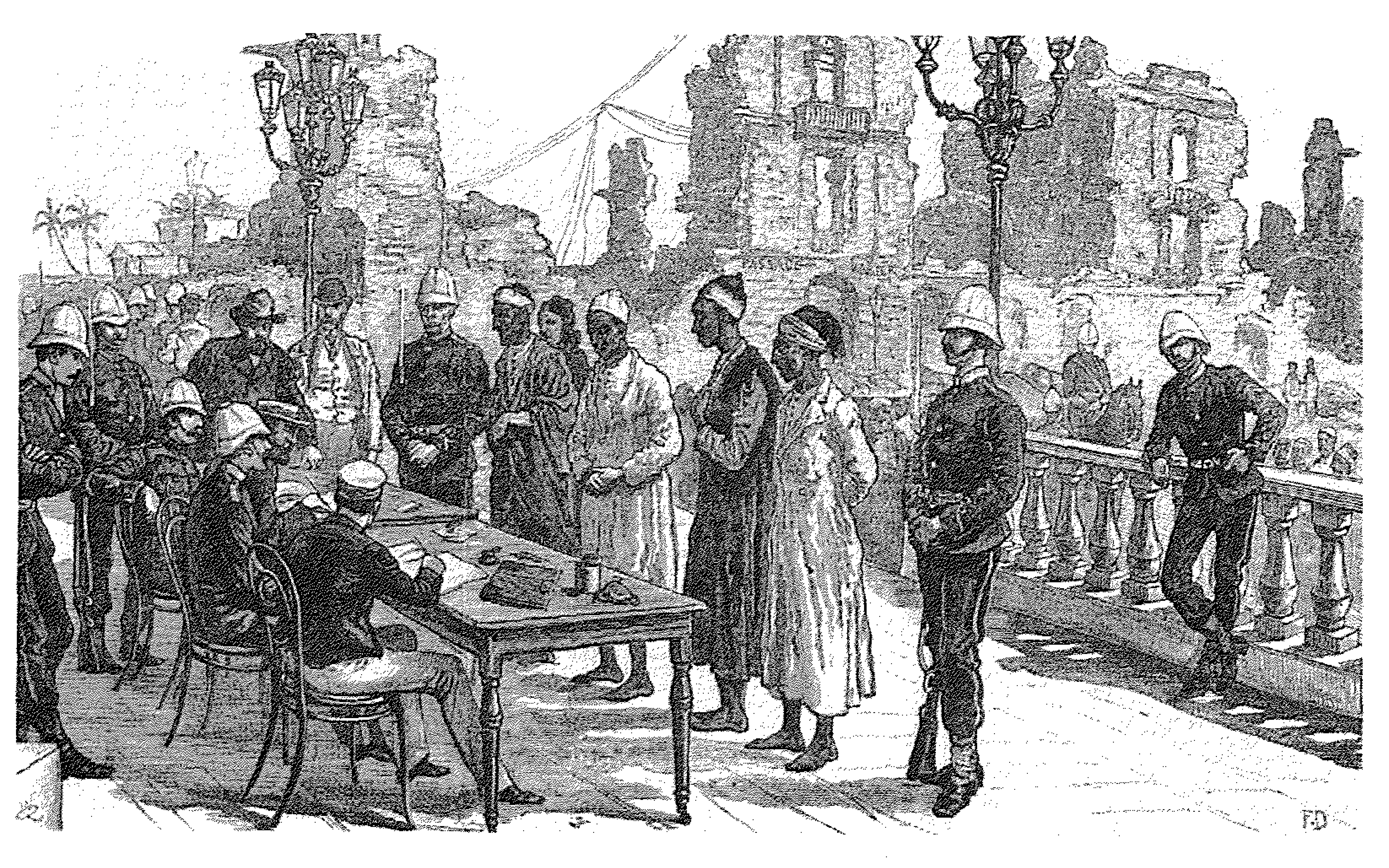
وكانت هذه اللجنة تجتمع في محل ملك لأحد الخواجات عند زاوية شارع شريف باشا، وكان هؤلاء الأطباء يتفقدون الأماكن التي حدثت فيها هذه الفظائع ويتابعون أعمال نقل ودفن الجثث، أما الجرحى فيتم نقلهم من الأزقة والشوارع إلى المستشفيات.[92]

92- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 126.

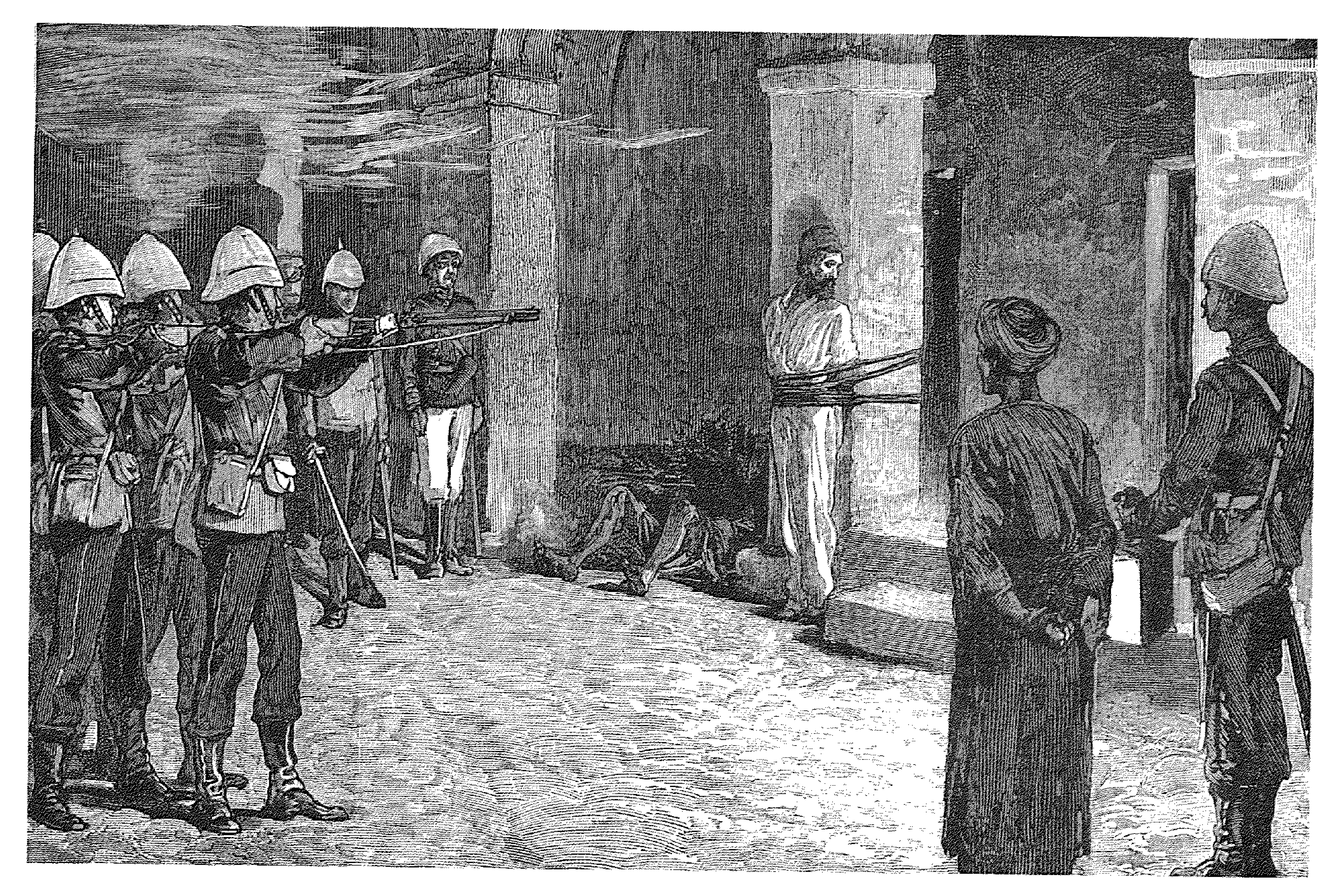
وفي يوم 17 يوليو قام جنود البحرية الإنجليزية بتعليق منشور في كافة الشوارع والأزقة والحواري موجه باللغة العربية من الأميرال سيمور إلى أهالي المدينة يقول فيه:

"إن أميرال القوة البحرية الإنجليزية في البحر المتوسط قد كُلف من قبل الجناب الخديوي بالمحافظة على الراحة مؤقتًا فهو يعلن للجمهور ما هو آت:

- قد فوض رئيس كل فرقة من العساكر التي تطوف المدينة أن يأمر بإطلاق الرصاص على كل من وجده يحرق بيتًا أو متجرًا أو غير ذلك.
- تقرر أن يساق إلى السجن كل شخص وجد في حالة النهب أو كل من وقعت عليه شبهة هذه الجناية أو أتى عملاً مغايرًا للقانون. يُرمى بالرصاص كل من قبض عليه مرتين لمغايرة بدت منه في الأحوال التي تقدم ذكرها. كل من لديه ما يشكو منه عليه أن يرفع شكواه إلى مقام الضبطية حيث ينظر فيها من غير إمهال. وخُتم هذا الإعلان بما يأتي:



لجنة التحقيق مع المتهمين بأعمال السلب والنهب تمارس أعمالها في ميدان القناصل. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 12 أغسطس 1882.



تنفيذ حكم الإعدام في أحد النهابين النصارى بالإسكندرية كما صورته جريدة "The Graphic" بتاريخ 29 يوليو 1882.

- وإن الأميرال يرجو كلاً من سكان المدينة أوروبيين كانوا أو وطنيين أن يعاونوه على تأييد النظام وهو يأمل أن يعود كلٌ إلى أشغاله وتجارته كما في العهد السابق".

وعملاً بأحكام هذا الإعلان أُلقي القبض في 17 يوليو على سبعة أشخاص كانوا يحرقون وينهبون فتم رميهم بالرصاص ودفنوا في ساحة المنشية.[93]

93- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء الخامس ص 126.

خسائر حريقة الإسكندرية

خسائر حريقة الإسكندرية هو عنوان مقالة نشرها داوود بركات قال فيها:[94]

"بدأت الحريقة في مدينة الإسكندرية في الساعة الثانية بعد ظهر 12 يوليو واستمرت النار تتقد حتى مساء 18 يوليو فماذا كانت الخسائر؟

لقد قدرتها لجنة التعويض بالفرنكات فقالت في تقريرها ما يلي:

خسائر الأملاك 26750175 فرنكًا.

خسائر الأثاث 24635050 فرنكًا.

خسائر البضائع 43395061 فرنكًا.

أما التعويضات التي دُفعت فهي 106820236 فرنكًا.

أما أهم الشوارع التي أُحرقت ونُهبت فهي بنايات المنشية ماعدا دار المحكمة المختلطة وشارع شريف ماعدا أبنية "الكريدي ليونيه" ثم الشوارع المتفرعة منه ومن المنشية وشارع الرمل وشارع البوسطة وما تفرع منه وشارع السبع بنات ووصل الحريق في بعض جهات المدينة إلى أطرافها، أما عدد القتلى فأنه لم يحص إحصاءً دقيقًا فقد كان الناهبون يقتل بعضهم بعضًا من أجل النهب والسلب.

ومن بين الأماكن التي أُصيرت في هذه الأيام إدارة جريدة الأهرام التي نُهبت وأُحرقت مطبعتها ودارها ولجأ أصحابها ومحرروها إلى المراكب فرارًا من أهوال الحريق، وكذلك قُتل من الصحفيين المسيو "فيولت" محرر جريدة "ألفار دالكسندري أو فنار الإسكندرية" وقد شهد مقتله جون نينيه السويسري الذي كان مقربًا من عرابي في ذلك الوقت حتى أنه كتب في مقال له في "جورنال جنيف" أن هذا الرجل قُتل بواسطة رجال الخديو وأنصاره، حيث أشار في كتابه إلى أن الخديو له جملة مشهورة قيلت

94- جريدة الأهرام الصفحة الأولى بتاريخ 30 ديسمبر 1931.

في سياق هذه الأحداث وهي: "فلتحرق البلد كلها ولا تبقى فيها طوبة على طوبة، فهذه فرصة عظيمة وحرب بحرب، فلتقع على رأس عرابي وعساكره الفلاحين".

ومن أهم الأماكن التي امتد إليها الحريق والنهب دائرة عرفان باشا ومدرسة الآباء العازاريين وكنيستهم ودائرة البرنس إبراهيم باشا بالمنشية الكبيرة والصغيرة. ودائرة لجنة الأملاك الأميرية من أول الشارع "فندق أوروبا"، قنصلية فرنسا، دائرة الخواجة زيزينيا، جزء من وكالة الإنجليز بملك أولاد الشيخ سليمان باشا بشارع السبع بنات والمنشية، منزل ودائرة الكونت زغيب، دائرتان للخواجة قرداحي، مخزنان للكونت دبانة، إدارة جريدة الأهرام ومطبعتها، منزل الخواجا إسكندر أديب بما فيه قنصلية إنجلترا في منطقة شارع باب شرقي وشارع المسلة. أما شارع شريف فقد حظي بجزء لا بأس به من الخراب والتدمير ومنها دائرة الكونت دبانة، دائرة الخواجا سرسق، دائرة طوسون باشا وغيرهم، ودائرتان للبرنس أحمد باشا في شارع توفيق.

أما خسائر شارع البوسطة الإيطالية وشارع العطارين فتشمل مخازن وقف العطارين ودائرة كنيسة الأروام ودائرة أرتين بك ودائرة والدة الخديو السابق والعديد من المنازل والأوقاف والدوائر الأخرى بالإضافة إلى إسطبل البارون يعقوب منشى ولوكاندة ملك نوبار باشا في جهة محرم بك..

هذه أسماء بعض الأماكن التي جعلتها نار الحريق خرابًا وقد قدر البعض من المهندسين مساحتها بحوالي 96,709 أمتار مكعبة أغلبها تضم أملاك الأوروبيين والأجانب الذين كانوا يعيشون في المدينة".

وقد نشرت جريدة الأهرام في صدر صفحتها الأولى مرسومًا أو قرارًا خديويًّا بعنوان:[95] "صورة إرادة سنية صادرة إلى عطوفتلو الباشا رئيس مجلس النظار:

إن الحالة الصعبة الموجود بها أغلب الناس الذين أصابهم القتل والنهب والحريق بسكندرية أثرت عندنا جدًّا وشغلت بالنا غاية المشغولية وقد ترأى لنا أنه من واجبات الإنسانية المترتبة على

95- جريدة الأهرام بتاريخ 8 أغسطس 1882.

حكومتنا أن تطمن من أصيبوا بهذا المصاب واعتراهم ذلك الخراب تطمينًا يزيل ارتيابهم في المستقبل وعلى هذا تعلن الحكومة أنها مستعدة لتعويض من أصيبوا بهذه المصيبة بدون استثناء في الجنسية والملية على حسب الشروط الذي يصير ربطها في الوقت اللازم بطريقة معتدلة موافقة لحالة مالية الحكومة فلهذا نؤمل توصيل إرادتنا هذه إلى مجلس النظار وابقي مسألة الطرايق والوسائل اللازم استعمالها لذلك والإفادة عن الإجراءات التي تستصوبونها لنشر ما احتوى عليه أمرنا هذا في أقرب وقت وإعلانه بدون تأخير".

وبعدها بأسبوع وبالتحديد في 14 أغسطس نشرت جريدة الأهرام بيان بأسماء المحلات التي أُصيبت بالحريق في ثغر الإسكندرية وأسماء أصحابها.

وبعد هذا التعهد بضمان الحقوق الذي قدمه الخديو للمضارين من الحريق وأعمال السلب والنهب واستتباب الأمن في الإسكندرية بعد نزول الجنود الإنجليزية إلى البر وتشكيل لجان بمعرفة الإنجليز والحكومة لتعويض المضارين والسماح للأجانب العائدين من دخول المدينة ومراجعة أملاكهم وبدء مزاولة أعمالهم، أخذ المهاجرون من المدينة يعودون

مكاتبات الجريدة
جميع المكاتبات التي ترسل الينا ينبغي ان تكون خالصة الاجرة باسم عزتلو بشاره بك تقلا مدير الجريدة
ومحل ادارتها على شارع بولوناكي بقرب البحر
اجرة سطر الاعلان في الصحيفه الاولى خمسة فرنكات
وفي الثانيه اربعه وفي الثالثه ثلاثه
وفي الرابعه فرنكان

الاهرام

قيمة الاشتراك
عن سنة عن ستة اشهر
فرنك فرنك
في القطر المصري وسائر الجهات ٥٥ ٣٥
قيمة الاشتراك تدفع سلفا . ثمن كل نسخة غرش صاغ

جريدة وطنية يومية سياسيه تجارية ادبية

العدد ١٤٢١ الاثنين في ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٢ الموافق ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٩ السنة الثامنة

ديكرتو خديوي

نحن خديوي مصر نرخص الى حضرة الاميرال قومندان عموم قوة دولة بريتانيا العظمى في البحر المتوسط والى كافة الضباط الذين هم تحت اوامره ايضًا بان يتخذوا كافة الوسائط التي يجدونها لازمة لمنع استحضار مهمات حربية على طول الخط الممتد من دمياط الى رشيد المكائن ما بين اسكندريه وبورسعيد وكل من لا يمتثل لامرنا هذا يصير ضبط الاشيا الممنوعة المذكورة فيه تحريرًا في سراي راس التين في ١٤ اغسطس سنة ٨٢

نحن خديو مصر

نعلن ادارات الحكومة المحلية الملكية والجهادية في قنال السويس بان حضرة الاميرال وقومندان عموم القوات البريتانيه المكلفين باعادة الامنيه والضبط في القطر المصري مصرح لهم بالاستيلاء على كافة النقط التي يرون لزوم اتخاذها لمركاتهم الحربيه ضد العصاة وانا ندعو تلك الادارات باعلان امرنا هذا الى كافة سكان القنال وعلى الخصوص وكلاء ومستخدمي القنال ونعلن ايضًا الى الجميع بان كل مخالفة الى امرنا هذا تعتبر مخالفة لارادتنا الخديويه وتعرّض مرتكبيها لاشد العقوبات

الاسكندريه في ١٤ اغسطس (اب) سنه ١٨٨٢

العثمانية وانكلترة

الدوله العثمانية مملكة متسعة الارجاء فقضى عليها طمع بعض الدول ان ترى في الاخلص منهن لها قسمي في محالفتها بشرط ان يجمعها الصالح فلم ترَ غير الدوله البريطانيه التي وفر مالها وعظمت مصالحها في الجهات الشرقيه الى حد لا ترى في صيانتها سبيلا الا بتعزيز الدوله العليه واتفاقها معها وعضدها ايانا ثم والحاله هذه ان مصالح الدولتين تقضي عليها في التحالف والوفاق

واذا راجعنا تاريخ الدولتين من سنين نرى ان انكلتره لم تاسف على الدرهم والدم ايام حرب القرم ولم يقعدها سنه الاربعين صمت اوربا ورغما عن اتفاق الدول الثلاثة في الحرب الاخيرة لم تقصر بواجباتها فان بين عهدة سان استفانوس وعهدة برلين بونًا عظيما للدولة العلية

قل لي ايها القاري ايجب ان ننسى مثل هذه الخدمات الجليله . ولا انكر ان مصلحة انكلتره نفسها استقدمتها الى ذلك ولكن ما دامت بو مصلحتي فلم اري بها سوءا . انسى ان وزارة غلادستون الحالية طلبت من اشهر الى الحضرة السلطانيه ان ترسل قوة لمصر وتقتص من عرابي ولو ارسلت الدوله العليه ذلك لما كنا نظرنا احتلال الجيش الانكليزي واتلاف استحكامات ثغرنا الاسكندري وتعطيل شئ من مدافعنا

وما دامت تلك خطة الحزبين المحافظ والليبرال فاذا يقعدنا عن اتباعها في اعمالنا وحركاتنا والقوة للمال والاصفر الانكليزي فارس لا يباريه فارس . وما رايناه في المؤتمر من اشتراطات انكلتره مرجعه حفظ امتيازات القطر المصري وتاييد سيادة الحضرة السلطانيه التي بتوقيعها على الاتفاق الحربي ومناداتها بعصاوة عرابي بددت غياهب ترهات العاصي الباغي واعوانه الذين لم يكتفوا بما ظلموا العباد وبما اتوه في اعمالهم من خراب البلاد بل تطاولوا بوقاحتهم فاختلقوا اوامر وبدلوا اوامر تسهيلا لمطامعهم وعونًا لمفاسدهم واحتقروا غضب امير المومنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون

وقد افادت اخبار دار الخلافه عن قرب سفر القائد العثماني والعساكر المظفرة الذين تعودوا القتال وشربوا دماء الابطال للاشتراك مع عساكر انكلتره في ردع الاشقياء المنافقين فالى متى انت يا عرابي مع اعوانك تامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم تدعون الاهلين الى طاعتكم وانتم تخالفون اوامر امير المومنين

يا معشر المصريين يا اصحاب الذكاء المتنورين ذروا الاشقيا وخذوا الصادقين من الجيش وارحموا بلادكم قد بدد شمل اهليها عرابي وانتهك حرمتهم . لا غاية للدوله البريطانيه الا رجوع نظام مصر وتاييد سلطة الحضرة الخديويه وكفى اشتراك الباب العالي بهذه المهمه برهانًا قاطعًا فاعضدوا العساكر السلطانيه ومهدوا لهم سبيل الاقتصاص من البغاة الطغاة وقولوا لعرابي واعوانه ان الموت الذي تفرّون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبيكم بما كنتم تعملون

يا ابناء المصريين هل تجهلون قوة الدولة البريطانيه التي يخاف بطشها اكثر من دوله اوربيه فلا تغرنكم شقشقة بارودي المنافق ولا [illegible] لكم عدائه واكاذيب روحه نديم [illegible] تعرفوا ما بنا من سرادق المجد وبيوت الشرف في ساحة القتال برًا وبحرًا من تناومون وتحاربون ... حرب نكثة . قولوا لي ناشدتكم الله المحتمين على حرب عساكر الخليفه امير المومنين واذا علم ذلك الا خالفون الشرع الشريف وقوله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادًا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف وينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم

بيان اسماء المحلات التي اصيبت بالحريق في ثغر الاسكندرية واسما اصحابها

(قسم اول شارع الكرك)

ثلثة مخازن وقف الملاح . دائرة المرحوم اكهي عثمان . منزل احمد التنيني الفران . منزل حسن الحلولي . منزل حسن افندي شحلول . منزل وقف الحرمه كوهه . منزل وقف محمود الاجهوريه . دكان من وقف بنت المدلر . منزلا السيد ابرهيم الناضوري . منزل جاد الله بخيت . منزل وقف الست زينب هانم . جملتها ١٤

(قسم ثاني في شارع السبع بنات والمنشيه)

دائرة المسيو اسكندر تونبدروني . دائرة سعادة عرفان باشا . دائرة حضرة احمد زوغيب . مدرسة وكنيسة الاباء المازاريين . دائرة سعادة البرنس ابرهيم باشا . دائرة كومسيون الاملاك الميريه من اول الشارع لغاية اوتيل ديروب . منزل بنديازا . منزل العزبي . دائرة اولاد الشيخ ابرهيم باشا . وكالة وقف الراكتي . وكالة وقف الراكتي بما فيها اوتيل المنشيه . سوق الجزارين والخضريه ملك حضرة ابرهيم بك . منزل وقف التكيه . دائرة السيد نونو وشركاه . دائرة مصطفى الخشاب وابرهيم القطاطري . قسم من جامع الشيخ ابرهيم باشا . دائرة راتب باشا . دائرة فوده حبيب . السوبه المشهده ملك سعادة راتب باشا . ارض وقف كنيسه الروم الكاثوليكيين دائرة سعادة ابرهيم باشا المشهوره بوكالة ابرو . قنصلاتو

إليها يومًا بعد يوم واكتشفت الغالبية العظمى منهم أنهم قد فقدوا مخازنهم ومتاجرهم بسبب الحريق، فرخصت الحكومة لبعضهم بإنشاء مقامات خشبية في ساحة المنشية (ميدان محمد علي أو ميدان القناصل) فكان هذا سببًا في سعادتهم وأقبلوا على بناء هذه المقامات حتى امتلأت الساحة وضاقت بهذه الأبنية المؤقتة، كما تم الترخيص لبعض باعة التبغ باتخاذ بعض زوايا الطرق التي تهدمت أبنيتها أماكن ينشئون فيها الدكاكين الخشبية لممارسة حرفتهم وتجارتهم، وقد استمرت هذه الدكاكين المؤقتة لفترة لا بأس بها".

وبهذا الخصوص يقول سليم النقاش "إن مخشبات المنشية استمرت إلى ما قبل انقضاء عام 1884 حيث صدر أمر الحكومة لأصحابها بالخروج من ساحة الحديقة واتخاذ محلات من الدكاكين والمخازن التي تم بناءها وكثُر يومئذ عددها، وقد ضربت لخروجهم أجلاً محدودًا فامتثلوا، وفي فترة يسيرة من الزمان أخلوا الساحة وانبثوا في أحياء المدينة وشوارعها التي كانت قد أخذت في العودة إلى رونقها السابق بقيام البناء المتقن في جوانبها، وكان قيامه سبيلاً إلى تجدد بعض الحركة في الأعمال باشتغال الصانع والفاعل ورواج سوق الأدوات والمعدات

فرنسا . الوكاله الجديدة ملك ابرهيم بك ناصوري وشركاه . دائرة المسيو زيزينيا . دائرة السيد عبد الرزاق الشوربجي . وكاله وقف الراكشي . جزء من وكالة الانكليز ملك اولاد الشيخ ابرهيم باشا . منزل كج عثمان منزل المسيو دومريكر . منزل السيد محمد الاجهوري جملتها تسعة

(قسم ثالث)

منزل الكونت زغيب بشارع باب شرقي . دائرة الكونت زغيب بشارع باب شرقي . دائرة المسيو لوريا بشارع زرفوداكي . دائرة الكونت زغيب بشارع زرفوداكي دائرة لوقا الارمني بشارع المسله . دائرتان للمسيو سرسق بشارع المسله . قطعه ارض وقف المرقصيه بشارع المسله دائرتان للمسيو قرباجي . ثلاثه مخازن الى المرحوم راتب باشا بشارع المسله . دائرة المسيو ماركو مافرو بشارع المسله . مخزنان للكونت دبانه بشارع المسله . منزل المسيو اسكندر اديب بما فيه قنصلاتو انكلتره بشارع المسله . دائرة المسيو شالون بشارع المسله . دائرة المسيو سرسق بشارع المسله . دائرة الخواجات كرم وبولاكيم بشارع المسله . دائرة المسيو سرسق بشارع مطبعة الاهرام دائرتان للمسيو انطون اديب بشارع مطبعه الاهرام بما فيه ادارة الاهرام ومطبعتها . دائرة الخواجات بسترس وتوبني بشارع مطبعه الاهرام . دائرة القس بجهه السويقه بشارع البورصه . دائرة البرنس ابرهيم باشا بالمنشيه الكبيره والصغيرة . اربع دوائر الى كومسيون الاملاك الميرية بشارع شريف باشا . دائرة الكونت دبانه بشارع شريف باشا . دائرة الخواجات بسترس وتوبني بشارع شريف باشا . دائرة الكونت نخله زغيب بشارع شريف باشا دائرة المسيو انطون اديب بشارع شريف باشا . دائرة المسيو سرسق بشارع شريف باشا . دائرة المسيو موسى فيس بسكة شريف باشا دائرة المرحوم طوسون باشا بشارع شريف باشا دائره المسيو انطون عبد بشارع شريف باشا . دائرة المسيو كارلو شيزاري شارع شريف باشا . دائرة المسيو سرسق بشارع شريف باشا . دائرة تينوبك بشارع شريف باشا . دائرة شخص ارمني بشارع شريف باشا . منزل شخص رومي بشارع شريف باشا . منزل المسيو كورنيل بشارع شريف باشا . دائرة الكونت نخله زغيب بشارع شريف باشا . دائرة المسيو موسى فيس بشارع زرفوداكي . دائرة المسيو لوريا بشارع توفيق دائرة المسيو نوفل بشارع توفيق . دائرتان للبرنس احمد باشا بشارع توفيق . دائرة المسيو دميانو بشارع توفيق دائرة الخواجات صوصه ودوماني بشارع بوسطه الطليان مخازن وقف العطارين بشارع بوسطة الطليان . دائرة كنيسة الاروام بشارع بوسطة الطليان . دائرة ارتين بك بشارع بوسطة الطليان . دائرة المسيو فوقيا بشارع بوسطة الطليان . دائرة فرنسيس افندي غبريل بشارع العطارين منزل اولاد الغراب بشارع العطارين . دائرة اصلها ملك الزمار بشارع العطارين دائرة اصلها ملك علي البقري بشارع العطارين . منزل المرحوم محمد [illegible] . منزل الشيخ حسن الشيخ بشارع العطارين . دائرة والدة الخديوي السابق بشارع العطارين . دائرة المرحوم راتب باشا بشارع العطارين . مخازن المرحوم راتب باشا بشارع العطارين . منزل سالم المليط بشارع العطارين . دائره احمد الدخاخني بشارع العطارين منزل ابو حوائج بشارع العطارين . منزل المرحوم ابرهيم خفاجي بشارع العطارين . منزل خليل المعايرجي بشارع العطارين . منزل ام جرجي بشارع العطارين منزل عبد الهادي سابق بشارع العطارين . نصف دائرة حضرة دفور باشا بشارع توفيق جملتها ٧٢

(قسم رابع بجهة محرم بك)

بيت المسيو جرجي ارشر . بيت المسيو انجلو . اسطبل البارون يعقوب منشي . لوكندة ملك دولتلو نوبار باشا بيت حسين بك البغدادلي . بيت المسيو ديمتري البقال . بيت المسيو جواني . بيت ملك دائرة عرفان باشا . فرن احمد حجاج . دكان بقال ملك المذكور جملتها عشرة ومجموعها ١٢٧

حوادث محلية

بلغنا انة لا تكون التشريفات في العيد المبارك كجاري العادة ولكن الحضرة الخديوية تقبل من يتشرف بطالعها التوفيقي بالكسوة المعتادة

ان حضرة البرنسين عباس بك ومحمد علي بك نجلي الحضرة الخديوية ردا الزيارة لسمو البرنس ارثور ثالث انجال ملكة انكلتره وكان بمعيتهما اصحاب العزة تونينو بك وعيسى بك حمدي واحمد بك جمالي وبعد ان صرفا برهة وشاهدا من حضرة الدوق ما لا مزيد عليه من الاعتبار والاحترام عادا باليمن والاقبال حرس الله ذاتها الشريفة

افادت اخبار الاستانة الخصوصية ان الحضرة السلطانية قبلت قرار المؤتمر وعقدت الاتفاق الحربي مع انكلتره ونادت بعصاوة عرابي وان كلا من دولتلو درويش باشا وسرور باشا سيبارحان الاستانة ثاني يوم عيد رمضان المبارك

نستلفت مصلحة الطرق ان ترى في تسهيل شارع الرمل بقرب البورص وان تتناول منها الشارع الابرهيمي وسواها

عاد امس كثيرون من المهاجرين على الوابورين الفرنسوي والنمسوي

ذهب الرمل حضرة نجل الملكة وتفقد مع اركان حربه جميع المراكز والنقط وعاد عند المساء مثنيًا على استعداد العساكر

يدخل يومًا مينانا مركب انكليزي حامل عساكر على ان المراكب المنتظرة من جهة الهند عددها ٢٧ وقريبًا نسمع بالحركات العسكرية فان حضرة القائد العام الجنرال ولسلي يصل ثغرنا اليوم

احتفل سمو الخديوي امس بحضرة السير ادوار مالت وتداولا في بعض الامور المهمة ثم استدعى دولتلو شريف باشا الذي لبث بحضرته مليًا لامور ذات شان تظهر نتيجتها في هذين اليومين مرجعها صالح البلاد وخير الاهلين

التلغرافات العمومية

لوندرة في ١٠ اب . سافر امس واليوم عدة مراكب ناقلة عساكر

قد انتهى الان تقريبًا تنزيل الجيش جميعه

اعلن السير شارل ديلك في مجلس العموم ان الباب العالي عرض على الحكومة الانكليزية منشورًا به يويد سمو الخديو ويشهر عصاوة عرابي

وقال السير شارل المذكور ان الاتفاق الحربي لم يبرم بعد ولكن الباب العالي مستعد لعقده

الاستانة في ١١ منه : قبل اللورد دوفرين ما عرضته ايطاليا من وضع خليج السويس تحت حماية بحرية دولية

سيؤجل المؤتمر عما قليل

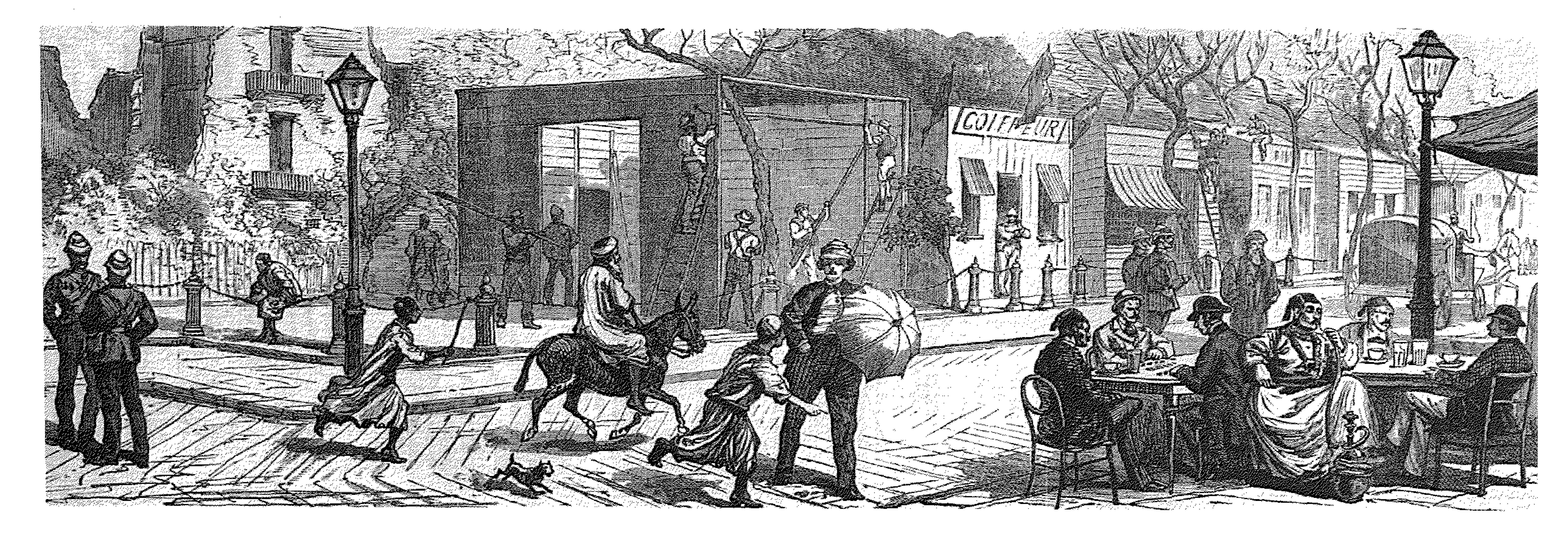
لوندرة في ١٢ منه . قال التيمس ان انكلترة ستنظم المسالة المصرية وتدعو اوربا بعد ذلك للاطلاع على العمل المتمم وقبوله والتصديق عليه

باريز في ١٢ منه مساء . قبلت فرنسا مسالة وضع خليج السويس تحت حماية اشتراكية مع بعض البيدراكات

الاستانة في ١٢ منه . وقع المؤتمر على لائحة مضمونها قبول ما عرضته ايطاليا من وضع خليج السويس تحت حماية دولية مع استدراك ما طلبه اللورد دفرين عن وجوب حرية العمل العسكري الانكليزي

الاستانة في ١٢ منه . اصدرت الحضرة السلطانية اوامرها بان يضاف الى الارادة الشاهانيه ان عرابي عاص لان سلوكه مغاير لنصوص القران الشريف

(سليم تقلا)



منظر للأكشاك الخشبية المؤقتة التي أُقيمت بميدان المنشية.. نُشرت في The Illustrated London News بتاريخ 19 أغسطس 1882.

اللازمة للبناء وكان خبر العزم على أداء التعويضات لمصابي نوازل النهب والإحراق باعثًا على انتعاش الآمال والتيقن بقرب عود الأعمال إلى ما كانت عليه". [96]

في ظل هذه الظروف الحرجة للمدينة، "كان حفظ الأمن والنظام هو الشغل الشاغل للإنجليز بالتعاون مع الحكومة المصرية، وقد أكثر الإنجليز في الإسكندرية بالاشتراك مع حكومتها من وسائل الحرص على الراحة العمومية بالقبض على من كان يبدو منه أقل باعث على الإخلال بها ومُنع التجول ليلاً إلى ما بعد وقت مُعين، فكانوا يصطلحون كل يوم على كلمة أو لفظة تُعرف بـ"سر الليل" فتُبث بين الضباط ورجال المخافر والعسس ولا يعلنونها إلا لمن جاء يطلبها لحاجة يوجبها قضاؤها عن العود إلى منزله قبل الساعة المعينة أو بحلولها فكانوا إذا عثروا بأحد بعد الوقت المعين سألوه سر الليل.. فإذا عرفه أطلقوا سبيله وإلا قبضوا عليه وأرسلوه إلى السجن حتى تقف الحكومة على أمره في صباح اليوم التالي.

96- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء السادس ص 17.

وكان الخفراء إذا رأوا من المارة أحدًا يسير بعد ذلك الوقت متحجبًا متواريًا انتهروه فإذا لم يجبهم لأول مرة كرروا الصياح وهكذا حتى المرة الثالثة فإذا أصر على التواري ولم يحضر إليهم أو لم يجبهم بكلمة أطلقوا عليه الرصاص وجندلوه في مكانه قتيلاً.

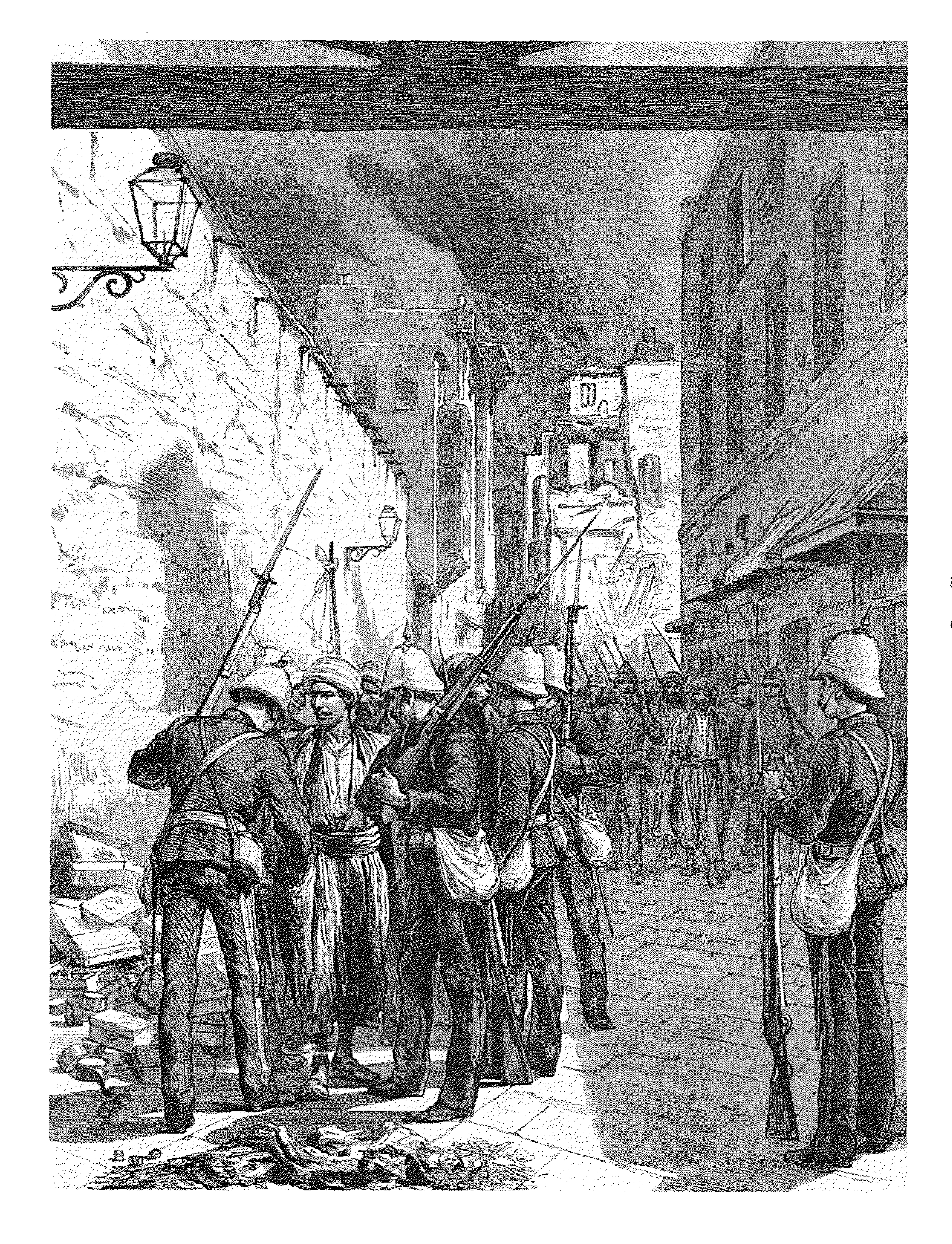
وقد كانوا في بادئ الأمر ينهون العامة عن التقاط ما يعثرون به في الطرق من بقايا الأمتعة المسلوبة فإذا خالف أحدهم ذلك تعرض لخطر القتل، وبيان وجه هذا الخطر هو أن الخفراء والأرصاد إذا رأوا أحدًا انحنى إلى الأرض ليلتقط شيئًا أطلقوا عليه الرصاص في الحال فيبقى ذلك المنكود الحظ منحنى الظهر معدًّا للقبر، وكثيرون كانوا إذا سقطت من يدهم العصا أو غيرها مما يكون في يده أو جيبه لا يجسرون على التقاطه خيفة الموت في الطريق قتلاً.

فبهذه الوسيلة وغيرها من وسائل المحافظة على الثقة تمكن الإنجليز من وقاية الراحة ودفع أسباب المخاوف، وكان هذا التضييق على الأهالي يتناقص شيئًا فشيئًا، فقد كان سر الليل يُطلب في الساعة التاسعة على الاصطلاح الإفرنجي قبل سقوط التل الكبير ببضعة أيام بل بعد خروج الإنجليز إلى الثغر الإسكندري وفي أواخر سبتمبر تعين طلبه من المارة في الساعة العاشرة بمعنى أنه لم يكن مسموحًا للأهالي أن يكونوا فيما خارج منازلهم إلى ما بعد تلك الساعة وفي أكتوبر عُين وقت العود إلى المبايت في الساعة الحادية عشرة ثم في منتصف الليل وفي نوفمبر صدر الأمر بمنعه وبعود الأهالي إلى حالتهم السابقة من غير معارض ولكن الأماكن العمومية كالخانات والقهاوي استمرت تحت ذلك الحكم إلى ما بعد الزمن الذي أُلغى فيه سر الليل.[97]

ثم اتجهت همة الإنجليز والحكومة إلى إلقاء القبض على الباعثين على الهياج والمرتكبين لجرائم القتل،[98] فألقي القبض على كثيرين وأودعوا السجون لمحاكمتهم والحكم عليهم وكان في جملة الذين وقعوا في قبضة الحكومة (محمد السيد وفرج عطية ومصطفى العرقسوسي وهو أحد باعة عرق السوس

97- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء السادس ص 18.

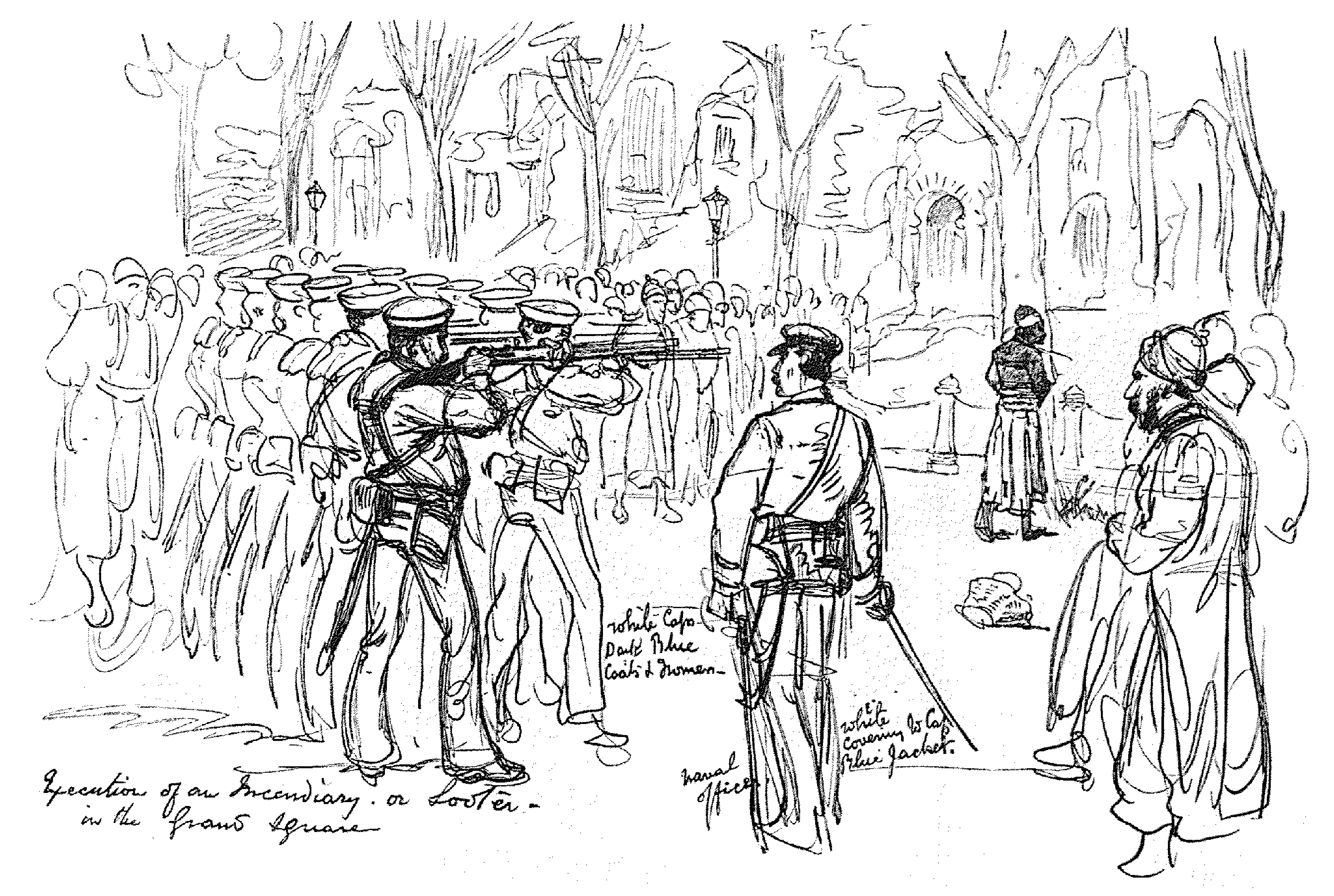
98- سليم خليل النقاش -مصر للمصريين- الجزء السادس ص 19.



كلمة "سر الليل" وتفتيش المواطنين ليلاً.. صورة نشرتها The Graphic على صدر صفحتها الأولى بتاريخ 29 يوليو 1882.

الحلبي الأصل الذي كان متوطنًا في الإسكندرية وكانت له اليد الطولى في التهييج والقتل، فبعد أن أجرى المجلس العسكري محاكمتهم حكم عليهم بعقاب الإعدام فشنق كل من محمد السيد وفرج عطية أمام جامع سلطان في جهة العطارين وشنق مصطفى في كوم الشقافة وغيرهم كثيرون من النهابين الذين كان يتم إعدامهم رميًا بالرصاص بعد ربطهم في شجرة أو في أعمدة المباني المتهدمة في ميدان المنشية، وقد نُفذت هذه الأحكام بحضور العساكر الإنجليزية ورجال البوليس وجمع غفير من الأجانب والوطنيين".

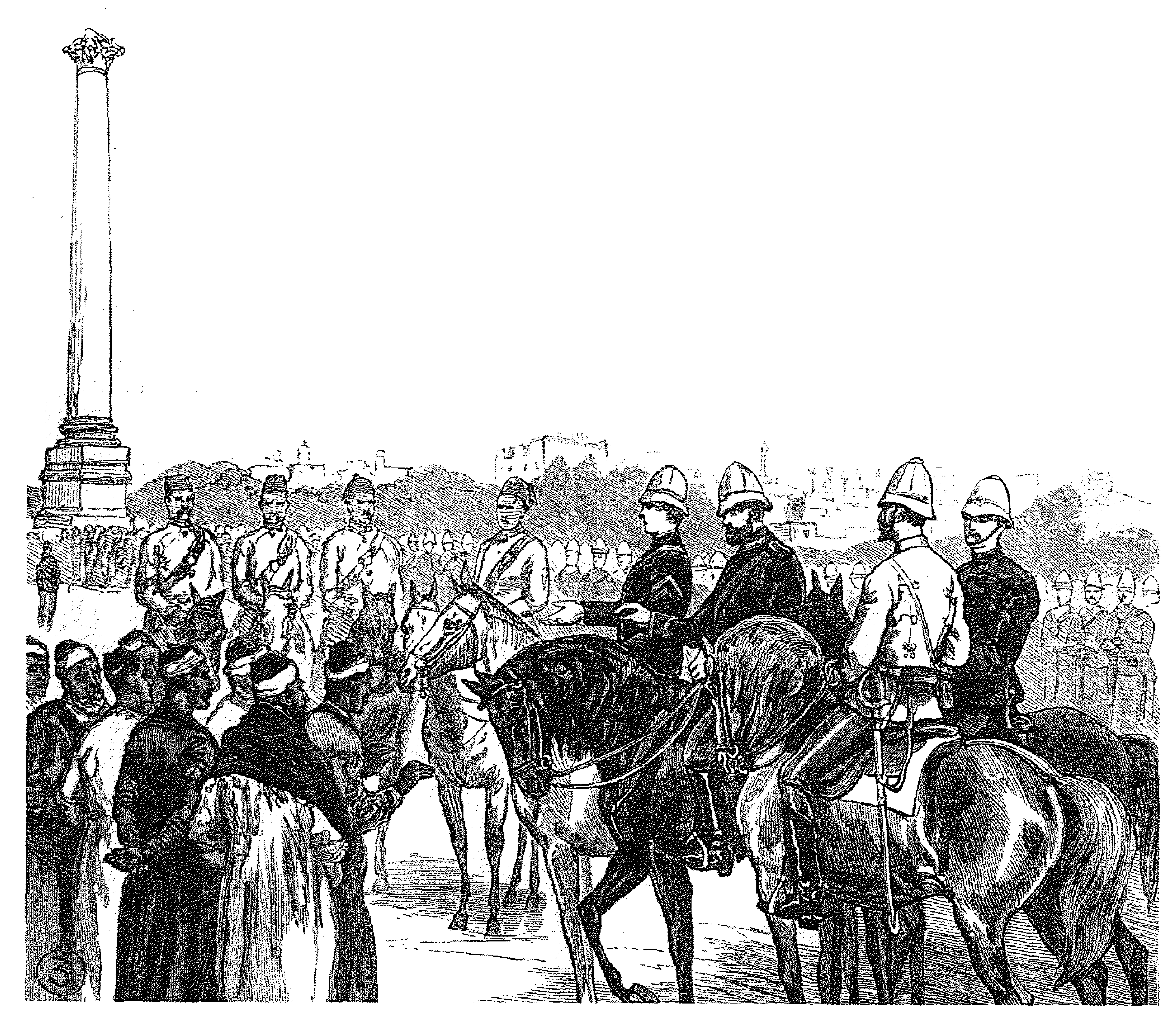
إعدام أحد النهابين في الميدان الكبير.. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 5 أغسطس 1882.



وفي الفترة من 8 أغسطس 1882 وحتى 25 أغسطس نشرت جريدة الأهرام الكثير من الأخبار الخاصة بالإسكندرية ومنها على سبيل المثال:

- نطلب إلى الحكومة تشكيل لجنة ترى في الحيطان القائمة من البيوت المحروقة خوف سقوطها على المارة.
- يسألنا بعض الأصحاب من الخارج عن أحوال الثغر ونوع المعيشة والحالة الأمنية.. فنجيب حضرتهم أن الحالة تتحسن يومياً والمعيشة غير صعبة وليس هنالك إلا أمر الماء فهي لاتزال بالمحمودية متراً و55 سنتيمتراً وفي الصهاريج كمية تكفي البلدة أكثر من شهر والحالة هذه أن لا مانع البتة من العودة لأولئك الذين أشغالهم في الثغر أما الذين لا أشغال لهم إلا بعد فتح المواصلات الداخلية فعليهم أن يرشفوا المياه الباردة ويتنعموا بجودة المناخ.
- أن النصارى الذين بارحوا القطر المصري لا يبلغ عددهم نصف إسلام سكندرية واستمرت مهاجرتهم أكثر من شهر ومع جميع التسهيلات والاحتياطات تحمل عدد منهم صعوبة عظيمة. فكيف كانت حالة مسلمي الإسكندرية مع عددهم وقد أُجبِروا على مهاجرة بيوتهم في يوم واحد أو بالحري في ساعة واحدة. ذلك ذنب لا يغفر لعرابي.
- يعلم قراءنا أن الحكومة ستعامل بكل صرامة أولئك الذين اشتركوا بنهب أو اختلاس فنوعز أيضًا أن القصاص يتناول الذين يشترون منهوبات فالحذر من ذلك ولا يغرنك كسب جزئي عاقبته الحبس أشهر.
- أن عدد الأهلين في ثغرنا عشرون ألف نسمة ونراهم يزدادون يومياً لقاء ما يسمعون ويرون من أن الأمنية موطدة الأركان وأن الإنجليز لا يضرون إلا بمن تعدى القانون من سارق وناهب وجاسوس.
- لاتزال إدارة الغاز بادية همتها بإعداد ما يلزم لتنوير المدينة وربما يتم لها ذلك في هذا الأسبوع وحينئذ تكسب المدينة رونقًا جديدًا.

- سنعلن قريباً عن مركز إدارة الجريدة وحينئذ يمكن لحضرات المشتركين الموجودين في الإسكندرية أن يأخذوا الجورنال من محل الإدارة.
- إعلان (أنه من يوم الاثنين فصاعداً الموافق 14 الجاري ولحين إصدار إعلان آخر يصير فتح حنفيات المياه مرة واحدة فقط في كل يومين من الساعة 6 لغاية الساعة 10 قبل الظهر).
- إسكندرية في 8 أغسطس بأمر العمدة تومس جيكو - قنصل إنكلترا.
- نعجب والله من الجرائد التي تنشر الأخبار قبل أن تترواها من ذلك ما نسبته إلى كلل الإنجليز بأنها دمرت البيوت والحال أن مدافع الإنجليز لم تخرب إلا الاستحكامات وبالكاد نرى بيتاً أو بيتين في حارة النصارى أصيبا بكلل الإنجليز أما إحراق البلدة فكان بأمر عرابي وأعوانه.
- مسألة التعويض سوف تتم بعد نهاية الحرب وإننا في ثقة أن عدل سمو الخديو سوف يتناول أولئك الذين ذبحوا ظلماً وعدواناً وتركوا نساءهم أرامل وأولادهم يتامى.
- أن الأميرال الإنجليزي أبلغ بواسطة قنصل دولته بقية القناصل بأن عند عدم وجود الماء في المحمودية يصير التوزيع من الصهاريج لكل شخص 20 لتراً يومياً وتكون بيده تذكرة يقدمها إلى ناظر الصهريج.
- جرت البارحة تنوير بعض الشوارع بالغاز.
- كتب وزير النمسا إلى مدير البوسطة النمساوية في الإسكندرية بصرف راتب 3 أشهر للموظفين بناء لما تحمله موظفو هذه الإدارة من أتعاب بسبب هذه الأزمة.
- تتفحص الحكومة بكل دقة باسبورتات الأجانب الذين رجعوا إلى الإسكندرية حتى إذا ما وقفت على من له سوابق أجبرته على الخروج.
- قبض البوليس على 3 أشخاص اشتركوا في سرقات ومنهوبات الرمل وساقهم السجن وسيصدر حكم المجلس عليهم قريباً.



العساكر الإنجليز تتفقد المدينة وأحوال الناس فيها The Illustrated London News بتاريخ 12 أغسطس 1882.

- أن عددًا من المصورين أخذوا في رسم خرابات الإسكندرية وقريبًا تتم ويشتريها العدد العديد وينتفع أربابها ورحم من قائل (مصائب قوم عند قوم فوائد).

وقد صدق توقع وحدس محرر جريدة الأهرام حيث تعتبر الصور ضرب الإسكندرية من أندر الصور التي يمكن العثور عليها حاليًا بعد مرور أكثر من 127 عامًا على التقاطها وتباع الواحدة منها بما لا يقل عن 200 دولار.. وهي لعدد من المصورين ومنهم الموقعة باسم زانجاكي Zangaki المصور اليوناني وبونفيس Bonfils وفيوريللو Fiorilo الإيطالي.

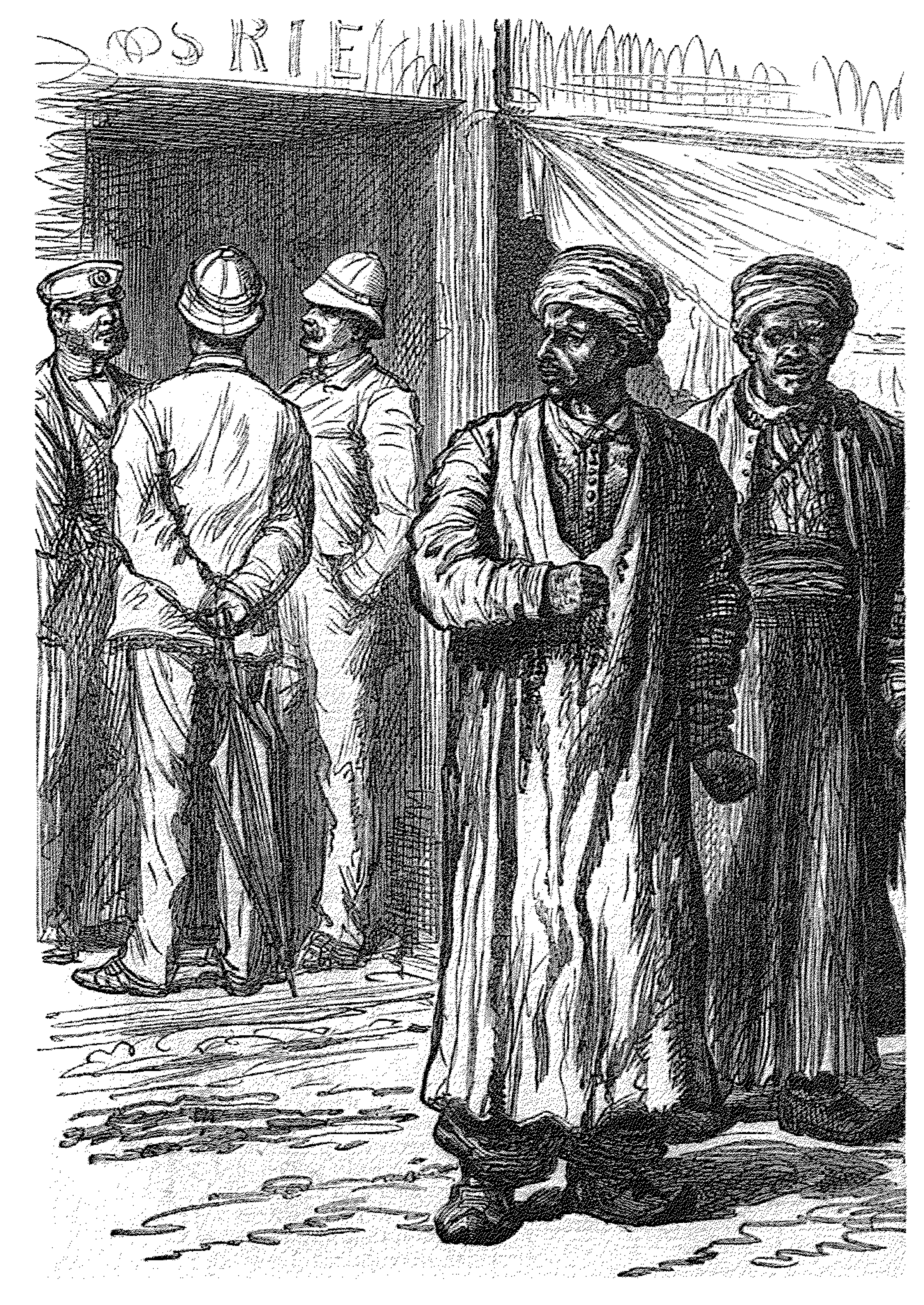


صورة للمنطقة المحيطة بفندق "آبات" والكنيسة اليونانية وما حدث فيها من تدمير بعد ضرب المدينة.

- ثم نشرت الأهرام إعلانًا بتاريخ 11 أغسطس نصه كالآتي: "أن الشركة المسماة لابروفنسيال ضد الحريق رأسمالها عشرة ملايين فرنك ومركزها في باريز أقامت عنها وكيلاً في القطر المصري المسيو "دانيال ويل" محله في الإسكندرية بقرب شارع شريف باشا في بيت نوفيس". ومن هذا الإعلان يتبين أن الكل كان يخشى أن تشتعل الأزمة مرة أخرى وينتج عنها المزيد من الحرائق والجرائم حتى أن شركات التأمين العالمية انتبهت إلى هذه المدينة التي كانت إلى وقت قريب وادعة وبدأت في فتح أفرع لها فيها.
- أن حضرة رفعتلو إمام أفندي قومندان بوليس ثغرنا يصرف ليله ونهاره في ملاحظة الأشغال وصرف المشاكل ومن يومين شكا له يوناني أن وطنيًا شتم دين النصارى فأتى به وأذاقه ضربًا أليمًا وأودعه السجن.
- يصل ثغرنا قريبًا 50 نمساويًا و100 إيطالي و100 سويسري لانتظامهم في سلك البوليس.

وبذلك تحول بوليس مدينة الإسكندرية إلى أمم متحدة صغيرة.. أو بتعبير هذه الأيام قوات حفظ سلام دولية وكان هذا إحدى ثمار هذه الأزمة الخطيرة.

- نرى حركة البلدة تروج يومًا عن يوم ولا نشك أنه عند ورورد ماء المحمودية سوف يهجم المهاجرون راجعين فتزداد الحركة رواجًا وتحصل بعض الأشغال.
- أن عددًا من العائلات القاطني ثغرنا لا يرجعون هذا الشتاء بسبب احتراق بيوتهم والبعض الآخر يأخذ الرمل والمحمودية سكنى له.
- سينشر قلم القضايا المالية إعلانًا يبين فيه لرعايا الحكومة المحلية كيفية تقديم طلباتهم بخصوص لما لحقهم من أضرار بالحريق أو النهب.
- هجمت العربان على بيوت الخواجات (شكري خوري وجروة وفاشة وبتريتيني) في محطة الرمل ونهبوها أما الخفر الإنجليز فأطلق عليهم الرصاص فأمات واحدًا وقبض على أربعة وجرح أكثر من عشرة.

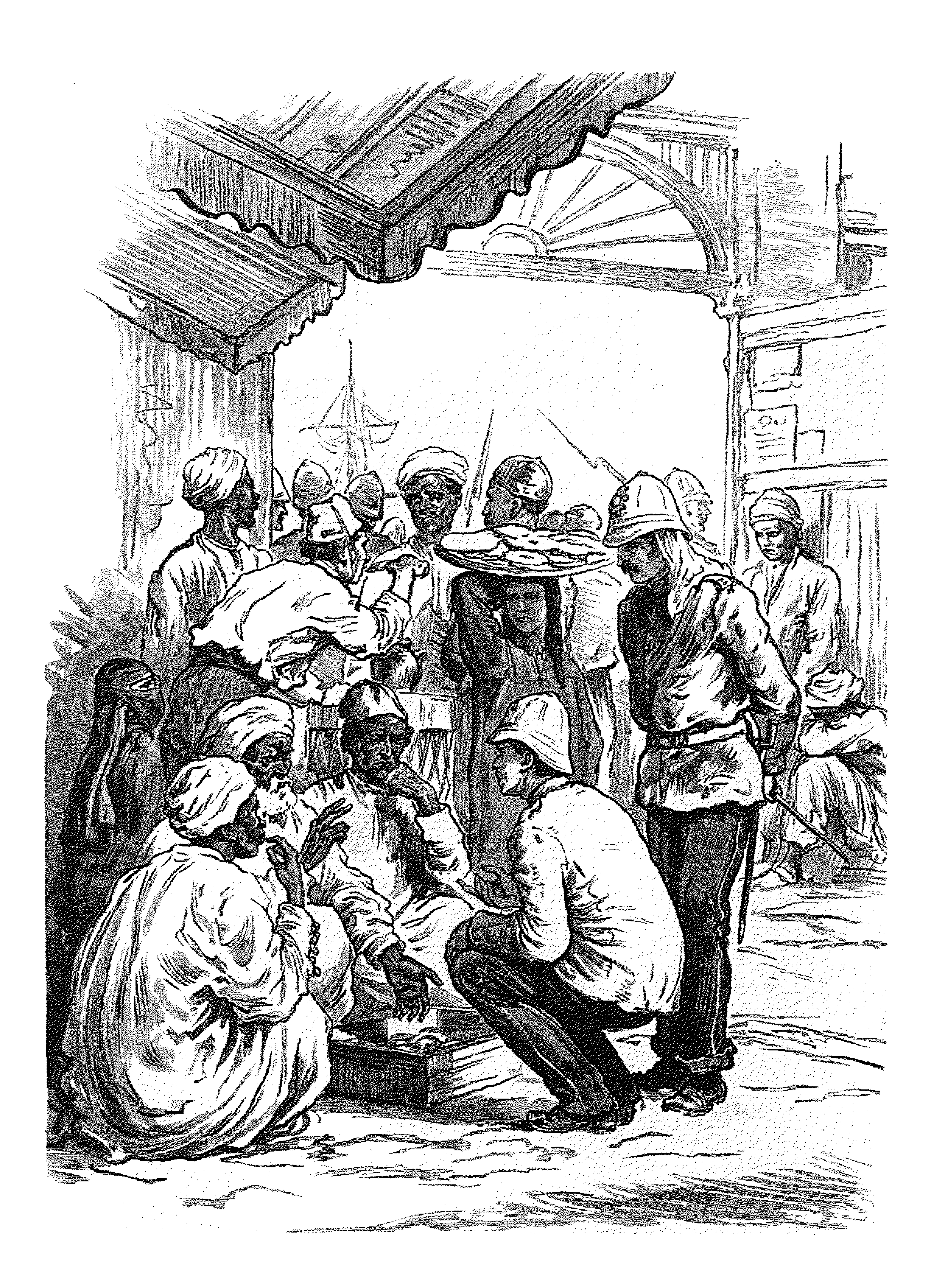


حالة من الترقب والقلق بين الوطنيين من أهل البلد والعساكر الإنجليزية. The Illustrated London News بتاريخ 2 سبتمبر 1882.

والأغرب أن هذه البيوت قد نُهبت قبل هذه المرة فرجع الناهبون لأخذ ما تبقى كالزير وسرائر الحديد. قبض البارحة العساكر الإنجليزية على بربري يحاول الخروج من باب محرم بك وعلى كتفيه أمتعة مسروقة فساقوه إلى السجن.

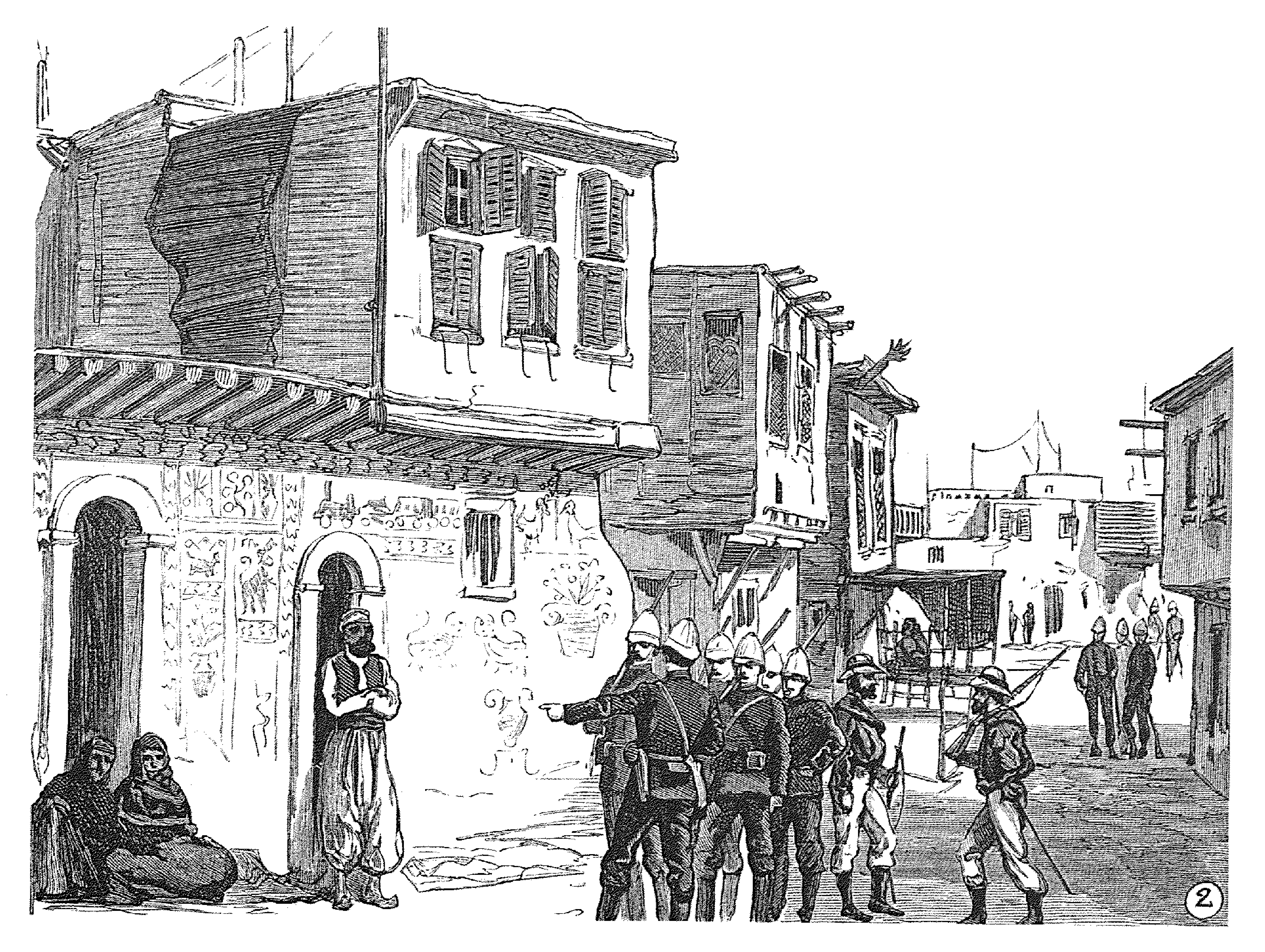
• بلغنا أنه في يوم الجمعة الماضي 18 من هذا الشهر توجه حضرة الكولونيل شالية لونج بيك قنصل الولايات المتحدة إلى القباري مع المسيو لاتاب وأحد مراسلي الجرائد، وفي أثناء مرورهم قابلهم بعض أجلاف الوطنيين وسفهوا عليهم بالكلام وأمسك أحدهم العربة بعنف وطلب من الكولونيل ورفاقه النزول منها وهجم الباقون على العربة فقال الكولونيل لرفيقيه أن يدافعا عن نفسهما بالسلاح ونزل من العربة وضرب الرجل الماسك بها ضربًا عنيفًا إلى أن حضر الخفر الإنجليزي فقبض على هذا المارد وهو الآن تحت المحاكمة.

• قبضت الحكومة على الشقي "شومان" شيخ محلة العطارين وللمذكور سوابق أعمال تشهد بسوء سلوكه فإنه قام بارتكاب الجرائم يوم مذبحة 11 يونية وحادثة 11 يوليو وقد نُقل إلينا أنه سلم عددًا من النصارى إلى العسكر ليذبحوهم ولم تتخلص العذارى من مخالبه، والغريب أن الذين شاهدوه مرتكبًا يترددون عن الذهاب إلى تأدية الشهادة في المجلس الحربي، أفلا يعلم هؤلاء أنهم مشتركون بالجريمة إذا أبوا بالشهادة وأنهم يخدمون بلادهم والإنسانية إذا فعلوا فإن بالاقتصاص من مثل هذا الشقي عبرة لسواه.



العساكر الإنجليزية يبحثون عن مثيري الشغب بين الأهالي في المدينة. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 12 أغسطس 1882.

- أن بيوت الوطنيين في الرمل محتوية على كثير من الأمتعة المنهوبة فلم التأخير عن جمعها.. أنترك ذلك للعربان. وإننا نستلفت الحكومة إلى تفتيش البيوت فإن قسمًا عظيمًا من منهوبات ثغرنا لايزال فيها وبرهاننا ما نجده يوميًا.



الجنود والعساكر الإنجليزية أثناء التفتيش عن الناهبين والعربان الهاربين بين بيوت الأهالي بعد استتباب الأمن. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 12 أغسطس 1882.

وقد نشرت جريدة الأهرام هذا الإعلان في أواخر شهر أغسطس 1882...

"قبض الإنجليز ليلة البارح على 77 شخصًا بعد الساعة العاشرة فخلت سبيل 60 شخصًا أما الباقون فصرفوا الليل في الكراكول.. وإننا نرى بهذه الوسيلة حكمة فإن المعتبرين يحصلون على سر الليل بسهوله أما الأجلاف فلا وهؤلاء لا يتمكنون من إجراء مقاصدهم إلا بعد تلك الساعة فيعرضون أنفسهم إلى عدالة المجلس الحربي.

تقدم 500 من العربان نحو مقدمة الجيش الإنجليزي من جهة المكس فردتهم المدافع منذعرين مهرولين.

أن مجلس الصحة صرف ما بوسعه للقيام بما عُهد إليه فإنه استحضر لوازم ضرورية للمستشفى وأعال الجرحى وأمر بدفن الموتى وقتل عددًا من الكلاب ونظر في أمر الدقيق وتوسيع السكك... فنشكر همته ونرجو تفتيش الصحة وأن يستمر على هذه الخطة فإن النظافة واجبة جدًّا في مثل الظروف الراهنة.

قبض البارحة على بربري أشعل النار في البيت المجاور لكنيسة اليونان.. فسيق إلى السجن وستُجرى محاكمته في المجلس الحربي قريبًا. تبين من التقرير الذي رفعه إلى سمو الخديو قومسيون الصحة العمومية أنه اهتم كل الاهتمام في رفع الرمم البالية الملقاة بين الردم وعلى أطراف السكك العمومية وأمر بدفنها على بُعد من المدينة وعمق كاف يكفل عدم انبعاث الروائح الكريهة عنها.. أما الرمم التي وجدت منذ 15 يوليو حتى الآن فهي 2277 منها 2214 حيوانية و63 إنسانية.

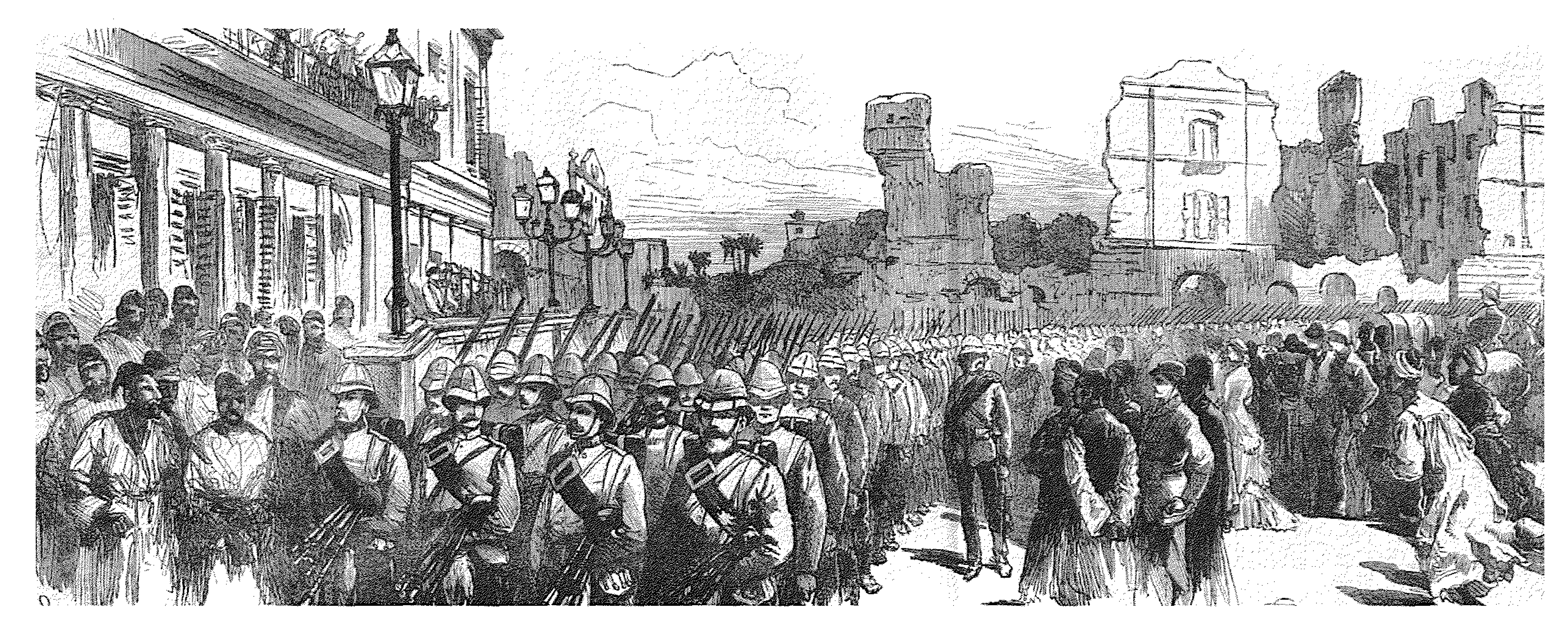
اعلان

نعلم الجمهور انهُ بعد يوم الاثنين القادم الواقع في ٢٨ اغسطس سنة ٨٢ يصير توزيع المياه من حنفيات البلدة في كل ثالث يوم لحينما يصدر اعلان اخر بهذا الخصوص وسيفتح اربعة صهاريج في كل ثالث يوم من ابتداء ٣٠ الجاري ويكون توزيع المياه منها بموجب تذاكر مدتها عشرون يومًا وعند انتهاء المدة المعلومة يصير ارجاع التذاكر للتاشير عليها وسيجري توزيع المياه من الساعة ٦ الى ٨ ومن ٩ الى ١٢ صباحًا ومن ٣ الى ٦ مساء ومحل صرف التذاكر هو في مجالس الحقانية تحت مراقبة حضرة قنصل انكلترة ويعطى عدد كافٍ منها الى الحكومة المحلية والقناصل قبل الابتداء بتوزيع المياه بيوم واحد اي في ٢٩ الجاري

الصهاريج التي تفتح اولاً هي الاتي بيانها

١ و٢ قبالة المدرسة الخيرية في شارع باب شرقي
٣ محطة سكة الحديد (باب محرم بك)
٤ بيت علي ابو الخير بالقرب من كوم الناضوره

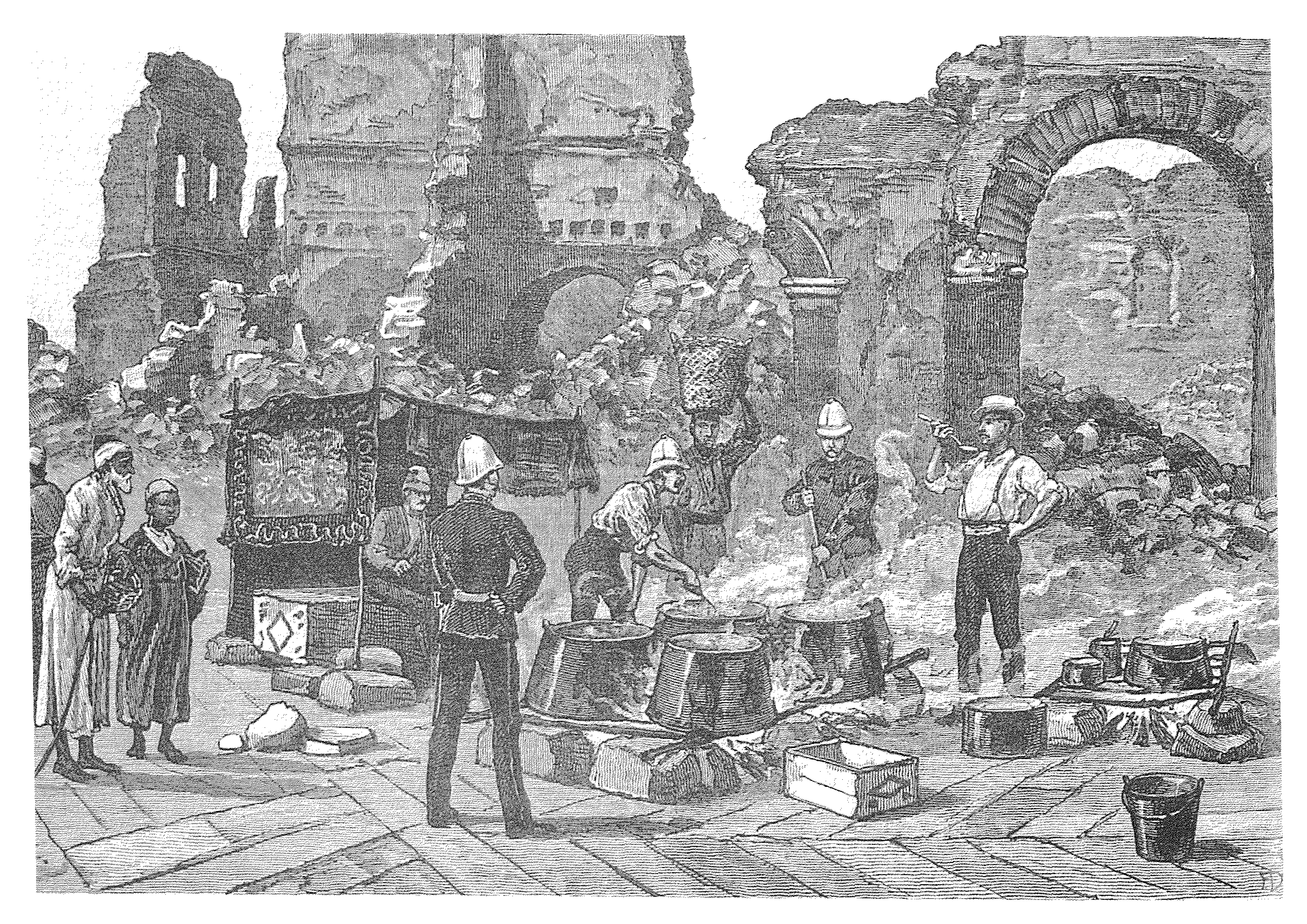
الاسكندرية في ٢٥ اغسطس سنة ٨٢



استعراض العساكر الإنجليزية في ميدان القناصل المُحترق. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 2 سبتمبر 1882.

نرجو من يعنيه الأمر أن يسرع بأمر هدم الجدران التي لم تزل واقفة إثر الحريق وأن يزيد في الوسائل الموصلة إلى ذلك فإن خطر سقوطها يتهدد المارة في محال كثيرة من البلد، وإنه ليسوءنا أن تأتي بأضرار نحن في غير طاقة على تحملها بعد حصول ما حصل وقد شهدنا أمس بعد الغروب حائطًا سقط من بقايا وكالة القرداحي في شارع الرمل ولكنه والحمد لله لم يأت بنتيجة مضرة."

ولأن الملهاة دائمًا ما تخرج من قلب المأساة فقد كانت هناك العديد من القصص الطريفة على طريقة "شر البلية ما يُضحك" ومنها على سبيل المثال أن القوات والعساكر الإنجليزية لم تجد مكانًا لتقيم فيه مطبخها وآنيتها وأطباقها ولتطبخ لجنودها سوى أطلال وخرابات المدينة المسكينة؛ وبالتحديد ميدان القناصل الذي كان لؤلؤة المدينة وقلبها فيما مضى دون أي مراعاة للشعور الوطني.



صدق أو لا تصدق..

فقد نشرت The Illustrated London News هذه الصورة بتاريخ 12 أغسطس 1882 كتبت تحتها "مطبخ البحرية الملكية الإنجليزية بين أنقاض الإسكندرية".

وفي أرشيف لندن . . .

"ضربني وبكى وسبقني واشتكى"

أما الأخطر فهو ما عثُرت عليه في الأرشيف الوطني البريطاني أثناء غوصي هناك.. فقد وجدت من بين ما وجدت قصاصة ورق صغيرة ولكنها خطيرة لم أستطع العثور على بقيتها.. وما إن قرأتها حتى استغرقت في الضحك وكدت أسقط من فرط القهقهة حتى استدار كل من كان بالأرشيف يبحثون عن مصدر هذه الضحكات الهستيرية.. فخجلت من نفسي ولملمت أوراقي وقررت أن أمنح نفسي بقية اليوم إجازة لأضحك بدون رقيب على هذه الورقة.. فقد كانت تجسيداً واقعياً للمثل البلدي القائل "ضربني وبكى وسبقني واشتكى" ... فقد كانت طلباً موجهاً لوزارة الخارجية الإنجليزية بشأن حصول إحدى البنايات التابعة للقنصلية الإنجليزية بالإسكندرية على تعويض لما أصابها من أضرار جراء أعمال النهب والحريق التي جرت بالمدينة وبالتحديد يوم 14 يوليو وبيان بالأشياء التي نُهبت وحُرقت وقيمتها حوالي 31 جنيهًا إسترلينيًا.

أليس هذا مضحكًا أو بالأصح "هم يبكي وهم يضحك". ما بال هؤلاء القوم الإنجليز.. أين الحياء والخجل؟ يحاصرون المدينة بسفنهم ويخرجون الأهالي من ديارهم ويضربون القلاع والطوابي ويخربون المدينة ويتسببون في كل النكبات والمصائب التي مرت بها المدينة.. ثم يجرءون في النهاية على طلب التعويضات لمجرد أن مبنى القنصلية تعرض للسرقة أو الحريق.. أي جرأة هذه؟

of the property and effects left in
ty's Consulate at Alexandria
ler F. Mieville, Her Britannic
Consul for the Soudan, at presen
Her Majesty's Vice Consul at
a, and totally destroyed by fir
out the 14th day of July 1882 afte
aging of the City.

scription of Article	approximate val.		
	£	s	d
Table	1.	0	0
ound table	-	16	-
loth	-	8	-
of drawers	2.	10	0
stand and set	1.	10	0
asses (2)	2.	0	0
uto curtain	0.	15	0
t	4	0	0
es	1.	15	0
Indian Chair	1.	0	0
ar	3.	10	0
aes (5)	8.	0	0
e shelf	1.	0	0
board	0.	16	0
	1	8	0

صدق أو لا تصدق: صورة طلب التعويض من واقع ملفات الأرشيف الإنجليزي.

خطاب آخر لمتضرر آخر بتاريخ 23 أكتوبر 1882 بشأن الحصول على تعويض بسبب الخسائر التي لحقت بممتلكات أحد المواطنين الإنجليز الذين كانوا يعيشون في الثغر وتعرضت للنهب بسبب الأحداث الأخيرة، وفيها يطلب من وزارة الخارجية الإنجليزية توجيهه للمكان المناسب لطلب التعويضات. وملحق بالخطاب بيان بالخسائر التي تبلغ 118 جنيهًا إسترلينيًا.

Alexandria 23rd October 1882.

My Lord,

I have the honour to request Your Lordship to be good enough to direct me as to what course I should take to obtain compensation for the property lost by me in the recent burning of the City of Alexandria.

This loss I estimate, as detailed on the Inventory which I beg to enclose herewith, at a minimum sum of

Honble
Granville K.G.
&c — &c

Description of Article
Brought forward
Hearth Rug
Matting
Cigar Cabinet
Large Revolving stand for cigars
Small — do — do
Ash-trays (brass) (5)
Flower-Vases
Books (at least 100) Standard Authors Minimum value
Large Album with large photographs views of Holy Land, Syria, Italy and of Egypt (coloured) minimum value
"The Illustrated Sporting and Dramatic News" Files for 3 years
Large box of personal effects, linen &c. minimum value
Field Glasses
Family Tree (1594 to 1879) Long parchment Scroll on rollers

بيان بالخسائر وتضم مجموعة نادرة من الكتب وألبومات صور كبيرة للأراضي المقدسة وسوريا ومصر وإيطاليا.. وشجرة العائلة التي ترجع لعام 1594 وحتى عام 1879 والتي بالطبع لا تقدر بثمن بحسب رأي أصحابها بالإضافة لحامل وعلبة سيجار والكثير من الأشياء الأخرى.

تاريخ مصر للبيع

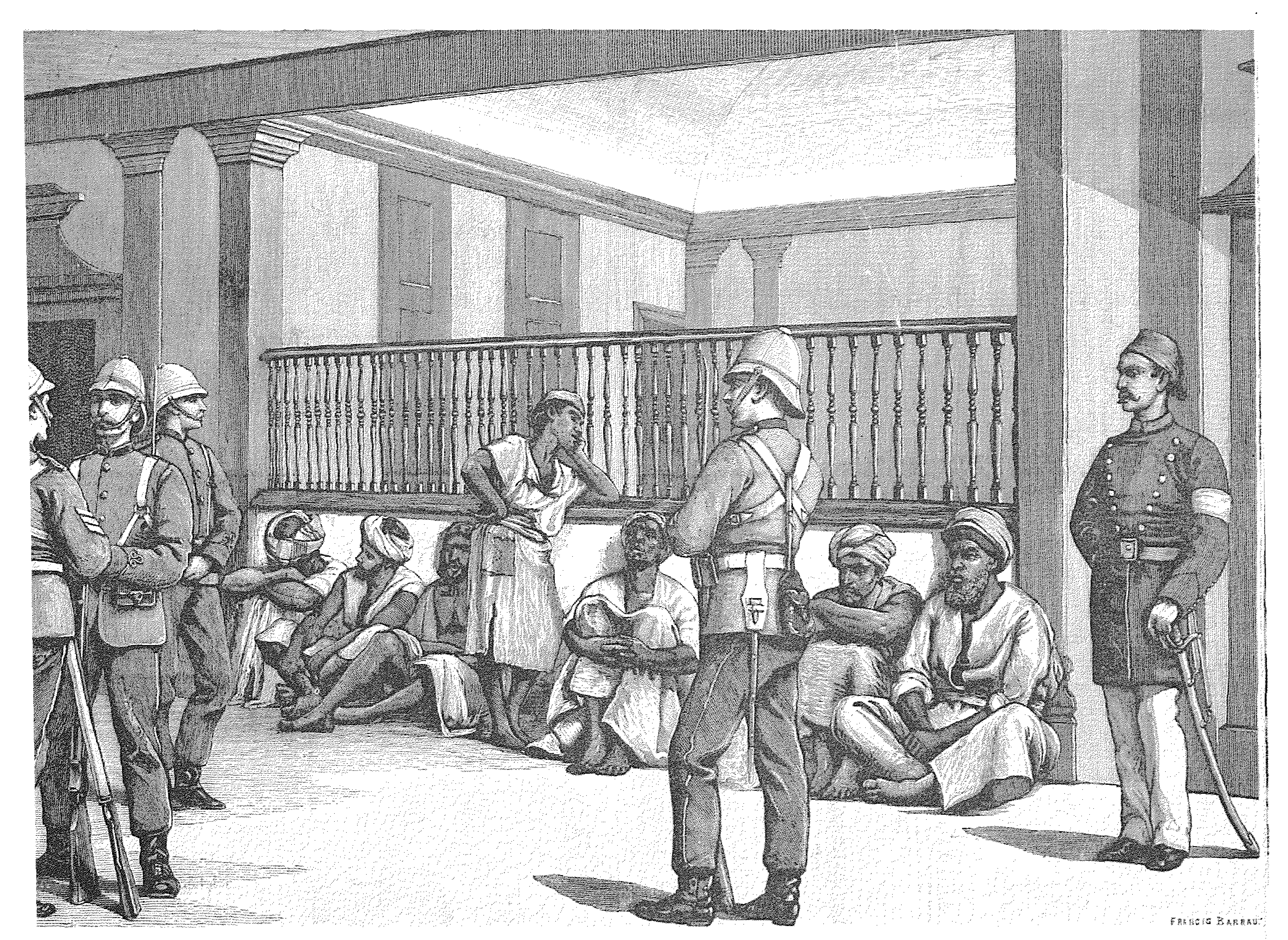
وقبل أن أصل إلى خاتمة الكتاب رأيت أن أعرض عليكم بعض الأوراق الخاصة بالتحقيقات التي أُجريت مع بعض المتهمين بإثارة أحداث الشغب وأعمال السرقة والنهب والتخريب في المدينة؛ وهي الأوراق التي تمكنت مكتبة الإسكندرية من شرائها من أحد باعة الأوراق القديمة والروبابيكيا والذي كان قد عرضها للبيع مقابل مبلغ زهيد، وظلت هذه الأوراق التي تصل إلى المئات -من الأوراق النادرة والتي تحكي جزءًا عزيزًا وثمينًا وحزينًا من تاريخ مصر- تنتقل من يد إلى يد حتى وقعت في النهاية بين أيدي عشاق تاريخ مصر وتراثها من خبراء مكتبة الإسكندرية الذين قرروا شراءها بأي ثمن؛ فلا يمكن لتاريخ مصر أن يضيع أو حتى يباع...

ومن هذه الأوراق محاضر التحقيقات مع بعض المتهمين بالسرقة وبلاغات عن ضياع أمتعة واستدعاء لبعض المتهمين والبدو وغير ذلك.

بلاغ بالتعدي والسرقة مقدم من مواطن يوناني ضد بعض العساكر المصرية الذين سرقوه.

تحرير بضبط بعض الأشقياء وشيخ حارة كوم الدكة "أحمد نصار" بعد أن تعهد بضبطهم وإحضارهم لجهة التحقيق بسبب مشاركتهم في الأحداث الأخيرة.

متابعة لبلاغ جورجي إستيفانيدي اليوناني بتاريخ 22 يوليو 1883 والذي يتهم فيه شخصًا اسمه عطية حسن تعدى عليه ثاني يوم ضرب الإسكندرية بالتعاون مع بعض العساكر بقصد إعدامه (قتله) لولا أن أعطى لهم جنيهين وريالين وساعة فضة وهكذا تخلص منهم وتركوه فذهب إلى الاسبتالية.



محاكمة النهابين كما نشرت في الجرائد الأجنبية.

جواب من طرف الخواجه بهرن وويلسن التجار باسكندريه بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٨٢

الى سعادة مامور ضبطية اسكندريه

انى كتبت لسعادتكم فى شهر اوكتوبر بخصوص البدو الذين يسموا الاول شيخ الهين والثانى موسى والثا
وهم الذين نهبوا بيتى الذى بقرب محطة فليمنج بالرمل وانى ترجيت سعادتكم ان تامروا بضبطهم وان الاشخا
المذكورين لم نهبوا فقط بيتى بل ايضا بعض بيوت اخر وانى استخبرت وايضا ضبطية الرمل ان الاشخا
المذكورين وكثيرين اخرين النهابين قاعدين فى كفر الدوار وان حسين الذى كان خفيرى كتب لى جواب من كا
وعنده قطعة ارض يحرثها بالقرب من كفر الدوار المذكور اما جهة ضبطية الرمل فهى تعرف جميع البدو النهابين
فهى اذا كانت لا تقدر تضبطهم جميعا فتقدر تضبط منهم جزو . وان الى تاريخه ضبطت الضبطيه البدو الذين
شى ردى فهمنا ان الضبطيه ضبطتهم فقط للتقرير وهم ليسوا لصوصا ولاجل ذلك نتشكوا ان الحكومة لا
لا تاذن للصوص والقتالين ان يفتشوا بالهم فى غاية الانبساط من غير قصاص بقرب كفر الدوار

[illegible]

خطاب مُقدم من اثنين من خواجات الإسكندرية "بهرن وويلسون" بتاريخ 19 سبتمبر 1882 إلى مأمور ضبطية الإسكندرية يطالبان فيه بالقبض على بعض البدو الذين قاموا بسرقة بيوتهما في منطقة الرمل ويتواجدون بقرب كفر الدوار.

محضر

بأنه لما شاع من وجود منهوبات بمنزل علي افندي [illegible] من ضمن ضباط العسكرية [illegible]
وصار درج ذلك بجرنال الأهرام عدد ١٤٧٢ المؤرخ في ١٧ اكتوبر [illegible] قد اتحدنا مع حضرة مفتش [illegible]
وتوجهنا لعمل [illegible] الافندي [illegible] على [illegible] لتفتيشه فوجد به الاشيا المبينه وبخلاف
ذلك الموجود به اواني المنزل خاصة البيت المستعمله وبخلاف ذلك لايوجد شي وذلك كالمرقوم ازيد

عدد
٢ طشط وابريق معدن
١ صينية قهوه فضه
١٠ ظروف فضه
١ بكرج فضه
٢ غطيان قلل فضه كبير
٢ صغير
١ علبه امريكي وهي صندوق [illegible] فارغ لونها اخضر
١ ملعقة فروطه معدن
١ علبه امريكي وهي صندوق معد لشال [illegible]
١ قرن حيوان متشعب

٢٢

فقط الاصناف البالغ مقدارها ٢٢ اثنين وعشرين هي الذي وجد بالمنزل وصار الاشتباه فيهم فقط [illegible]

زياده كالمرقوم في ١١ [illegible]

معاون اول [illegible] — مفتش [illegible] — معاون اول [illegible]

ورقة غريبة تبين القيام بتفتيش منزل أحد ضباط العسكرية كانت جريدة الأهرام قد نشرت اشتراكه في النهب بتاريخ 17 أكتوبر 1882 فتم العثور لديه على بعض المضبوطات وعددها 22 قطعة مثل قرن حيوان متشعب وغطيان قلل كبيرة وصغيرة وصينية قهوة فضة وظرف فضة.

نحن محمد رؤوف باشا رئيس المحكمة العسكرية و[illegible] باشا وعثمان لطيف باشا ومحمد خورشيد باشا وخورشيد عارف باشا ومحمد نجيب بك وخورشيد عارف بك و[illegible] بك و[illegible] بك اعضائها اصدرنا
الحكم الآتي بيانه

من بعد رؤية اوراق القضية التي اتهمت علي عطية علي الوارده بافادة من قومسيون تحقيق اسكندرية رقم ٢٩ مارث سنة ٨٣ [illegible]

ومن بعد حضور حضرة ابراهيم بك نجيب مندوب القومسيون وقيامه بالدعوى على المتهم وسماع اقواله

حيث تبين من اقواله وارد من بعض جاويشية البوليس نظروا في يوم ٩ فبراير سنة ٨٣ على سطح منزل عطية علي الكائن بجهة الازاريطة بعض اشيا مخفية بين الاوساخ والاتربة ولما صعدوا الى السطح
وجدوا اربعة قطع بساط افرنكي فضبطوها بمعرفة صاحب المنزل واوصلوها للضبطية

ومن حيث بالتحقيقات التي جرت عن ذلك انكر المتهم وزوجته علمهما بوجود تلك القطع على سطح منزلهما واوضحا ان السطح واطي ويمكن احد المارين القاها عليه وقدم المتهم شهادة على حسن سلوكه
من الخواجه [illegible] وكيل الخواجه [illegible] كان مستخدم بطرفه منذ خمسة سنوات وتوضح من [illegible] موافقة المتهم من جهة عدم ارتفاع السطح وامكان المارين القاء بعض اشيا عليه

ومن حيث ثبت امكان المارين القا ما وجد على سطح المتهم لانخفاضه ولم يوجد ما يؤيد تهمته وحسن الشهادة في حقه من مخدومه

فلهذه الاسباب

تقرر باتحاد الاراء عدم ترتب شئ على عطية علي المذكور وصرف النظر عن الدعوى والضبطية تجري اصولها فيما وجد على سطح منزله

صدر باسكندرية في يوم الثلاث ٢ جماد الثاني سنة ١٣٠٠ و١٠ ابريل سنة ٨٣

قرار المحكمة العسكرية بتاريخ 10 إبريل 1883 برئاسة محمد رؤوف باشا بتبرئة علي عطية وزوجته من تهمة إخفاء بعض المسروقات والمنهوبات بين الأوساخ والأتربة على سطح منزلهما الكائن بمنطقة "الأزاريطة" وهي التهمة التي ألصقها بهما بعض جاويشية البوليس بعد العثور على 4 قطع من البساط على سطح منزلهما، ولكن تبين أن سطح المنزل منخفض مما يسمح للمارة بإلقاء الأشياء عليه.

ضبطية اسكندرية ماوي غرناوي فهم

لما حصلت محاربة اسكندرية التزمت باخذ عيالي وتوجهت لجهة الرمل واقمت بالمنزل تعلقي الكائن بالقرب
محطة الشوف التابعة للسكة الحديد وقد التجأ لدي جملة عائلات من المهاجرين تحفظا للانسانية قدام
منزلي وفي غروب يوم الاربع الموافق ١٢ لوليه ٨٢ اخبرت من بعض سكان الرمل وهم محمد البوالي
وابراهيم الصباغ ان اكثر شخص من الاشقيا تأمروا على قتلي ومن معي ونهب منزلي وهم محمد الكردي ا
وابراهيم مليحه السمكري واحمد المغربي البوابي وانه يلزم جهد منعهم عن الهجوم علي وانه من الضروري ا
على نفسي وقد كان ومضت تلك الليلة وفي صباح يوم الخميس خرجت من المنزل وتوجهت لمحطة الشو
بالقرب منه للاستعلام عن قطورات وكان معي شخص يدعا جواني افندي عطاس من المهاجرين وتابعي الما
الصعيدي فما اشعر الا ومحمد الكردي وابراهيم مليحه حضروا للمحطة وبيد كل منهم نبوت وقاصدين الفتك
ولما كانت مشيئة الله تأبى ذلك فتمكنت من الفرار ودخلت منزلي انا ومن كان معي وفي صباح يو
اخبرت من شيخ الرمل المدعوا سليمان بيصار انما كانوا مصرين على صدور الاشقيا عليهم وان المذكو
يلزم جهد منع ذلك كما واخبرني ايضا بان ابراهيم الصباغ عن تصميم المذكورين على عزمهم فيلزم الحا
باخذ عيالي بغاية السرعة والاستعجال وتركت المنزل بكامل مافيه وتوجهت لمحطة سيدي جابر حيث اقمت
وفي الصباح دخلت البلده وبعدها علم لي ان المنزل نهب كامل مابه لهذا وكان مقيم بطرف الصبغة
من البدوان يدعا علي القرشوري ومعه شخص اخر لم اعلم اسمه وعلي المذكور لم كنت انظره ذا وقت
بل ليلا فقط ففي ليلة الاربع ثاني حتى نهب كامل الغلال التي كانت موجوده بالخزينه بالقرب منه
هو واخيه سعيد القرشوري وشخص اخر يدعا ضيف الله او جاب الله فلست متذكر وكان ذلك في مدة
ولكني فهمت من عزمهم بانه اذا ما صرحت لهم باخذ الغلال والا قتلوني وبعد برهه سمعت بانهم
قتلوا الخفير الموجود على الغلال واخذوها جميعا وفي ليلة الخميس ١٣ لوليه ٨٢ وانا موجود بالمنزل
غاية الخوف وكان ذلك نحو الساعه عربي فسمعت صوت علي القرشوري ينادي علي فخرجت واذا
هو ومن معه احضروا مواشي المزارعه الموجوده بالغيط وهم تلذة البقار واسمه جانوس وقالوا
المواشي عرضة للسرقة فنحن الاولى باخذها فتركتها ما امكني التكلم بشيء لذا ولا اعلم ما المذكو
تصرفوا في المواشي بالاقتسام بينهم بدون اذن مني وكان حاضر ايضا بعض من رجال العزبه شاهد
ذلك وربما ان المذكورين ايضا اشتركوا في نهب موجودات المنزل مع خلافهم وبالنسبة لهروب الاشخاص

حكاية من حكايات الخوف عن رجل أخذ عائلته وتوجه لمنطقة الرمل بحثًا عن الأمان الذي لم يجده فعاش أيامًا عصيبة من القلق والرعب مما شاهده من حوادث السرقة والقتل والنهب.

المذكورين وعدم وجودهم بالرمل قد تأخرت في العرض للضبطية خيفة من الأشاعة التي تترتب عليّ
البقاء إذ كنت مترقب حضورهم فقط وبما أنه علم من جرنال الأهرام صدور تلغراف من الأوتومبيل (؟) الدا
بسرعة الأخبار عنه يكون مثل هؤلاء في مسافة ثلاثة أيام فاقتضى العرض بكيفية ما وقع من المذكور
بالتفصيلات الموضحة أما الشهود فتحضرهم عند ضبط المذكورين والشروع في التحقيق كواجب الأصول
[illegible] في ٢٠ سنة ٨٤
[illegible]

افندم
من سكنة هؤلاء الأشقياء لهو بجهة الرمل والبدو أنه شيخهم موجود بتلك الجهة أيضًا فإذا تحصل إ
سرًّا من مأمور قسم الرمل خيفًا من الأشاعة التي تترتب على أهوالهم كما شرحنا عليّ انه أذكر بالمخزن بالحي
العربي الفرنسوري الذكور حمار صغير أخضر وعليه سرج ولجام أفرنجي وهذا أيضًا استولى عليه
ضد المدعوات لهم العرض اللازم وتاريخه

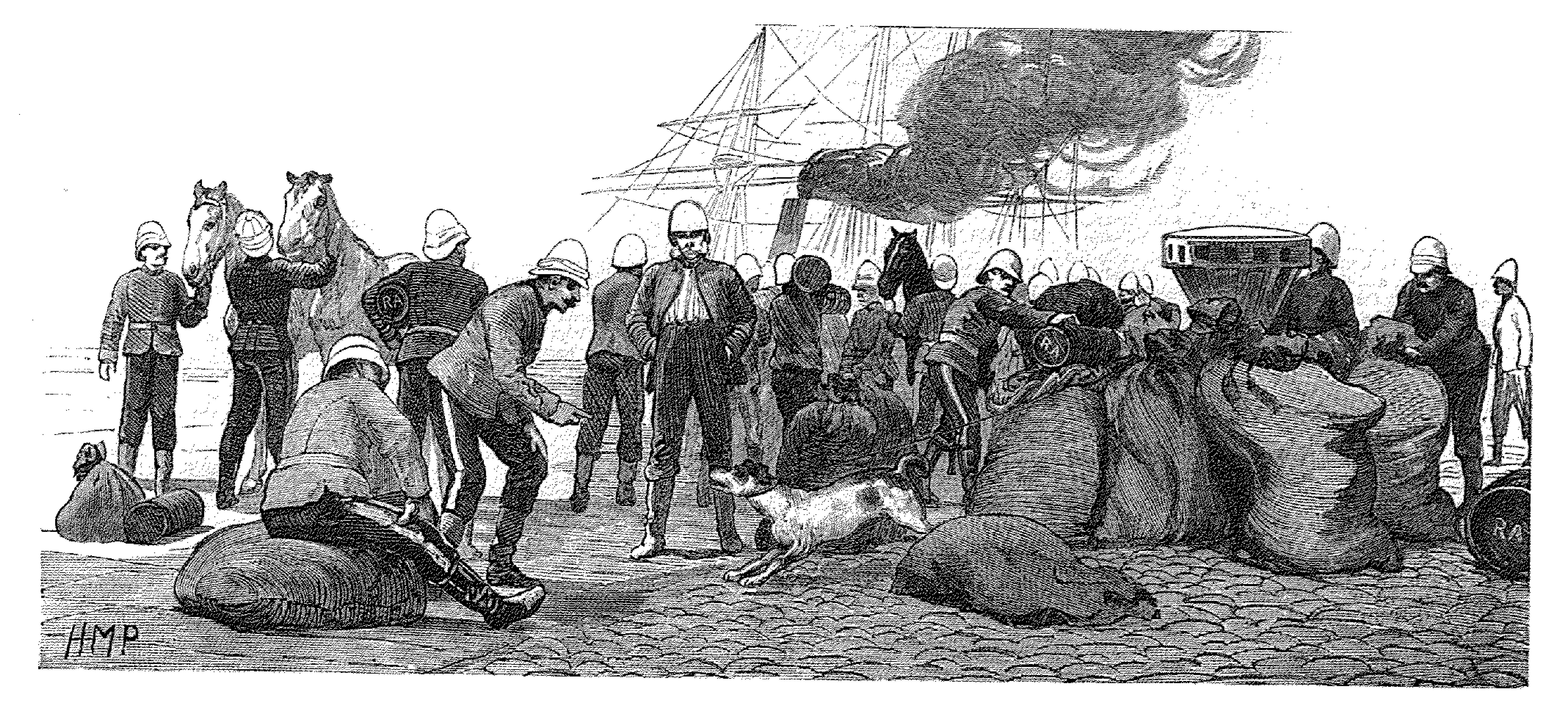
تحرر لقسم الرمل بطلبه في ٢ أكتوبر ٨٤ م

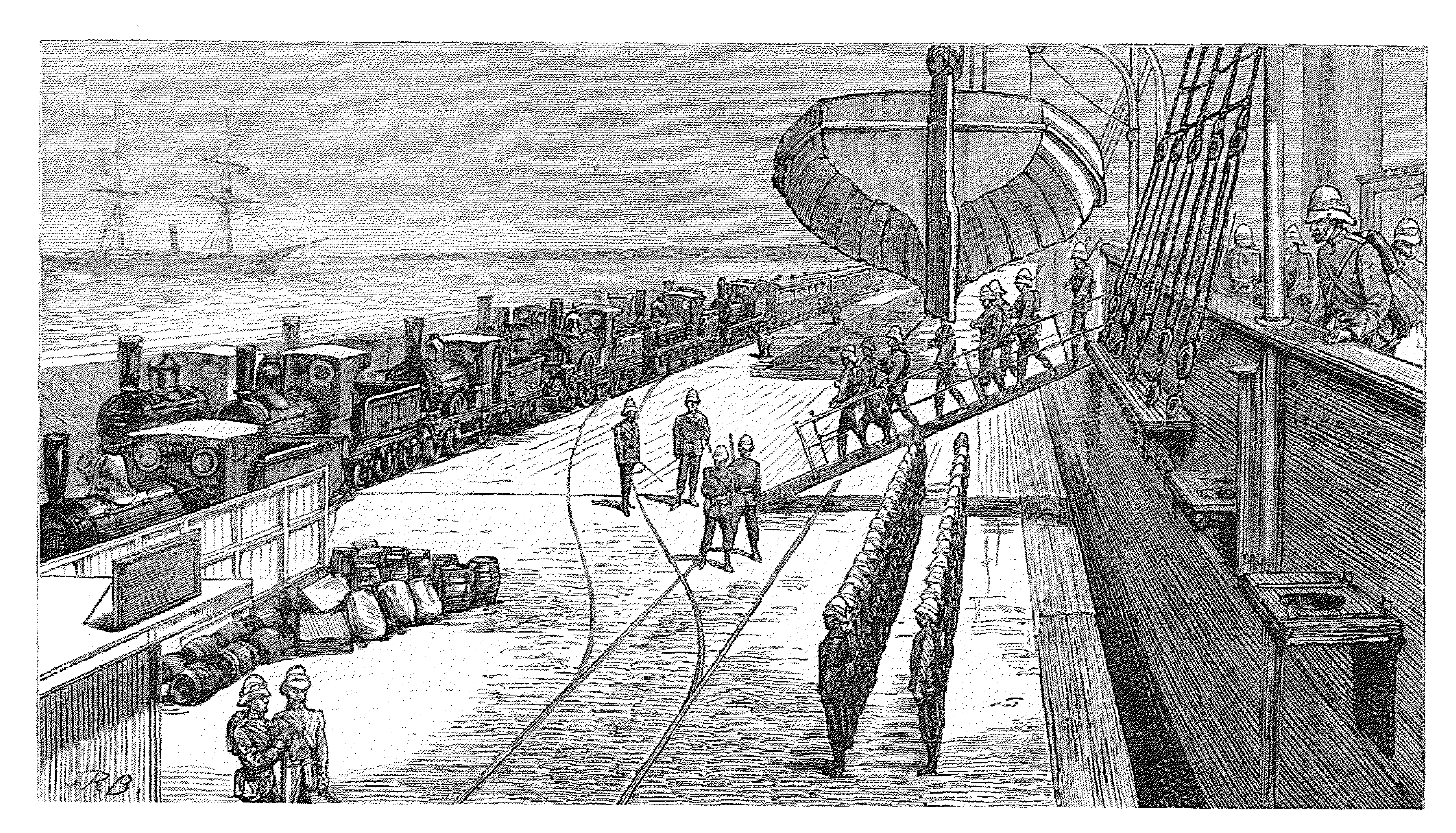
الشاهد يؤكد أن ما دفعه للإبلاغ عن الأشقياء هو ما قرأه في جورنال الأهرام بضرورة الإبلاغ عن الناهبين والقتلة في مسافة 3 أيام.

خاتمة الكتاب

تتابعت الأحداث سريعًا في بر مصر المحروسة، فبينما كانت الإسكندرية تحاول مداواة جروحها وذلك بعودة سكانها إليها وتنشيط حركة التشييد والبناء لإعادة إعمار ما دمره الأسطول الإنجليزي بضربه المدينة وما فعله أمثال سليمان داوود بها من نهب وحرق، كان عرابي ورجال جيشه قد تقهقروا إلى كفر الدوار وتحصنوا فيها وبدأوا في الاستعداد لمواجهة الجيش الإنجليزي الذي كان ينتظر المدد هو الآخر، ولكن الأحداث تصاعدت سريعًا في تلك الفترة فقد أرسل الخديو توفيق من مكمنه في قصر رأس التين بالإسكندرية تلغرافًا إلى عرابي يوم 17 يوليو يأمره بالكف عن الاستعدادات الحربية ويحمله تبعة ضرب الإسكندرية ويدافع عن حسن مقاصد الإنجليز ويأمره بالحضور لسراي رأس التين ليتلقى منه التعليمات. فما كان من عرابي إلا أن أرسل للخديو تلغرافًا يشرح فيه وجهة نظره التي تخالف وجهة نظر الخديو وتؤكد على ضرورة الاستمرار في الدفاع عن البلاد ورفض الحضور

وصول الإمدادات إلى القوات الإنجليزية في مصر.





وصول أول سفينة إنجليزية إلى مصر بعد ضرب الإسكندرية. جريدة "The Graphic" بتاريخ 29 يوليو 1882.

للإسكندرية ما دام الإنجليز يحتلونها، بل وطلب أن يتم إيفاد النظار إليه في كفر الدوار أو على الأقل رئيس النظار للتشاور في الموقف.

وبالطبع وفي ظل سخونة التلغرافات المتبادلة بين الطرفين –الخديو في الإسكندرية وعرابي في كفر الدوار– وصلت الأمور إلى ذروتها فقد تصور عرابي أن الخديو أصبح إلى جانب الإنجليز حتى أنه قرر أن يبيع البلاد ويسلمها لهم بثمن بخس، وفي نفس الوقت تأكد الخديو أن عرابي ماض في طريقه وأنه لن يلتفت لأوامره التي أصبحت بدون قيمة، ومن هنا بدأ كل واحد منهما بالعمل على تقوية معسكره؛ فقد أرسل عرابي تلغرافًا شديد اللهجة إلى جميع المديريات والمحافظات يتهم فيه الخديو بممالأة الإنجليز وحذر الجميع من اتباع أوامره التي تخالف حالة الحرب، ودعا في نفس الوقت إلى عقد

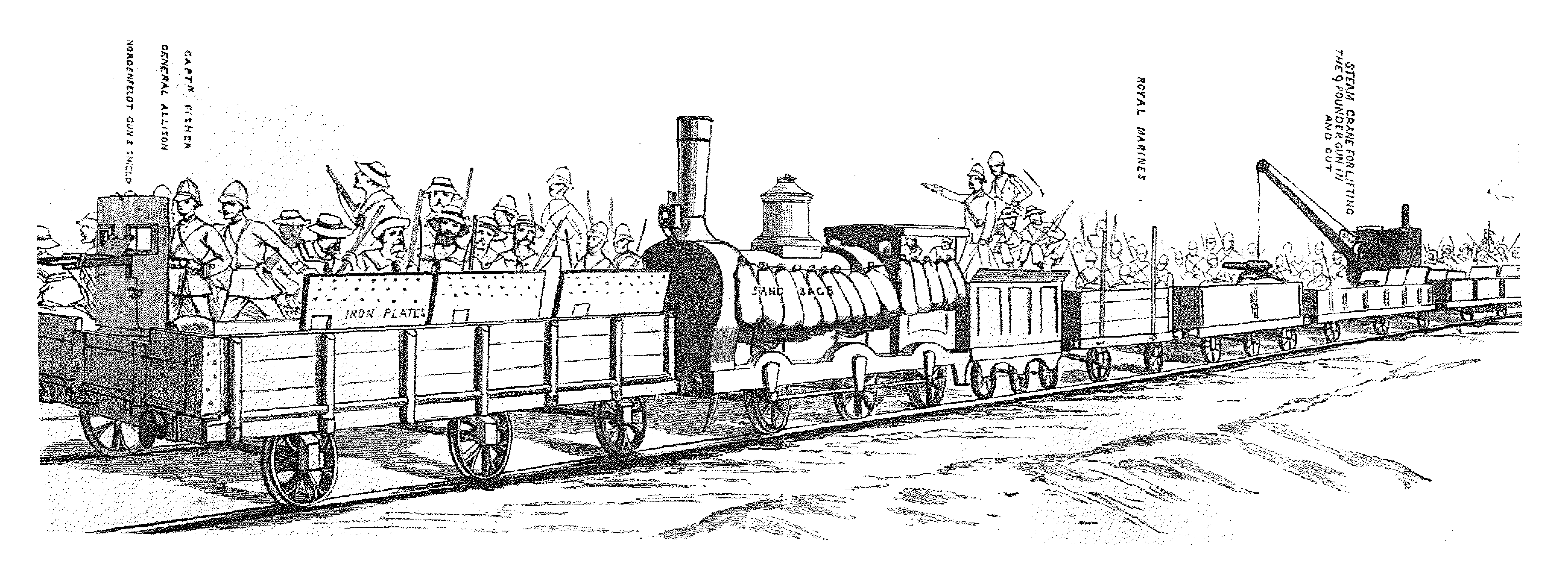
جمعية عمومية من الذوات والعلماء والأعيان للتباحث في شأن الموقف العام للبلاد وفيما يجب اتخاذه من قرارات بشأن الحرب القادمة وفيما يجب عمله لصالح الأمة ومدى صلاحية هذا الوالي (يقصد توفيق) عليها. وبالفعل وفي مساء نفس اليوم (الاثنين 17 يوليو) اجتمع نحو 400 شخص من الذوات والأعيان والعمد والعلماء والمشايخ ومنهم قاضي قضاة مصر ومفتي الديار المصرية بل وبعض الأمراء أيضًا وقرروا وجوب الاستمرار في الاستعدادات الحربية مادمت بوارج الإنجليز في الساحل وجنودهم في الإسكندرية، وأجمعوا على ضرورة حضور النظار من الإسكندرية للاستفهام منهم عن حقيقة الأمر. وحينما وصلت هذه القرارات إلى الخديو استشاط غضبًا فقد أدرك أن عرابي أصبح يتعامل معه ندًا بند ليس هذا فقط بل إنه بدأ يؤلب عليه الأمة ويتهمه بالخيانة فما كان منه إلا أن أصدر يوم 20 يوليو قرارًا بعزل عرابي من نظارة الجهادية لمخالفته أوامره، وأبلغه هذا الأمر في كتاب هذا نصه:[99]

"إن ذهابكم إلى كفر الدوار مستصحبًا العساكر وإخلاء ثغر الإسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة إلينا ومنع حضور المهاجرين إلى وطنهم بإسكندرية واستمراركم في التجهيزات الحربية وارتكابكم عدم الحضور بطرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم كل ذلك يوجب عزلكم، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية والبحرية".

ثم أذاع الخديو منشورًا آخر عُلق في شوارع الإسكندرية أوضح فيه الأسباب التي دعت إلى عزل عرابي من منصبه وأخذ فيه على عرابي إخلاء الإسكندرية بدون مقاومة ثم دافع عن نيات الإنجليز واحتلالهم المدينة وبرره بأن الغرض منه كان المحافظة على الأمن.

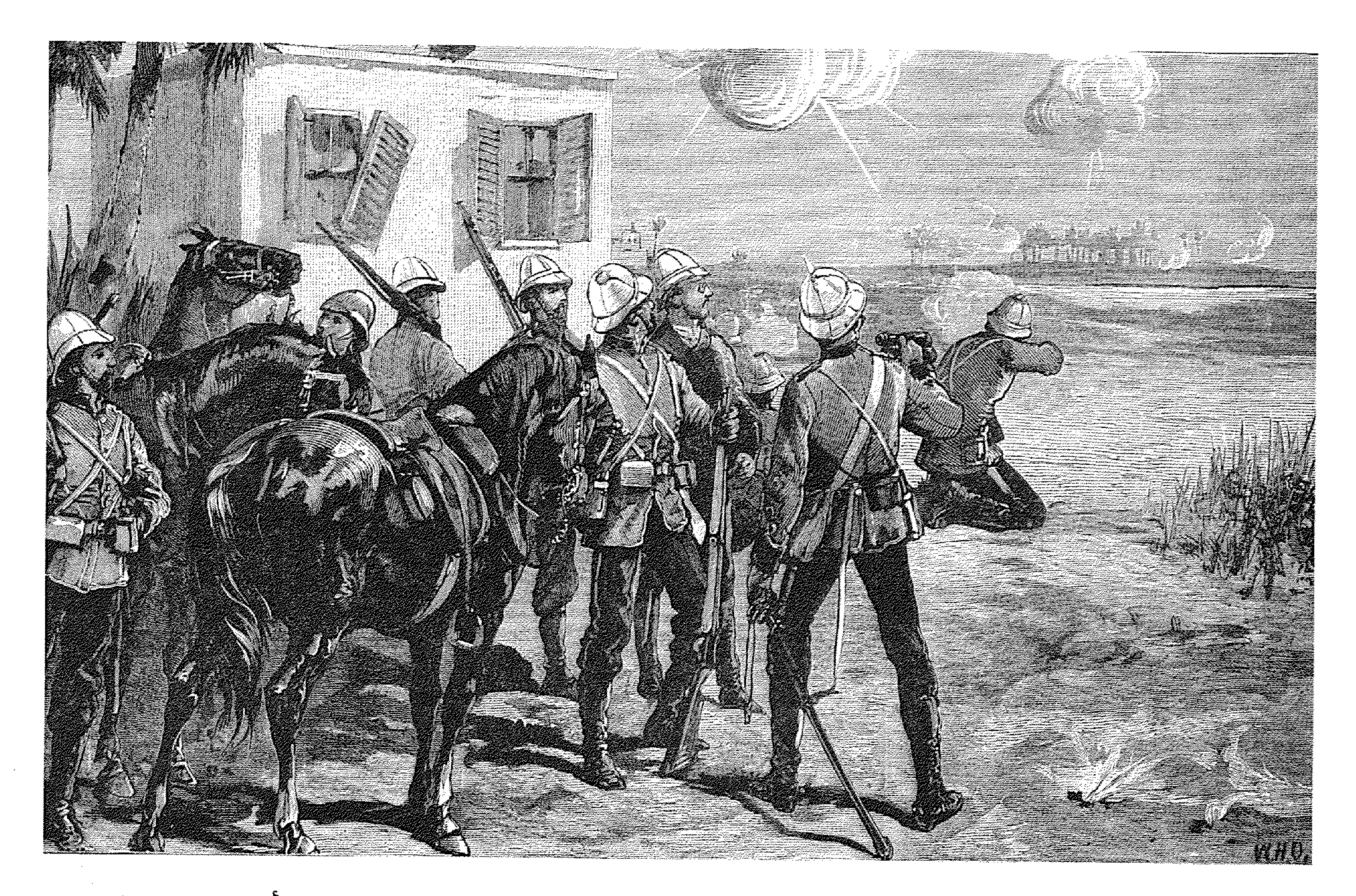
وبالطبع لم يكترث عرابي بأمر الخديو بعزله بل أرسل يدعو إلى عقد الجمعية العمومية مرة ثانية وبالفعل انعقدت في 22 يوليو بحضور عدد أكبر من المرة الأولى (500 عضو) وقررت بقاء عرابي

99- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 350.



القطارات تنقل العساكر الإنجليزية بكامل عددهم وعتادهم..على طريقة "انتشروا..." . The Illustrated London News بتاريخ 19 اغسطس 1882.

في منصبه لوجوب الدفاع عن البلاد، وأضافت إلى ذلك التشكيك في شرعية حكم الخديو الذي على حد تعبيرهم "خرج عن الشرع الشريف والقانون المنيف مما يستلزم عرض أمره على الأعتاب الشاهانية" أي أن الأمر وصل إلى درجة التلويح بعزل الخديو توفيق وإنزاله من على الأريكة الخديوية تمامًا كما حدث مع أبيه الخديو إسماعيل في عام 1879، والبديل موجود بجانب السلطان في الآستانة وهو بلا شك الأمير محمد عبد الحليم أو حليم باشا عم الخديو إسماعيل الذي أضير مرارًا وتكرارًا من الخديو إسماعيل الذي تمكن بالرشوة من جعل ولاية العرش لأكبر أبنائه، مما حرم حليم وغيره من فرصة الحلم بالجلوس يومًا على أريكة الحكم في مصر وضيق عليهم الخناق حتى ضاقوا وهاجروا إلى الآستانة وباعوا ممتلكاتهم في مصر هربًا من وجهه.. فهل هناك فرصة أفضل من ذلك للعودة ورد الصاع صاعين لإسماعيل وأسرته وابنه؟ والحقيقة أن قرار الخديو توفيق بعزل عرابي لم يؤثر على الأمة التي أيدت عرابي وانضمت إليه باعتباره "حامي حمى الديار المصرية" .



الجنود الإنجليز يراقبون الموقف في منطقة الرمل.
The Illustrated London News
بتاريخ 12 أغسطس 1882.

ويقول عبد الرحمن الرافعي إن عرابي عسكر بجيشه في كفر الدوار وقد أخذت طلائع العرابيين تناوش الإنجليز في ضواحي الإسكندرية، بينما أخذ الإنجليز يحصنون استحكامات المدينة ويضعون الحرس على مداخلها وتمكنوا يوم 23 يوليو من احتلال منطقة الرمل وهي ضاحية من ضواحي المدينة، وكان عدد الجيش الإنجليزي في الإسكندرية في ذلك الوقت 3686 مقاتلاً عدا جنود الأسطول ثم جاءهم مدد قوامه 1108 مقاتلين من مالطة وجبل طارق.[100]

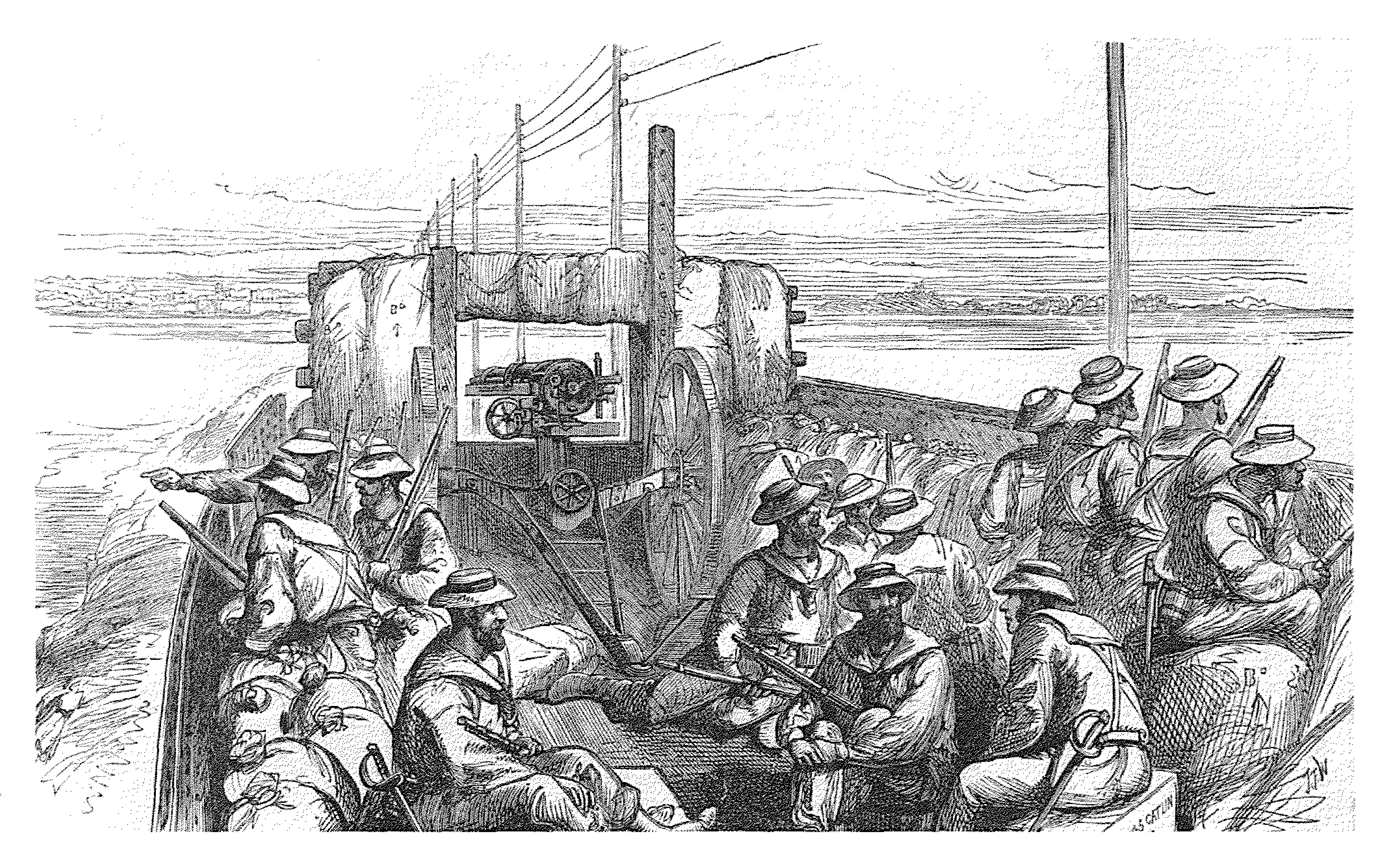
100- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 358.

أما عرابي فقد حدد خمسة مواقع للدفاع، الأول في كفر الدوار والثاني في أبي قير والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس والرابع في دمياط والخامس في الصالحية على خط قناة السويس.. وقد أشار محمود فهمي باشا الذي تم تعيينه رئيسًا لأركان حرب الجيش المصري على عرابي بسد قناة السويس وترعة الإسماعيلية تأمينًا لأي غزو من منطقة القناة، ولكن عرابي رفض الفكرة حتى لا يؤلب عليه الدول الأوروبية وضمانًا لكلمة ووعد قطعهما له دليسبس بحيدة القناة.. ويا ليته لم يثق في هذه الوعود التي جرت الخراب والاحتلال فقد كانت هذه هي الثغرة والمنفذ الذي نفذ منه الإنجليز إلى البلاد...

وقد استبسل المصريون في الدفاع عند كفر الدوار حتى أنهم تمكنوا من رد الإنجليز لفترة لا تقل عن ستة أسابيع، وكذلك في معارك الرمل 5 أغسطس وعزبة خورشيد 7 أغسطس وغيرها. وبينما كان القتال دائرًا على أشده فاجأ السلطان العثماني البلاد بخبر حل كالصاعقة على رءوس الجيش والوطنيين فقد أصدر السلطان مرسومًا بعصيان عرابي...

الجنود الإنجليز في طريقهم إلى مصر.. جريدة الجرافيك 28 أكتوبر 1882.





المدد الإنجليزي في الطريق إلى المعركة...
The Illustrated London News
بتاريخ 12 أغسطس 1882.

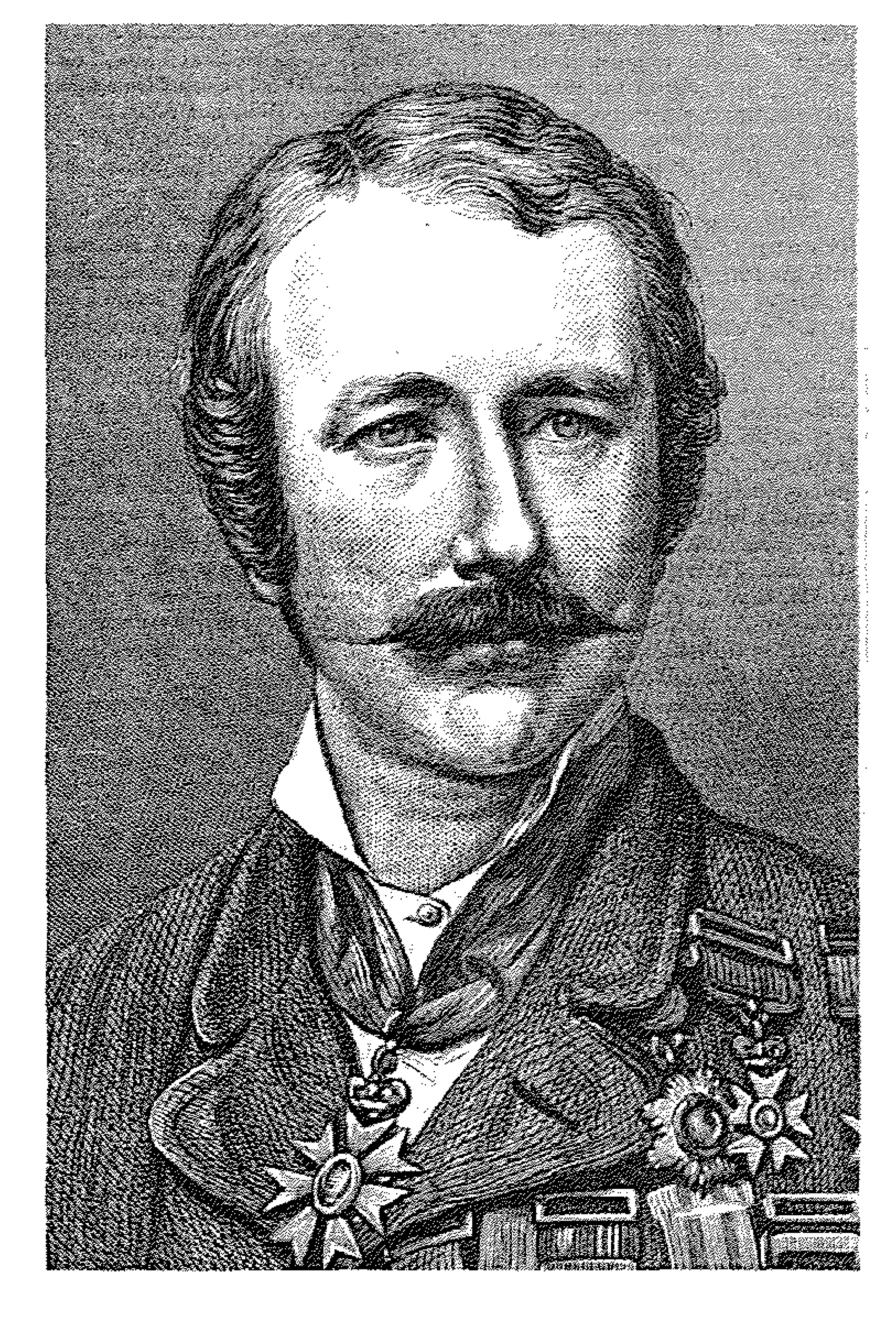
فكان هذا المرسوم نكبة حقيقية فقد فتر التفاف الجنود والشعب حول عرابي بعد هذا الإعلان.. فالسلطان العثماني كان مازال في نظر البسطاء خليفة المسلمين فكيف وقد أعلن مثل هذا الإعلان يمكن مخالفته.. وبالتالي فلاشك أن عرابي عاص...!

ورغم كل ما سبق فقد أثبت المصريون أنهم رجال المحن، فقد هب الجميع لنجدة الجيش المصري والتطوع للجندية ودعم الجهادية بالمال والمؤن، فقد تدفقت مساعدات الأهالي على معسكرات الجيش من سمن وخيول ومواشٍ وغلال وفواكه وخضر، وعلى سبيل المثال تبرع موسى بك مزار بـ 1300 ثوب بفتة و30 عجلاً كما كانت المفاجأة بالتبرع الذي قدمته والدة الخديو إسماعيل "خوشيار هانم"

أو الوالدة باشا كما كان يُطلق عليها التي قدمت جميع خيول عرباتها للجهادية؛ مما يعطي مؤشرًا خطيرًا فهل هي مع الخديو توفيق حفيدها أم مع مصر وشعبها وجنودها ووزير جهاديتها المخلوع بيد حفيدها.. لا أحد يعلم...! وقد تبعها في هذا السلوك الطيب عدد من أمراء الأسرة المالكة وعدد من الذوات والأعيان وسيدات المجتمع في ذلك الوقت، ومنهم حرم رياض باشا رئيس النظار السابق والذي كان العرابيون يكرهونه ويعتقدون في استبداده وانحيازه للإنجليز فقد تبرعن بالملابس والمعدات اللازمة للجرحى.

الأهالي يقومون بتضميد جراح أحد ضحايا الحرب.
The Illustrated London News
بتاريخ 26 أغسطس 1882.




الجنرال ولسلي قائد الجيوش الإنجليزية.

وبمجرد وصول الجنرال "السير جارنت ولسلي" إلى الإسكندرية وتوليه قيادة الجيش الإنجليزي في منتصف أغسطس حتى أذاع المنشور التالي: بأمر الحضرة الخديوية

إعلان للمصريين

"يُعلن الجنرال قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية في إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصري ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية وعساكرنا يحاربون فقط حاملي السلاح ضد سموه، وعموم الأهالي الذين هم في سلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وإنسانية ولا يجعل لهم أي ضرر، بل يحترم دينهم وجوامعهم وعائلاتهم والأشياء التي تلزم الجيش يصير دفع ثمنها وعليه ندعو الأهالي لتقديم ذلك.

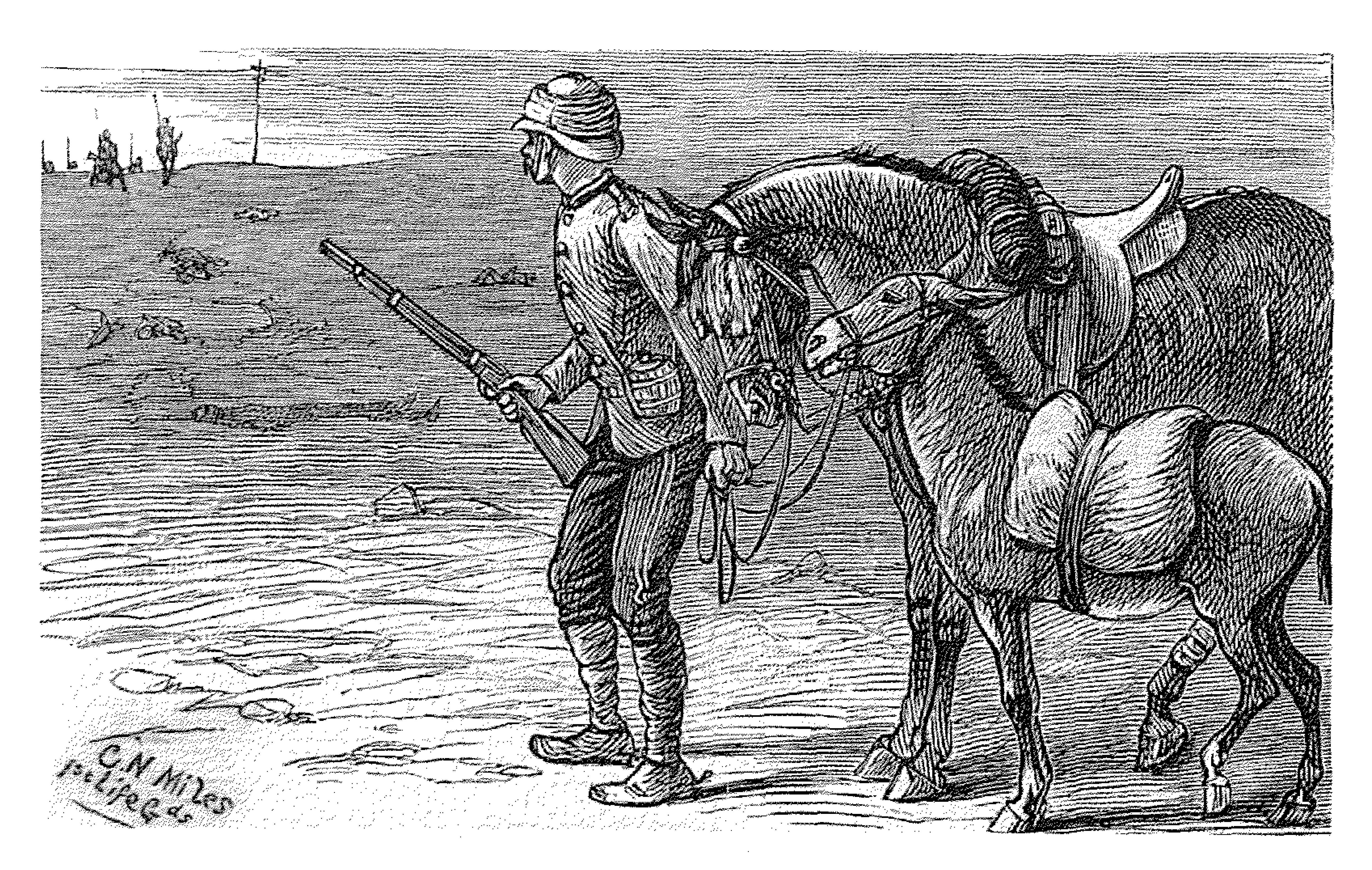
وإن الجنرال قائد الجيوش يسر جدًا من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذي هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالي الشرعي على القطر المصري المعين من لدن الذات الشاهانية". وفي نفس الوقت أصدر الخديو أوامره بتقديم كل المساعدات اللازمة للجيش الإنجليزي وقال بالنص:

"من يخضع له (المقصود قائد الجيوش الإنجليزية جارنت ولسلي) كأنه خضع لنا شخصيًا ومن خالفه يُعد عاصيًا ويُعامل معاملة العاصي".

كما أصدر هذا المرسوم الذي يقضي بالترخيص للجيش البريطاني باحتلال القناة:

"ليكن معلومًا عند السلطات الملكية والعسكرية في منطقة قناة السويس أن أميرال الأسطول الإنجليزي وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها، ومن ثم قد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التي يريان في احتلالها ما يساعد على قمع العصيان وعلى السلطات أن يبلغوا هذا الأمر إلى كافة سكان منطقة قناة السويس وبخاصة إلى موظفي وعمال القناة البحرية، ومن يخالف أمرنا هذا يعد خارجًا على إرادتنا ويُنزل به أشد العقاب".

ومرت الأيام على عرابي وجنده بصعوبة فهم من ناحية لا يملكون المال والعتاد اللازم لمثل هذه المعارك، كما أن عدد الجند في الجيش النظامي المصري لم يكن يزيد عن 19 ألف جندي موزعين في مختلف الجبهات مما دعا عرابي إلى محاولة تجنيد عدد من الخفراء بلغ عددهم 25 ألفًا ولكنهم لم يكونوا على دراية بفنون الحرب والقتال، كما أن ثقة عرابي بدليسبس الخائن وعدم سد قناة السويس وخيانة العديد من العربان بالإضافة إلى رشوة بعض رجال الجيش المصري أضعف موقف الجيش المصري بالإضافة إلى منشورات الخديو المعادية لعرابى وإعلان السلطان العثماني عصيان عرابي وهو الإعلان الذي نُشر في بعض جرائد الأستانة في أوائل شهر سبتمبر (6 سبتمبر) وتسربت نسخ منه إلى مصر... كل هذه العوامل أضعفت عرابي مع قلة خبرته العسكرية التي جعلته هو ورجاله لقمة سائغة في فم الكيان الإنجليزي المفترس الذي أعد العدة ودبر التدابير وتمكن من النجاح والوصول إلى غايته في احتلال مصر بأرخص الوسائل.

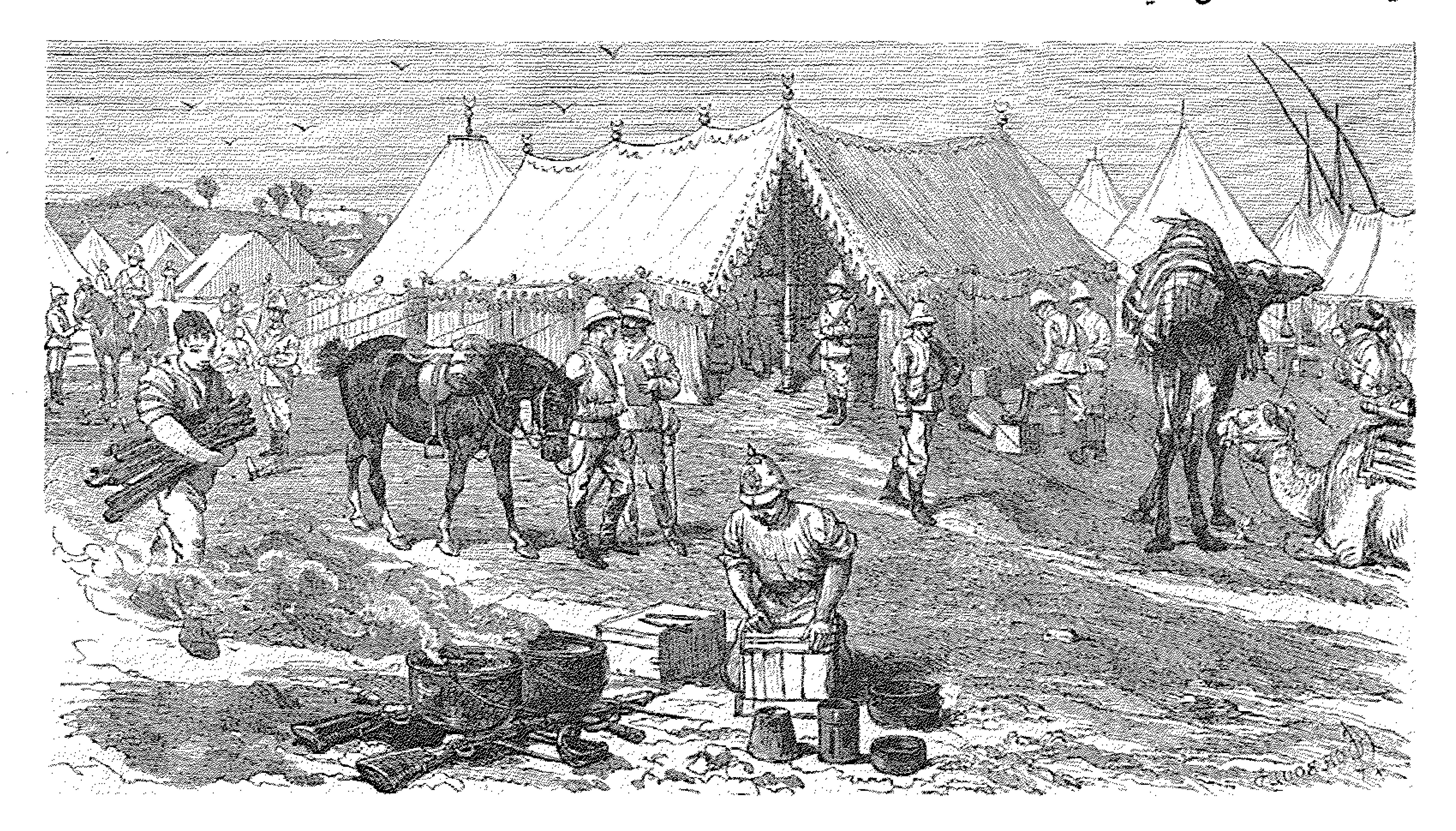


عدو والا حبيب؟.. هكذا صرخ الجندي المصري في القادمين نحوه..
صورة نشرتها جريدة The Graphic بتاريخ 28 أكتوبر 1882.

ولم يكتف الإنجليز باحتلال القناة واتخاذ الإسماعيلية قاعدة لزحفهم بل قاموا برشوة البدو ليقوموا بمساعدتهم ثم قاموا باحتلال نفيشة والمجفر والمسخوطة بعد معركة عنيفة بين الجانبين أسروا فيها محمود باشا فهمي رئيس أركان حرب الجيش المصري، فكان أسره أكبر ضربة للدفاع المصري ثم كانت واقعة المحسمة ثم القصاصين التي سقطت دون مقاومة تُذكر ليصبح الجيش الإنجليزي على مسافة 15 كيلومتراً من التل الكبير حيث يوجد عرابي.

ولما بلغت أخبار المعارك الحزينة عرابي قرر أن ينتقل بنفسه إلى التل الكبير ليكون بالقرب من جنوده، فركب القطار من كفر الدوار يحوط به لفيف من ضباطه وجنوده... وعندما وصل قطاره إلى الزقازيق مسقط رأسه نزل منه وجلس بكشك على المحطة، فالتف حوله الناس من العامة ومنهم المشايخ والعمد وأرباب الطرق والموظفون وغيرهم، وانتابت الناس حماسة شديدة وأخذوا يتصايحون:

"الله ينصرك يا عرابي.. يا مولانا يا عزيز أهلِك عساكر الإنجليز.. يا سيمور يا وش القملة.. مين قالك تعمل دي العملة."

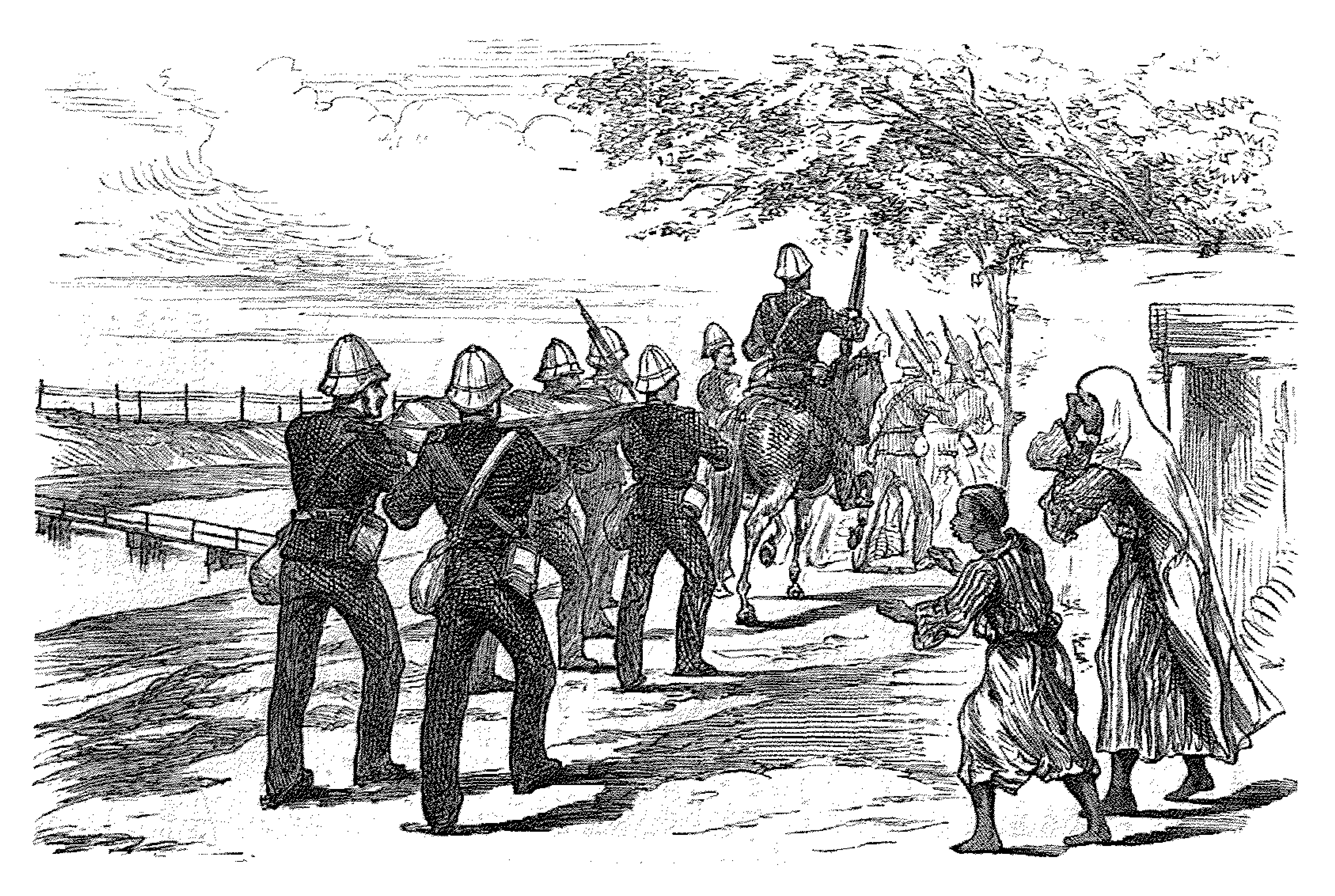


خيمة عرابي في التل الكبير.. صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 7 أكتوبر 1882.

فركب عرابي قطاره يملؤه الفخر والحماسة وأخذ يقول للجمع المحتشد لوداعه: "أنا لها.. أنا لها"

ولما وصل عرابي إلى التل الكبير أقام في خيمة فاخرة أُعدت له وكانت من أفخر الخيام الموجودة في مصر في ذلك الوقت، ويقال إنها كانت خيمة سعيد باشا والي مصر السابق.

وبعد يومين من استيلاء الإنجليز على القصاصين قام المصريون بمهاجمتهم بشدة وأوقعوا بهم خسائر بلغت 8 من القتلى و61 جريحًا.. ثم كانت واقعة القصاصين الثانية في 9 سبتمبر التي هجم فيها المصريون على موقع الإنجليز بقيادة (أبو شنب فضة) الفريق راشد باشا حسني والتي اشتد فيها القتال لمدة 3 ساعات، ولكن المعركة انتهت في النهاية بتراجع الجيش المصري بعد خيانة أحد الضباط هو الأميرآلاي علي بك يوسف خنفس الذي سلم الإنجليز خطة المعركة. ولكن عرابي قال عن هذه المعركة إنها كانت أشد حرب نشبت بيننا وبين الإنجليز إذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهم نادر المثيل.



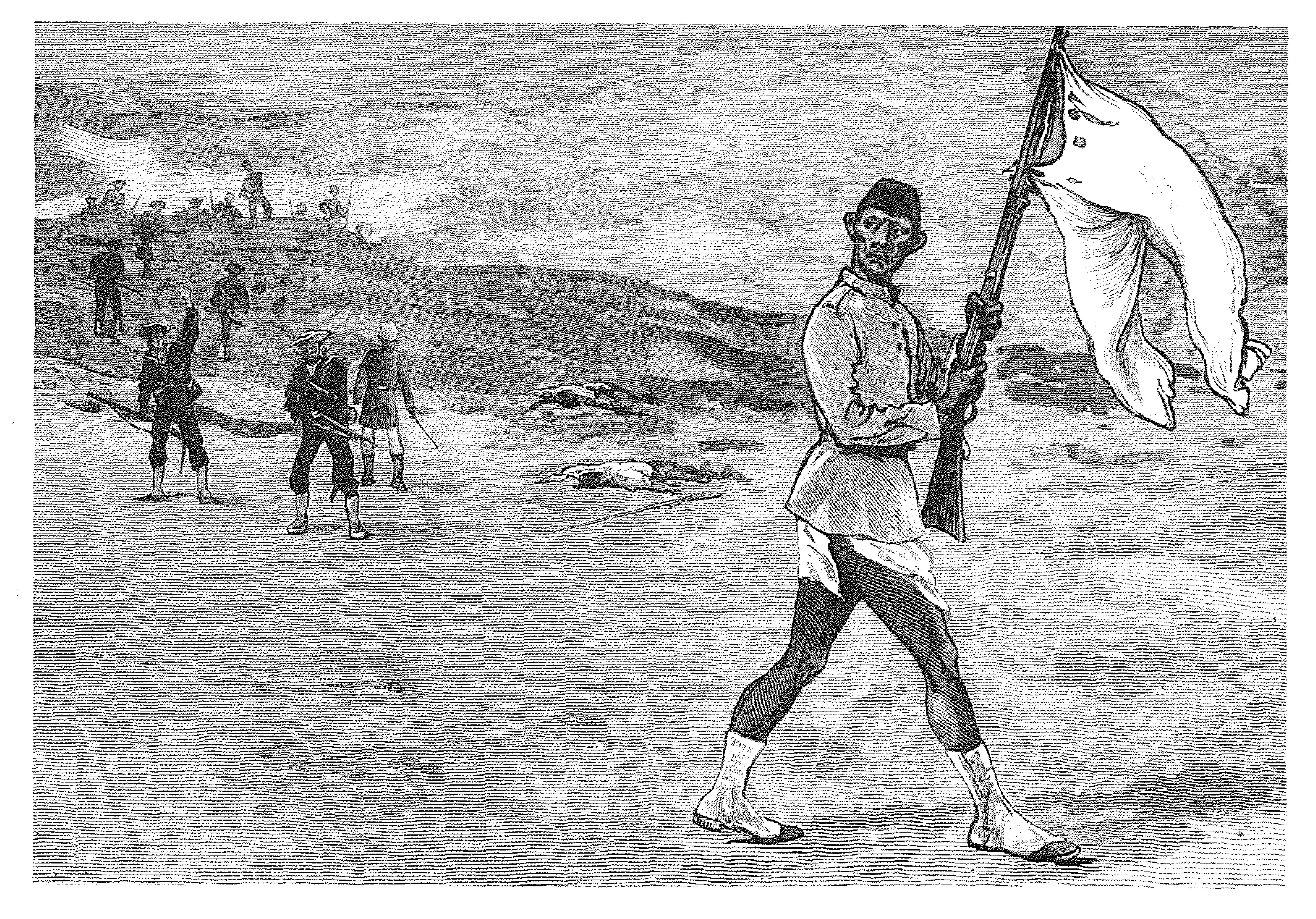
الجنود الإنجليز يحملون أحد قتلاهم....

The Illustrated London News

بتاريخ 26 أغسطس 1882.

أما الكارثة الكبرى فكانت في واقعة أو معركة التل الكبير وهي التي حسمت الأمر لصالح الإنجليز، فقد زحف الجيش الإنجليزي من الناحية الشمالية للتل الكبير وأدرك قائد الجيش أن المصريين لا يضعون الطلائع أمام الاستحكامات إلا فجرًا فزحف ليلاً وأمر أن تُطفأ الأنوار وتقدم جيشه العربان الخونة ليدلوهم على الطريق، وبالفعل وصلوا وكان الجيش المصري وعلى رأسه عرابي يغطون في نوم عميق فحدث هرج ومرج وذعر كبير.. وثبت من ثبت وهرب من هرب... وقد هجم الإنجليز في شكل

تحت عنوان "هل هذا سلام؟" نشرت جريدة The Graphic هذه الصورة لأحد الجنود المصريين بعد الهزيمة في محاولة يائسة للهروب والاستسلام بعد معركة التل الكبير بتاريخ 21 أكتوبر 1882.

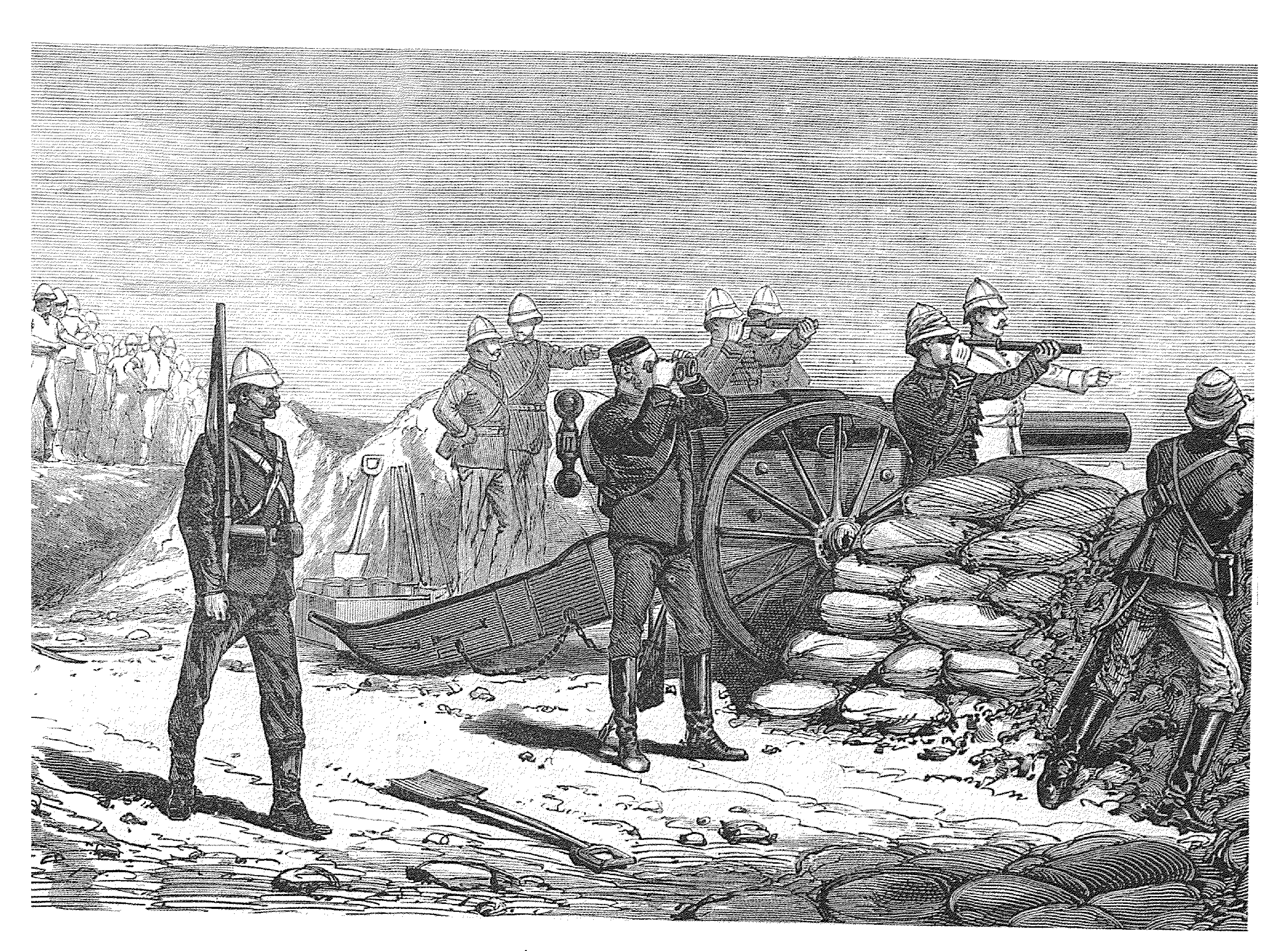


نصف دائرة على معسكر العرابيين وأطلقوا عليهم القنابل والبنادق حتى قيل إن 200 قتلوا قبل أن يصلوا إلى الخنادق وقد استشهد في هذه المعركة البطل محمد عبيد الذي استبسل في الدفاع عن أرضه كعادته وغيره الكثيرون مثل اليوزباشي حسن أفندي رضوان وأحمد بك فرج وعبد القادر بك عبد الصمد. ويقال إن الذين صمدوا لم يزد عددهم عن ثلاثة آلاف، بينما هرب الباقون (أو في قول آخر انسحبوا) وعلى رأسهم عرابي.. وقد تراوحت خسائر المصريين بين 1500 و2000 قتيل. أي أنها كانت مجزرة بشرية...! وعن هذا اليوم يقول عرابي:[101] "في يوم الأربعاء 13 سبتمبر كنت في صلاة الفجر إذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة فخرجت ونظرت فرأيت ضرب النار على طول خط الاستحكام ورأيت بطارية طوبجية سواري على مرتفع من الأرض تبعد عن الخيمة بنحو 600 متر، صبت مقذوفاتها على مركزنا العمومي، وكان مركزنا خلف الاستحكامات بـ 4 آلاف متر، ولم يكن هناك من الأهالي إلا الأهالي المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وكانوا نحو ألفي نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ولم يُجد ذلك نفعًا بل تفرقوا فرارًا، ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحمًا بالخيل والجمال والعساكر مشتتين ومولين ظهورهم للعدو فذهبت إلى القنطرة التي على الترعة هناك لأمنع العساكر عن الفرار، فصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والصبر والثبات فما من سميع أو بصير، فألقوا بأنفسهم في الترعة وسبحوا إلى البر الغربي فذهبت إلى بلبيس لجمع المنهزمين واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول للقاهرة..

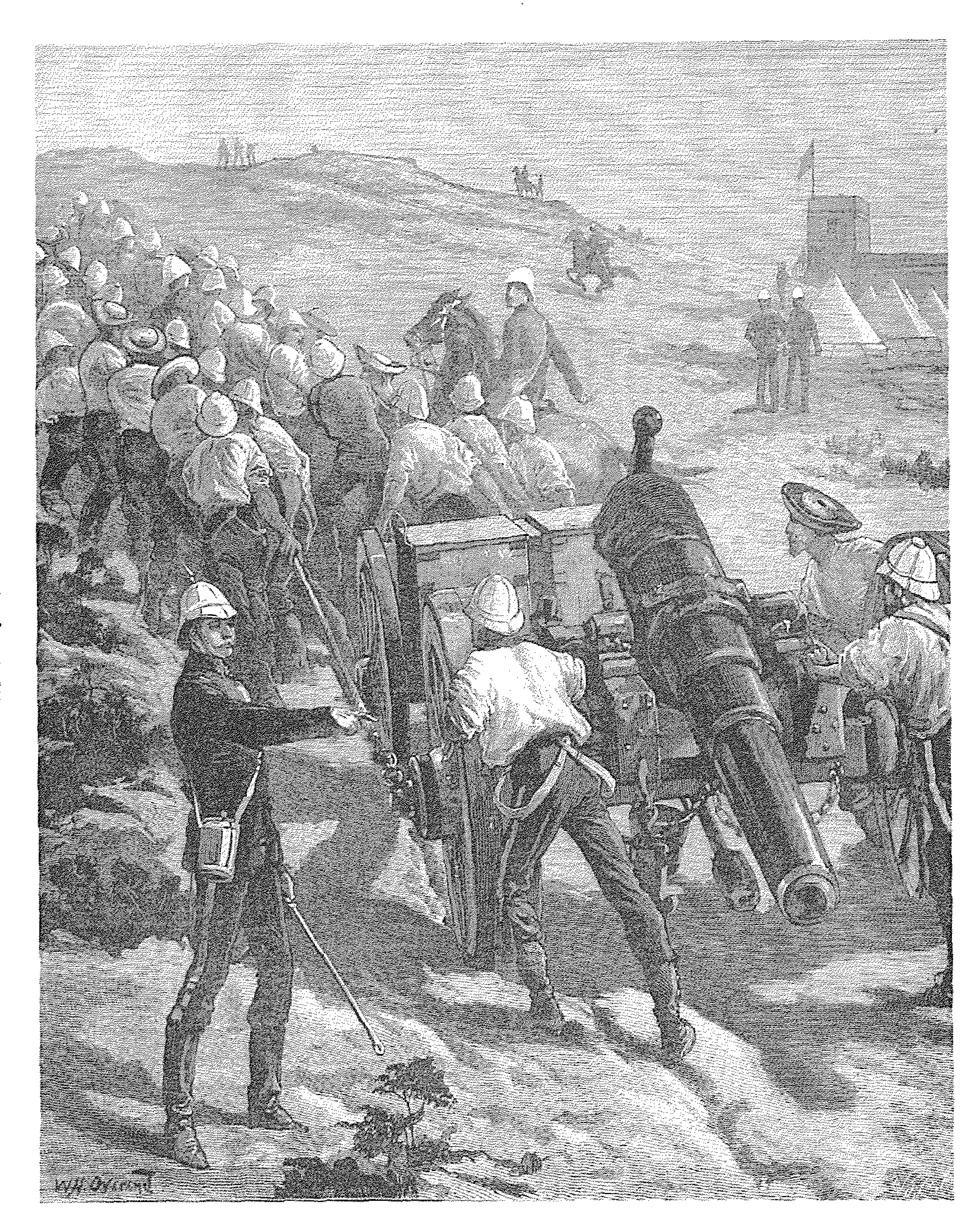
وكانت مقذوفات الطوبجية السواري تتساقط علينا من كل جهة حتى تركنا حدود التل الكبير، فلما وصلت إلى بلبيس وجدت علي باشا الروبي سبقني إليها فسألته عما دهاهم فلم يزد على قوله:

"إنه خذلان.. خذلان" وكان على إثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا، فأرخينا للخيل أعنتها حتى وصلنا محطة أنشاص فوجدنا هناك قطارًا فركبناه وذهبنا إلى القاهرة لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الأعداء قبل وصولهم إليها".

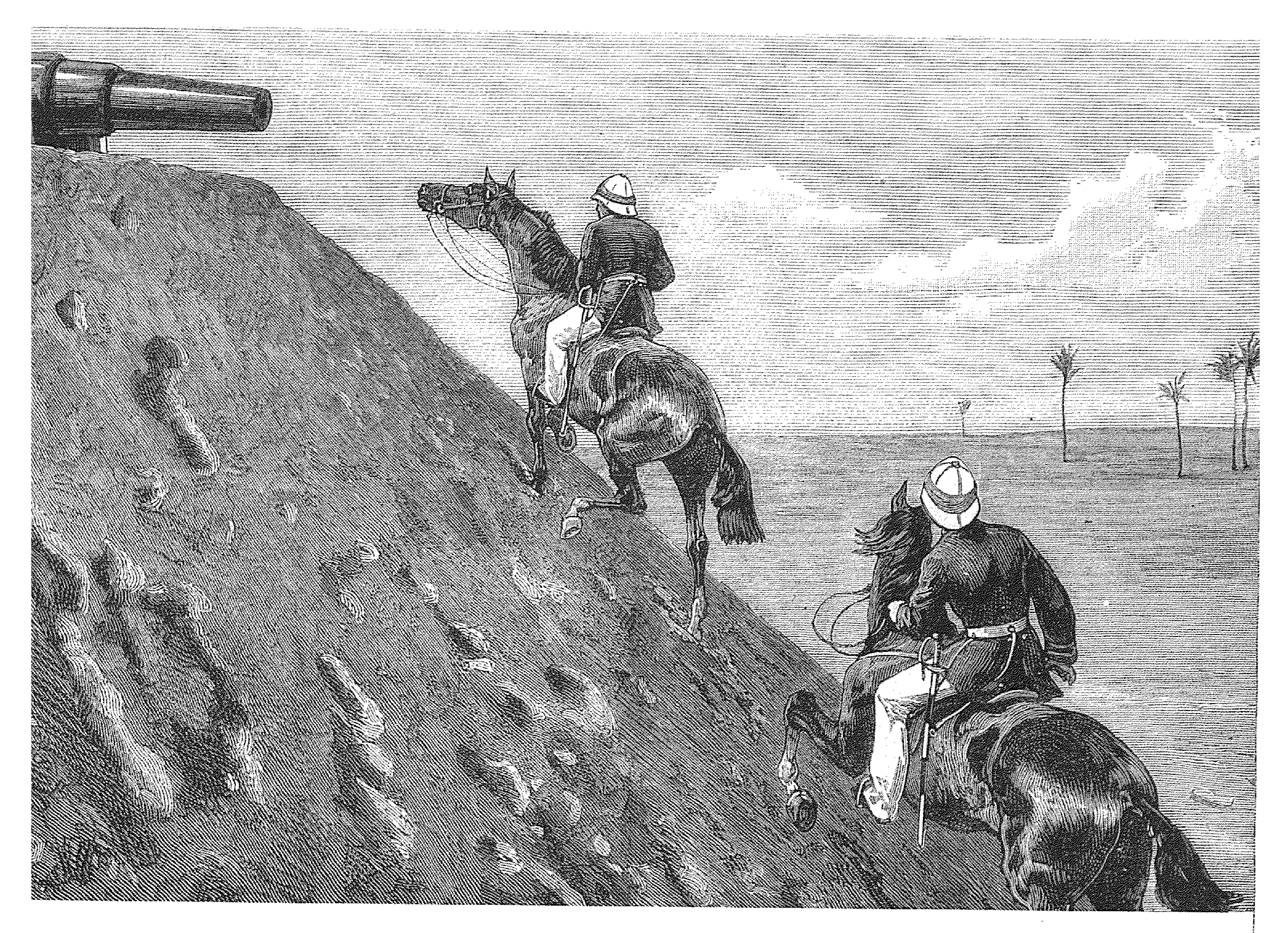
101- عبد الرحمن الرافعي -الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي- ص 392.



القادة الإنجليز يراقبون مواقع العرابيين من الرمل صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 26 أغسطس 1882.



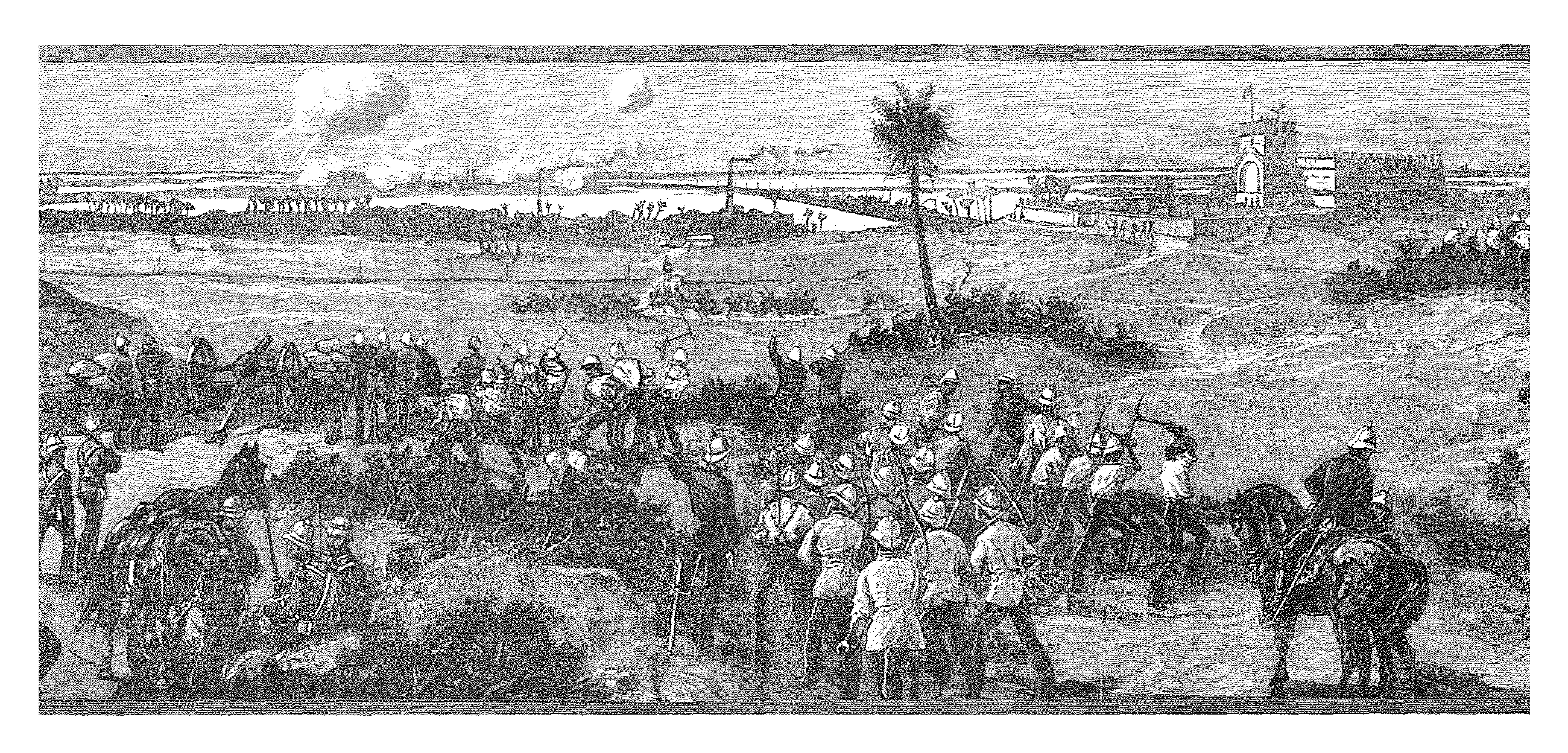
الجنود الإنجليز بمدافعهم وعدتهم وعتادهم في منطقة الرمل بالقرب من الإسكندرية... صورة نشرتهاThe Illustrated London News في الصفحة الأولى بتاريخ 19 أغسطس 1882.



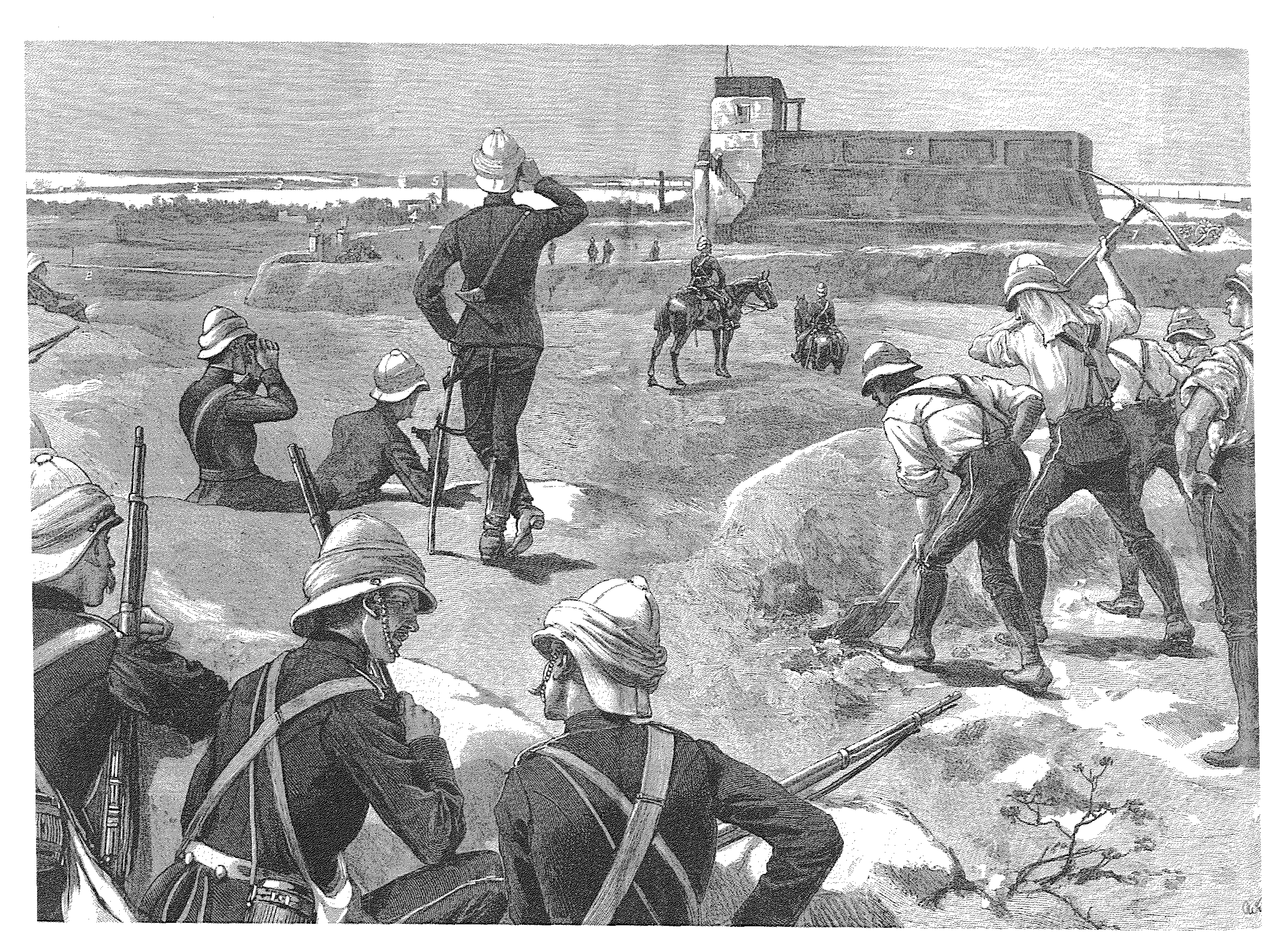
دخول الكابتن "كيلي" إلى قلعة أبو قير، صورة نشرتها The Graphic في 21 أكتوبر 1882.



أحد الجرحى المأسورين كما صورها رسام The Illustrated London News بتاريخ 21 أكتوبر 1882.



الاستعدادات العسكرية الإنجليزية في منطقة الرمل شرق الإسكندرية The Illustrated London News بتاريخ 12 أغسطس 1882.



الاستعدادات العسكرية في المحمودية بالقرب من كفر الدوار. The Illustrated London News بتاريخ 12 أغسطس 1882.

وبعد هزيمة التل الكبير عاد عرابي إلى القاهرة وبالتحديد في نفس يوم الهزيمة أي 13 سبتمبر، وعقد اجتماعًا موسعًا في قصر النيل مع عدد كبير من الأمراء والأعيان ورجال الدين والذوات وأطلعهم فيه على ما حدث وحقيقة الموقف بالضبط، وانقسمت الآراء ما بين مؤيد لاستمرار الحرب وبين رافض لها والتسليم للإنجليز وكفاية شعب مصر ويلات الحرب.

وكان الأمير إبراهيم باشا أحمد ابن عم الخديو من المؤيدين لاستمرار المقاومة، وفي النهاية وبعد وضع كافة الاحتمالات وتقليب الأمر على كافة الوجوه ووضع كشف شامل بكمية المؤن المتوفرة والعدة والعتاد التي يمكن الحصول عليها وعدد الجنود تبين أنه لا يوجد في مركز المدفعية سوى ألف رجل من الخفراء بلا ضباط و40 رجلاً من السواري؛ فأيقن عرابي ومعه المرعشلي باشا مهندس الاستحكامات السابق أنه لا طائل فيما يحاولون عمله وأنه من الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار.

واستقر الأمر على التسليم وكتابة عريضة للخديو يلتمس فيها عرابي وصحبه العفو ويظهرون الخضوع، وبالفعل وقعوا هذه الوثيقة ولكن الخديو رفض ما جاء بها.

وفي اليوم التالي أي في 14 سبتمبر دخل قائد الجيوش الإنجليزية القاهرة على رأس كتيبة من الفرسان وعسكر في العباسية وفي المساء ارتدى عرابي ملابسه العسكرية وتقلد سيفه وركب عربته وبصحبته طلبة عصمت صديقه وشريكه في كل ما مضى وتوجها إلى ثكنات العباسية؛ وبهدوء وعلى غير توقع سلما نفسيهما إلى القادة الإنجليز..

هكذا بكل بساطة..

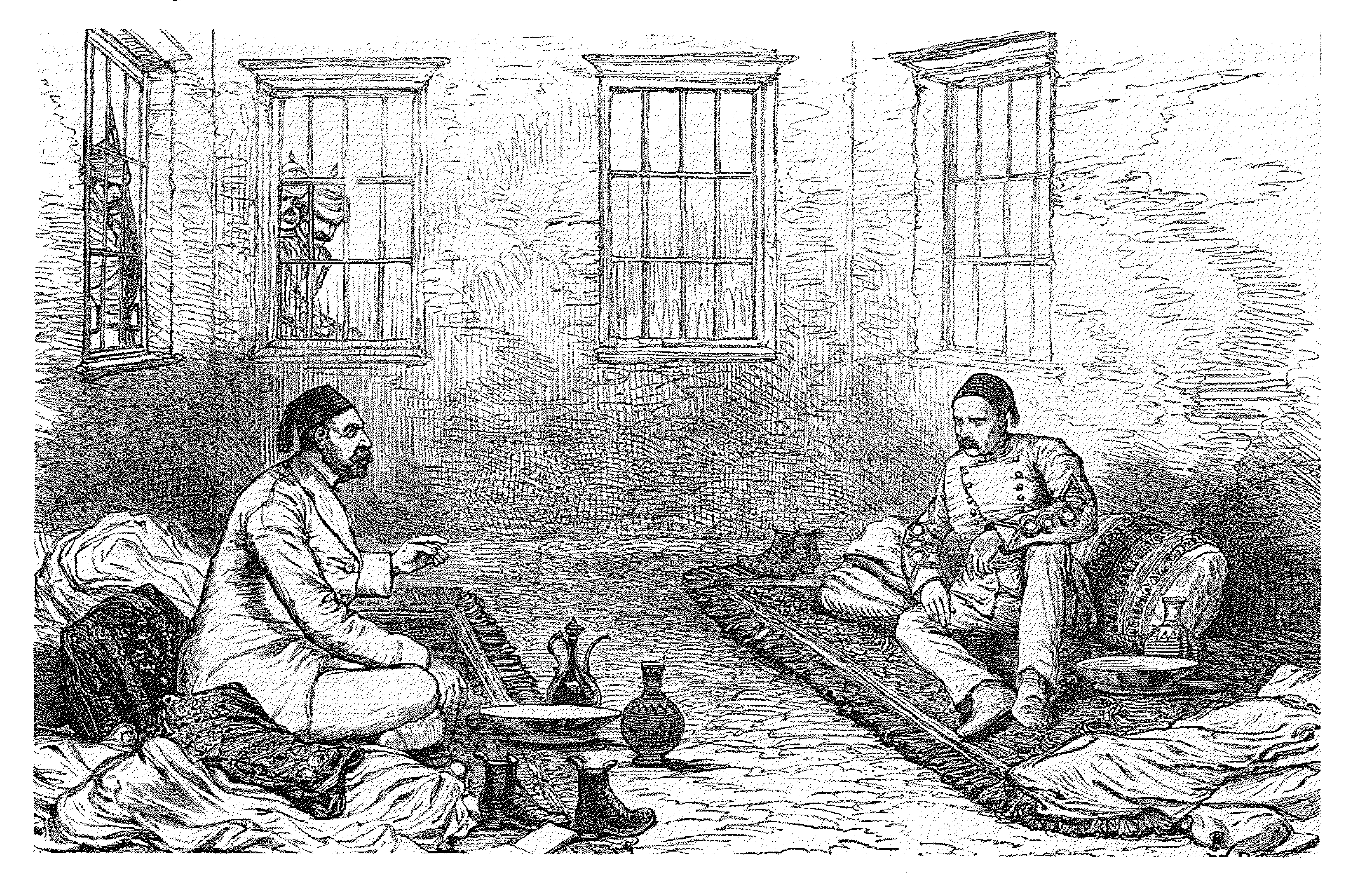
وهكذا انتهت هوجة عرابي كما يطلقون عليها.. فهل كانت هوجة فعلاً؟

هل كانت زوبعة في فنجان وانتهت بأن قام زعيمها وبطل المصريين في ذلك الوقت -الذي كان الشعب يهتف له أينما حل "الله ينصرك يا عرابي"- بتسليم نفسه للأعداء؟

وبالفعل سُجن عرابي وطلبة عصمت في 16 سبتمبر، ثم تم نقلهما مع آخرين إلى سراي الدائرة السنية بشارع القصر العيني.

وفي 28 سبتمبر شُكلت عدة محاكم عسكرية ولجان تحقيق لمحاكمة زعماء الثورة العرابية واختار "بلينت" صديق عرابي الإنجليزي المحامين "برودلي" الإنجليزي و"نابيير" الفرنسي للدفاع عن عرابي بموافقة السلطات الإنجليزية، وصدق المثل القائل "يقتل القتيل ويمشي في جنازته" فقد أوقع الإنجليز بعرابي ورجاله، وفي آخر المطاف كان المحامي الوحيد الذي وقف بجانبه إنجليزياً.. لله في خلقه شئون..

عرابي وطلبة عصمت في سجن العباسية بعد انتهاء الثورة... صورة نشرتها The Illustrated London News بتاريخ 7 أكتوبر 1882.

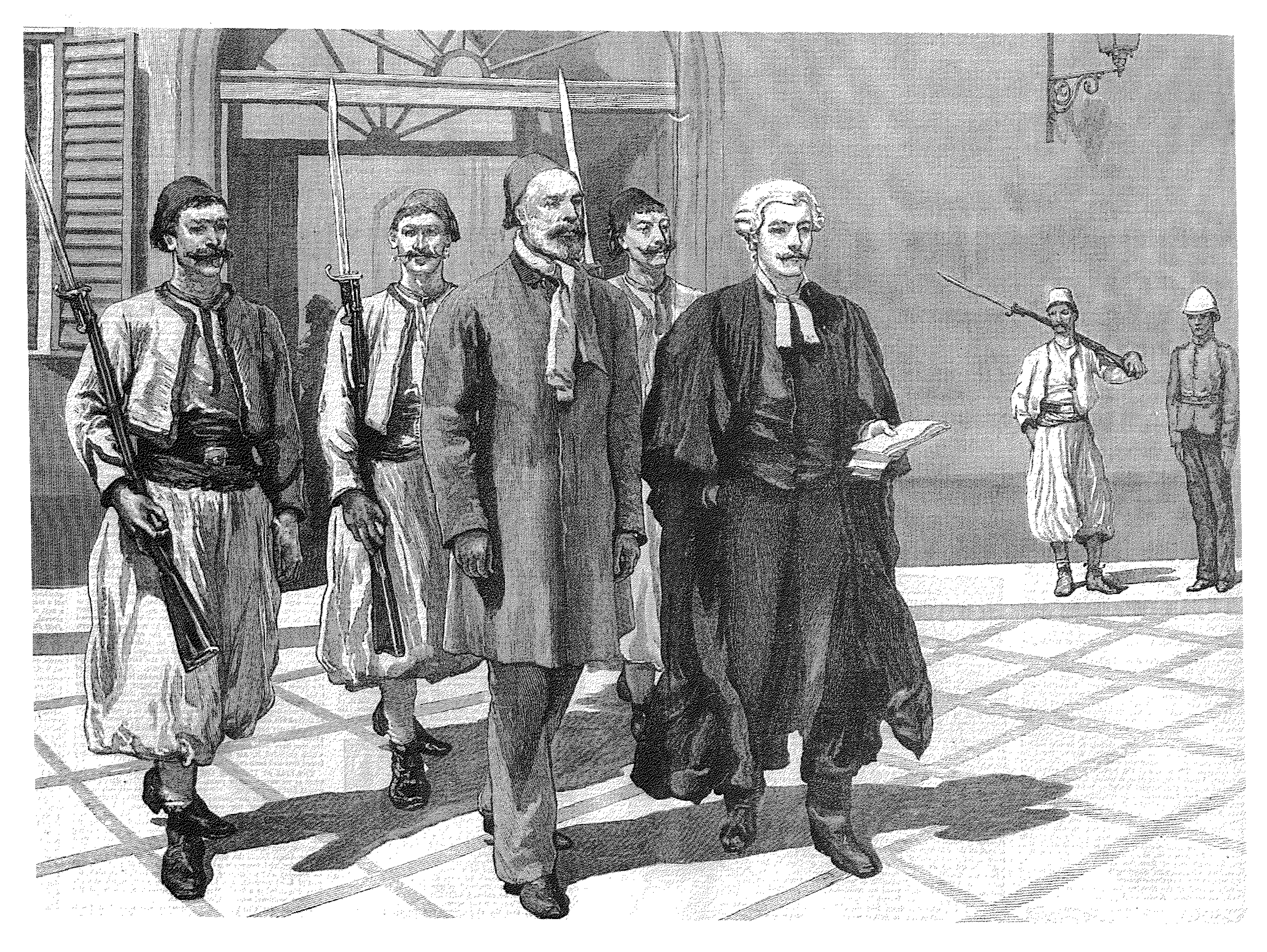


وكانت محاكمة عرابي وزملائه أشبه بمسرحية هزلية مفضوحة.. فقد صدر الحكم على عرابي في 3 ديسمبر 1882 بعد جلسة محاكمة لم تستمر لأكثر من 5 دقائق اعترف فيها الثوري الكبير بالعصيان ولكن عصيان من؟ أو ماذا؟ عصيان الواجب والوطن أم ماذا؟

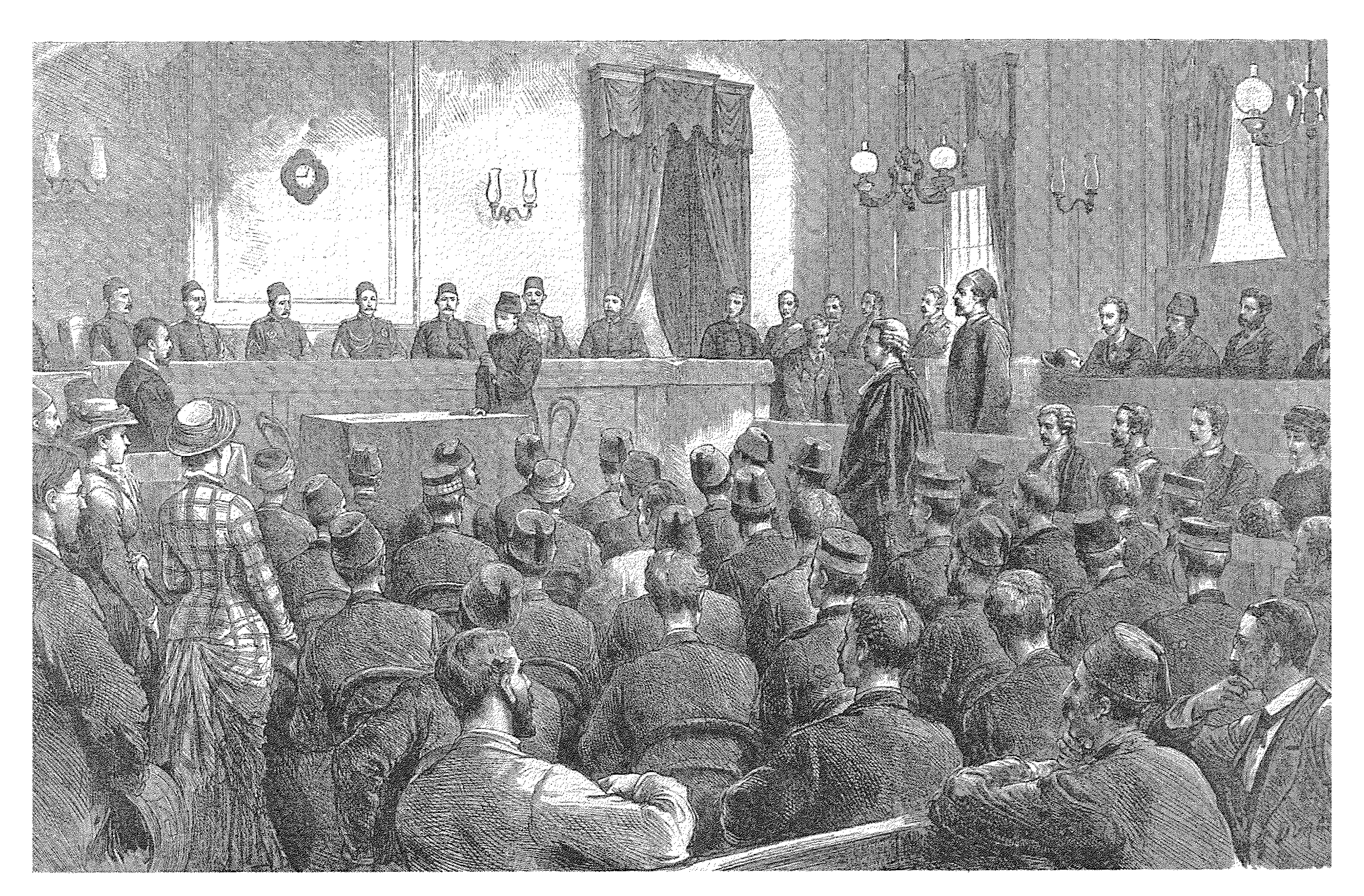
ولكنه وللحقيقة اعترف بعصيان الخديو وكانت هذه هي الخطة التي أعدها الدفاع مع الحكومة الإنجليزية لينتهي الأمر بإظهار الموضوع وكأنه مجرد عصيان للوالي الشرعي أو محاولة غير شرعية لقلب الأوضاع في البلاد، وبالفعل وافق الزعماء السبعة على هذا الاقتراح فنالوا حكم الإعدام ثم صدر بعد ذلك مرسوم خديوي بتخفيف حكم الإعدام إلى النفي المؤبد، وذلك تحت ضغط من الحكومة الإنجليزية التي كانت تعاني هي الأخرى من ضغط حزب الأحرار في بريطانيا الذي كان يرى في عرابي وحركته الثورية حركة مشروعة؛ وبالتالي لا يمكن السماح بإعدامه هو ورفاقه.

وقد صدر هذا الحكم ضد عرابي وطلبة عصمت وعبد العال حلمي وعلي فهمي والبارودي ومحمود فهمي ويعقوب سامي. أما علي باشا الروبي فهو الزعيم الوحيد الذي رفض الإقرار بتهمة العصيان باعتبار أنه فعل ما فعل بدافع الدفاع عن البلاد وشرف العباد؛ وبالتالي لا داعي لتملق الخديو أو محاولة استدرار عطف الإنجليز، وقد صدر الأمر بنفيه 20 سنة في مصوع.

وفي 14 ديسمبر أصدر الخديو توفيق مرسومًا بمصادرة أملاك الزعماء السبعة وبيعها لسداد التعويضات وبحرمانهم مستقبلاً من حق التملك في مصر بالإرث أو الهبة أو الشراء مع ترتيب المعاش السنوي لكل منهم، ثم صدر في 21 ديسمبر مرسوم آخر بتجريدهم من الرتب والنياشين والامتيازات ومحو أسمائهم من سجلات الجيش المصري نهائيًا. وقد قررت الحكومة البريطانية أن يتم نفي الزعماء السبعة إلى سيلان.



عرابي في طريقه للمحاكمة.



تحت عنوان "مصر بعد الحرب والحكم على عرابي بالإعدام" نشرت جريدة The Graphic الإنجليزية هذه الصورة عن الحدث الأهم في مصر هذه الأيام وهو محاكمة عرابي بتاريخ 23 ديسمبر 1882.



عرابي في السجن على غلاف The Graphic بتاريخ 4 نوفمبر 1882.

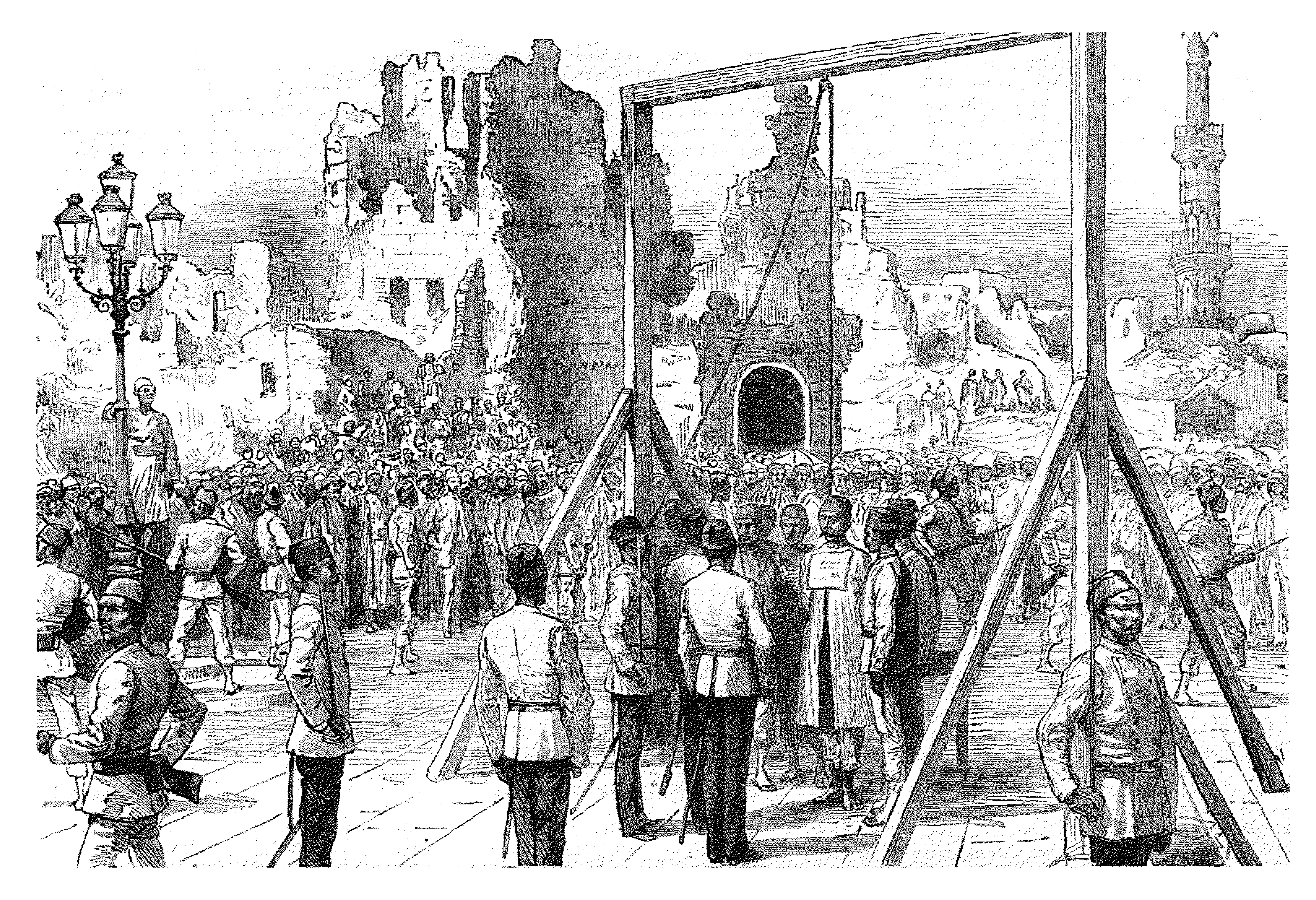
وفي 25 ديسمبر 1882 أُجريت عليهم مراسم التجريد من الرتب والألقاب في ساحة قصر النيل حيث مقر نظارة الجهادية. وفي 27 ديسمبر نقلهم القطار من القاهرة إلى السويس مع مرافقيهم من الأهل والخدم.. وفي 28 ديسمبر أقلعت بهم الباخرة "مريوتس" إلى سيلان فوصلوا ميناء كولمبو في 9 يناير 1883 لتبدأ مرحلة جديدة في عمر الزعماء العرابيين السبعة وفي عمر مصر أيضًا.

أما القائمقام سليمان سامي داوود (أو عرابي الإسكندرية أو شرير الثورة العرابية كما أُطلق عليه) فقد حُكم عليه بالإعدام في 7 يونية 1883 ونُفذ فيه الحكم علنًا في ميدان القناصل أو المنشية بين الخرائب وأنقاض المباني، وشهد تنفيذ الحكم عدد كبير من سكان المدينة والصحفيين.

أما عن العرابيين السبعة المنفيين على بُعد آلاف الأميال من الوطن فقد قاسوا الأمرين في الغربة ما بين الوحدة وألم فراق الأحباب والخيانة ولوم الذات حتى بدأوا يتساقطون واحدًا تلو الآخر؛ فقد توفي عبد العال حلمي في 19 مارس 1891 في كولمبو ودفن بها، ثم توفي محمود فهمي في كانديا ودفن بها في 17 يوليو 1894، ثم طلب طلبة عصمت العودة إلى مصر بسبب سوء حالته الصحية وما إن عاد حتى توفي في فبراير 1900، وفي نفس العام ولكن في أكتوبر توفي يعقوب سامي في كانديا ودُفن بها، وعاد البارودي في سبتمبر 1900 ثم أصدر الخديو عباس حلمي الثاني العفو عن عرابي وعلي فهمي الذي عاد في أول سبتمبر 1901 بينما عاد عرابي في أول أكتوبر 1901 وعاش حتى بلغ 70 سنة وتوفي في 21 سبتمبر 1911.

ليسدل الستار على واحدة من أشهر الحكايات في تاريخ مصر.. حكاية اختلطت فيها الدموع والحزن والألم بالكفاح والخيانة... حكاية مدينة دُمرت وضُربت بالمدافع واحترقت وهجرها أهلها ولكنها كافحت وناضلت حتى عادت إلى الحياة من جديد.. إنها حكاية الإسكندرية... المدينة المحفورة على جدار القلب.. قلب الزمان والأحداث.. والأمة المصرية.

أمل الجيار



صورة إعدام سليمان داوود في ميدان المنشية علنًا في يونية 1883 كما جاء على غلاف جريدة The Graphic بتاريخ السبت 30 يونية 1883.

